تأليف
بيدبا الفيلسوف الهندي

كَلِيلَة وَدِمْنَة



رسوم
نبيل قدوح

ترجمه إلى العربية
عبد الله بن المقفع
المتوفى ١٤٢هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت لبنان



منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان
DKi

الطبعة الثالثة ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م


ISBN 978-2-7451-3950-4
ISBN 2-7451-3950-9
90000
9 782745 139504

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية®

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Sc., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: (961 1) 366135 - 364398

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: 12/ 11/ 804810 5 961+ ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
فاكس: 804813 5 961+ رياض الصلح - بيروت 2290 1107

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com baydoun-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com

رسوم نبيل قدوح

إخراج فني تنفيذ و طباعة دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

باب
مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ





فِي الْبَحْثِ التَّالِي إِيضَاحَاتٌ قَدَّمَهَا بَهْنُودُ بْنُ سَحْوَانَ، وَيُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ. ذَكَرَ فِيهَا السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ الْهِنْدِيُّ رَأْسُ الْبَرَاهِمَةِ[1] لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ «كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ»؛ **وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسُنِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ** صِيَانَةً لِغَرَضِهِ فِيهِ مِنَ الْعَوَامِّ، وَضَنّاً[2] بِمَا ضَمَّنَهُ عَنِ الطَّغَامِ[3]؛ وَتَنْزِيهاً لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا، وَمَحَاسِنِهَا

(١) البراهمة: عباد برهمة من آلهة الهنود.

(٢) ضنّاً: بخلاً.

(٣) الطَّغام: الأرذال.

وَعُيُونِهَا[1]؛ إِذْ هِيَ لِلْفَيْلَسُوفِ مَنْدُوحَةٌ[2]، وَلِخَاطِرِهِ مَفْتُوحَةٌ؛ وَلِمُحِبِّيهَا تَثْقِيفٌ[3]، وَلِطَالِبِيهَا تَشْرِيفٌ.

وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْفَذَ[4] كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ بْنُ قُبَاذَ بْنِ فَيْرُوزَ مَلِكُ الْفُرْسِ بَرْزَوَيْهِ، رَأْسَ أَطِبَّاءِ فَارِسَ، إِلَى بِلادِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ؛ وَمَا كَانَ مِنْ تَلَطُّفِ بَرْزَوَيْهِ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْهِنْدِ؛ حَتَّى حَضَرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرّاً مِنْ خِزَانَةِ الْمَلِكِ لَيْلاً، مَعَ مَا وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ.







وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْ بَعْثَةِ بَرْزَوَيْهِ إِلَى مَمْلَكَةِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ نَقْلِ هَذَا الْكِتَابِ؛ وَذَكَرَ فِيهَا مَا يَلْزَمُ مُطَالِعَهُ مِنْ إِتْقَانِ قِرَاءَتِهِ وَالْقِيَامِ بِدِرَاسَتِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى بَاطِنِ كَلامِهِ؛ وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصَلْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْهُ. وَذَكَرَ فِيهَا حُضُورَ بَرْزَوَيْهِ وَقِرَاءَةَ الْكِتَابِ جَهْراً.

وَقَدْ ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بُزُرْجُمَهْرُ بَاباً مُفْرَداً يُسَمَّى بَابَ بَرْزَوَيْهِ

(١) عيونها: خيارها.
(٢) مندوحة: سعة.
(٣) تثقيف: تهذيب.
(٤) أنفذ: استدعى.

الطَّبِيبِ، وَذَكَرَ فِيهِ شَأْنَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآنِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَلَغَ التَّأْدِيبَ، وَأَحَبَّ الْحِكْمَةَ وَاعْتَبَرَ(١) فِي أَقْسَامِهَا. وَجَعَلَهُ قَبْلَ بَابِ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ.

ذو القرنين وملك الهند

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ: **كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ، أَنَّ الإِسْكَنْدَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرُّومِيَّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ، سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ.**



(١) اعتبر: تفحص.



فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مَنْ نَازَعَهُ وَيُوَاقِعُ[1] مَنْ وَاقَعَهُ، وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ[2] مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ، وهُمُ الطَّبَقَةُ الأُولَى، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ[3] وَقَهَرَ مَنْ نَاوَأَهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ؛ فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ[4] وَتَمَزَّقُوا حَزَائِقَ[5]. فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلاَدِ الصِّينِ؛ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ الْهِنْدِ لِيَدْعُوَهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَالدُّخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلاَيَتِهِ[6]. وَكَانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ[7]، يُقَالُ لَهُ فُورٌ. فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ، وَاسْتَعَدَّ لِمُجَاذَبَتِهِ؛ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ[8]، وَجَدَّ فِي التَّأَلُّبِ[9] عَلَيْهِ؛ وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ، مِنَ الْفِيلَةِ

(١) يواقع: يحارب.
(٢) وادعه: صالحه.
(٣) ظهر عليهم: انتصر عليهم.
(٤) طرائق: أي فرقاً.
(٥) حزائق: قطعاً.
(٦) في ملته وولايته: ليعتنق دينه ويصير تحت حكمه.
(٧) مراس: خبرة وحنكة.
(٨) أطرافه: أطراف الرجل أبواه وإخوته وأعمامه وكل قريب محرم.
(٩) التألب: التجمع.

الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ، وَالسِّبَاعِ الْمُضَرَّاةِ[1] بِالْوُثُوبِ، مَعَ الْخُيُولِ الْمُسْرَجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ، وَالْحِرَابِ اللَّوَامِعِ.

فَلَمَّا قَرُبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُورِ الْهِنْدِيِّ وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ الَّتِي كَأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الأَقَالِيمِ، تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ تَقْصِيرٍ يَقَعُ بِهِ إِنْ عَجَّلَ الْمُبَارَزَةَ.

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلاً ذَا حِيَلٍ وَمَكَايِدَ، مَعَ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجْرِبَةٍ، فَرَأَى إِعْمَالَ الْحِيلَةِ وَالتَّمَهُّلَ، وَاحْتَفَرَ خَنْدَقاً عَلَى عَسْكَرِهِ؛ وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لاِسْتِنْبَاطِ الْحِيلَةِ وَالتَّدْبِيرِ لأَمْرِهِ؛ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى الإِيقَاعِ بِهِ. فَاسْتَدْعَى الْمُنَجِّمِينَ، وَأَمَرَهُمْ بِالاخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ لَهُ فِيهِ سَعَادَةٌ لِمُحَارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِ، فَاشْتَغَلُوا بِذَلِكَ.



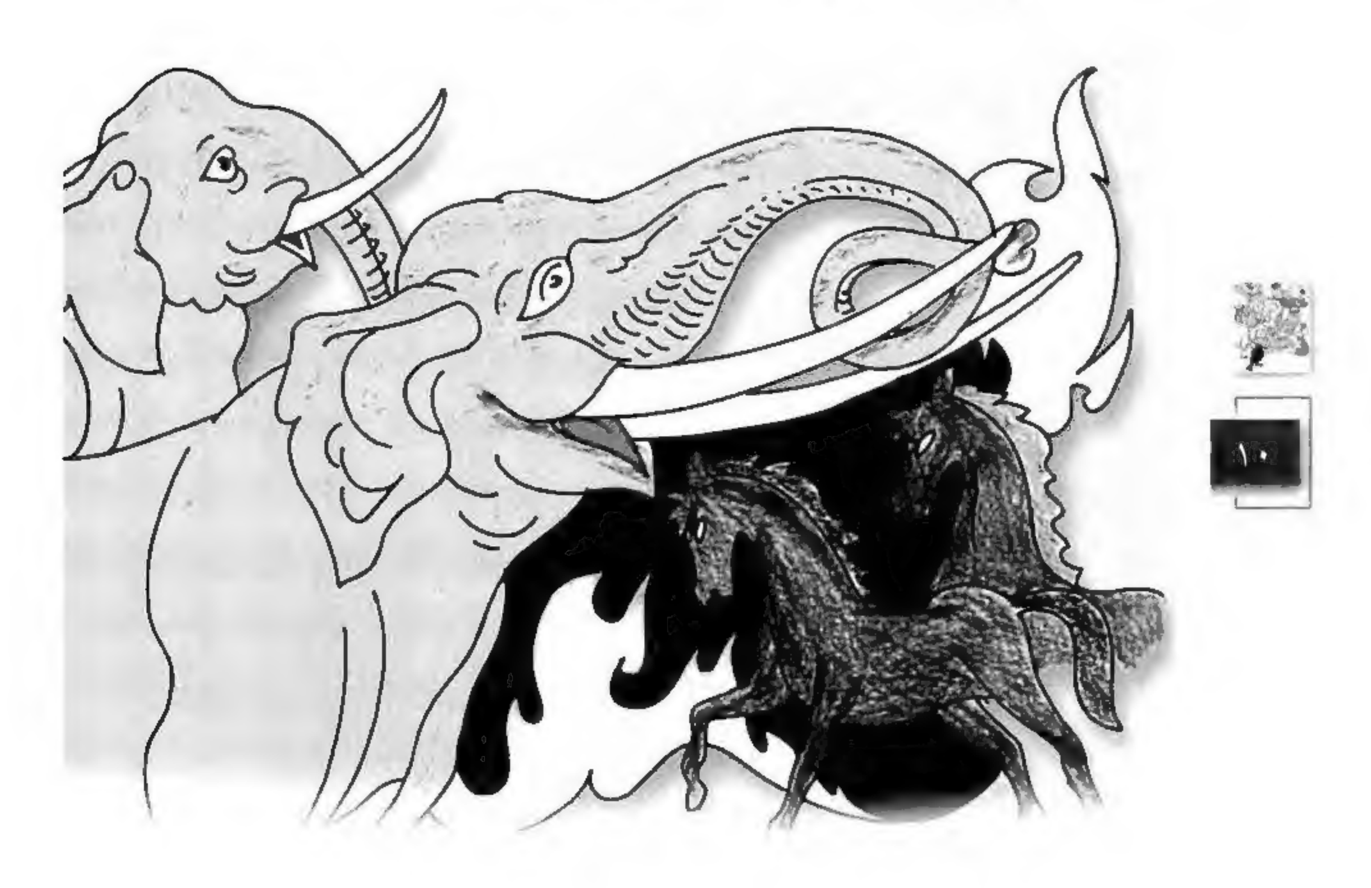
وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لاَ يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ إِلاَّ أَخَذَ الصُّنَّاعَ الْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَّاعِهَا بِالْحِذْقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ. فَأَنْتَجَتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ **فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى[2] الصُّنَّاعِ الَّذِينَ مَعَهُ فِي أَنْ يَصْنَعُوا خَيْلاً مِنْ نُحَاسٍ مُجَوَّفَةً، عَلَيْهَا تَمَاثِيلُ مِنَ الرِّجَالِ، عَلَى بَكَرٍ تَجْرِي، إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتْ سِرَاعاً.** وَأَمَرَ إِذَا فَرَغُوا مِنْهَا أَنْ تُحْشَى أَجْوَافُهَا بِالنِّفْطِ وَالْكِبْرِيتِ؛ وَتُلَبَّسَ وَتُقَدَّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَلْبِ. وَوَقْتَ مَا يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ تُضْرَمُ فِيهَا النِّيرَانُ. فَإِنَّ الْفِيَلَةَ إِذَا لَفَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَى الْفُرْسَانِ وَهِيَ حَامِيَةٌ، وَلَّتْ هَارِبَةً. وَأَوْعَزَ إِلَى الصُّنَّاعِ بِالتَّشْمِيرِ[3] وَالانْكِمَاشِ[4] وَالْفَرَاغِ مِنْهَا. فَجَدُّوا فِي ذَلِكَ وَعَجَّلُوا. وَقَرُبَ أَيْضاً وَقْتُ اخْتِيَارِ الْمُنَجِّمِينَ. فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ

(١) المضراة: المعوّدة.
(٢) يتقدم إلى: أي يأمرهم ويوصيهم.
(٣) التّشمير: الجد.
(٤) الانكماش: الإسراع.

رُسُلَهُ إِلَى فُورٍ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَالإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ. فَأَجَابَ جَوَابَ مُصِرٍّ عَلَى مُخَالَفَتِهِ، مُقِيمٍ عَلَى مُحَارَبَتِهِ.

فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأُهْبَتِهِ؛ وَقَدَّمَ فُورُ الْفِيلَةَ أَمَامَهُ، وَدَفَعَتِ

الرِّجَالُ تِلْكَ الْخَيْلَ وَتَمَاثِيلَ الْفُرْسَانِ؛ فَأَقْبَلَتِ الْفِيَلَةُ نَحْوَهَا، وَلَفَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا. فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا، وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا، وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً، لاَ تَلْوِي[1] عَلَى شَيْءٍ وَلاَ تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلاَّ وَطِئَتْهُ.

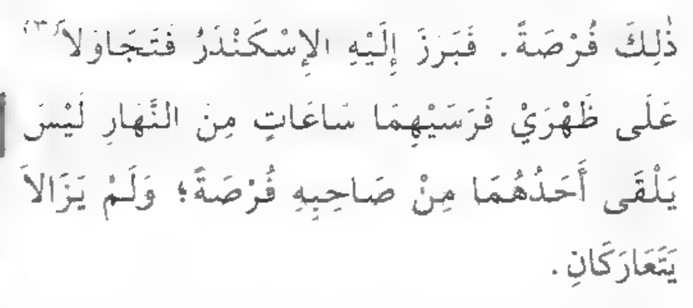


وَتَقَطَّعَ[2] فُورٌ وَجَمْعُهُ، وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الإِسْكَنْدَر؛ وَأَثْخَنُوا[3] فِيهِم الْجِرَاحَ.

(١) لا تلوي على شيء: لا تقف ولا تنتظر.
(٢) تقطّع: تفرّق.
(٣) أثخنوا: أوسعوا وضخموا.

وَصَاحَ الإِسْكَنْدَرُ: يَا مَلِكَ الْهِنْدِ ابْرُزْ إِلَيْنَا، وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ، وَلاَ تَحْمِلْهُمْ إِلى الْفَنَاءِ. فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يَرْمِيَ الْمَلِكُ بِعُدَّتِهِ فِي الْمَهَالِكِ الْمُتْلِفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُجْحِفَةِ[1]، بَلْ يَقِيهِمْ بِمَالِهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ. فَابْرُزْ إِلَيَّ وَدَعِ الْجُنْدَ، فَأَيُّنَا قَهَرَ صَاحِبَهُ فَهُوَ الأَسْعَدُ.

فَلَمَّا سَمِعَ «فُورٌ» مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ الْكَلاَمَ دَعَتْهُ[2] نَفْسُهُ لِمُلاَقَاتِهِ طَمَعاً فِيهِ؛ وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً. فَبَرَزَ إِلَيْهِ الإِسْكَنْدَرُ فَتَجَاوَلاَ[3] عَلَى ظَهْرَيْ فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً؛ وَلَمْ يَزَالاَ يَتَعَارَكَانِ.





فَلَمَّا أَعْيَا[4] الإِسْكَنْدَرَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً وَلاَ حِيلَةً أَوْقَعَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَسْكَرِهِ صَيْحَةً عَظِيمَةً ارْتَجَّتْ لَهَا الأَرْضُ وَالْعَسَاكِرُ؛ فَالْتَفَتَ فُورٌ عِنْدَمَا سَمِعَ الزَّعْقَةَ، وَظَنَّهَا مَكِيدَةً فِي عَسْكَرِهِ؛ فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَالَتْهُ عَنْ سَرْجِهِ، وَتَبِعَهُ بِأُخْرَى، فَوَقَعَ عَلَى الأَرْضِ.

---

(١) المجحفة: الظالمة.

(٢) دعته: ساقته.

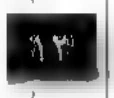
(٣) تجاولا: دار أحدهما حول الآخر.

(٤) أعيا: أعجز.



فَلَمَّا رَأَتِ الْهُنودُ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَمَا صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ؛ حَمَلُوا(١) عَلَى الإِسْكَنْدَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالاً أَحَبُّوا مَعَهُ الْمَوْتَ. فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الإِحْسَانَ، وَمَنَحَهُ اللَّهُ أَكْتَافَهُمْ(٢)؛ فَاسْتَوْلَى عَلَى بِلاَدِهِمْ. وَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنْ ثِقَاتِهِ. وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ حَتَّى اسْتَوْسَقَ(٣) مِمَّا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذٰلِكَ الرَّجُلَ عَلَيْهِمْ. وَمَضَى مُتَوَجِّهاً نَحْوَ مَا قَصَدَ لَهُ.





(١) حملوا: كرّوا.

(٢) منحه الله أكتافهم: سلّطه عليهم.

(٣) استوسق: انتظم.

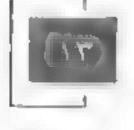


دبشليم الملك وبغيه

فَلَمَّا بَعُدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ، تَغَيَّرَتِ الْهُنودُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَّفَهُ عَلَيْهِمْ؛ وَقَالُوا لَيْسَ يَصْلُحُ لِلسِّيَاسَةِ وَلاَ تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ أَنْ يُمَلِّكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلاً لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلاَ مِنْ أَهْلِ بُيُوتِهِمْ. فَإِنَّهُ لاَ يَزَالُ يَسْتَذِلُّهُمْ وَيَسْتَقِلُّهُمْ[1]، وَاجْتَمَعُوا يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنْ أَوْلاَدِ مُلُوكِهِمْ؛ فَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكاً يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ؛ وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ خَلَّفَهُ عَلَيْهِمُ الإِسْكَنْدَرُ.









فَلَمَّا اسْتَوْسَقَ لَهُ الأَمْرُ، وَاسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ، طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ؛ وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُلُوكِ. وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مُؤَيَّداً مُظَفَّراً مَنْصُوراً، فَهَابَتْهُ الرَّعِيَّةُ.

فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّطْوَةِ، عَبِثَ بِالرَّعِيَّةِ وَاسْتَصْغَرَ أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ السِّيرَةَ فِيهِمْ. وَكَانَ لاَ تَرْتَقِي حَالُهُ إِلاَّ ازْدَادَ عُتُوًّا. فَمَكَثَ عَلَى ذٰلِكَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ.

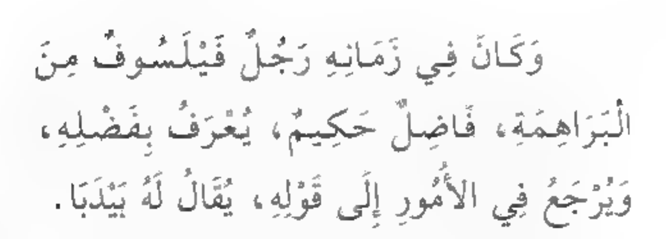
---

(١) يستقلّهم: يحتقرهم.

بـــاب

مقدمة الكتاب

بيدبا الفيلسوف



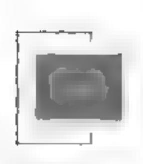
وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فَيْلَسُوفٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ، فَاضِلٌ حَكِيمٌ، يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ، وَيُرْجَعُ فِي الأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ، يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا.



فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ لِلرَّعِيَّةِ، فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَرَدِّهِ إِلَى الْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ، فَجَمَعَ لِذَٰلِكَ تَلاَمِذَتَهُ، وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُشَاوِرَكُمْ فِيهِ؟ اِعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَلُزُومِ الشَّرِّ



وَرَدَاءَةِ السِّيرَةِ وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ؛ وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ[1] أَنْفُسَنَا لِمِثْلِ هٰذِهِ الأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ، إِلاَّ لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَلُزُومِ الْعَدْلِ. وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذٰلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمَ وُقُوعُ الْمَكْرُوهِ بِنَا، وَبُلُوغُ الْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا؛ إِذْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُهَّالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ؛ وَفِي الْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ. وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِيَ الْجَلاَءَ[2] عَنِ الْوَطَنِ. وَلاَ يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيرَةِ وَقُبْحِ الطَّرِيقَةِ. وَلاَ يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ[3] بِغَيْرِ أَلْسِنَتِنَا. وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَنَا مُعَانَدَتُهُ. وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا بِمُخَالَفَتِهِ وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذٰلِكَ بَوَارُنَا[4]. وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُجَاوَرَةَ السَّبُعِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَنَضَارَةِ الْعَيْشِ لَغَدْرٌ بِالنَّفْسِ.



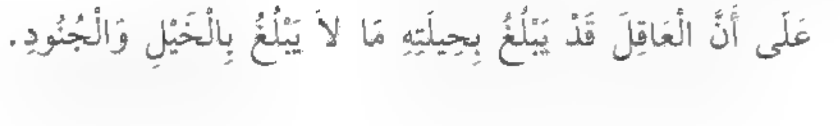
وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لَحَقِيقٌ[5] أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَوَازِلِ الْمَكْرُوهِ وَلَوَاحِقِ الْمَحْذُورِ؛ وَيَدْفَعُ الْمَخُوفَ لاسْتِجْلاَبِ الْمَحْبُوبِ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوفاً كَتَبَ لِتِلْمِيذِهِ يَقُولُ: إِنَّ مُجَاوِرَ رِجَالِ السُّوءِ وَمُصَاحِبَهُمْ كَرَاكِبِ الْبَحْرِ: إِنْ سَلِمَ مِنَ الْغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْمَخَاوِفِ. فَإِذَا هُوَ أَوْرَدَ نَفْسَهُ[6] مَوَارِدَ[7] الْهَلَكَاتِ وَمَصَادِرِ الْمَخُوفَاتِ، عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ الَّتِي لاَ نَفْسَ

(١) نروض: ندرّب. (٢) الجلاء: الانتزاح.
(٣) مجاهدته: مقاومته. (٤) بوارنا: هلاكنا.
(٥) لحقيق: لجدير. (٦) أورد نفسه: أحضرها المورد.
(٧) موارد: جمع مورد وهو الطريق إلى الماء «وهو هنا مجاز».



لَهَا. لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ: وَذٰلِكَ أَنَّنَا لَمْ نَرَهَا تُـورِدُ أَنْـفُـسَـهَـا مَـوْرِداً فِـيـهِ هَلَكَتُهَا. وَأَنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا، مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا الَّتِي رُكِّبَتْ فِيهَا ـ شُحًّا[1] بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً لَهَا ـ إِلَى النُّفُورِ وَالتَّبَاعُدِ عَنْهُ. وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهٰذَا الأَمْرِ: لِأَنَّكُمْ أُسْرَتِي وَمَكَانُ سِرِّي وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي؛ وَبِكُمْ أَعْتَضِدُ[2]، وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ. فَإِنَّ الْوَحِيدَ فِي نَفْسِهِ وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ وَلاَ نَاصِرَ لَهُ.

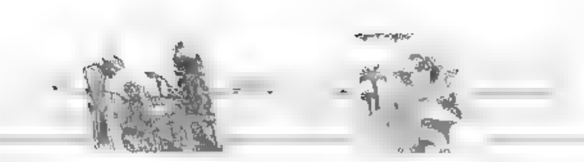

عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لاَ يَبْلُغُ بِالْخَيْلِ وَالْجُنُودِ.



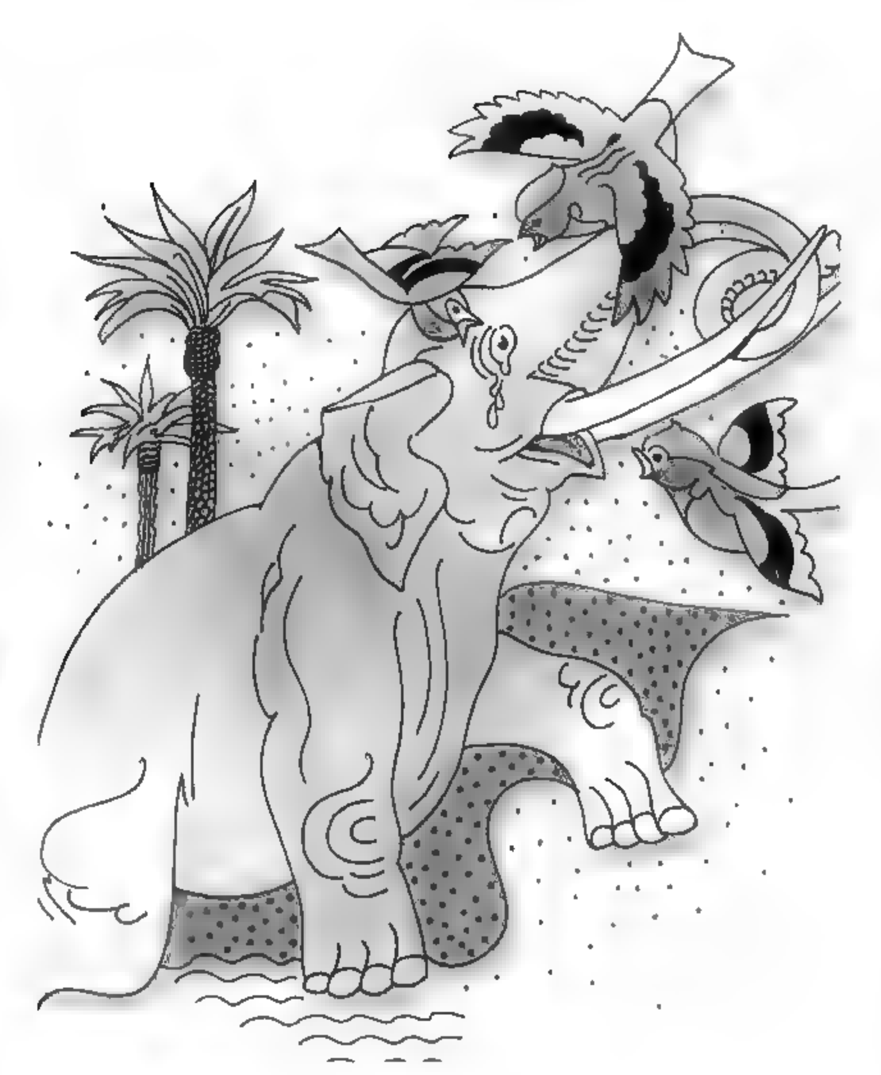


(١) شُحّاً: بخلاً.

(٢) أعتضد: أستعين

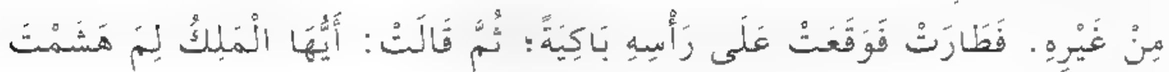


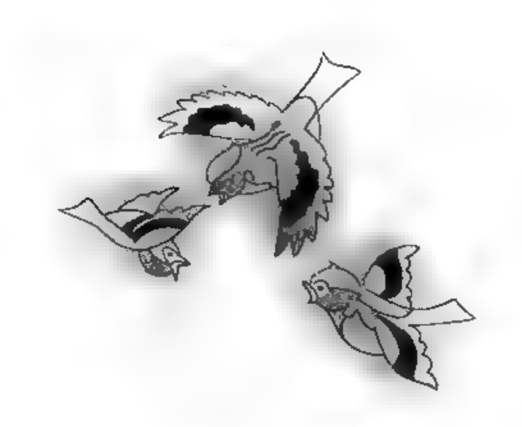
القنبرة والفيل



وَالْمَثَلُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ قُنْبُرَةً[1] اتَّخَذَتْ أُدْحِيَّةً[2] وَبَاضَتْ فِيها عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ؛ وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ. فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عُشَّ الْقُنْبُرَةِ؛ وَهَشَمَ[3] بَيْضَهَا وَقَتَلَ فِرَاخَهَا. فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَهَا، عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ لاَ مِنْ غَيْرِهِ. فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِيَةً؛ ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لِمَ هَشَمْتَ

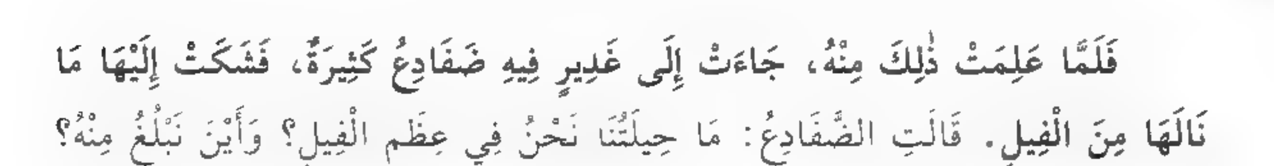
(١) القنبرة: نوع من العصافير.
(٢) أدحية: عشاً.
(٣) هشم: كسر.



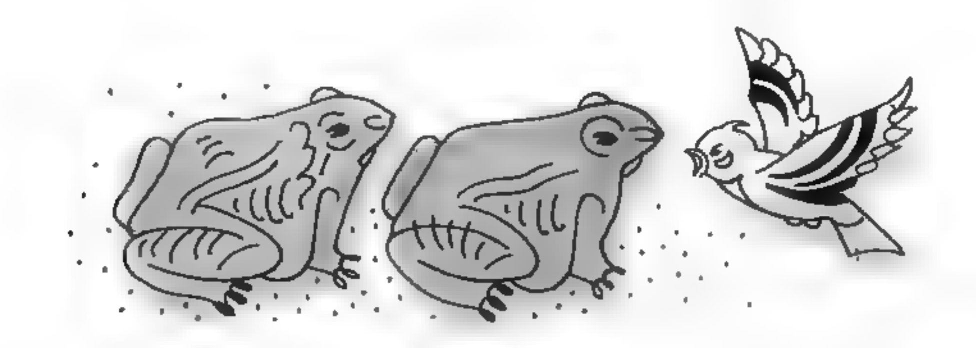


بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاخِي، وَأَنَا فِي جِوَارِكَ؟ أَفَعَلْتَ هٰذَا اسْتِصْغَاراً مِنْكَ لأَمْرِي وَاحْتِقَاراً لِشَأْنِي؟ قَالَ: هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ. فَتَرَكَتْهُ وَانْصَرَفَتْ إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ؛ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ. فَقُلْنَ لَهَا وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُورٌ؟ فَقَالَتْ لِلْعَقَاعِقِ[1] وَالْغِرْبَانِ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إِلَيْهِ فَتَفْقَأْنَ عَيْنَيْهِ؛ فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى. فَأَجَبْنَهَا إِلَى ذٰلِكَ، وَذَهَبْنَ إِلَى الْفِيلِ، وَلَمْ يَزَلْنَ يَنْقُرْنَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبْنَ بِهِمَا. وَبَقِيَ لاَ يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ إِلاَّ مَا يَقُمُّهُ[2] مِنْ مَوْضِعِهِ.





فَلَمَّا عَلِمَتْ ذٰلِكَ مِنْهُ، جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعُ كَثِيرَةٌ، فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ. قَالَتِ الضَّفَادِعُ: مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ؟ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ؟



(١) العقاعق: جمع عقعق وهو طائر على قدر الحمامة.
(٢) يقمّه: يأكله عن وجه الأرض.



قَالَتْ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إِلَى وَهْدَةٍ[1] قَرِيبَةٍ مِنْهُ، فَتَنْقِقْنَ[2] فِيهَا، وَتَضْجِجْنَ. فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُنَّ لَمْ يَشُكَّ فِي الْمَاءِ فَيَهْوِي فِيهَا.

فَأَجَبْنَهَا إِلَى ذٰلِكَ؛ وَٱجْتَمَعْنَ فِي الْهَاوِيَةِ، فَسَمِعَ الْفِيلُ نَقِيقَ الضَّفَادِعِ، وَقَدْ أَجْهَدَهُ الْعَطَشُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي الْوَهْدَةِ، فَٱرْتَطَمَ فِيهَا. وَجَاءَتِ الْقُنْبُرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِهِ؛ وَقَالَتْ: أَيُّهَا الطَّاغِي الْمُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ الْمُحْتَقِرُ لأَمْرِي، كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ؟

بيدبا يستشير تلامذته

فَلْيُشِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ[3] لَهُ مِنَ الرَّأْيِ. قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ الْفَاضِلُ، وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ، أَنْتَ الْمُقَدَّمُ فِينَا، وَالْفَاضِلُ عَلَيْنَا، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ، وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ؟ غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ السِّبَاحَةَ فِي الْمَاءِ مَعَ التِّمْسَاحِ تَغْرِيرٌ[4]؛ وَالذَّنْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ. وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السُّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ لِيُجَرِّبَهُ جَانٍ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ.

وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الأَسَدِ فِي غَابَتِهِ، لَمْ يَأْمَنْ مِنْ وَثْبَتِهِ. وَهٰذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْزِعْهُ النَّوَائِبُ، وَلَمْ تُؤَدِّبْهُ التَّجَارِبُ. وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَلاَ عَلَى أَنْفُسِنَا سَطْوَتَهُ وَإِنَّا نَخَافُ

---

(١) وهدة: ما انخفض من الأرض.

(٢) النقيق: صياح الضفادع.

(٣) يسنح: يعرض ويخطر.

(٤) تغرير: أي تعريض النفس للهلكة.



عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ[1] وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوءٍ إِذَا لَقِيتَهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ.

فَقَالَ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا: لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ، لَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ الْحَازِمِ لاَ يَدَعُ أَنْ يُشَاوِرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ. وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لاَ يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخَاصَّةِ وَلاَ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ. وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ. وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ؛ وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ. غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْياً وَعَزَمْتُ عَزْماً؛ وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَمُجَاوَبَتِي إِيَّاهُ، فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ. وَصَرَفَهُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلاَمَةِ.





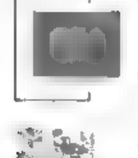
(١) سورته: حدّته.



دخول بيدبا على الملك

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا اخْتَارَ يَوْماً لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلك؛ حَتَّى إِذَا كَانَ ذٰلِكَ الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مُسُوحَهُ[١] وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ؛ وَقَصَدَ بَابَ الْمَلِكِ، وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ[٢] وَأُرْشِدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ؛ وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ لَهُ: إِنِي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَة. فَدَخَلَ الآذِنُ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ؛ وَقَالَ: بِالْبَابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا؛ ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً. فَأَذِنَ لَهُ؛ فَدَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَفَّرَ[٣] وَسَجَدَ لَهُ وَاسْتَوَى[٤] قَائِماً وَسَكَتَ.







(١) مسوحه: جمع مسح وهو ثوب من شعر.
(٢) صاحب إذنه: حاجبه. (٣) كفّر: انحنى تذلّلاً وخضوعاً.
(٤) استوى: نهض.



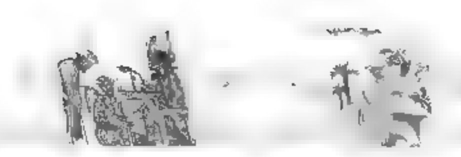


وَفَكَّرَ دَبْشَلِيمُ فِي سُكُوتِهِ؛ وَقَالَ: إِنَّ هٰذَا لَمْ يَقْصِدْنَا إِلاَّ لأَمْرَيْنِ: إِمَّا لالْتِمَاسِ شَيْءٍ مِنَّا يُصْلِحُ بِهِ حَالَهُ، وَإِمَّا لأَمْرٍ لَحِقَهُ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ بِهِ طَاقَةٌ. ثُمَّ قَالَ: إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلاً فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ، لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ. وَقَدْ وَجَدْتُ الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ إِلْفَيْنِ مُتَآلِفَيْنِ لاَ يَفْتَرِقَانِ، مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدِ الآخَرُ؛ كَالْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ نَفْساً بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأَسُّفاً عَلَيْهِ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ الْحُكَماءِ وَيُكْرِمْهُمْ، وَيَعْرِفْ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَيَصُنْهُمْ عَنِ الْمَوَاقِفِ الْوَاهِنَةِ، وَيُنَزِّهْهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذْلَةِ[١] كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ عَقْلَهُ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ، وَظَلَمَ الْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ، وَعُدَّ مِنَ الْجُهَّالِ.

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبَا؛ وَقَالَ لَهُ: نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا بَيْدَبَا سَاكِتاً لاَ تَعْرِضُ حَاجَتَكَ، وَلاَ تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ، فَقُلْتُ: إِنَّ الَّذِي أَسْكَتَهُ هَيْبَةٌ سَاوَرَتْهُ[٢] أَوْ حَيْرَةٌ أَدْرَكَتْهُ؛

(١) الرّذلة: الرديئة.

(٢) ساورته: غالبته.





وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذٰلِكَ مِنْ طُولِ وُقُوفِكَ، وَقُلْتُ: لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا[1] عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلاَّ لأَمْرٍ حَرَّكَهُ لِذٰلِكَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ. فَهَلاَّ نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ! فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَيْمٍ نَالَهُ، كُنْتُ أَوْلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَعَ في تَشْرِيفِهِ، وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ؛ وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضاً مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا[2] أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذٰلِكَ فِيمَا أَحَبَّ؛ وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ، وَمِمَّا لاَ يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ يَنْقَادُوا إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي قَدْرِ عُقُوبَتِهِ؛ عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ[3] عَلَى إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْأَلَةِ الْمُلُوكِ؛ وَإِنْ كَانَ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيه أَنِّي أَصْرِفُ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ، نَظَرْتُ مَا هُوَ؛ فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لاَ يُشِيرُونَ إِلاَّ بِالْخَيْرِ، وَالْجُهَّالَ يُشِيرُونَ بِضِدِّهِ. وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلاَمِ.



فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا ذٰلِكَ مِنَ الْمَلِكِ أُفْرِخَ عَنْهُ رَوْعُهُ[4]؛ وَسُرِّيَ عَنْهُ[5] مَا كَانَ

(١) يطرقنا: يأتينا.

(٢) أغراض الدنيا: حطامها ومتاعها.

(٣) يجترىء: يتشجع.

(٤) أفرخ: ذهب.

(٥) سرّي: زال.

وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ وَكَفَّرَ[١] لَهُ وسَجَدَ؛ **ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: أَوَّلُ مَا أَقُولُ أَنِّي أَسْأَلُ الله تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى الأَبَدِ، وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى الأَمَدِ**[٢]. لأَنَّ





الْمَلِكَ قَدْ مَنَحَنِي فِي مَقَامِي هٰذَا مَحلاً جَعَلَهُ شَرَفاً لِي عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ وَذِكْراً بَاقِياً عَلى الدَّهْرِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ، مُسْتَبْشِراً بِهِ فَرِحاً بِمَا بَدَا لَهُ مِنْهُ، وَقَالَ: قَدْ عَطَفَ الْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ وإِحْسَانِهِ. وَالأَمْرُ الَّذِي دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ، وَحَمَلَنِي[٣] عَلَى الْمُخَاطَرَةِ

(١) كفّر: خضع.
(٢) الأمد: المدى.
(٣) حملني: أغراني.

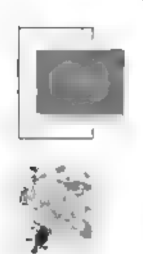


لِكَلاَمِهِ، وَالإِقْدَام عَلَيْهِ، نَصِيحَةٌ ٱخْتَصَصْتُهُ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ. وَسَيَعْلَمُ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذٰلِكَ أَنِّي لَمْ أُقَصِّرْ عَنْ غَايَةٍ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى الْحُكَمَاءِ. فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلاَمِي وَوَعَاهُ عَنِّي، فَهُوَ حَقِيقٌ بِذٰلِكَ وَمَا يَرَاهُ؛ وَإِن هُوَ أَلْقَاهُ. فَقَدْ بَلَّغْتُ مَا يَلْزَمُنِي وَخَرَجْتُ منْ لَوْمٍ يَلْحَقُنِي.

قَالَ الْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ كَيْفَ شِئْتَ. فَإِنَّنِي مُصْغٍ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ، وَسَامِعٌ مِنْكَ. حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ، وأُجازِيَكَ عَلَى ذٰلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ.

خصائص الإنسان

قَالَ بَيْدَبَا: إِنِّي وَجَدْتُ الأُمُورَ الَّتِي ٱخْتُصَّ بِهَا الإِنْسَانُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ، وَهِيَ جُمَّاعُ مَا فِي الْعَالَمِ، وَهِيَ: الْحِكْمَةُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَقْلُ وَالْعَدْلُ. وَالْعِلْمُ وَالأَدَبُ وَالرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْحِكْمَةِ. وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَقْلِ. وَالْحَيَاءُ وَالْكَرَمُ وَالصِّيَانَةُ وَالأَنَفَةُ[1] دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ. وَالصِّدْقُ وَالإِحْسَانُ وَالْمُرَاقَبَةُ[2] وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ.



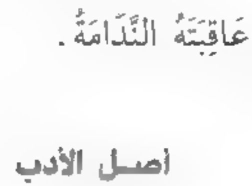
وَهٰذِهِ هِيَ الْمَحَاسِنُ، وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِئُ. فَمَتَى كَمُلَتْ هٰذه فِي وَاحِدٍ لَمْ

(١) الأنفة: الترفع عن الدنايا.

(٢) المراقبة: مخافة الله.

يُخْرِجْهُ النَّقْصُ فِي نِعْمَتِهِ إِلَى سُوءِ الْحَظِّ مِنْ دُنْيَاهُ وَلاَ إِلَى نَقْصٍ فِي عُقْبَاهُ[1]، وَلَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيقُ بِبقَائِه، وَلَمْ يُحْزِنْهُ مَا تَجْرِي بِهِ الْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ، وَلَمْ يَدْهَشْ عِنْدَ مَكْرُوهٍ. فَالْحِكْمَةُ كَنْزٌ لاَ يَفْنَى عَلَى الإِنْفَاقِ، وَذَخِيرَةٌ لاَ يُضْرَبُ لَهَا بِالإِمْلاَقِ[2]. وَحُلَّةٌ لاَ تَخْلَقُ[3] جِدَّتُهَا، وَلَذَّةٌ لاَ تُصْرَمُ مُدَّتُهَا. وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ أَمْسَكْتُ عَنِ ابْتِدَائِهِ بِالْكَلاَمِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلاَّ لِهَيْبَتِهِ وَالإِجْلاَلِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا؛ لاَ سِيَّمَا مَنْ هُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي جَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِلْزَمِ السُّكُوتَ؛ فَإِنَّ فِيهِ السَّلاَمَةَ؛ وَتَجَنَّبِ الْكَلاَمَ الْفَارِغَ؛ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ.





اصل الأدب

وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ضَمَّهُمْ مَجْلِسُ مَلِكٍ،



---

(١) عقباه: آخرته.

(٢) الإملاق: الفقر أي لا يفتقر صاحبها.

(٣) لا تخلق: لا تبلى.



فَقَالَ لَهُمْ: لِيَتَكَلَّمْ كُلٌّ بِكَلاَمٍ يَكُونُ أَصْلاً للأَدَبِ.

فَقَالَ أَحدُهُمْ: أَفْضَلُ خلَّة[1] الْعُلَماءِ السُّكُوتُ. وَقَالَ الثَّانِي: إِنَّ مِنْ أَنْفعِ الأَشْيَاءِ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِه. وَقَالَ الثَّالِثُ: أَنْفَعُ الأَشْيَاءِ لِلإِنْسَانِ أَلاَّ يَتَكَلَّمَ بِمَا لاَ يَعْنِيهِ. وَقَالَ الرَّابِعُ: أَرْوَحُ[2] الأُمُورِ عَلَى الإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ.

حكمة الملك



وَاجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ الأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ؛ وَقَالُوا: يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تُدَوَّنُ عَنْهُ عَلَى غَابِرِ الدَّهْرِ.

فَقَالَ مَلِكُ الصِّينِ: أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ.

وَقَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ: عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعْهُ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ[3].

وَقَالَ مَلِكُ فَارِسَ: أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْنِي، وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا

---

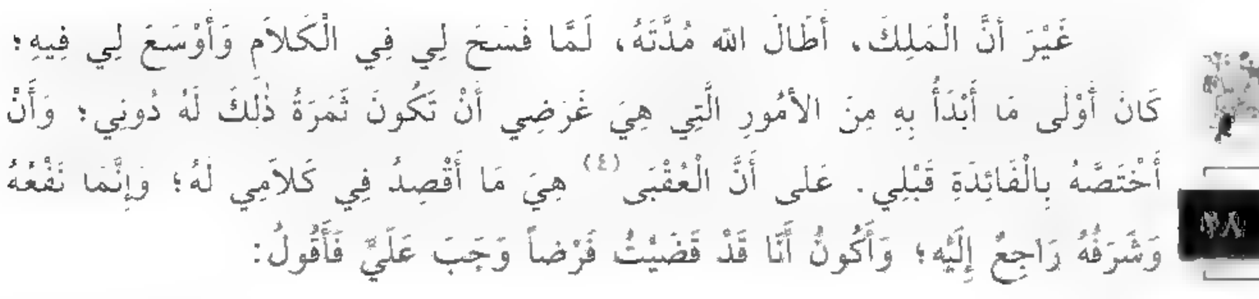
(١) خلّة: خصلة. (٢) أروح: أفعل تفضيل من الراحة.

(٣) أوبقته: أهلكته.

مَلَكْتُهَا.

وَقَال مَلِكُ الرُّومِ: مَا نَدِمْتُ عَلى مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ، وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيراً.

وَالسُّكُوتُ عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ(١) الَّذِي لاَ يُرْجَعُ مِنْهُ إِلى نَفْعٍ. وَأَعْضَلُ(٢) مَا اسْتُضِلَّ(٣) بِهِ الإِنْسَانُ لِسَانُهُ.





غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ، أَطَالَ الله مُدَّتَهُ، لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلاَمِ وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ؛ كَانَ أَوْلى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ تَكُونَ ثَمَرَةُ ذَلِكَ لَهُ دُونِي؛ وَأَنْ أَخْتَصَّهُ بِالْفَائِدَةِ قَبْلِي. عَلى أَنَّ الْعُقْبَى(٤) هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلاَمِي لَهُ؛ وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ؛ وَأَكُونُ أَنَا قَدْ قَضَيْتُ فَرْضاً وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ:

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ، وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ، وَبَنَوْا القِلاَعَ وَالْحُصُونَ، وَمَهَّدُوا(٥) الْبِلاَدَ، وَقَادُوا الْجُيُوشَ؛ وَاسْتَجَاشُوا(٦) الْعُدَّةَ، وَطَالَتْ لَهُمُ الْمُدَّةُ؛ وَاسْتَكْثَرُوا مِنَ السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ(٧)، وَعَاشُوا الدُّهُورَ فِي الْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ؛ فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذَلِكَ مِنَ اكْتِسَابِ جَمِيلِ الذِّكْرِ، وَلاَ قَطَعَهُمْ عَنِ اغْتِنَامِ الشُّكْرِ؛ وَلاَ اسْتِعْمَالِ الإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خَوَّلُوهُ(٨)، وَالإِرْفَاقِ بِمَنْ وَلُوهُ، وَحُسْنِ السِّيرَةِ فِيمَا تَقَلَّدُوهُ؛ مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غِرَّةِ(٩) الْمُلْكِ، وَسَكْرَةِ الاقْتِدَارِ.

---

(١) الهذر: سقط الكلام.
(٢) أعضل: أقبح.
(٣) استضلّ: حُمِلَ على الضلال.
(٤) العقبى: العاقبة.
(٥) مهّدوا: أصلحوا.
(٦) استجاشوا: جمعوا.
(٧) الكراع: الدّواب.
(٨) خوّلوه: ملّكوه.
(٩) غرّة: الاسم من الاغترار، بمعناه.





وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ، الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ، قَدْ وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُم الَّتِي كَانَتْ عُدَّتَهُمْ؛ فأَقَمْتَ فِيمَا خُوِّلْتَ مِنَ الْمُلْكِ وَوَرِثْتَ مِنَ الأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ؛ فَلَمْ تَقُمْ فِي ذٰلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ؛ بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ(١) وَعَلَوْتَ عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَأَسَأْتَ السِّيرَةَ، وَعَظُمَتْ مِنْكَ الْبَلِيَّةُ. وَكَانَ الأَوْلَى وَالأَشْبَهُ(٢) بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلاَفِكَ، وَتَتْبَعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ، وَتَقْفُوَ(٣) مَحَاسِنَ مَا أَبْقَوْهُ لَكَ، وَتُقْلِعَ عَمَّا عَارُهُ لاَزِمٌ لَكَ، وَشَيْنُهُ(٤) وَاقِعٌ بِكَ، تُحْسِنُ النَّظَرَ بِرَعِيَّتِكَ، وَتَسُنُّ لَهُمْ سُنَنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ، وَيُعْقِبُكَ(٥) الْجَمِيلَ فَخْرُهُ؛ وَيَكُونُ ذٰلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلاَمَةِ وَأَدْوَمَ عَلَى الاسْتِقَامَةِ. فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُغْتَرَّ مَنِ اسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ الْبَطَرَ وَالأُمْنِيَّةَ، وَالْحَازِمَ اللَّبِيبَ مَنْ سَاسَ الْمُلْكَ بِالْمُدَارَاةِ وَالرِّفْقِ.

---

(١) عتوت: استكبرت.

(٢) الأشبه: أي الأليق.

(٣) تقفو: تتبع.

(٤) شينه: عيبه.

(٥) يعقبك: أي يورثك.



فانْظُرْ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ، وَلا يَثْقُلَنَّ ذٰلِكَ عَلَيْكَ: فَلَمْ أَتكَلَّمْ بِهٰذا ابْتِغَاءَ عَرَضٍ تُجَازِيني بِهِ، وَلا الْتِمَاسَ مَعْرُوفٍ تَسوقُهُ إِلَيَّ؛ وَلٰكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحاً مُشْفِقاً عَلَيْكَ.

بيدبا في السجن





فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ، وَقَضَى مُنَاصَحَتَهُ، أَوْغَرَ(١) قَلْبَ الْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْجَوَابِ اسْتِصْغَاراً لأَمْرِهِ؛ وَقَالَ: لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلاَمٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحداً مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ، وَلاَ يُقْدِمُ عَلَى مَا أَقْدَمْت عَلَيْه. فَكَيْفَ أَنْت مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ، وَضَعْفِ مُنَّتِكَ(٢) وَعَجْزِ قُوَّتِكَ؟ وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ، وَتَسلُّطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ. وَمَا أَجِدُ شَيْئاً فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكَ. فَذٰلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَن يَبْلُغَ وَيَرُومَ مَا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبَ.

---

(١) أوغر: ملأه غيظاً.

(٢) منتك: إحساسك.



فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ، فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَحْجَمَ عَنْهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ. فَلَمَّا حُبِسَ أَنفذَ المَلِكُ فِي طَلَبِ تَلامِذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي الْبِلاَدِ وَاعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ الْبِحَارِ.



فَمَكَثَ بَيْدَبَا فِي مَحْبِسِهِ أَيَّاماً لاَ يَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ، وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ؛ وَلاَ يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي سَهِدَ[١] الْمَلِكُ سُهْداً شَدِيداً؛ فَطَالَ سُهْدُهُ، وَمَدَّ إِلَى الْفَلَكِ بَصَرَهُ؛ وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ[٢] الفَلَكِ وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ، فَأَغْرَقَ الْفِكْرَ فِيهِ؛ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ الْفَلَكِ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ. فَذَكَرَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْدَبَا، وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ بِهِ؛ فَارْعَوَى[٣] لِذٰلِكَ. وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ بِهٰذَا الْفَيْلَسُوفِ، وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ؛ وَحَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ سُرْعَةُ الْغَضَبِ.

وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: أَرْبَعَةٌ لاَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي الْمُلُوكِ: الْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الأَشْيَاءِ مَقْتاً؛ وَالْبُخْلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ[٤]؛ وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ

---

(١) سهد: طار نومه.

(٢) تفلّك: استدارة.

(٣) ارعوى: رجع عن رأيه.

(٤) ذات يده: ميسرته.

لأحدٍ أنْ يُجاوِرهُ؛ وَالْعُنْفُ فِي الْمُحَاوَرَةِ فَإِنَّ السَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَى إِلَيَّ رَجُلٌ نصحَ لِي، ولَمْ يَكُنْ مُبلِّغاً؛ فَعامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ، وكَافَأْتُهُ بِخِلاَفِ ما يَسْتَوْجِبُ. وَمَا كَانَ هَذَا جَزَاؤُهُ مِنِّي؛ بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلامَهُ، وَأَنْقَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ. ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ.

تولية بيدبا على جميع المملكة



فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ هِمَّتِي، وَعَجَّزْتَ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفاً؟ قَالَ لَهُ بَيْدَبَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ، وَالصَّادِقُ الرَّفِيقُ، إِنَّمَا نَبَّأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلاَحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ، وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ. قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا أَعِدْ عَلَيَّ كَلاَمَكَ كُلَّهُ، وَلاَ تَدَعْ مِنْهُ حَرْفاً إِلاَّ جِئْتَ بِهِ. فَجَعَلَ بَيْدَبَا يَنْثُرُ كَلاَمَهُ، وَالْمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ. وَجعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ شَيْئاً يَنْكُتُ[1] الأَرْضَ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَدِهِ. ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى بَيْدَبَا، وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ. وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا، إِنِّي قَدِ اسْتَعْذَبْتُ كَلاَمَكَ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ فِي قَلْبِي. وَأَنَا نَاظِرٌ فِي الَّذِي أَشَرْتَ بِهِ، وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ.

ثُمَّ أَمرَ بِقُيُودِهِ فَحُلَّتْ. وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ، وَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ. فَقَالَ بَيْدَبَا:

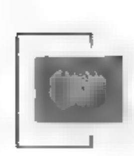
---

(١) ينكت الأرض: يضربها بقضيب أو نحوه حال التفكر.



أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ. قَالَ: صَدَقْتَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الفَاضِلُ. وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي مَمْلَكَتِي. فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَعْفِنِي مِنْ هٰذَا الأَمْرِ: فَإِنِّي غَيْرُ مُضْطَلِعٍ بِتَقْوِيمِهِ إِلاَّ بِكَ. فَأَعْفَاهُ مِنْ ذٰلِكَ.

فَلَمَّا انْصَرَفَ، عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ، فَبَعَثَ فَرَدَّهُ. وَقَالَ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ مِمَّا عَرَضْتُهُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لاَ يَقُومُ إِلاَّ بِكَ، وَلاَ يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ، وَلاَ يَضْطَلِعُ بِهِ سِوَاكَ، فَلاَ تُخَالِفْنِي فِيهِ. فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذٰلِكَ.



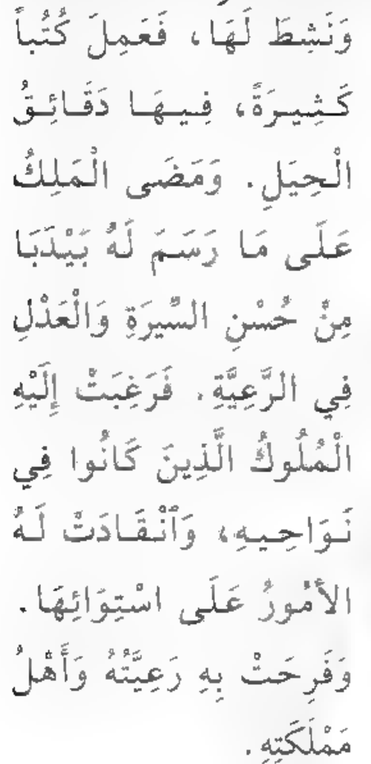




وَكَانَتْ عَادَةُ مُلُوكِ ذٰلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوْزَرُوا وَزِيراً أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجاً، وَيُرْكَبَ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ، وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِبَيْدَبَا ذٰلِكَ. فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ، وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ فَجَلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ: يَأْخُذُ لِلدَّنِيِّ مِنَ الشَّرِيفِ، وَيُسَاوِي

بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ؛ وَرَدَّ الْمَظَالِمَ، وَوَضَعَ سُنَنَ الْعَدْلِ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ. وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِتَلامِذَتِهِ فَجَاءُوهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَرِحِينَ بِمَا جَدَّدَ اللهُ لَهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ الْمَلِكِ فِيهِ؛ وَشَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيرَةِ، وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيداً يُعَيِّدُونَ فِيهِ فَهْوَ إِلَى الْيَوْمِ عِيدٌ عِنْدَهُمْ فِي بِلاَدِ الْهِنْدِ.

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لَمَّا أَخْلَى فِكْرَهُ مِنَ اشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ، تَفَرَّغَ لِوَضْعِ كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا، فَعَمِلَ كُتُباً كَثِيرَةً، فِيهَا دَقَائِقُ الْحِيَلِ. وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ السِّيرَةِ وَالْعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ. فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ الَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ، وَانْقَادَتْ لَهُ الأُمُورُ عَلَى اسْتِوَائِهَا. وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ.



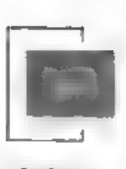


ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلاَمِذَتَهُ فَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ وَعْداً جَمِيلاً. وَقَالَ لَهُمْ:





لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نُفُوسِكُمْ وَقْتَ دُخُولِي عَلى الْمَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ: إِنَّ بَيْدَبَا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ، وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ: إِذْ عَزَمَ عَلَى الدُّخُولِ عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ الطَّاغِي. فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي وَصِحَّةَ فِكْرِي. وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلاً بِهِ، لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الْحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ: إِنَّ الْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ كَسَكْرَةِ الشَّرَابِ: فَالْمُلُوكُ لا تُفِيقُ مِنَ السَّكْرَةِ إِلاَّ بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ وَأَدَبِ الْحُكَمَاءِ. وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُلُوكِ أَنْ يَتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ. وَالْوَاجِبُ عَلى الْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ الْمُلُوكِ بِأَلْسِنَتِهَا، وَتَأْدِيبُهَا بِحِكْمَتِهَا، وَإِظْهَارُ الْحُجَّةِ الْبَيِّنَةِ اللاَّزِمَةِ لَهُمْ: لِيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الاعْوِجَاجِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ.




فَوَجَدْتُ مَا قَالَت الْعُلَمَاءُ فَرْضاً وَاجِباً عَلى الْحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِمْ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ[1] سَكْرَتِهِمْ؛ كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصِّحَّةِ. فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ وَمَا يَبْقَى عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ الطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ أن يُكلِّمه خَوْفاً عَلَى نَفْسِهِ، قَالُوا: كَانَ الْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جِوَارِهِ أَوْلَى بِهِ؛ وَالانْزِعَاجُ[2] عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ؛ فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي؛ فَأَكُونَ قَدْ أَتَيْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْراً، فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّغْرِيرِ أَوِ الظَّفَرِ بِمَا أُرِيدُهُ. وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ الأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنَالُهُ فِي نَفْسِهِ، وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ[3] فِي مَالِهِ أَوْ

(١) سنة: نوم.

(٢) الانزعاج: التحول والانتقال.

(٣) وضيعة: خسارة.

وَكْسٍ[١] فِي دِينِهِ. وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ. وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ[٢] لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَاباً فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ. فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئاً فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ؛ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ مِقْدَارَ عَقْلِهِ. وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهْمُهُ.





قَالُوا: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ، وَاللَّبِيبُ الْعَاقِلُ، وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَنَحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَالأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ، مَا خَطَرَ هٰذَا بِقُلُوبِنَا سَاعَةً قَطُّ. وَأَنْتَ رَئِيسُنَا وَفَاضِلُنَا، وَبِكَ شَرَفُنَا، وَعَلَى يَدِكَ انْتِعَاشُنَا. وَلَكِنْ سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ.

وَمَكَثَ الْمَلِكُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ حُسْنِ السِّيرَةِ زَمَاناً يَتَوَلَّى ذٰلِكَ لَهُ بَيْدَبَا وَيَقُومُ بِهِ.

---

(١) وكس: نقصان.

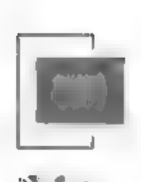
(٢) بسط: أي أطلق.



ندب الملك بيدبا لوضع الكتاب

ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا ٱسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ، وَسَقَطَ عَنْهُ النَّظَرُ فِي أُمُورِ الأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذٰلِكَ بَيْدَبَا، صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلى النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَلاَسِفَةُ الْهِنْدِ لآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضاً كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَتُذْكَرُ فِيهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذُكِرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ.







فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذٰلِكَ، عَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَقُومُ[1] ذٰلِك إِلاَّ بِبَيْدَبَا؛ فَدَعَاهُ وَخلاَ بِهِ؛ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا، إِنَّكَ حَكِيمُ الْهِنْدِ وَفَيْلَسُوفُهَا. وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ في خَزَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي؛ فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ أَحَداً إِلاَّ وَقَدْ وَضَعَ كِتَاباً يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ، وَيُنْبِىءُ عَنْ أَدَبِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ؛ فَمِنْهُ مَا وَضَعَتْهُ الْمُلُوكُ لأَنْفُسِهَا، وَذٰلكَ لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيهَا؛ وَمِنْهُ مَا وَضَعَتْهُ حُكَمَاؤُهَا. وَأَخَافُ أَنْ يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أُولٰئِكَ مِمَّا لاَ حِيلَةَ لِي فِيهِ، وَلاَ يُوجَدُ فِي خَزَائِنِي كِتَابٌ أُذْكَرُ بِهِ بعْدي وَيُنْسَبُ إِلَيَّ كَمَا ذُكِر مَنْ كَانَ قَبْلي بِكُتُبِهِمْ. وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَاباً بلِيغاً تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَك يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ العَامَّةِ وَتَأْدِيبَهَا، وَبَاطِنُهُ أَخْلاَقَ

---

(١) لا يقوم: لا يكون.

باب

مقدمة الكتاب

الْمُلُوكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ؛ فَيَسْقُطُ بِذٰلِكَ عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيرٌ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمُلْكِ. وَأُرِيدُ أَنْ يَبْقَى لِي هٰذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْراً عَلَى غَابِرِ الدُّهُورِ.



فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلاَمَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِداً، وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ، عَلاَ نَجْمُكَ، وَغَابَ نَحْسُكَ، وَدَامَتْ أَيَّامُكَ؛ إِنَّ الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جَوْدَةِ الْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ الْعَقْلِ حَرَّكَهُ لِعَالِي الأُمُورِ؛ وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهِمَّتُهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ مَنْزِلَةً، وَأَبْعَدِهَا غَايَةً؛ وَأَدَامَ اللهُ سَعَادَةَ الْمَلِك وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ ذٰلِكَ، وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ. فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذٰلِكَ: فَإِنِّي صَائِرٌ[1] إِلَى غَرَضِهِ، مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي.



قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفاً بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَطَاعَةِ الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ. وَقَدِ اخْتَبَرْتُ مِنْك ذٰلِكَ، وَاخْتَرْتُ أَنْ تَضع هٰذَا الْكِتَابَ، وَتُعْمِلَ فِيهِ فِكْرَكَ، وَتُجْهِدَ فِيهِ نَفْسَكَ، بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ. وَلْيَكُنْ مُشْتَمِلاً عَلَى الجِدِّ وَالْهَزْلِ وَاللَّهْوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلْسَفَةِ. فَكَفَّرَ[2] لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ، وَقَالَ: قَدْ أَجَبْتُ الْمَلِكَ أَدَامَ اللهُ أَيَّامَهُ

---

(١) صائر: منته وواصل.

(٢) كفر: خضع.

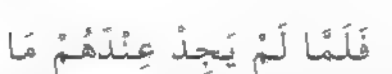


إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ، وَجَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلاً[1]. قَالَ: وَكَمْ هُوَ الأَجَلُ؟ قَالَ: سَنَةٌ. قَالَ: قَدْ أَجَّلْتُكَ؛ وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ[2] تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ. فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّراً فِي الأَخْذِ فِيهِ، وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَبْتَدِئُ بِهَا فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ.

كيفية وضع الكتاب وترتيبه



ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي[3] لِأَمْرٍ فِيهِ فَخْرِي وَفَخْرُكُمْ وَفَخْرُ بِلادِكُمْ، وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهٰذَا الأَمْرِ. ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ، وَالْغَرَضِ الَّذِي قَصَدَ فِيهِ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ.



فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ، فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَتِمُّ بِاسْتِفْرَاغِ الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ؛ وَقَالَ: أَرَى السَّفِينَةَ لاَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ إِلاَّ بِالْمَلاَّحِينَ، لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا؛ وَإِنَّمَا تَسْلُكُ اللُّجَّةَ[4] بِمُدَبِّرِهَا الَّذِي تَفَرَّدَ بِإِمْرَتِهَا؛ وَمَتَى شُحِنَتْ بِالرُّكَّابِ الْكَثِيرِينَ

---

(١) أجلاً: موعداً.

(٢) سنيّة: كبيرة القَدْر، ورفيعة المستوى.

(٣) ندبني: اختارني مندوباً.

(٤) اللجّة: معظم الماء.

وَكَثُرَ مَلاَّحُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْغَرَقِ.

وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فيمَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلى الانْفِرادِ بِنَفْسِهِ، مَعَ رَجُلٍ مِنْ تَلاَمِيذِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ؛ فَخَلاَ بِهِ مُنْفَرِداً مَعَهُ، بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَق الَّذي كَانَتْ تَكْتُبُ فِيهِ الْهِنْدُ شَيْئاً، وَمِنَ الْقُوتِ مَا يَقُومُ بِهِ وَبِتِلْمِيذِهِ تِلْكَ الْمُدَّةَ. وَجَلسَا فِي مَقْصُورَةٍ، وَرَدَّا عَلَيْهِمَا الْبابَ ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ؛ وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلي وَتِلْمِيذُهُ يَكْتُبُ، وَيُرَجِّعُ هُوَ فِيهِ؛ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلى غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْكَام. وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشْرَ بَاباً؛ كُلُّ بَاب مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ. وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا؛ لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ مِنَ الْهِدَايَةِ. وَضَمَّنَ تِلْكَ الأَبْوَابَ كِتَاباً وَاحِداً؛ وَسَمَّاهُ كِتَابَ «كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ».





ثُمَّ جَعَلَ كَلاَمَهُ عَلَى أَلْسُنِ الْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ، لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لَهْواً لِلْخَواصِّ وَالْعَوَام، وَباطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ. وَضَمَّنَهُ أَيْضاً مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ، وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَآخِرَتِهِ وأُولاَهُ[1]؛ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ

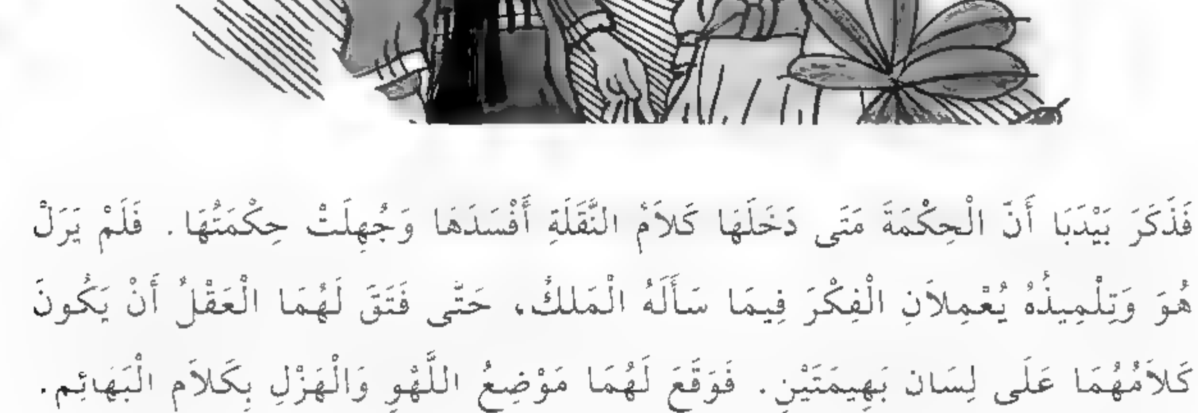
(١) أولاه: أي حياته.



لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْراً لَهُ. ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِناً وَظاهِراً كَرَسْمِ سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الْحِكْمَةِ، فَصَارَ الْحَيَوَانُ لَهْواً، وَمَا يَنْطِقُ بِهِ حِكْمَةً وَأَدَباً.

فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيْدَبَا بِذٰلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ وَصْفَ الصَّدِيقِ، وَكَيْفَ يَكُونُ الصَّدِيقَانِ، وَكَيْفَ تُقْطَعُ الْمَوَدَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهُمَا بحيلَةِ ذِي النَّمِيمَةِ. وَأَمَرَ تِلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ مَا كَانَ الْمَلِكُ شَرَطَهُ[1] فِي أَنْ جَعَلَهُ لَهْواً وَحِكْمَةً.





فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلامُ النَّقَلَةِ أَفْسَدَهَا وَجُهِلَتْ حِكْمَتُهَا. فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ يُعْمِلاَنِ الْفِكْرَ فِيمَا سَأَلَهُ الْمَلِكُ، حَتّى فَتَقَ لَهُمَا الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلامُهُمَا عَلَى لِسَانِ بَهِيمَتَيْنِ. فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَالْهَزْلِ بِكَلامِ الْبَهائِمِ. وَكَانَت الْحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ. فَأَصْغَتِ الْحُكَمَاءُ إِلَى حِكَمِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ وَاللَّهْوَ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي الَّذي وُضِعَ لَهُمْ.

---

(١) شرطه: اشترطه.



وَمَالَتْ إِلَيْهِ الْجُهَّالُ عَجَباً مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ، وَلَمْ يَشُكُّوا فِي ذٰلِكَ؛ وَاتَّخَذُوهُ لَهْواً، وَتَرَكُوا مَعْنَى الْكَلامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الْغَرَضَ الَّذِي وُضِعَ لَهُ؛ لِأَنَّ الْفَيْلَسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي الْبَابِ الأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ الإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى التَّحَفُّظِ مِنْ أَهْلِ السِّعَايَةِ[1] وَالتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُتَحَابَّيْنِ، لِيَجُرَّ بِذٰلِكَ نَفْعاً إِلَى نَفْسِهِ. فَلَمْ يَزَلْ بَيْدَبَا وَتِلْمِيذُهُ فِي الْمَقْصُورَةِ، حَتَّى اسْتَتَمَّا عَمَلَ الْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ.



عرض الكتاب على الملك واهل المملكه

فَلَمَّا تَمَّ الْحَوْلُ[2]، أَنْفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْوَعْدُ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَيْدَبَا: إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ الْمَلِكَ. فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِه، بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ

(١) السّعاية: النّميمة.

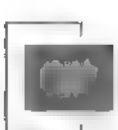
(٢) الحول: المدة المحددة وهي سنة كاملة.



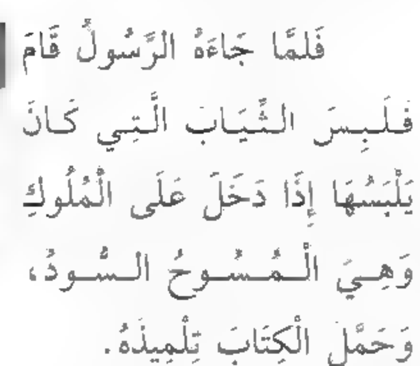
الْمَمْلَكَةِ لِتَكُونَ قِرَاءَتِي هٰذَا الْكِتَابَ بِحَضْرَتِهِمْ.

فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِك سُرَّ بِذَلِك، وَوَعَدَهُ يَوْماً يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ. ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلاَدِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ الْكِتَابِ.

فَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ الْيَوْمُ، أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ؛ وَكَرَاسِيٌّ لِأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ. وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ.







فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ الثِّيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ وَهِيَ الْمُسُوحُ السُّودُ، وَحَمَّلَ الْكِتَابَ تِلْمِيذَهُ.



فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَثَبَ الْخَلاَئِقُ بِأَجْمَعِهِمْ، وَقَامَ الْملِكُ شَاكِراً. فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ الْملِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ، وَلَمْ يَرْفَعْ رأْسَهُ.



فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَإِنَّ هَذَا يَوْمُ هَنَاءَةٍ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ. فَحِينَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، سَأَلَهُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ. فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ، وَفِي كُلِّ بَابٍ. فَازْدَادَ الْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّباً وَسُرُوراً. فَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ[1] الَّذِي فِي نَفْسِي؛ وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ؛ فَاطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ. فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الْجَدِّ[2]. وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَمَّا الْمَالُ فَلاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ، وَأَمَّا الْكُسْوَةُ فلا أَخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هَذَا شَيْئاً؛ وَلَسْتُ أُخْلِي[3] الْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ.



قَالَ الْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا مَا حَاجَتُكَ؟ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا[4] مَقْضِيَّةٌ. قَالَ: يَأْمُرُ الْمَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كُتُبَهُمْ، وَيَأْمُرُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلاَدِ الْهِنْدِ، فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ؛ فَالْمَلِكُ يَأْمُرُ أَلاَّ يَخْرَجَ مِنْ بَيْتِ



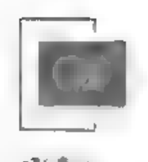
---

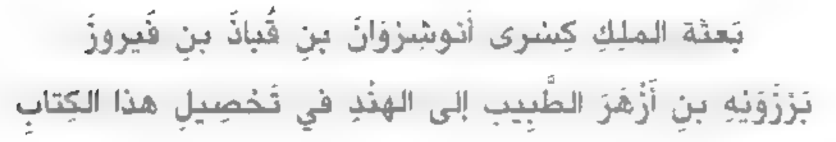
(١) عدوت: جاوزت.
(٢) الجدّ: بمعنى السعادة والحظ.
(٣) أخلي: أي أعفيه.
(٤) قبلنا: عندنا.



الْحِكْمَةِ. ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلامِيذِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَائِزَ. ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ وَكَانَ مُسْتَأْثِراً[١] بِالْكُتُبِ وَالْعِلْمِ وَالأَدَبِ وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الأَوَائِلِ وَقَعَ لَهُ خَبَرُ الْكِتَابِ؛ فَلَمْ يَقَرَّ قَرَارُهُ حَتَّى بَعَثَ بَرْزَوَيْهِ الطَّبِيبَ وَتَلَطَّفَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلاَدِ الْهِنْدِ فَأَقَرَّهُ[٢] فِي خَزَائِنِ فَارِسَ.

فَلَمَّا قَبَضَ بَرْزَوَيْهِ مَا اخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ الثِّيَابِ قَالَ: أَكْرَمَ اللَّهُ الْمَلِكَ وَمَدَّ فِي عُمُرِهِ أَبَداً. لاَ بُدَّ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ؛ وَإِنْ كَانَ قَدِ اسْتَوْجَبَهُ تَعَباً وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا رِضَا الْمَلِكِ.





باب
بَعثة الملكِ كِسْرى أنوشِرْوانَ بنِ قُبادَ بنِ فَيروزَ
بَرْزَوَيهِ بنِ أَزْهَرَ الطَّبيبِ إلى الهِنْدِ في تَحْصيلِ هذا الكِتابِ



الحَمدُ للّهِ الذي بيدِهِ مفاتيحُ غَيبِهِ وإليهِ مُنتَهى كلِّ عِلمٍ وغايَةٍ، الدَّالِّ على الخيرِ المُسبِّبِ كُلَّ فَضيلَةٍ. ألهَمَ عِبادَهُ كلَّ ما يُقرِّبُهُمْ إليهِ من نوافِلِ[٣] الخيراتِ، ونَوامي البَرَكاتِ، لِما أمَرَ اللّهُ تَعالى عِبادَهُ مِنَ العِلمِ والحِكمَةِ إذ أمَرَهُمْ بالشُّكرِ لَهُ لِيَستَوجِبوا بذلكَ المَزيدَ منه ويُسارِعوا فيما يُرضيهِ عنهم، تبارَكَ اللّهُ رَبُّ العالَمين.

كسرى انوشروان

وقد جَعَلَ اللّهُ لكلِّ مُسَبَّبٍ عِلَّةً ولكلِّ عِلَّةٍ مَجرًى يُجريها اللّهُ تَعالى به على يَدِ عَبدٍ من عَبيدِهِ ويُقَدِّرُها له على أيامِ دَولَتِهِ وأيامِ عُمرِهِ. وذلكَ أنَّ ما كانَ من

---

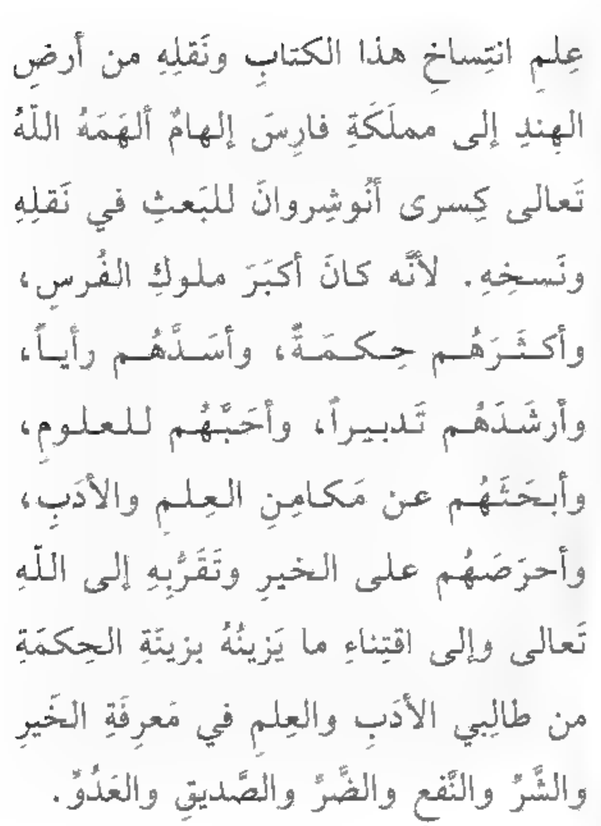
(١) مستأثراً: منفرداً. (٢) أقرّه: أثبته.

(٣) نوافل: جمع نافلة وهي ما يستحسن ويُستحبّ عمله ولا يجب.

باب

مقدمة الكتاب



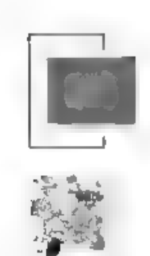


عِلم انتِساخِ هذا الكتابِ ونَقلِهِ من أرضِ الهِندِ إلى مملَكَةِ فارِسَ إلهامٌ ألهَمَهُ اللّهُ تَعالى كِسرى أنُوشِروانَ للبَعثِ في نَقلِهِ ونَسخِهِ. لأنّه كانَ أكبَرَ ملوكِ الفُرسِ، وأكثَرَهُم حِكمَةً، وأسَدَّهُم رأياً، وأرشَدَهُم تَدبيراً، وأحَبَّهُم للعلومِ، وأبحَثَهُم عن مَكامِنِ العِلمِ والأدَبِ، وأحرَصَهُم على الخيرِ وتَقَرُّبِهِ إلى اللّهِ تَعالى وإلى اقتِناءِ ما يَزينُهُ بزينَةِ الحِكمَةِ من طالبِي الأدَبِ والعِلمِ في مَعرِفَةِ الخَيرِ والشَّرِّ والنَّفعِ والضَّرِّ والصَّديقِ والعَدُوِّ.

ولم يكنْ يعرفُ ذلكَ إلاَّ بنُورِ اللّهِ تَعالى في سِياسَتِهِ عَبيدَهُ وبلادَهُ لإقامَةِ رَعِيَّتِهِ وأُمورِهِ. وهو المَلِكُ المُعَظَّمُ في قومِهِ كِسرى المُتَزَيِّنُ بزينَةِ البَهاءِ الفاضِلُ الماجِدُ الرَّشيدُ السّعيدُ الذي لم يعدِلهُ أحدٌ مِمَّن مَضى قبلَهُ من ملوكِ الفُرسِ، النّاقِدُ البَصيرُ الكامِلُ الأدَبِ، المُعينَةُ له نفسُهُ على التِماسِ فُروعِ الحِكَمِ، المُستَعينُ بنورِ العَقلِ وجُودَةِ الفِكرِ، الذي اختصّهُ اللّهُ تَعالى بهذه النِّعمَةِ السّابِغَةِ حتى أذعَنَتْ له الرعيَّةُ وطاعَتْ لسلطانِهِ البَرِيَّةُ، وصَفَتْ لهُ الدُّنيا ودانتْ له البلادُ، وانقادَتْ له الملوكُ ورَكَنَتْ إلى طاعَتِهِ وخدمتِهِ ومُناصَحَتِهِ. وذلكَ مِنحَةٌ مِنَ الخالقِ جَلَّ وعَلا قَسَمَها له في دولَتِهِ وجَمَّلَهُ بها في أقطارِ مملكتِهِ.



فبينما هو ذاتَ يومٍ في عُنفُوانِ دولتِهِ وشَمخِها وعِزَّةِ مملكَتِهِ وقَعَسِها[1] **إذ أخبَرَهُ بعضُ جُلسائِهِ أنَّ عندَ بعضِ مُلوكِ الهِندِ في خزائِنِهِ كتاباً في تآليفِ الحُكماءِ وتَصانيفِ العلماءِ واستنباطِ الفُضلاءِ.** وقد فُصِّلَتْ لهُ غَرائِبُ من





(١) قعسها: منعتها وعزتها.

باب
مقدمة الكتاب

عجائبِهِ الموضوعَةِ على أفواهِ البَهائِمِ والطَّيرِ والوحشِ والهوامِّ وخَشاشِ[1] الأرضِ. ممّا يَحتاجُ إليهِ المُلوكُ لسياسَةِ رعِيَّتِها ونظامِ أمورِ ممالِكِها وتدبيرِها. فدَعَتْهُ الحاجَةُ إلى اقتِناءِ هذا الكِتابِ لكمالِ مُلكِهِ وأنَّهُ بِعَدَمِهِ ناقِصٌ وبتحصيلِهِ كامِلٌ وباتِّباعِهِ يَحصُلُ على رِضى الخالِقِ جَلَّ وَعلا وانقِيادِ المخلوقِ له وزجرِهِ عنِ المعاصي التي يَتَّبِعُها شِرارُ[2] الخَلْقِ ويَتَجَنَّبُها أصفاهُمْ جَوهَراً وأجودُهُمْ طَبعاً وأنبغُهُمْ حَسَباً.

إيفاد برزويه إلى الهند لنسخ الكتاب



وإنَّه لَمَّا عَزَمَ على ما أرادَ من أمرِهِ وهَمَّ باقتِنائِهِ ونَسخِهِ قالَ في نفسِهِ: مَنْ لهذا الأمرِ العظيمِ والخَطْبِ الجَسيمِ والأدَبِ النَّفيسِ الذي به تَتَكَمَّلُ الفضائِلُ، ولِمَ تَتَزَيَّنُ به ملوكُ الهِندِ دونَ ملوكِ فارِسَ؟ وقد هَمَمْتُ أن لا أدَعَ مَشقَّةً ولا صعوبَةً ولا مُخاطرَةً حتى أبذُلَها في طَلَبِ هذا الكتابِ حتى أصِلَ إلى نَسخِهِ واقتِنائِهِ على ترتيبِ منافِعِهِ وعجائبِهِ من أقوالِ الحُكماءِ ووَضْعِ العلماءِ. ليَقَعَ[3] لنا استِنْباطُهُ دونَ سائِرِ الملوكِ من أحاديثَ مُعجِبَةٍ وفَضائِلَ مُحكَمَةٍ يكادُ العَقلُ يَمُدُّ يداً إلى اجتِناءِ ثَمرِها ويفتَحُ فماً للذيذ مذاقِها ويَتَعَلَّقُ بوثيقِ[4] حَبلِها. إذ يَروضُ[5] النَّفسَ بالعُدولِ عن مَساوِئِها ويَعدِلُ بها عن تَتَبُّعِ أهوائِها.

---

(١) حشاش: الحشرات مطلقاً
(٢) شرار: أشرار.
(٣) يقع: يثبت.
(٤) وثيق: محكم متين.
(٥) يروض: ثقف وهذب.



فلمَّا فَحَصَ كِسرى رأيَهُ السَّديدَ وعَزمَهُ الرَّشيدَ فيما صَمَّمَ عليه وهَمَّ به قالَ: الأمْرُ في ذلك جَليلٌ والخَطْبُ عَظيمٌ والشُّقَّةُ[1] بَعيدَةٌ والمسافَةُ طويلَةٌ شاقَّةٌ. ولا بُدَّ من أن نَنْتَخِلَ[2] من أهلِ الكتابَةِ أصلَبَهُمْ عوداً[3] وأجودَهُمْ عَزماً وحَزماً. وهذا يوجَدُ إمَّا في كُتَّابِ الدِّيوانِ وإمَّا في الطِّبِّ الخاصِّ. لأنَّ الخاصَّ والعامَّ تَجْمَعُ مسالِكُهُما جميعَ الفضائِلِ والأدَبِ وفُنونَ العِلمِ ومَحضَ[4] الحِكَمِ في أناةٍ وتُؤَدَةٍ[5] وبُلوغَ الأغراضِ لملوكِها بحُسنِ الحِيَلِ وجُودَةِ الذِّهنِ وكمالِ المُروءةِ وكِتمانِ السِّرِّ وإظهارِ أضدادِها.

فلمَّا تَمَّ عزمُهُ وانتظَمَ سألَ وُزَراءَهُ أنْ يَتَقَدَّموا ويَجْتَهِدوا في تَطَلُّبِ رجلٍ كامِلٍ عالِمٍ أديبٍ، قد جَمَعَ الفضائِلَ بحذافيرِها[6] ونُسِبَ إلى الكمالِ من أهلِ الصِّنْفَينِ المذكورَينِ، إماماً كاتِباً نِحْريراً[7] أو طبيباً فَيلسوفاً ماهِراً قد أدَّبَتْهُ التَّجارِبُ، عارفاً بلسانِ الفارسِيَّةِ خبيراً باللُّغَةِ الهِندِيَّةِ، يَكْتُبُهُما جَميعاً، حَريصاً على العِلمِ مُجتهِداً في الأدَبِ مُواظِباً على الطِّبِّ أو الفَلسَفَةِ فيأْتوهُ به.



فَخَرَجَ أهلُ مَشورَتِهِ ووُزَراؤُهُ مُسْرِعينَ. فَبَحَثوا عمن هذه صِفَتُهُ فوجدوهُ

---

(١) الشقّة: السفر.

(٢) ننتخل: أي نختار.

(٣) أصلبهم عوداً: أحذقهم طبعاً.

(٤) محض: خالص.

(٥) تؤدة: تأنٍّ.

(٦) بحذافيرها: بأسرها.

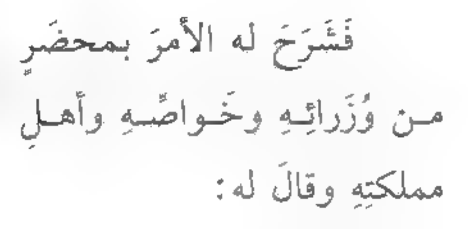
(٧) نحريراً: عالماً متقناً.

باب

مقدمة الكتاب

وظَفِروا به. **فإذا هو شابٌّ جميلُ الوجهِ كامِلُ العَقلِ والأدَبِ ذو حَسَبٍ وصناعَةٍ شريفَةٍ يُعرَفُ بها وهي الطِّبُّ. وكانَ ماهِراً في الفارِسيَّةِ والهِندِيَّةِ. وهو بَرْزَوَيْهِ بنُ أزهَرَ الفَيلَسوفُ** وكانَ من فُضَلاءِ أطِبَّاءِ فارِسَ. فأُحضِرَ بين يَدَي الملِكِ كِسرى فَخَرَّ ساجِداً وعَفَّرَ[1] وجهَهُ طاعَةً للملِكِ.





فَشَرَحَ له الأمرَ بمحضَرٍ من وُزَرائِهِ وخَواصِّهِ وأهلِ مملكتِهِ وقالَ له:

أيُّها الحَكيمُ الفاضِلُ، إني تَقَدَّمتُ إلى وُزَراءِ دولَتي وأهلِ نَصيحَتي أن يَنظُروا لي رجلاً كامِلَ الفَضلِ قد جَهَدَ نفسَهُ في طَلَبِ العُلومِ واْقتِناءِ الفضائِلِ، كاتِماً لأسرارِ الملوكِ، أُطلِعُهُ على ما اْنطَوى عليه ضميري وأُوصِلُهُ إلى مَكنونِ[2] سِرِّي، فيأخُذُ

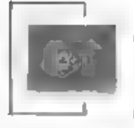
(١) عفر: مرّغ.

(٢) مكنون: مستور.



ذلك بقَبولٍ وإقبالٍ وسياسَةٍ وإذعانٍ، ويُظْهِرُ الخدمَةَ ويُمَحِّضُ[١] المهنَةَ ويبذُلُ الاجتهادَ في بُلوغِ الملِكِ مُناهُ وأمَلَهُ، ويُمَيِّزُهُ على سائِرِ ملوكِ الدُّولِ لِيَصِلَ إلى مَطلوبِهِ. ويُكافَأُ على ذلك بما يَبقى في عَقِبِهِ[٢] باذِلاً نفسَهُ فيما لسلطانِهِ.







وقد ذُكِرَ عنك فضائِلُ كثيرَةٌ وحِكَمٌ شريفَةٌ أنت بِفِراسَتِكَ أهلٌ لها وينبوعٌ تصدُرُ عنك. فكُنْ عند رَجاءِ الوُزَراءِ والأصفِياءِ فيكَ وأنزِلْ نفسَكَ هذه المنزلَةَ التي تُخُيِّرْتَ لها. وأنفِقْ من سَعَةٍ[٣] وتَسَبَّبْ بأسبابِ[٤] مَنْ صَفا جَوْهَرُهُ وطابَ عُنصُرُهُ وٱرتَفَعَ بعِلمِهِ وحِلمِهِ وطاعَةِ بارِئِهِ بطاعَةِ سلطانِهِ التي أُمِرَ باتِّباعِها ونُهِيَ وزُجِرَ عنِ الخروجِ عنها. فإني قد ٱختَرتُكَ لِما بَلَغَني من فضلِكَ وَعِلمِكَ وعقلِكَ وحِرصِكَ على طَلَبِ العِلمِ حيثُ كانَ. وقد بَلَغَني عن كِتابٍ بالهِندِ مَخزونٍ في خَزائِنِهِمْ. وقَصَّ عليه قِصَّتَهُ وما بَلَغَهُ عنه، وقالَ له:

---

(١) يمحض: يخلص.

(٢) عقبه: ولده من بعده.

(٣) أنفق من سعة: أي توسع في إنفاق المال.

(٤) تسبّب بأسباب: أي توسل بوسائل.

باب

مقدمة الكتاب

تَجَهَّزْ فإني مُرَحِّلُكَ إلى أرضِ الهندِ. فَتَلَطَّفْ في ذلك بعقلِك وحُسنِ أدبِك ونافذِ رأيِك لاستخراجِ هذا الكتابِ من خزائِنِهِمْ ومن قِبلِ عُلمائِهِمْ وحُكمائِهِمْ تامًّا كامِلاً مكتوباً بالفارسيَّةِ فتستفيدَهُ أنت وتُفيدَنا إيَّاهُ. وما قَدَرْتَ عليه من كُتُبِ الهِندِ ممَّا ليسَ في خَزائِننا منه شيءٌ فاحمِلْهُ معك. وقد أمَرْنا أن يُطْلَقَ لك من أموالِنا ما تختارُ وتحتاجُ إليه. فإذا نَفِدَ ما تَسْتَصْحِبُهُ فاكتُبْ إلينا نُمِدَّكَ بالمالِ وإن كثُرَتْ فيه النَّفَقَةُ. فإنَّ جميعَ ما في خزائِننا مبذولٌ لك في طَلَبِ العلومِ وهذا الكتاب. فَطِبْ نفساً وقرَّ[1] عيناً وعجِّلْ في ذلك ولا تُقَصِّرْ في طَلَبِ العلومِ. واعمَلْ على مَسيرِكَ إن شاء اللّهُ تَعالى.





قالَ بَرْزَوَيْهِ: أيُّها المَلِكُ عِشْتَ دهراً طويلاً سعيداً، ومُلِّكْتَ الأقاليمَ السَّبعَةَ في خَفْضٍ[2] ودَعَةٍ[3] مُؤَيَّداً مَنصوراً. إنما أنا عبدٌ من عَبيدِكَ وسَهْمٌ من سِهامِكَ فليرمِ بي المَلِكُ حيثُ شاء مِنَ الأرضِ، من بعدِ أن يأذَنَ المَلِكُ أدامَ اللّهُ أيامَهُ في غِبطَةٍ وسرورٍ أن يعقِدَ لي مَجلِساً قَبلَ سَفري يَحضُرُهُ الخَواصُّ لِيَعلَمَ أهلُ الطَّاعَةِ والمملكَةِ ما استخصَّني به المَلِكُ ورآني أهلاً له ونَوَّهَ باسمي[4]. فليفعَلْ ذلك مُنعِماً على العَبدِ الطَّائِعِ.

---

(١) قرّ: يكنى بقرة العين عن السرور والغبطة.

(٢) خفض: سعة عيش. (٣) دعة: سكينة.

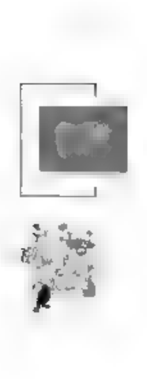
(٤) نوّه باسمي: رفعه.



فقالَ الملِكُ: يا بَرْزَوَيْهِ قد رأيتُكَ لذلك أهلاً وأجبتُكَ إلى ما طَلَبْتَ وأذِنْتُ لكَ فيما سألتَ. فأفعَلُ من ذلكَ حَسَبَ ما تَراهُ مُوافِقاً لك مُنَوِّهاً باسمِكَ.

ثم خَرَجَ بَرْزَوَيْهِ من بين يَدَي الملِكِ فَرِحاً مَسروراً. وأَعَدَّ له الملِكُ يوماً أمَرَ أن يُجْمَعَ له فيه أهلُ مملكتِهِ وخَواصُّ أُمَراءِ دولتِهِ.

ثم أَمَرَ أن يُنْصَبَ له مِنبرٌ فَنُصِبَ ورَقِيَ عليه بَرْزَوَيْهِ ثم قالَ: أَمَّا بَعدُ؛ فإنَّ





باب

مقدمة الكتاب

اللّهَ، تَبارَكَ وتَعالى، خَلقَ خَلقَهُ برحمتِهِ ومَنَّ على عِبادِهِ بفضلِهِ وكرمِهِ، ورَزَقَهُمْ مِنَ العَقلِ ما يَقدِرونَ به على إصلاحِ مَعايِشِهِمْ في الدُّنيا ويُدرِكونَ به استِنقاذَ[1] أرواحِهِمْ مِنَ العَذابِ في الآخِرَةِ. وأفضلُ ما رَزَقَهُمُ اللّهُ تَعالى ومَنّ به عليهِم العَقلُ الذي هو الدِّعامَةُ لجميعِ الأشياءِ، والذي لا يَقدِرُ أحدٌ في الدُّنيا على إصلاحِ مَعيشَتِهِ ولا إحرازِ نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضَرَرٍ إلا بِفَيْضِهِ مِنَ الخالِقِ المُبدِعِ الواحِدِ الأحَدِ.




وكذلك طالِبُ الآخِرَةِ الزّاهِدُ المجتهِدُ في العَمَلِ المُنْجي به نفسَهُ من عَمايَةِ[2] الضَّلالِ لا يَقْدِرُ على إتمامِ عَمَلِهِ وإكمالِهِ ولا يَتمُّ له ذلك إلا بالعَقلِ الذي هو السَّبَبُ المُوصِلُ إلى كلِّ خيرٍ والمفتاحُ لكلِّ سعادَةٍ والمُبَلِّغُ إلى دارِ الخُلودِ. فليسَ لأحدٍ عنه غِنًى ولا بغيرِهِ اكتِفاءٌ.

والعَقلُ غريزيٌّ مطبوعٌ ويتزايَدُ بالتَّجارِبِ والأدَبِ. وغريزَتُهُ مَكنونَةٌ في الإنسانِ كامِنَةٌ فيه كُمونَ النّارِ في الحَجَرِ. فإنَّ النار طَبيعَتُها فيه كامِنَةٌ لا تَظهَرُ ولا يُرى ضَوْؤُها حتى يُظْهِرَها قادِحٌ من غيرِها، فإذا قَدَحَها ظَهَرَتْ طبيعتُها بضَوْئِها وحَريقِها، وكذلك العَقلُ كامِنٌ في الإنسانِ لا يظهرُ حتى يُظهِرَهُ الأدَبُ وتَعْضُدَهُ[3] التَّجارِبُ. فإذا استَحْكَمَ كانَ أَوْلى بالتَّجارِبِ. لأنَّه هو المُقَوّي لكلِّ فضيلَةٍ والمُعينُ على دَفْعِ كلِّ رَذيلَةٍ. فلا شيءَ أفضَلُ مِنَ العقلِ إذا مَنَّ اللّهُ تَعالى على عَبدِهِ وأعانَهُ على نفسِهِ بالمُواظَبَةِ على طُرُقِ الأدَبِ والعلم والحِرصِ على ذلك.

---

(١) استنقاذ: إنجاء.

(٢) العماية: ضد الهداية.

(٣) تعضده: تعينه.



ومَنْ رُزِقَ العَقلَ ومُنَّ به عليه وأُعِينَ على صِدقِ قَريحَتِهِ بالأدَبِ حَرَصَ على طَلَبِ سعْدِ جَدِّهِ[1] وأدركَ في الدُّنيا أملَهُ وحازَ في الآخرَةِ ثوابَ الصَّالِحينَ. فالعَقلُ هو المُقَوِّي للملِكِ على مُلكِهِ. فإنَّ السُّوقَةَ[2] والعَوامَّ لا يَصْلُحونَ إلا بإفاضَةِ يَنبوعِ العَدلِ الفائِضِ عنِ العَقلِ لأنَّه سِياجُ الدَّولَةِ.

وقد رزَقَ اللّهُ مَلِكَنا السَّعيدَ كِسرى أنوشِروانَ مِنَ العَقلِ أفضَلَ الحَظِّ وأجزَلَهُ[3] ومِنَ العِلمِ أجمَلَهُ وأكملَهُ، ومِن المعرِفَةِ بالأمورِ أصوَبَها. وسَدَّدَهُ[4] مِنَ الأفعالِ إلى أَسَدِّها[5] ومِنَ البحثِ عنِ الأصولِ والفُروعِ إلى أنفعِهِ. وبَلَّغَهُ من فنونِ ٱختلافِ العِلمِ وبُلوغِ منزِلَةِ الفَلسفَةِ ما لم يَبلُغْهُ مِلكٌ قَطُّ مِنَ الملوكِ قَبلَهُ، وكانَ هو القابِلَ لذلك بجودَةِ المادَّةِ القابِلَةِ لانطِباعِ الصُّوَرِ. فَبَلَغَ بذلك الرُّتبَةَ القُصوى في الفَضلِ على مَنْ مَضى مِنَ الملوكِ قَبلَهُ. حتى كانَ فيما طلَبَ وبَحَثَ عنه وسَمَتْ إليه نفسُهُ مِنَ العِلمِ أن بَلَغَهُ عن كتابٍ بالهِندِ من كُتُبِ فَلاسِفَتِها وعلمائِها مَخزونٍ عندَ مُلوكِهِمْ. عَلِمَ أنّه أصلُ كلِّ أدَبٍ، ورأسُ كلِّ عِلمٍ، والدَّليلُ على كلِّ مَنْفَعَةٍ، ومِفتاحُ عَملِ الآخرَةِ وعِلمِها ومعرِفَةِ النَّجاةِ من أهوالِها، والمُقَوّي على جميعِ الأمورِ، والمُعِينُ على ما يَحتاجُ إليه الملوكُ في تَدبيرِهِمْ لأُمورِ ممالِكِهِمْ وآدابِ السُّوقَةِ فيما يُرْضونَ به ملوكَهُمْ ويُصلِحون به مَعايِشَهُمْ، وهو كتابُ كَليلَةَ ودِمْنَةَ. فلمَّا تَيَقَّنَ ما بَلغَهُ عن ذلك الكتابِ وكَشَفَ عمَّا فيه مِنَ المنافِعِ من تَقويةِ العَقلِ والأدَبِ رَآني أهلاً لذلك ونَدَبَني إلى ٱستخراجِهِ، واللّهُ المُوَفِّقُ، والسَّلامُ.



(1) جدّه: حظه وسعادته.
(2) السوقة: الرعية.
(3) أجزله: أعظمه.
(4) سدّده: أرشده.
(5) أسدّها: أصوبها.

سفر برزويه ونسخة الكتاب

فعندَ ذلك ظَهَرَ للملِكِ عِلمُهُ ونَجابَتُهُ وشهامَتُهُ، فَسُرَّ بذلك سُروراً شديداً. ثم أمَرَ الملِكُ عند ذلك بإحضارِ المُنجِّمينَ وأن يَتَخَيَّروا له يوماً سعيداً وطالِعاً[١] صالِحاً وساعَةً مُبارَكَةً ليتوجَّهَ فيها. فاختاروا له يوماً يَسيرُ فيه وساعَةً صالِحَةً يخرُجُ فيها. فَسارَ بَرْزَوَيْهِ بطالِعِ سَعدٍ وحَمَلَ معه مِنَ المالِ عِشرينَ جِراباً، كلُّ جِرابٍ فيه عَشَرَةُ آلافِ دينارٍ، وتوجَّهَ جادّاً في طَلَبِ حاجَتِهِ نهاراً وليلاً، حتى قَدِمَ بلادَ الهِندِ، فجَعَلَ يطوفُ ببابِ الملِكِ ومجالِسِ السُّوقَةِ





(١) طالعاً: أي ما يتفاءل به من السعد والنحس بطلوع الكواكب. والطالع عندهم جزء من منطقة البروج يكون على الأفق الشرقي في وقت مخصوص.



ويُجالِسُ الحُكماءَ ويَسألُ عن خَواصِّ الملِكِ والأشرافِ من جُلسائِه والعلماءِ والفَلاسِفَةِ، وجَعَلَ يَغشاهُمْ (١) في مجالِسِهِمْ ويَتَلقَّاهُمْ بالتَّحِيَّةِ والسَّلام، ويُخبِرُهُمْ أنّه رجلٌ غريبٌ قَدِمَ بلادَهُمْ لطَلَبِ العِلمِ والأدَبِ والبَحْثِ عنه ورِياضَتِهِ (٢) به، وأنّه محتاجٌ إلى معونَتِهِمْ فيما يَطلُبُ من ذلك، ويَسألُهُمْ بَذْلَ الدُّعاءِ له ببُلوغِ آمالِهِ مع شِدَّةِ كِتمانِهِ لِما قَدِمَ بسبَبِهِ ودَفنِهِ لِسِرِّهِ.

فلم يَزَلْ كذلك زماناً طويلاً يَتَأَدَّبُ على عُلماءِ الهِندِ بما هو عالِمٌ بجميعِهِ وكأنَّهُ لا يعلمُ منه شيئاً. وهو فيما بين ذلك يَسْتُرُ بُغْيَتَهُ وحاجَتَهُ. وفي أثناءِ ذلك يَبحَثُ في مَطلوبِهِ بحُنْكَةٍ (٣) وسياسةٍ وعِفَّةٍ ونَزاهَةٍ. واتَّخذ في تلك الحالَةِ لطول مُقامِهِ أصدقاءَ أصْفِياءَ كثيرينَ كلُّهُمْ من أهلِ الهِندِ مِنَ الأشرافِ والعلماءِ والفَلاسِفَةِ والسُّوقَةِ ومن أهلِ كلِّ طَبَقَةٍ وصِناعَةٍ.



وكان قد اتَّخَذَ من بين أصدقائِهِ وأصفِيائِهِ رجلاً واحِداً اصطَفاهُ لِسِرِّهِ واختَصَّهُ لِمَشورَتِهِ لِلَّذي ظَهَرَ له من فضلِهِ وأدَبِهِ وحِكمَتِهِ وفَهمِهِ وكِتمانِهِ لِسِرِّ نفسِهِ ولِما استَبانَ

---

(١) يغشاهم: يأتيهم. (٢) رياضته: تهذيب أخلاقه.

(٣) حنكة: اسم من حنكت السن الرجل أي جعلته حكيماً.

له من صِحَّةِ إخائِهِ. وكان يُشاوِرُهُ في الأمورِ ويَرتاحُ إليه في جميعِ ما أهَمَّهُ. إلاَّ أنّه كانَ يَكتُمُ عنه الأمرَ الذي قَدِمَ من أجلِهِ حتى يَبلُوَهُ ويَختَبِرَهُ ويَنظُرَ هل هو أهلٌ أن يُطلِعَهُ على سِرِّهِ. ولم يَزَلْ يَبحَثُ عنه ويَجتَهِدُ في أمرِهِ حتى وَثِقَ به وُثوقَ الأكفاءِ[1] بالأكفاءِ، وعَلِمَ أنَّهُ مَحَلٌّ لكَشفِ الأسرارِ الجَليلَةِ الخَطيرَةِ، وأنّه مأمونٌ على ما يُستَودَعُ من ذلكَ غيرُ خائنٍ صديقٌ صَدقٌ. ثم زادَ له إلطافاً[2] وبه احتِفاءً وعليه حُنُوّاً إلى أن حَضَرَ اليومُ الذي رَجا فيه بُلوغَ أمنِيَّتِهِ والظَّفَرَ بحاجَتِهِ، مَعَ طولِ الغَيبَةِ وعِظَمِ النَّفَقَةِ في استِلطافِ الإخوانِ ومُجالَسَتِهم على الطَّعامِ والشَّرابِ.





وإنَّه لمَّا وَثِقَ بصديقِهِ الهِندِيِّ الذي تَقَدَّمَ ذِكرُهُ وأنِسَ به وسَبَرَ[3] عَقلَهُ واطمأنَّ إليه في سِرِّهِ قالَ له يوماً وهُما خالِيانِ: يا أخي ما أُريدُ أن أكتُمَكَ من أمري فَوقَ الذي كَتَمتُكَ لأنَّكَ أهلٌ لذلكَ. فاعْلَمْ أني لأمرٍ قَدِمْتُ بلادَكُمْ. وهو غيرُ الذي يَظْهَرُ مِنّي. والعاقِلُ يَكتَفي مِنَ الرجلِ بالعَلاماتِ من نَظَرِهِ وإشارَتِهِ، فَيَعْلَمُ بذلكَ سِرَّ نفسِهِ وما يُضمِرُهُ قَلبُهُ.

---

(١) الأكفاء: الأمثال والنظراء. (٢) إلطافاً: إكراماً.
(٣) سبر: أي امتحن.



فقالَ له صَديقُهُ الهِندِيُّ: إني وإن لم أكن بَدَأْتُكَ وأخبَرتُكَ بما له جِئتَ وإيَّاهُ تُريدُ وإليه قَصَدتَ وأنّكَ تكتُمُ ما تَطلُبُهُ وتُظْهِرُ غيرَهُ فما خَفِيَ عَلَيَّ ذلك منك ولا ذَهَبَ عَنّي ما كَتَمْتَهُ. ولكنّي لرغبَتي فيك وفي إخائِكَ كَرِهْتُ أن أُواجِهَكَ بذلك وأُفاجِئكَ به. لأني قد ظَهَرَ لي ما تَكْتُمُ وبانَ لي ما أنتَ له مُخْفٍ. فأمَّا إذ قد أظْهَرْتَ ذلك وأفصَحتَ به من نفسِكَ فإني مُخْبِرُكَ عن سِرِّ حاجَتِكَ التي قَدِمْتَ بسبَبِها وأطَلْتَ مُقامَكَ في طَلَبِها.

وذلك أنّكَ إنما وَطِئْتَ أرضَنا وقَدِمْتَ إلى بلادِنا لِتَسْلُبَنا كُنوزَنا النَّفيسَةَ فتذهَبَ بها إلى بلادِكَ وتَسُرَّ بها مَلِكَكَ. وكانَ قُدومُكَ إلينا بالمَكْرِ ومُصادَقَتُكَ لنا بالخَديعَةِ. ولكنّي لمَّا رأيتُ صَبْرَكَ ومُواظَبَتَكَ على طَلَبِ حاجَتِكَ والتَّحَفُّظِ من أن تَسْقُطَ في الكلامِ مع طولِ مُكْثِكَ عندَنا على كَتْمِ أمرِكَ بشيءٍ يُسْتَدَلُّ به على سَريرَتِكَ وأُمورِكَ ازْدَدتُ رغبَةً في إخائِكَ وثِقَةً بعَقلِكَ وأحبَبْتُ مَوَدَّتَكَ. فإني لم أرَ في الرجالِ رجلاً هو أرْصَنُ[1] منكَ عَقلاً ولا أحسَنُ أدَباً ولا أصبَرُ على طَلَبِ العِلْمِ، ولا أكْتَمُ لِسِرِّهِ ولا سِيَّما في بلادِ غُرْبَةٍ ومملكَةٍ غيرِ مملكَتِكَ وعندَ قومٍ لا تعرِفُ سُنَنَهُمْ ولا شِيَمَهُمْ.



(١) أرصن: أثبت وأحكم.

باب

مقدمة الكتاب

وإنَّ عَقلَ الرجلِ لَيَبِينُ في خِصالٍ ثمانٍ: الأولى منها الرِفْقُ. والثانيَةُ أن يعرفَ الرجلُ نفسَهُ فَيَحفَظَها. والثالثةُ طاعَةُ المُلوكِ والتَّحرّي لِما يُرضيهِمْ. والرابعةُ معرِفَةُ الرجلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وكيفَ يَنبَغي أن يُطلِعَ عليه صديقَهُ. والخامسةُ أن يكونَ على أبوابِ الملوكِ أديباً مَلِقَ[1] اللِّسانِ. والسَّادسةُ أن يكونَ لِسِرِّهِ ولِسِرِّ غيرِهِ حافِظاً. والسَّابعةُ أن يكونَ على لسانِهِ قادراً فلا يَتَكَلَّمَ إلا بما يأمَنُ تَبِعَتَهُ[2] ولا يُطلِعَ على سِرِّهِ إلاَّ الثِّقاتِ. والثَّامنةُ أن لا يَتَكَلَّمَ في المَحافِلِ بما لا يُسْأَلُ عنهُ.



فمنِ ٱجتمعَتْ فيه هذه الخِصالُ كانَ هو الدَّاعِيَ الخيرَ إلى نفسِهِ. وهذه الخِصالُ كلُّها قد ٱجتمعَتْ فيك وبانَتْ لي منكَ. فاللّهُ تَعالى يَحفَظُكَ ويُعينُكَ على ما قَدمْتَ له ويُظْفِرُكَ بحاجَتِكَ. لأنَّكَ إنَّما صادَقتَني لِتَسْلُبَني عِلمي وفخري. وإنَّك أهلٌ لأن تُسْعَفَ بحاجتِكَ وتُشْفَعَ[3] بطَلِبَتِكَ وتُعطى سُؤْلَكَ. ولكنَّ حاجَتَكَ التي تَطْلُبُ قد أرْهَبَتْ نفسي وأدخلَتْ عَلَيَّ الفَرَقَ[4] والخَشيَةَ.



فلمَّا عَرَفَ بَرْزَوَيْهِ أنَّ الهِنديَّ قد عَرَفَ أن مُصادَقَتَهُ إنما كانت مَكراً وخَديعةً، وطَلَبَ حاجَتَهُ فلم يَزْجُرْهُ ولم يَنْتَهِرْهُ بل رَدَّ عليه رَدّاً لَيِّناً كَرَدِّ الأخِ على أخيهِ بالتَّعطُّفِ والرِّفْقِ، وَثِقَ بقضاءِ حاجَتِهِ منه، فقالَ له: إني قد كنتُ

---

(١) ملق: من الملق وهو الود واللطف. (٢) تبعته: عاقبته.
(٣) تشفع: تعان. (٤) الفرق: الخوف.



هَيَّأتُ كلاماً كثيراً، وشَعَّبْتُ له شِعاباً[1]، وأنشأتُ له أصولاً وطُرُقاً، فلمَّا انتهَيتُ فيه إلى ما بادَهْتَني[2] به من اطِّلاعِكَ على أمرِي والذي قَدِمْتُ له وألقَيْتَهُ إليَّ من ذاتِ نفسِكَ ورغبتِكَ فيما ألقيتَ مِنَ القَولِ، اكتَفَيْتُ باليَسيرِ مِنَ الخِطابِ معكَ عمَّا كنتُ أحتَلِفُ فيه، إذ عَرَفْتَ الكثيرَ من أُموري بالقَليلِ مِنَ الكلامِ لِما قَسَمَ اللّهُ لكَ مِنَ العَقلِ والأدَبِ، فكَفَيْتَني مَؤُونَةَ الكلامِ فاقتَصَرْتُ به معكَ على الإيجازِ. ورأيتُ من إسعافِكَ إيايَ بحاجَتي ما دَلَّني على كَرمِكَ وحُسنِ وفائِكَ، فإنَّ الكلامَ إذا أُلقِيَ إلى الفَيلسوفِ والسِّرَّ إذا استُودِعَ اللَّبيبَ الحافِظَ فقد حُصِّنَ وبُلِغَ به نهايَةَ أمَلِ صاحِبِهِ كما يُحَصَّنُ الشَّيءُ النَّفيسُ في القِلاعِ الحَصينَةِ.



فقالَ له الهِنديُّ: لا شيءَ أفضَلُ مِنَ المَوَدَّةِ. ومَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كانَ أهلاً أن يَخلِطَهُ الرجلُ بنفسِهِ ولا يدَّخِرَ[3] عنه شيئاً ولا يَكْتُمَهُ سِرّاً ولا يَمْنَعَهُ حاجَتَهُ ومُرادَهُ إن قَدَرَ على ذلك. ورأسُ الأدَبِ حِفظُ السِّرِّ. فإن كانَ السِّرُّ عندَ الأمِينِ الكتُومِ فقدِ احتَرَزَ مِنَ التَّضْييعِ لأنَّه خَليقٌ أن لا يَتَكَلَّمَ به. ولا يُكْتَمُ سِرٌّ بين اثنَينِ قد عَلِماهُ وتَفاوَضا فيه، ولا يكونُ سِرًّا لأنَّ اللسانَينِ قد تَكَلَّما به. فإذا تَكَلَّمَ بالسِّرِّ اثنانِ فلا بُدَّ من ثالِثٍ من جِهَةِ الواحِدِ أو من جِهَةِ الآخَرِ. فإذا

---

(١) شعاباً: أي فصلت له طرقاً. (٢) بادهتني: فاجأتني.
(٣) يدخر: يخبيء.

صارَ إلى الثلاثةِ فقد شاعَ وذاعَ حتى لا يَستطيعَ صاحِبُهُ أن يَجْحَدَهُ[1] ويُكابِرَ فيه. كالغَيمِ إذا كانَ مُتَقَطِّعاً في السَّماءِ فقالَ قائِلٌ إنَّ هذا الغيمَ مُتَقَطِّعٌ لا يَقدِرُ أحدٌ على تَكذيبِهِ.

وأنا فقد يُداخِلُني من مَوَدَّتِكَ ومُخالَطَتِكَ معَ أُنسي بقربِكَ سرورٌ لا يعدِلُهُ شيءٌ. وهذا الأمرُ الذي تَطلُبُهُ منّي أعلَمُ أنَّه مِنَ الأسرارِ التي لا تُكْتَمُ فلا بُدَّ أن يَفْشُوَ ويَظهَرَ حتى يَتَحَدَّث به الناسُ. فإذا فَشا فقد سَعَيتَ في هلاكي هلاكاً لا أقدِرُ على الفِداءِ منه بالمالِ وإن كَثُرَ. لأنَّ مَلِكَنا فَظٌّ غَليظٌ يُعاقِبُ على الذَّنبِ الصَّغيرِ أشَدَّ العِقابِ فكيفَ مثلُ هذا الذَّنبِ العَظيمِ! وإذا حَمَلَتني المَوَدَّةُ التي بيني وبينَكَ فأسعَفتُكَ بحاجَتِكَ لم يَرُدَّ عِقابَهُ عَنّي شيءٌ.



قالَ بَرْزَوَيْهِ: إنَّ العلماءَ قد مَدَحَتِ الصَّديقَ إذا كَتَمَ سِرَّ صديقِهِ وأعانَهُ على الفَوزِ.

---

(١) يجحده: ينكره.



وهذا الأمرُ الذي قَدِمتُ له لمثلِكَ ذَخَرْتُهُ[1] وبك أرجو بُلوغَهُ. وأنا واثِقٌ بكَرَمِ طباعِكَ وَوُفورِ عَقلِكَ فيه. وإن كنتَ قد وَصَلَ إليك مني ما وَصَلَ مِن المَشَقَّةِ فأنعِمْ بتَحَمُّلِ ذلك. وأعلَمُ أنَّك لا تَخشى مني ولا تَخافُ أن أُبدِيَهُ بل تَخشى أهلَ بلدِكَ المُطيفين بكَ وبالملِكِ أن يَسْعَوا بكَ إليه ويُبَلِّغوهُ ذلك عنكَ. وأنا أرجو أن لا يَشيعَ شيءٌ من هذا الأمرِ لأني أنا ظاعِنٌ[2] وأنت مُقيمٌ وما أَقَمتُ[3] فلا ثالِثَ بيننا. فتعاهَدا على هذا جميعاً.

وكانَ الهِندِيُّ خازِنَ المَلِكِ، ويَحمِلُ مفاتيح خَزائِنِهِ، فأجابَهُ إلى ذلك الكتابِ وإلى غيرهِ مِنَ الكُتُبِ وسَلَّمها إليه. فأَكَبَّ على تَفسيرِهِ ونقلِهِ مِنَ اللسانِ الهِنديِّ إلى اللسانِ الفارِسيِّ وأتعَبَ نفسَهُ وأنصَبَ[4] بَدَنَهُ نهاراً وليلاً وهو مع ذلك وَجِلٌ[5] فَزِعٌ من ملِكِ الهِندِ خائِفٌ على نفسِهِ من أن يَذْكُرَ الملِكُ الكتابَ في وقتٍ ولا يُصادِفَهُ في خِزانَتِهِ.

(١) ذخرته: خبأته.

(٢) ظاعن: راحل.

(٣) ما أقمت: مدة إقامتي.

(٤) أنصب: أعيا.

(٥) وجل: خائف.



بـــاب مقدمة الكتاب

رجوع برزويه بالكتاب

فلمَّا فَرَغَ من ٱنتِساخِ الكتابِ وغيرِهِ ممَّا أرادَ من سائِرِ الكُتُبِ كَتَبَ إلى أنوشِروانَ يُعلِمُهُ بذلك. فلمّا وَصَلَ إليه الكتابُ سُرَّ سروراً شديداً ثمَّ تَخَوَّفَ



مُعالَجَةَ المَقاديرِ أن تُنَغِّصَ عليه فَرَحَهُ ويَنْتَقِضَ سرورُهُ. فكَتَبَ إلى بَرْزَوَيْهِ يأمُرُهُ بتَعجيلِ القُدومِ. فسارَ بَرْزَوَيْهِ مُتَوَجِّهاً نحو كِسرى.

فلمَّا رأى الملِكُ ما قد مَسَّهُ مِنَ الشُّحوبِ والإعياءِ قالَ له: أيُّها العَبدُ النَّاصِحُ الذي يأكلُ ثَمَرَةَ ما قد غَرَسَ، أَبْشِرْ وقرَّ عَيناً فإنِي مُشَرِّفُكَ وبالِغٌ بك أفضَلَ دَرَجَةٍ. وأمَرَهُ أن يُريحَ بَدَنَهُ سبعَةَ أيامٍ.



فلمَّا كانَ اليومُ الثامِنُ أَمَرَ الملِكُ بإحضارِ أشرافِ مملكتِهِ وجميعِ علماءِ مِصْرِهِ[1] وشُعرائِهِ والخُطباءِ. فلمَّا اجتمعوا أُحضِرَ بُرْزَوَيْهِ فدَخَلَ عليهم وسَجَدَ بينَ يَدَيِ الملِكِ وجَلَسَ على مَرْتَبَةٍ أُعِدَّتْ له. ثم وَقَّعَ[2] الكلامَ فيما شاهَدَهُ ورآهُ وشَرَحَ قِصَّتَهُ وحالَهُ من أوَّلِها إلى آخِرِها. فلم يَبْقَ أحدٌ من رجالِ الدَّولَةِ وقُوَّادِها وأهلِ عُلومِها

(١) مصره: كورته وناحيته.

(٢) وقَّع: أي ألقى.



باب
مقدمة الكتاب

على طَبقاتِهِمْ إلا تَعَجَّبَ منه ومن طولِ طَريقِهِ وحُسنِ سيرَتِهِ مع صديقِهِ، وما وفى له به بلا عَهْدٍ[١] منه ولا مُقَدِّمَةٍ تَقَدَّمَتْ بينهُما من إفشاءِ سِرِّهِ له معَ ما بينهما من افتراقِ الأديانِ وتَبايُنِ الأشكالِ ومُنافَرَةِ المَذهَبِ. واستَعظَموا ما أنفَقَ على تحصيلِ ذلك، وعَظُمَ بَرْزَوَيْهِ في أعيُنِ الحاضرينَ وكَبُرَ قَدْرُهُ عند ملِكِهِ.

ثم إنَّ الملِكَ صَرَفَ مَنْ حَضَرَ وانصَرَفَ بَرْزَوَيْهِ. وعَمَدَ الخُطباءُ يصنَعونَ مُقَدِّماتٍ تَصلُحُ لحضورِ المَجلِسِ وتأهَّبوا لذلك. وعَقَدَ لهم الملكُ مَجلِساً وحَضَرَ بَرْزَوَيْهِ وخُطباءُ الدَّولَةِ والوُزَراءُ وفُصَحاءُ المملكَةِ وأُحضِرَ الكتابُ وسائِرِ الكُتُبِ. فلمّا قُرِئَت الكُتُبُ وسمِعوا ما فيها من العُلومِ والحِكَمِ وسائِرِ الظَّرائِفِ وغَرائِبِ الآدابِ استَبشَرَ مَنْ حَضَرَ وبَلَغَ الملِكُ أُمنِيَّتَهُ. ومدحوا بَرْزَوَيْهِ وأثْنَوا عليه وشكروهُ على ما نالَهُ مِنَ التَّعَبِ. فأمَرَ الملِكُ عند ذلك بالدُّرِّ والجَوْهَرِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ وفُتِحَتْ خَزائِنُ الكُسْوَةِ وخَلَعَ عليه وحَمَلَ بين يديهِ جميعَ ذلك. ثم إنَّ الملِكَ ألبَسَهُ التَّاجَ وأجلَسَهُ على سَريرِهِ تَشريفاً له وزيادَةً في إجلالِهِ. ولمَّا تَمَّ لِبَرْزَوَيْهِ ذلك خَرَّ ساجداً للملِكِ وقال:



أكرَمَ اللّهُ الملِكَ بأفضَلِ الكَراماتِ بزيادَتِهِ في دُنياهُ وأُخراهُ، وخَلَّدَ مُلكَهُ وثَبَّتَ وطأتَهُ[٢] وشَيَّدَ مَبانيَ مَجدِهِ. إنَّ اللّهَ وَليَّ الحَمدِ قد أغناني عنِ المالِ بما بَلَغْتُ مِنَ الرُّتبَةِ العَلِيَّةِ السَّنِيَّةِ والبُغيَةِ

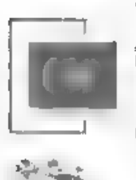
---

(١) عهد: أي معرفة.
(٢) وثبّت وطأته: أي مكّن سلطته.



والأُمنيَّةِ بما رَزَقَني من تَشريفِ مِلِكِ الملوكِ للعَبدِ الذَّليلِ. لكنْ إذ كَلَّفَني الملكُ ذلك وعَلِمْتُ أنَّه يَسُرُّهُ فأنا آخُذُ ممَّا أمَرَ لي به امتِثالاً لأمرِهِ وطَلَباً لِمَرْضاتِهِ. وقامَ فأخَذَ منها تَختاً[1] من طرائِفِ خُراسانَ من مَلابِسِ الملوكِ، ثم قال للملكِ: إنَّ الإنسانَ إذا مَنَحَهُ اللّهُ تَعالى عَقلاً وافِراً وعِلماً راجِحاً وخُلُقاً رحْباً وديناً صُلْباً ونيَّةً سالِمَةً مِنَ العاهاتِ فليشكُرِ الصَّانِعَ الأزَليَّ سَرْمَداً[2] على ما وَهَبَهُ من ذلك من غيرِ استحقاقٍ يَستَحِقُّهُ ولا مُقدِّمَةٍ سَبَقَتْ له. وإنَّ الإنسانَ إذا أُكرِمَ وَجَبَ عليه الشُّكرُ وإن كان قد استَوْجَبَهُ تَعَباً ومَشَقَّةً.

وَأَمَّا أَنَا فَمهما لَقِيتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ، لِما أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ الشَّرَفَ يا أَهْلَ هٰذَا الْبيْتِ ! فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هٰذَا الْيَوْم تابعاً رِضَاكُمْ، أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيراً، وَالشَّاقَّ هَيِّناً، وَالنَّصَبَ وَالأَذَى سُروراً وَلَذَّةً، لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضاً فعِنْدَكُمْ قُرْبَةً[3]. وَلٰكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْملِكُ حَاجَةً تُسْعِفُنِي بِهَا، وَتُعْطِينِي فِيهَا سُؤْلِي. فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ، وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيرَةٌ.







قَالَ أَنُوشِرْوَانُ: قُلْ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ: فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ؛ وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا، وَلَمْ نَرُدَّ طَلِبَتَكَ، فَكَيْفَ مَا سِوَى ذٰلِكَ؟ فَقُلْ وَلاَ تَحْتَشِمْ؛ فَإِنَّ الأُمُورَ كُلَّهَا مَبْذُولَةٌ لَكَ.

قَالَ بَرْزَوَيْهِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لاَ تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ وَانْكِمَاشِي[4] فِي طَاعَتِكَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا

---

(١) تختاً: وعاء تصان فيه الثياب.
(٢) سرمداً: دائماً.
(٣) قربة: قرباً في المنزلة.
(٤) انكماشي: إسراعي.

عَبْدُكَ يَلْزمُنِي بَذْلُ مُهجَتِي فِي رِضَاكَ؛ وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ عِنْدِي عَظِيماً وَلا وَاجِباً عَلى الْمَلِكِ؛ وَلٰكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدَ إِلَى مُجَازَاتِي؛ وَخَصَّنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ؛ حَتَّى لَوْ قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَفَعَلَ. فَجَزَاهُ الله عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ.



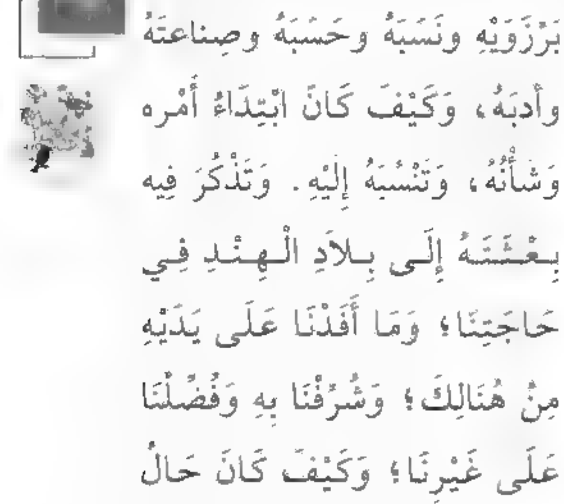

قَالَ أَنُوشِرْوَانُ: اذْكُرْ حَاجَتَكَ، فَعَلَيَّ مَا يَسُرُّكَ. فَقَالَ بَرْزَوَيْهِ: حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكُ، أَعْلاَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَزِيرَهُ بُزُرْجُمَهْرَ بنَ الْبَخْتَكَانِ؛ أن ينظم أمري في نسخةٍ ويُبَوِّبُ الكتابَ ويجعل تلكَ النُّسخَةَ بَاباً يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي؛ وَلاَ يَدَعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي ذٰلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَيَأْمُرُهُ إِذَا اسْتَتَمَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ؛ وَأَبْقَى لَنَا مَا لاَ يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِياً عَلَى الأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِىءَ هٰذَا الْكِتَابُ.

فلمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ وَالْعُظَمَاءُ مَقَالَتَهُ وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ مَحَبَّةِ إِبْقَاءِ الذِّكْرِ اسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَقَالَ كِسْرَى: حُبًّا وَكَرَامةً لَكَ يا بَرْزَوَيْهِ، إِنَّكَ لأَهْلٌ أَنْ تُسْعَفَ بِحَاجَتِكَ؛ فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرَهُ عِنْدَنَا! وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ[1] عِنْدَكَ عَظِيماً.

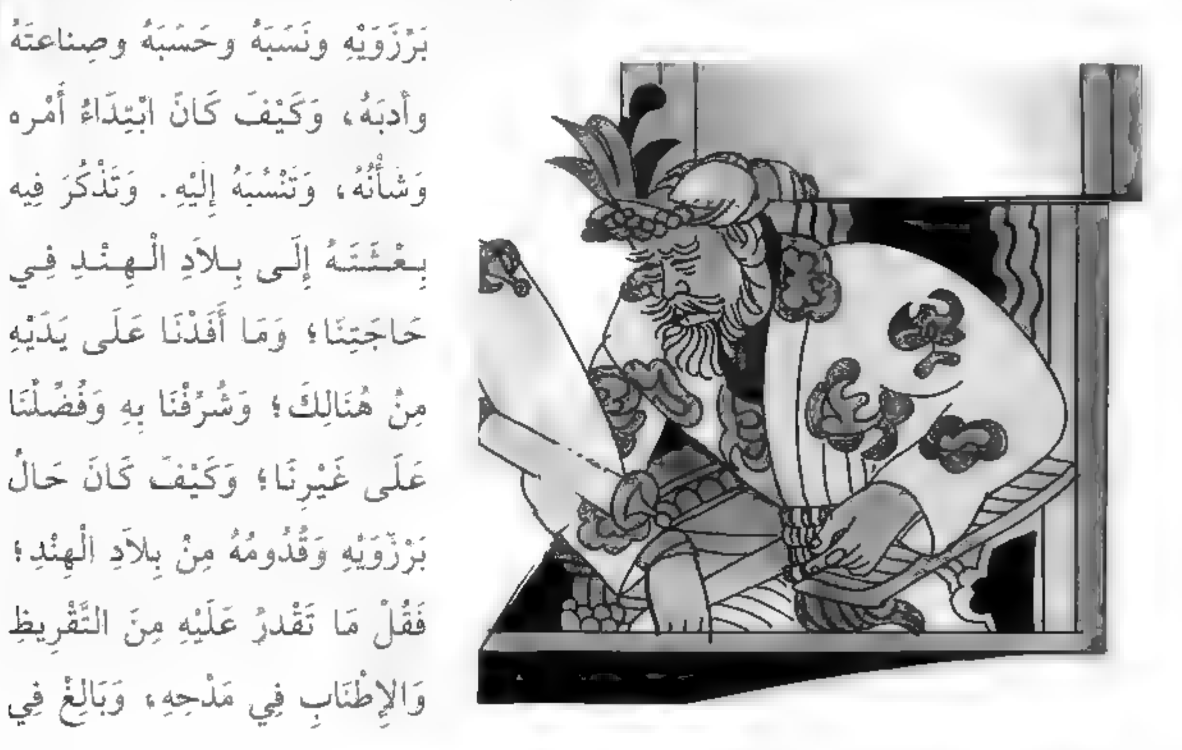
(١) خطره: شرفه.



ثُمَّ أَقْبَلَ أَنُوشِرْوَانُ عَلى وَزِيرِهِ بُزُرْجُمَهْرَ فقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ بَرْزَوَيْهِ لنا، وَتَجَشُّمَهُ[1] الْمَخَاوِفَ وَالْمَهالِكَ فِيمَا يُقَرِّبُهُ منَّا، وَإِتْعَابَهُ بَدَنَهُ فِيمَا يَسُرُّنَا؛ وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَمَا أَفَادَنَا اللَّهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا فَخْرُهُ، وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزائِنِنَا لِتَجْزِيَهُ بِذٰلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَلَمْ تَمِلْ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ؛ وَكَانَتْ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْراً يَسِيراً رَآهُ هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدهُ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذٰلِكَ وَتُسْعِفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يَسُرُّنِي، وَلاَ تَدَعْ شَيْئاً مِنَ الاجْتِهَادِ وَالْمُبَالَغَةِ إِلاَّ بَلَغْتَهُ، وَإِنْ نَالَتْكَ فِيه مَشَقَّةٌ.



وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ بَاباً مُضارِعاً لِتِلْكَ الأَبْوابِ الَّتِي فِي الْكِتَابِ؛ وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَرْزَوَيْهِ وَنَسَبَهُ وَحَسَبَهُ وَصِناعتَهُ وأَدبَهُ، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ أَمْرِه وَشأْنُهُ، وَتَنْسُبَهُ إِلَيْهِ. وَتَذْكُرَ فِيه بِعْثَتَهُ إِلَى بِلاَدِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا؛ وَمَا أَفَدْنَا عَلَى يَدَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ؛ وَشُرِّفْنَا بِهِ وَفُضِّلْنَا عَلَى غَيْرِنَا؛ وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بَرْزَوَيْهِ وَقُدُومُهُ مِنْ بِلاَدِ الْهِنْدِ؛ فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْرِيظِ وَالإِطْنَابِ فِي مَدْحِهِ، وَبَالِغْ فِي





(١) تجشمه: تحمله.

باب

مقدمة الكتاب

ذٰلِكَ أَفْضَلَ الْمُبالَغَةِ وَٱجْتَهِدْ فِي ذٰلِكَ ٱجْتِهاداً يَسُرُّ بَرْزَوَيْهِ وَأَهْلَ الْمَمْلَكَةِ. وَإِنَّ بَرْزَوَيْهِ أَهْلٌ لِذٰلِكَ مِنِّي وَمِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَمِنْكَ أَيْضاً، لِمَحَبَّتِكَ لِلْعُلُومِ. وَٱجْهَدْ أَنْ يَكُونَ غَرَضُ هٰذَا الْكِتابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بَرْزَوَيْهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْرَاضِ تِلْكَ الأَبْوَابِ عِنْدَ الْخاصِّ وَالْعَامِّ، وَأَشَدَّ مُشاكَلَةً لِحَالِ هٰذَا الْعِلْمِ. فَإِنَّكَ أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذٰلِكَ، لانْفِرَادِكَ بِهٰذَا الْكِتَابِ؛ وَٱجْعَلْه أَوَّلَ الأَبْوَابِ. فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ بحيث رسمت لك[1] فَأَعْلِمْنِي لأَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ وَتقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ، فَيَظْهَرُ فَضْلُكَ وَٱجْتِهَادُكَ فِي مَحَبَّتِنَا؛ فَيَكُونَ لَكَ بِذٰلِكَ فَخْرٌ.



فَلَمَّا سَمِعَ بُزُرْجُمهْرُ مَقالَةَ الْمَلِك خَرَّ لَهُ سَاجِداً، وَقَالَ: أَدامَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَقَاءَ، وَبَلَّغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى؛ لَقَدْ شَرَّفْتَنِي بِذٰلِكَ شَرَفاً بَاقِياً إِلَى الأَبَدِ. ثُمَّ خَرَجَ بُزُرْجُمَهْرُ منْ عنْدِ الْمَلِكِ، فَوَصَفَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْمُعَلِّم، وَمُضِيَّهُ إِلَى بِلاَدِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ والأَدْوِيَةِ؛ وَكَيْفَ تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ؛ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنُوشِرْوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْكِتَابِ. وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضَائِلِ بَرْزَوَيْه وَحِكْمَتِهِ وَخَلائِقِهِ وَمَذْهَبِهِ أَمْراً إِلاَّ نَسَّقَهُ[2]، وَأَتَى بِهِ بِأَجْوَدِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ. ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكَ بِفَرَاغِهِ مِنْهُ.

فَجَمَعَ أَنُوشِرْوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ، وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ؛ وَأَمَرَ بُزُرْجُمَهْر بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَبَرْزَوَيْهِ قَائِمٌ إِلَى جَانِبِ بُزُرْجُمَهْرَ، وَابْتَدَأَ بِوَصْفِ بَرْزَوَيْهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ.

فَفرِحَ الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بُزُرْجُمَهْرُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ. ثُمَّ أَثْنَى الْمَلِكُ

---

(١) بحيث رسمت لك: أي كما رسمت لك.

(٢) نسقه: نظمه.



وَجمِيعُ مَنْ حَضَرَهُ عَلَى بُزُرْجُمهْرَ، وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ؛ وَأَمَرَ لَهُ الْملِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكُسْوَةٍ وحُلِيٍّ وَأَوانٍ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذٰلِكَ شيْئاً غَيْرَ كُسْوَةٍ كَانتْ مِنْ ثِيابِ الْمُلُوكِ. ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذٰلِكَ بَرْزَوَيْهِ وقَبَّلَ رأْسهُ وَيَدَهُ؛ وَأَقْبَلَ بَرْزَوَيْهِ علَى الْمَلِكِ وَقَالَ: أَدامَ اللَّهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسّعَادَةَ فَقَدْ بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بُزُرْجُمَهْرَ مِنْ صُنْعِه الْكِتَابَ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي.

ثم انصرف الجَمْعُ مسرورينَ مبتهجينَ، وكانَ يوماً لا مِثال لهُ.





باب
عرض الكتاب



باب
عرض الكتاب

هٰذا كتَابُ «كَلِيلة وَدِمْنَة»، وَهُوَ مِمَّا وَضَعَهُ عُلَمَاءُ الْهِنْدِ مِنَ الأَمْثَالِ والأَحَادِيثِ الَّتِي أُلْهِمُوا أَنْ يُدْخِلُوا فِيهَا أَبْلَغ مَا وَجَدُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي النَّحْوِ الَّذِي أَرادُوا. وَلَمْ تَزَلِ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ[1] عَنْهُمْ، وَيَحْتالُونَ فِي ذٰلِكَ بِصُنُوفِ الْحِيَلِ؛ وَيَبْتَغُونَ إِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلَلِ. حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَلِ وَضْعُ هٰذَا الْكِتَابِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَهَائِمِ والطَّيْرِ. فَاجْتَمَعَ لَهُمْ بِذٰلِكَ خِلالٌ[2]. أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُتَصَرَّفاً[3] فِي الْقَوْلِ وَشِعَاباً يَأْخُذُونَ مِنْهَا.



وَأَمَّا الْكِتَابُ فَجَمَعَ حِكْمَةً وَلَهْواً: فَاخْتَارَهُ الْحُكَمَاءُ لِحِكْمَتِهِ، والأغرار[4] لِلَهْوِهِ، وَالْمُتَعَلِّمُ مِنَ الأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبَطُ فِي صَدْرِهِ وَلاَ يَدْرِي مَا هُوَ. بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذٰلِكَ بِمَكْتُوبٍ مَرْقُوم. وَكَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لَمَّا اسْتَكْمَلَ الرُّجُولِيَّةَ وَجَدَ أَبَوَيْهِ قَدْ كَنَزَا لَهُ كُنُوزاً وَعَقَدَا لَهُ عُقُوداً اسْتَغْنى بِهَا عَنِ الْكَدْحِ[5] فِيمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ؛ فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ[6] عَلَيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ وُجُوهِ الأَدَبِ.

فأَوَّلُ ما يَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ هٰذَا الْكِتَابَ أَنْ يَعْرِفَ الْوُجُوهَ الَّتِي وُضِعَتْ لَهُ؛ وَإِلَى أَيِّ غَايَةٍ جَرَى مُؤَلِّفُهُ فِيهِ عِنْدَمَا نَسَبَهُ إِلَى الْبَهَائِمِ وَأَضَافَهُ إِلَى غَيْرِ مُفْصِحٍ[7]؛ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنَ الأَوْضَاعِ الَّتِي جَعَلَهَا أَمْثَالاً. فَإِنَّ قَارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ لَمْ يَدْرِ مَا أُرِيد بِتِلْكَ الْمَعَانِي، وَلاَ أَيَّ ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْهَا، وَلاَ أَيَّ نَتِيجَةٍ تَحْصُلُ لَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ

---

(١) يعقل: أي يؤخذ ويفهم.
(٢) خلال: أي فضائل.
(٣) متصرفاً: مذهباً ينصرفون إليه.
(٤) الأغرار: من لا تجربة لهم.
(٥) الكدح: العمل الجاد لكسب قوت اليوم.
(٦) أشرف: أي وصل.
(٧) غير مفصح: أي غير ناطق.



مَا تَضَمَّنَهُ هٰذا الْكِتَابُ. وَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ غَايَتُهُ اسْتِتْمَامَ قِرَاءَتِهِ إِلَى آخِرِهِ دُونَ تَفَهُّمِ مَا يَقْرَأُ مِنْهُ لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ.

مثل الحمالين والرجل الذي اصاب كنزا(*)



وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعِ الْعُلُومِ وَقِرَاءَةِ الْكُتُبِ؛ مِنْ غَيْرِ إِعْمَالِ الرَّوِيَّةِ فِيمَا يَقْرَؤُهُ، كَانَ خَلِيقاً أَلاَّ يُصِيبَهُ إِلاَّ مَا أَصَابَ الرَّجُلَ الَّذِي زَعَمَتِ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ **اجْتَازَ بِبَعْضِ الْمَفَاوِزِ، فَظَهَرَ لَهُ مَوْضِعُ آثَارِ كَنْزٍ؛ فَجَعلَ يَحْفِرُ وَيَطْلُبُ، فَوَقَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنٍ**(١) **وَوَرِقٍ**(٢)؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِنْ أَنَا أَخَذْتُ فِي نَقْلِ هَذَا الْمَال قَلِيلاً

(*) تؤشر القصة إلى الضرر الذي يلحق بالإنسان نتيجة الكسل، وعدم النظر في عواقب الأمور.

(١) عين: نقود ذهبية.

(٢) ورق: نقود فضية.

قَلِيلاً طَالَ عَلَيَّ. وَقَطَعَنِي الاشْتِغَالُ بِنَقْلِهِ وَإِحْرَازِهِ عَنِ اللَّذَّةِ بِمَا أَصَبْتُ مِنْهُ؛ وَلٰكِنْ سَأَسْتَأْجِرُ أَقْوَاماً يَحْمِلُونَهُ إِلَى مَنْزِلِي، وَأَكُونُ أَنَا آخِرَهُمْ، وَلاَ يَكُونُ بَقِيَ وَرَائِي شَيْءٌ يَشْغَلُ فِكْرِي بِنَقْلِهِ؛ وَأَكُونُ قَدِ اسْتَظْهَرْتُ[1] لِنَفْسِي فِي إِرَاحَةِ بَدنِي عَنِ الْكَدِّ بِيَسِيرِ أُجْرَةٍ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا.

ثُمَّ جَاءَ بِالْحَمَّالِينَ، فَجَعَلَ يُحَمِّلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يُطِيقُ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَيَفُوزُ بِهِ؛ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنَ الْكَنْزِ شَيْءٌ. فَانْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ: فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ شَيْئاً، لاَ قَلِيلاً وَلاَ كَثِيراً.



وَإِذَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَمَّالِينَ قَدْ فَازَ بِمَا حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلاَّ الْعَنَاءُ وَالتَّعَبُ: لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ.

مثل طالب العلم والصحيفة الصفراء(*)

وَكَذٰلِكَ مَنْ قَرَأَ هٰذَا الْكِتَابَ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً، لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا بَدَا لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ؛ كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلاً قُدِّمَ لَهُ جَوْزٌ صَحِيحٌ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَكْسِرَهُ وَيَسْتَخرِج مَا فِيهِ.

وَكَانَ أَيْضاً كَالرَّجُلِ الَّذِي طَلَبَ عِلْمَ الْفَصِيحِ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ؛ فَأَتَى صَدِيقاً لَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، لَهُ عِلْمٌ بِالْفَصَاحَةِ، فَأَعْلَمَهُ حَاجَتَهُ إِلَى عِلْمِ الْفَصِيحِ؛ فَرَسَمَ لَهُ صَدِيقُهُ

(*) مغزى القصة دعوة الطالب إلى فهم معنى ما يقرأ ويسمع، وعدم ترديد الكلام المبهم كالببغاء.

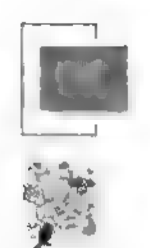
---

(١) استظهرت: استعنت.



فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ فَصِيحَ الْكَلاَمِ وَتَصَارِيفَهُ وَوُجُوهَهُ؛ فَانْصَرَفَ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ فَجَعَلَ يُكْثِرُ قِرَاءَتَهَا وَلاَ يَقِفُ عَلَى مَعَانِيهَا. ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَحْفِلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالأَدَبِ، فَأَخَذَ فِي مُحَاوَرَتِهِمْ؛ فَجَرَتْ لَهُ كَلِمَةٌ أَخْطَأَ فِيهَا؛ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْجَمَاعَةِ: إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ؛ وَالْوَجْهُ غَيْرُ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ.

فَقَالَ: وَكَيْفَ أُخْطِئُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيفَةَ الصَّفْرَاءَ؛ وَهِيَ فِي مَنْزِلِي؟ فَكَانَتْ مَقَالَتُهُ لَهُمْ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَزَادَهُ ذٰلِكَ قُرْباً مِنَ الْجَهْلِ وَبُعْداً مِنَ الأَدَبِ.



مثل رب البيت والسارق(*)

ثُمَّ إِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا فَهِمَ هٰذَا الْكِتَابَ وَبَلَغَ نِهَايَةَ عِلْمِهِ فِيهِ، يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عَلِمَ مِنْهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ؛ وَيَجْعَلَهُ مِثَالاً لاَ يَحِيدُ عَنْهُ.

فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ، كَانَ مَثَلُهُ كَالرَّجُلِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّ سَارِقاً تَسَوَّرَ عَلَيْهِ(١) وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَنْزِلِهِ، فَعَلِمَ بِهِ فَقَالَ: وَاللّٰهِ لأَسْكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ، وَلاَ

(*) تدعو الأمثلة الواردة في القصة إلى اغتنام الفرصة المناسبة التي قد لا تتكرر والاستفادة من الظروف المهيأة في حينها، وعدم الندم على ما فات حيث لات ساعة مندم.

---

(١) تسوّر عليه: أي دخل عليه واثباً من سور بيته.

أَذْعَرُهُ[1]؛ وَلاَ أُعْلِمُهُ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِهِ.

فَإِذَا بَلَغَ مُرَادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَنَغَّصْتُ ذٰلِكَ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُ.

وَجَعَلَ السَّارِقُ يَتَرَدَّدُ، وَطَالَ تَرَدُّدُهُ في جَمْعِهِ مَا يَجِدُهُ؛ فَغَلَبَ الرَّجُلَ النُّعَاسُ فَنَامَ، وَفَرَغَ اللِّصُّ ممَّا أَرَادَ، وَأَمْكَنَهُ الذَّهَابُ. وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ، فَوَجَدَ اللِّصَّ قَدْ أَخَذَ الْمَتَاعَ وَفَازَ بِهِ. فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ بِاللِّصِّ، إِذْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ فِي أَمْرِهِ مَا يَجِبُ. فَالْعِلْمُ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِالْعَمَلِ، وَهُوَ كَالشَّجَرَةِ وَالْعَمَلُ بِهِ كَالثَّمَرَةِ. وَإِنَّمَا صَاحِبُ الْعِلْمِ يَقُومُ بِالْعَمَلِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ؛ وَإِنْ لَمْ



(١) أذعره: أخيفه.



يَسْتَعْمِلْ مَا يَعْلَمُ لاَ يُسَمَّى عَالِماً. وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ عَالِماً بِطَرِيقٍ مَخُوفٍ، ثُمَّ سَلَكَهُ عَلَى عِلْمٍ بِهِ، سُمِّيَ جَاهِلاً؛ وَلَعَلَّهُ إِنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ وَجَدَهَا قَدْ رَكِبَتْ أَهْوَاءً هَجَمَتْ بِهَا فِيمَا هُوَ أَعْرَفُ بِضَرَرِهَا فِيهِ وَأَذَاهَا مِنْ ذٰلِكَ السَّالِكِ فِي الطَّرِيقِ الْمَخُوفِ الَّذِي قَدْ جَهِلَهُ. وَمَنْ رَكِبَ هَوَاهُ وَرَفَضَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ بِمَا جَرَّبَهُ هُو أَوْ أَعْلَمَهُ بِهِ غَيْرُهُ، كَانَ كَالْمَرِيضِ الْعَالِمِ بِرَدِيءِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَجَيِّدِهِ وَخَفِيفِهِ وَثَقِيلِهِ، ثُمَّ يَحْمِلُهُ الشَّرَهُ[1] عَلَى أَكْلِ رَدِيئِهِ وَتَرْكِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى النَّجَاةِ وَالتَّخَلُّصِ مِن عِلَّتِهِ.

البصير والأعمى(*)



وَأَقَلُّ النَّاسِ عُذْراً فِي اجْتِنَابِ مَحْمُودِ الأَفْعَالِ وَارْتِكَابِ مَذْمُومِهَا مَنْ أَبْصَرَ ذٰلِكَ وَمَيَّزَهُ وَعَرَفَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا أَنَّهُ **لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا بَصِيرٌ وَالآخَرُ أَعْمَى سَاقَهُمَا الأَجَلُ إِلَى حُفْرَةٍ فَوَقَعَا فِيهَا، كَانَا إِذَا صَارَا فِي قَاعِهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ،** غَيْرَ أَنَّ الْبَصِيرَ أَقَلُّ عُذْراً عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيرِ: إِذْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ

(*) الأمثلة المضروبة في هذه القصص تؤشر إلى عدة أمور منها: أن على الإنسان أن يضع برنامجاً محدداً لحياته يمكن تحقيقه بالعمل الجاد وعدم الاتكال على الصدفة والقدر، والتعلم من أخطائه وعدم تكرارها.

(١) الشره: الطمع والجشع.

بِهِمَا؛ وَذَاكَ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ جَاهِلٌ غَيْرُ عَارِفٍ.

وعلَى الْعالم أَنْ يبْدَأ بنفْسِهِ وَيُؤَدِّبهَا بعِلْمِهِ، ولا تَكُون غايَتهُ اقْتِناؤُهُ الْعِلْمَ لِمُعَاونة غيْرِهِ، ويكُون كَالْعَيْنِ الَّتِي يَشْرَبُ النَّاسُ مَاءَهَا ولَيْس لها فِي ذلِكَ شيْءٌ من الْمَنْفعَةِ. وكَدُودةِ الْقَزِّ الَّتِي تُحْكِمُ صَنْعَتَهُ وَلاَ تَنْتَفِعُ بِهِ. فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَبْدَأ بعِظَةِ نَفْسهِ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذلِك أَنْ يَقْبِسَهُ[1]؛ فَإِنَّ خِلاَلاً[2] يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا أَنْ يَقْتَنِيَها ويُقْبِسَهَا: مِنْهَا الْعِلْمُ وَالْمَالُ. ومنْها اتِّخاذُ الْمَعْرُوفِ. وَلَيْس لِلْعَالِمِ أَنْ يَعِيب امْرَأً بِشَيْءٍ فِيهِ مِثْلُهُ، وَيَكُونَ كَالأَعْمَى الَّذِي يُعَيِّرُ الأَعْمَى بِعَمَاهُ.

وَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ أَمْراً أَنْ يكُونَ لَهُ فِيهِ غَايَةٌ وَنِهَايَةٌ، وَيَعْمَلُ بِهَا، وَيَقِفُ عِنْدَهَا؛ وَلاَ يَتَمَادَى فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ: مَنْ سَارَ إِلى غيْرِ غَايَة يُوشكُ أَنْ تَنْقَطِعَ[3] بِهِ مَطِيَّتُهُ؛ وَأَنَّهُ كَانَ حَقِيقاً أَلاَّ يُعَنِّيَ[4] نَفْسَهُ فِي طَلَبِ مَا لاَ حَدَّ لَهُ، وَمَا لَمْ ينلْهُ أَحدٌ قَبْلَهُ، وَلاَ يَتَأَسَّفَ عَلَيْهِ؛ وَلاَ يَكُونَ لِدُنْيَاهُ مُؤْثِراً عَلَى آخِرَتِهِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُعَلِّقْ قَلْبَهُ بِالْغَايَاتِ قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا. وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ إِنَّهُمَا يَجْمُلاَنِ[5] بِكُلِّ أَحدٍ: أَحدُهُمَا النُّسْكُ[6] وَالآخَرُ الْمَالُ الْحَلاَلُ وَلاَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَن يُؤَنِّبَ نَفْسَهُ عَلَى مَا فَاتَهُ وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ؛ فَرُبَّمَا أَتَاحَ اللَّهُ لَهُ مَا يَهْنَأُ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ.



(١) يقبسه: يستفيده.
(٢) خلالا: خصالاً.
(٣) تنقطع: تعجز عن السير.
(٤) يعنّي: يُجهد، يُتعب.
(٥) يجملان: يحسنان.
(٦) النسك: التعبد والتقوى.




اللـص والفقيـر

وَمِنْ أَمْثَالِ هٰذَا أَنَّ رَجُلاً كَانَ بِهِ فَاقَةٌ وَجُوعٌ وَعُرْيٌ، فَأَلْجَأَهُ[1] ذٰلِكَ إِلَى أَنْ سَأَلَ أَقَارِبَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ[2] يَعُودُ بِهِ عَلَيْهِ. فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إِذْ بَصُرَ بِسَارِقٍ فِيهِ، فَقَالَ: وَاللّٰهِ مَا فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أَخَافُ عَلَيْهِ: فَلْيَجْهَدِ السَّارِقُ جُهْدَهُ. **فَبَيْنَمَا السَّارِقُ يَجُولُ إِذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خَابِيَةٍ فِيهَا حِنْطَةٌ**؛ فَقَالَ السَّارِقُ: وَاللّٰهِ مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَنَائِيَ اللَّيْلَةَ بَاطِلاً. وَلَعَلِّي لاَ أَصِلُ إِلَى





(١) ألجأه: اضطره ودفعه. (٢) فضل: زيادة عن حاجته.

مَوْضِعٍ آخَرَ، وَلَكِنْ سَأَحْمِلُ هٰذِهِ الْحِنْطَةَ. ثُمَّ بَسَطَ قَمِيصَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الْحِنْطَةَ.



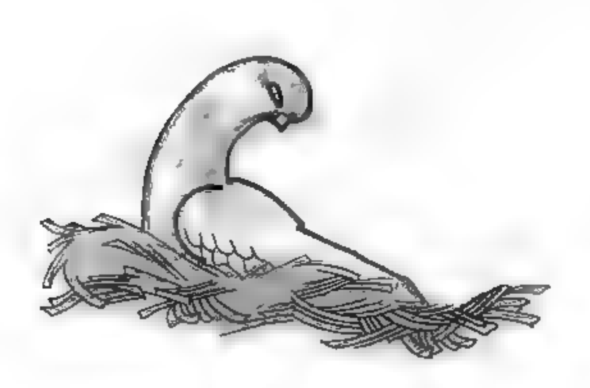
فَقَالَ الرَّجُلُ: أَيَذْهَبُ هٰذَا بِالْحِنْطَةِ وَلَيْسَ وَرَائِي سِوَاهَا، فَيَجْتَمِعُ عَلَيَّ مَعَ الْعُرْيِ ذَهَابُ مَا كُنْتُ أَقْتَاتُ بِهِ؟ وَمَا تَجْتَمِعُ وَاللّٰهِ هَاتَانِ الْخَلَّتَانِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ أَهْلَكَتَاهُ. ثُمَّ صَاحَ بِالسَّارِقِ، وَأَخَذَ هِرَاوَةً[1] كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ؛ فَلَمْ يَكُنْ لِلسَّارِقِ حِيلَةٌ إِلاَّ الْهَرَبَ مِنْهُ، وَتَرَكَ قَمِيصَهُ وَنَجَا بِنَفْسِهِ؛ وَغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كَاسِياً.





وَلَيْسَ يَنْبَغِي للعاقل أَنْ يَرْكَنَ إِلَى مِثْلِ هٰذَا المثل فَيتَّكل عليه وَيَدَعَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ لِصَلاَحِ مَعَاشِهِ؛ وَلاَ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ تُؤَاتِيهِ الْمَقَادِيرُ وَتُسَاعِدُهُ عَلَى غَيْرِ الْتِمَاسٍ مِنْهُ: لِأَنَّ أُولَئِكَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ؛ وَإنما الْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي الْكَدِّ وَالسَّعْيِ فِيمَا يُصْلِحُ أَمْرَهُ وَيَنَالُ بِهِ مَا أَرَادَ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حِرْصُهُ عَلَى مَا طَابَ كَسْبُهُ وَحَسُنَ نَفْعُهُ؛ وَلاَ يَتَعَرَّضَ لِمَا يَجْلِبُ عليْهِ الْعَنَاءَ وَالشَّقَاءَ؛ فَيَكُونَ كَالْحَمَامَةِ الَّتِي تُفْرِخُ الْفِرَاخَ فَتُؤْخَذُ وَتُذْبَحُ، ثُمَّ لاَ يَمْنَعُهَا ذٰلِكَ أَنْ تَعُودَ



(١) هراوة: عصا غليظة.



فَتُفْرِخَ مَوْضِعَهَا، وَتُقِيمَ بِمَكَانِهَا فَتُؤْخَذَ الثَّانِيَةُ مِنْ فِرَاخِهَا فَتُذْبَحَ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدّاً يُوقَفُ عَلَيْهِ. وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي أَشْيَاءَ حَدَّهَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِهَا. وَيُقَالُ: مَنْ كَانَ سَعْيُهُ لآخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ فَحَيَاتُهُ لَهُ وَعَلَيْهِ. وَيُقَالُ فِي ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِصْلاحُهَا وَبَذْلُ جُهْدِهِ فِيهَا: مِنْهَا أَمْرُ مَعِيشَتِهِ؛ وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ بَعْدَهُ. وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ لَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ عَمَلٌ. مِنْهَا التَّوَانِي؛ وَمِنْهَا تَضْيِيعُ الْفُرَصِ؛ وَمِنْهَا التَّصْدِيقُ لِكُلِّ مُخْبِرٍ؛ ومنها التكذيبُ لكل عارفٍ. فَرُبَّ مُخْبِرٍ بِشَيْءٍ عَقَلَهُ[1] وَلا يَعْرِفُ ٱسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقُهُ.





وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مُتَّهِماً؛ وَلاَ يَقْبَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَدِيثاً؛ وَلاَ يَتَمَادَى فِي الْخَطَأ إِذَا ظَهَرَ لَهُ خَطَؤُهُ وَلاَ يُقْدِمَ عَلَى أَمْرٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابُ، وَتَتَّضِحَ لَهُ الْحَقِيقَةُ؛ وَلاَ يَكُونَ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الطَّرِيقِ، فَيَسْتَمِرُّ عَلَى الضَّلاَلِ، فَلاَ يَزْدَادُ فِي السَّيْرِ إِلاَّ جَهْداً، وَعَنِ الْقَصْدِ إِلاَّ بُعْداً؛ وَكَالرَّجُلِ الَّذِي تَقْذَى عَيْنُهُ[2] فَلاَ يَزَالُ يَحُكُّهَا، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْحَكُّ سَبَباً لِذَهَابِهَا.

---

(١) عقله: أدركه بعقله.

(٢) تقذى عينه: يصيبها قذى من غبار أو نحوه.

وَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، ويَعلَمَ أنَّ ما كُتِبَ سَوفَ يكون، وأنَّ مَن أتى صاحِبَهُ بما يكرَهُ لنفسِهِ فقد ظَلَمَ. ويأْخُذَ بالْحَزْمِ في أُمورِهِ، وَيُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لنَفْسِهِ ويكره لهم ما يكره لها، فلا يطلُبُ أمراً فيه مضَرَّةٌ لغيرِهِ طَلَباً لصلاحِ نفسِهِ بفسادِ غيرِهِ، فإنَّ كلَّ غادِرٍ مأخوذٌ. ولاَ يَلْتَمِسُ صَلاَحَ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ.

التاجر(*)

ومَنْ فَعَلَ ذلكَ كَانَ خَليقاً أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ مِنْ رَفِيقِهِ. فَإِنَّهُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ تَاجِرٌ، وَكَانَ لَهُ شَرِيكٌ، فَاسْتَأْجَرَا حَانُوتاً، وَجعَلاَ مَتاعَهُمَا فِيهِ. وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَرِيبَ الْمَنْزِلِ مِنَ الْحَانُوتِ؛ فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَسْرِقَ عِدْلاً[1] مِنْ



(*) تحض القصة على عدم خيانة الصديق وأن من يلجأ للمكر والخداع وسيلة للكسب غالباً ما يكون هو ضحية مكره وخداعه.

(١) عدلاً: الكيس الكبير فيه البضاعة.



أعْدَالِ رَفِيقِهِ؛ وَمَكرَ الْحِيلَةَ في ذٰلِكَ. وَقَالَ: إنْ أَتيْتُ لَيْلاً لَمْ آمَنْ أَنْ أَحمِلَ عِدْلاً مِنْ أَعْدَالِي أَوْ رِزْمَةً مِنْ رِزَمِي وَلاَ أَعْرِفَهَا؛ فَيَذْهَبَ عَنَائِي وَتَعَبِي بَاطِلاً. فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، وأَلْقَاهُ عَلَى الْعِدْلِ الَّذِي أَضْمَرَ أَخْذَهُ. ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ. وَجَاءَ رَفِيقُهُ بَعْدَ ذٰلكَ لِيُصْلِحَ أَعْدَالَهُ، فَوَجَدَ رِدَاءَ شَرِيكِهِ عَلَى بَعْضِ أَعْدَالِهِ، فَقَالَ: وَاللّٰهِ هٰذَا رِدَاءُ صَاحِبِي؛ وَلاَ أَحْسَبُهُ إلاَّ قَدْ نَسِيَهُ. وَمَا الرَّأْيُ أَنْ أَدَعَهُ هَاهُنَا؛ وَلٰكِنْ أَجْعَلُهُ عَلَى رِزَمِهِ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْبِقُنِي إِلَى الْحَانُوتِ فَيَجِدَهُ حَيْثُ يُحِبُّ. ثُمَّ أَخَذَ الرِّدَاءَ فَأَلْقَاهُ عَلَى عِدْلٍ مِنْ أَعْدَالِ رفِيقِهِ، وأَقْفَلَ الْحانُوتَ، وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ.





فَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ أَتَى رَفِيقُهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ قَدْ وَاطَأَهُ عَلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَضَمِنَ لَهُ جُعْلاً[1] عَلَى حَمْلِهِ؛ فَصَارَ إِلَى الْحَانُوتِ؛ فَالْتَمَسَ الإِزَارَ فِي الظُّلْمَةِ فَوَجَدَهُ عَلَى الْعِدْلِ؛ فَاحْتَمَلَ ذٰلِكَ الْعِدْلَ، وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَالرَّجُلُ، وَجَعَلاَ يَتَرَاوَحَانِ[2] عَلَى حَمْلِهِ؛ حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ، وَرَمَى نَفْسَهُ تَعِباً. فَلَمَّا أَصْبَحَ افْتَقَدَهُ فَإِذَا هُوَ بَعْضُ أَعْدَالِهِ؛ فَنَدِمَ أَشَدَّ النَّدَامَةِ.

ثُمَّ انْطَلَقَ نَحْوَ الْحَانُوتِ، فَوَجَدَ شَرِيكَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ فَفَتَحَ الْحَانُوتَ وَوَجَدَ الْعِدْلَ مَفْقُوداً. فَاغْتَمَّ لِذٰلِكَ غَمًّا شَدِيداً، وَقَالَ: وَاسَوْءَتَاهُ[3] مِنْ رَفِيقٍ صَالِحٍ قَدِ ائْتَمَنَنِي عَلَى مَالِهِ وَخَلَّفَنِي فِيهِ! مَاذَا يَكُونُ حَالِي عِنْدَهُ؟ وَلَسْتُ أَشُكُّ فِي تُهَمَتِهِ إِيَّايَ. وَلٰكِنْ قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ.

---

(١) جعلاً: أجرة.

(٢) يتراوحان: يتعاونان ويتناوبان العمل.

(٣) واسوءتاهُ: السوءة الأمر القبيح يريد واخجلتاهُ.



ثُمَّ أَتَى صَاحِبَهُ فَوَجَدَهُ مُغْتَمًّا، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ؛ فَقَالَ إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُ الأَعْدَالَ، وَفَقَدْتُ عِدْلاً مِنْ أَعْدَالِكَ، وَلاَ أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ؛ وَإِنِّي لاَ أَشُكُّ فِي تُهَمَتِكَ إِيَّايَ؛ وَإِنِّي قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ. فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي لاَ تَغْتَمَّ، فَإِنَّ الْخِيَانَةَ شَرُّ مَا عَمِلَهُ الإِنْسَانُ، وَالْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ لاَ يُؤَدِّيَانِ إِلَى خَيْرٍ؛ وَصَاحِبُهُمَا مَغْرُورٌ أَبَداً، وَمَا عَادَ وَبَالُ[1] الْبَغْيِ[2] إِلاَّ عَلَى صَاحِبِهِ؛ وَأَنَا أَحَدُ مَنْ مَكَرَ وَخَدَعَ وَاحْتَالَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهِ، وقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ. فَقَالَ لَهُ رَفِيقُهُ: مَا مَثَلُكَ إِلاَّ مَثَلُ اللِّصِّ وَالتَّاجِرِ. فَقَالَ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟



اللص والتاجر

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ تَاجِراً كَانَ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ خَابِيَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَمْلُوءَةٌ حِنْطَةً، وَالأُخْرَى مَمْلُوءَةٌ ذَهَباً. فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللُّصُوصِ زَمَاناً؛ حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُ الأَيَّامِ تَشَاغَلَ التَّاجِرُ عَنِ الْمَنْزِلِ؛ فَتَغَفَّلَهُ اللِّصُّ، وَدَخَلَ الْمَنْزِلَ، وَكَمَنَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهِ.

---

(١) وبال: أي سوء العاقبة.

(٢) البغي: الظلم.





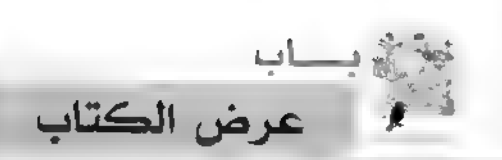
فَلَمَّا هَمَّ بِأَخْذِ الْخَابِيَةِ الَّتِي فِيهَا الدَّنَانِيرُ أَخَذَ الَّتِي فِيهَا الْحِنْطَةُ، وَظَنَّهَا الَّتِي فِيهَا الذَّهَبُ؛ وَلَمْ يَزَلْ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ حَتَّى أَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ فَلَمَّا فَتَحَهَا وَعَلِمَ مَا فِيهَا نَدِمَ.

قَالَ لَهُ الْخَائِنُ: مَا أَبْعَدْتَ الْمَثَلَ، وَلاَ تَجَاوَزْتَ الْقِيَاسَ؛ وَقَدِ اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي وَخَطَئِي عَلَيْكَ، وَعَزِيزٌ[1] عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هٰذَا كَهٰذَا. غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ الرَّدِيئَةَ تَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ. فَقَبِلَ الرجُلُ مَعْذِرَتَهُ، وَأَضْرَبَ[2] عَنْ تَوْبِيخِهِ وَعَنِ الثِّقَةِ بِهِ؛ وَنَدِمَ هُوَ عِنْدَ مَا عَايَنَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ وَتَقْدِيمِ جَهْلِهِ.

---

(١) عزيز: أي صعب.

(٢) أضرب: امتنع.



الإخوة الثلاثة[*]





وَقَدْ يَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي كِتَابِنَا هٰذَا أَلاَّ تَكُونَ غَايَتُهُ التَّصَفُّحَ لِتَزَاوِيقِهِ[١]، بَلْ يُشْرِفُ عَلَى مَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الأَمْثَالِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْهُ؛ وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمَةٍ، وَيُعْمِلَ فِيهَا رَوِيَّتَهُ؛ وَيَكُونَ مِثْلَ أَصْغَرِ الإِخْوَةِ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خَلَّفَ لَهُمْ أَبُوهُمْ الْمَالَ الْكَثِيرَ، فَتَنَازَعُوهُ بَيْنَهُمْ؛ فَأَمَّا الْكَبِيرَانِ فَإِنَّهُمَا أَسْرَعَا فِي إِتْلاَفِهِ وَإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ؛ وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَإِنَّهُ عِنْدَمَا نَظَرَ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَخَوَاهُ مِنْ إِسْرَافِهِمَا وَتَخَلِّيهِمَا مِنَ الْمَالِ، أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُشَاوِرُهَا وَقَالَ: يَا نَفْسِي إِنَّمَا الْمَالُ يَطْلُبُهُ صَاحِبُهُ،

(*) تعطي هاتان القصتان عبرتين: أولاهما أن المال الذي يتم اكتسابه من غير تعب وكد لا يبالي الجاهل في إنفاقه كيفما اتفق بينما يحرص العاقل على المحافظة عليه وحسن استخدامه، وثانيهما أن العفو عن الخطأ فضيلة ومن محاسن الأخلاق.

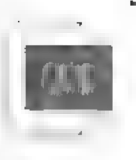
---

(١) التصفح لتزاويقه: أي النظر فيها.



وَيَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لِبَقاءِ حَالِهِ، وَصَلاَحِ مَعَاشِهِ وَدُنْيَاهُ، وَشَرَفِ مَنْزِلَته فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَاسْتِغْنَائِهِ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، وَصَرْفِهِ فِي وَجْهِهِ، مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، والإِنْفَاقِ عَلَى الْوَلَدِ، وَالإِفْضَالِ عَلَى الإِخْوَانِ. فَمنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلاَ يُنْفِقُهُ فِي حُقُوقِهِ، كَانَ كَالَّذِي يُعَدُّ فَقِيراً وَإِنْ كَانَ مُوسِراً. وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِمْسَاكَهُ والْقِيَامَ عَلَيْهِ، لَمْ يَعْدَمِ الأَمْرَيْنِ جَمِيعاً مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ، وَحَمْدٍ يُضَافُ إِلَيْهِ؛ وَمتى قَصد إِنْفَاقَهُ عَلى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي حُدَّتْ[1]، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ. وَلٰكِنَّ الرَّأْيَ أَنْ أُمْسِكَ هٰذَا الْمالَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللّٰهُ بِهِ، وَيُغْنِيَ أَخَوَيَّ عَلَى يَدَيَّ، فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي وَمَالُ أَبِيهِمَا.

وَإِنَّ أَوْلَى الإِنْفَاق عَلى صِلَةِ الرَّحِم وَإِنْ بَعُدَتْ، فَكَيْفَ بِأَخَوَيّ؟ فَأَنْفَذ فَأَحْضَرَهُمَا وَشَاطَرَهُما مَالَهُ.





الصياد والصدفة(*)

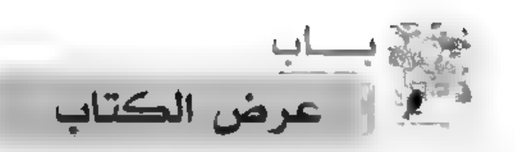
وَكَذٰلِكَ يَجِبُ عَلى قَارِىءِ هٰذَا الْكِتَابِ أَن يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهِ، وَلاَ يَظُنَّ أَنَّ نَتِيجَتَهُ الإِخْبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ أَوْ مُحَاوَرةِ سَبُعٍ لِثَوْرٍ، فَيَنْصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُود.

وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ الصَّيَّاد الَّذي كَانَ فِي بَعْضِ الْخُلْجَانِ[2] يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ فَرَأَى ذَاتَ

(*) العبرة التي يمكن استخلاصها من قصة الصياد والصدفة في الحالتين هي عدم التسرع في الحكم على الأمور وإعطاء الأولوية لما هو أنفع للإنسان وأجدى.

(١) حدّت: أي رسمت وعرضت.

(٢) الخلجان: جمع خليج.



يَوْمٍ فِي عَقِيقِ[1] الْمَاءِ صَدَفَةً تَتَلأْلأُ حُسْناً، فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَراً لَهُ قِيمَةٌ.

وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَتَهُ فِي الْبَحْرِ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ، فَخَلاَّهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدَفَةَ، فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لاَ شَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ. فَنَدِمَ عَلَىٰ تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ. وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ الْمَكَانِ، وَأَلْقَى شَبَكَتَهُ، فَأَصَابَ حُوتاً صَغِيراً، وَرَأَى أَيْضاً صَدَفَةً سَنِيَّةً[2]، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا، فَتَرَكَهَا.

---

(١) عقيق: مسيل.

(٢) سنيّة أي كريمة.



فَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ الصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا، فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالاً.

وَكَذٰلِكَ الْجُهَّالُ إِذا أَغْفَلُوا أَمْرَ التَّفَكُّرِ فِي هٰذَا الْكِتَابِ، وَتَرَكُوا الْوُقُوفَ عَلى أَسْرَارِ مَعَانِيهِ، وَأَخَذُوا بِظَاهِرِهِ. وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوابِ الْهَزْلِ. كَانَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضاً طَيِّبَةً حُرَّةً[1] وَحَبًّا صَحِيحاً، فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا، حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا وَأَيْنَعَتْ، تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرِ وَقَطْعِ الشَّوْكِ؛ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً.



وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي هٰذَا الْكِتَابِ أَن يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ: أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَهَائِمِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ لِيُسَارِعَ إِلَى قِرَاءَتِهِ أَهْلُ الْهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ، فَتُسْتَمَالَ بِهِ قُلُوبُهُمْ لأَنَّهُ الْغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ الْحَيَوَانِ. وَالثَّانِي إِظْهَارُ

(١) أرضاً حرّة: لا رمل فيها.

خَيالاتِ الْحَيوانِ بِصُنُوفِ الأَصْبَاغِ وَالأَلْوَانِ، لِيَكُونَ أُنْساً لِقُلُوبِ الْمُلوكِ، وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ الصُّوَرِ. وَالثَّالِثُ أَن يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ الصِّفَةِ، فَيَتَّخِذَهُ الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةُ، فَيَكْثُرَ بِذَلِكَ انْتِسَاخُهُ، وَلاَ يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ[1] عَلَى مُرُورِ الأَيَّامِ؛ وَلِيَنْتَفِعَ بِذٰلِكَ الْمُصَوِّرُ وَالنَّاسِخُ أَبَداً. وَالْغَرَضُ الرَّابِعُ، وَهُوَ الأَقْصَى، وَذٰلِكَ مَخْصُوصٌ بِالْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً.



قال عبدُ الله بنُ الْمُقَفَّع: لَمَّا رَأَيْتُ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ فَسَّرُوا هٰذَا الْكِتَابَ مِنَ الْهِنْدِيَّةِ إِلَى الْفَارِسِيَّةِ، وَأَلْحَقُوا بِهِ بَاباً، وَهُوَ بَابُ بَرْزَوَيْهِ الطَّبِيبِ، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهِ مَا ذَكَرْنَا فِي هٰذَا الْبَابِ لِمَنْ أَرَادَ قِرَاءَتَهُ وَاقْتِبَاسَ عُلُومِهِ وَفَوَائِدِهِ، وَضَعْنَا لَهُ هٰذَا الْبَابَ، فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ تُرْشَدْ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى.

(١) فيخلق: أي فيبلى.



باب

بَرْزَوَيْهِ

بـــاب
بـرزويـــــه

قَالَ بَرْزَوَيْهِ بْنُ أَزْهَرَ، رَأْسُ أَطِبَّاءِ فَارِسَ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى انْتِسَاخَ هٰذَا الْكِتَابِ، وَتَرْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ (وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ): أَبِي كَانَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ. وَكَانَتْ أُمّي مِنْ عُظَمَاءِ بُيُوتِ الزَّمَازِمَةِ(١). وَكَانَ مَنْشَئِي فِي نِعْمَةٍ كَامِلَةٍ، وَكُنْتُ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبَوَيّ عَلَيْهِمَا؛ وَكَانَا بِيَ أَشَدَّ احْتِفَاظاً مِنْ دُونِ إِخْوَتِي، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِينَ، أَسْلَمَانِي إِلَى الْمُؤَدِّبِ؛ فَلَمَّا حَذِقْتُ الْكِتَابَةَ، شَكَرْتُ أَبَوَيَّ؛ وَنَظَرْتُ فِي الْعِلْمِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا ابْتَدَأْتُ بِهِ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ، عِلْمُ الطِّبِّ: لأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ فَضْلَهُ. وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ مِنْهُ عِلْماً ازْدَدْتُ فِيهِ حِرْصاً، وَلَهُ اتِّبَاعاً.





(١) الزمازمة: طائفة معروفة عندهم.



فَلَمَّا هَمَّتْ نَفْسِي بِمُدَاوَاةِ الْمَرْضَى، وَعَزَمْتُ عَلَى ذٰلِكَ آمَرْتُها[1] ثُمَّ خَيَّرْتُهَا بَيْنَ الأُمُورِ الأَرْبَعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ، وَفِيهَا يَرْغَبُونَ، وَلَهَا يَسْعَوْنَ. فَقُلْتُ: أَيَّ هٰذِهِ الْخِلاَلِ أَبْتَغِي فِي عِلْمِي؟ وَأَيُّهَا أَحْرَى بِي فَأُدْرِكَ مِنْهُ حَاجَتِي؟ أَلْمَالُ، أَمِ الذِّكْرُ، أَمِ اللَّذَّاتُ أَمِ الآخِرَةُ؟

وَكُنْتُ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطِّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الأَطِبَّاءِ مَن وَاظَبَ عَلَى طِبِّهِ، لاَ يَبْتَغِي إِلاَّ أَجْرَ الآخِرَةِ. فَرَأَيْتُ أَنْ أَطْلُبَ الاشْتِغَالَ بِالطِّبِّ ابْتِغَاءَ الآخِرَةِ ورجاءَ أَجرِ المُنقَلَبِ[2]، لِئَلاَّ أَكُونَ كَالتَّاجِرِ الَّذِي بَاعَ يَاقُوتَةً ثَمِينَةً بِخَرَزَةٍ لاَ تُسَاوِي شَيْئاً؛ مَعَ أَنِي قَدْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الأَوَّلِينَ أَنَّ الطَّبِيبَ الَّذِي يَبْتَغِي بِطِبِّهِ أَجْرَ الآخِرَةِ لاَ يَنْقُصُهُ ذٰلِكَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا. وَإِنَّ مَثَلَهُ مَثَلُ الزَّارِعِ الَّذِي يَعْمُرُ[3] أَرْضَهُ ابْتِغَاءَ الزَّرْعِ لاَ ابْتِغَاءَ الْعُشْبِ، ثُمَّ هِيَ لاَ مَحَالَةَ نَابِتٌ فِيهَا أَلْوَانُ الْعُشْبِ مَعَ يَانِعِ الزَّرْعِ.



فَأَقْبَلْتُ عَلَى مُدَاوَاةِ الْمَرْضَى ابْتِغَاءَ أَجْرِ الآخِرَةِ، فَلَمْ أَدَعْ مَرِيضاً أَرْجُو لَهُ

---

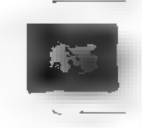
(١) آمرتها: شاورتها. (٢) المنقلب: العاقبة.

(٣) يعمرها: أي يصلحها.

الْبُرْءِ، وآخر لا أَرْجُو لَهُ ذٰلكَ، إِلاَّ أني أَطْمَعُ أن يَخِفَّ عَنْهُ بَعْضُ الْمَرَضِ، إلاَّ بالغَثِّ في مُداواتِهِ مَا أمْكَنَنِي الْقِيَامُ عَلَيْهِ بِنَفْسِي؛ وَمَن لَمْ أَقْدِرْ عَلى الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَصَفْتَ لَهُ مَا يُصْلِحُ، وَأعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّوَاءِ مَا يُعَالَجُ بِهِ. وَلَمْ أُرِدْ مِمَّنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذٰلِكَ جَزاءً وَلاَ مُكَافَأَةً، وَلَمْ أَغْبِطْ أَحَداً مِنْ نُظَرَائِي[1] الَّذِينَ هُمْ دُونِي فِي الْعِلْمِ وَفَوْقِي فِي الْجَاهِ وَالْمَالِ وَغَيْرِهِمَا مِمّا لاَ يَعُودُ بِصَلاَحٍ وَلاَ حُسْنِ سِيرَةٍ قَوْلاً وَلاَ عَمَلاً.

ولمّا تاقَتْ نفْسِي إِلَى غِشْيانِهِمْ وَتَمَنَّتْ منازِلَهُمْ أَثْبتُّ لَهَا الْخُصُومَةَ[2]؛ فَقُلْتُ لها: يَا نَفْسُ، أَمَا تَعْرِفِينَ نَفْعَكِ مِنْ ضُرِّكِ؟ أَلاَ تَنْتَهِينَ عَنْ تَمني مَا لاَ يَنالُهُ أَحَدٌ إِلاَّ قَلَّ انْتفاعُهُ بِهِ، وَكَثُرَ عَنَاؤُهُ فيه، وَاشْتَدَّتِ الْمَؤُونَةُ[3] عَلَيْهِ وَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ؟





يَا نَفْسِي، أَمَا تَذْكُرِينَ مَا بَعْدَ هٰذِهِ الدَّارِ، فَيُنْسِيَكِ مَا تَشْرَهِينَ[4] إِلَيْهِ مِنْهَا؟ أَلاَ تَسْتَحْيِينَ مِنْ مُشارَكَةِ الْفُجّارِ فِي حُبِّ هٰذِهِ الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ الَّتِي مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ، وَلَيْسَ بِبَاقٍ عَلَيْهِ؛ فَلاَ يَأْلَفُهَا إِلاَّ الْمُغْتَرُّونَ الْجَاهِلُونَ؟

يَا نَفْسُ انْظُرِي فِي أَمْرِكِ، وَانْصَرِفِي عَنْ هٰذَا السَّفَهِ[5]، وَأَقْبِلِي بِقُوَّتِكِ وَسَعْيِكِ عَلَى تَقْدِيمِ الْخَيْرِ،

---

(١) نظرائي: أمثالي في المهنة والمنافسين لي.

(٢) الخصومة: المنافسة والعداء.

(٣) اشتدّت المؤونة: الثقل والشدّة.

(٤) تشرهين إليه: أي تحرصين عليه حرصاً شديداً.

(٥) السّفه: الجهل.

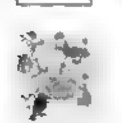


وَإِيَّاكِ وَالشَّرَّ؛ وَاذْكُرِي أَنَّ هٰذَا الْجَسَدَ مَوْجُودٌ لِآفَاتٍ، وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ أَخْلاَطاً فَاسِدَةً قَذِرَةً، تَعْقِدُها الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ إِلى نَفَادٍ؛ كَالصَّنَمِ الْمُفَصَّلَةِ أَعْضَاؤُهُ إِذَا رُكِّبَتْ وَوُضِعَتْ، يَجْمَعُهَا مِسْمَارٌ وَاحِدٌ، وَيَضُمُّ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، فَإِذَا أُخِذَ ذٰلِكَ الْمِسْمَارُ تَسَاقَطَتِ الأَوْصَالُ.

يَا نَفْسُ، لاَ تَغْتَرِّي بِصُحْبَةِ أَحِبَّائِكِ وَأَصْحَابِكِ، وَلاَ تَحْرِصِي عَلَى ذٰلِكَ كُلَّ الْحِرْصِ؛ فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ، عَلَى مَا فِيهَا مِنَ السُّرورِ، كَثِيرَةُ الْمَؤُونَةِ، وَعَاقِبَةُ ذٰلِكَ الْفِرَاقُ. ومَثَلُهَا مَثَلُ الْمِغْرَفَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي جِدَّتِها لِسُخُونَةِ الْمَرَقِ، فَإِذَا انْكَسَرَتْ صَارَتْ وَقُوداً.



يَا نَفْسُ، لاَ يَحْمِلَنَّكِ أَهْلُكِ وَأَقَارِبُكِ عَلَى جَمْعِ مَا تَهْلِكِينَ فِيهِ، إِرَادَةَ صِلَتِهِمْ[1]؛ فَإِذَا أَنْتِ كَالدُّخْنَةِ[2] الأَرِجَةِ[3] الَّتِي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ آخَرُونَ بِرِيحِهَا.



يا نفسِ لا تَمَلِّي من عيادةِ المَرضى ومُداواتِهِمْ واعتَبِري كيفَ يَجهدُ الرجلُ أن يُفرِّجَ عن مَضيمٍ واحدٍ كُربَةً[4] واحدَةً ويَستَنقِذُهُ منها رَجاءَ الأجرِ. فكيفَ بالطَّبيبِ الذي يَفعَلُ كثيراً من ذلك معَ كثيرينَ! إنَّ هذا لخَليقٌ أن يَعظُمَ رجاؤُهُ ويُوثِّقَ بحُسنِ الثَّوابِ.

يَا نَفْسُ، لاَ يَبْعُدْ عَلَيْكِ أَمْرُ الآخِرَةِ فَتَمِيلِي إِلَى الْعَاجِلَةِ فِي اسْتِعْجَالِ الْقَلِيلِ

---

(١) صلتهم: أي الإحسان إليهم.

(٢) كالدَخنة: نوع من الطيب.

(٣) الأرجة: الزكية الرائحة والمنعشة

(٤) كربة: حزناً.



وَبَيْعِ الْكَثِيرِ بِالْيَسِيرِ؛ كَالتَّاجِرِ الَّذِي كَانَ لَهُ مِلْءُ بَيْتٍ مِنَ الصَّنْدَلِ[1]، فَقَالَ: إِنْ بِعْتُهُ وَزْناً طَالَ عَلَيَّ، فَبَاعَهُ جُزَافاً[2] بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ. وَقَدْ وَجَدْتُ آرَاءَ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً وَأَهْوَاءَهُمْ مُتَبَايِنَةً؛ وَكُلٌّ عَلَى كُلٍّ عَادٍ[3]، وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُغْتَابٌ وَفِيه واقعٌ[4]، وَلِقَوْلِهِ مُخَالِفٌ.



المصدق المخدوع(*)

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذٰلِكَ لَمْ أَجِدْ إِلَى مُتَابَعَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَبِيلاً؛ وَعَرَفْتُ أَني إِنْ صَدَّقْتُ أَحَداً مِنْهُمْ لاَ عِلْمَ لِي بِحَالِهِ، كُنْتُ فِي ذٰلِكَ كَالْمُصَدِّقِ الْمَخْدُوعِ الَّذِي زَعَمُوا فِي شَأْنِهِ أَنَّ سَارِقاً علاَ ظَهْرَ بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ

(*) تحمل القصة حكمة تدعو الإنسان إلى التروي في الحكم على الأشياء وعدم تصديق كل ما يسمعه من قول الآخرين.

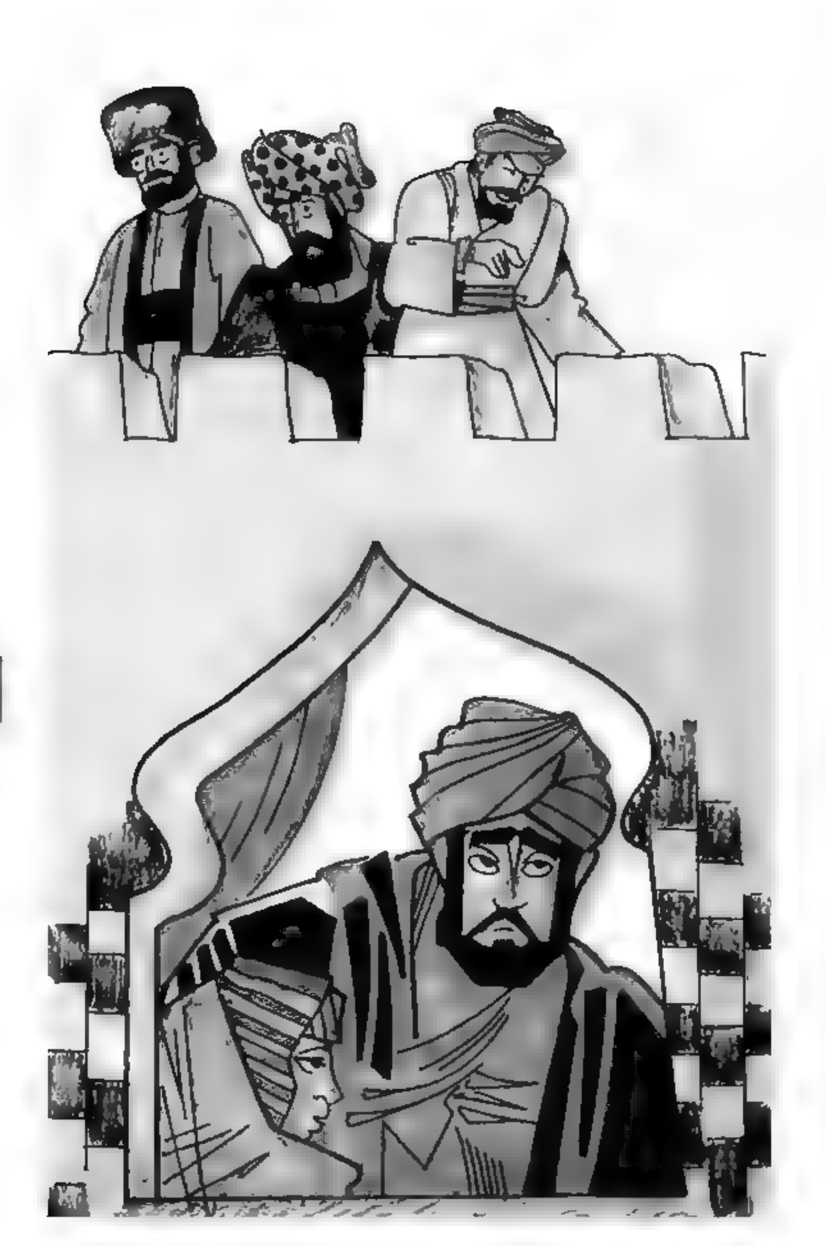
(١) الصندل: حبّ طيب الرائحة.

(٢) جزافاً: بلا وزن ولا كيل.

(٣) عاد: ساط وهاجم.

(٤) واقع: سابّ له.





أَصْحَابِهِ، فَاسْتَيْقَظَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ مِنْ حَرَكَةِ أَقْدَامِهِمْ، فَعَرَّفَ امْرَأَتَهُ ذٰلِكَ؛ فَقَالَ لَهَا: رُوَيْداً **إِنِي لأَحْسَبُ اللُّصُوصَ عَلَوُا الْبَيْتَ،** فَأَيْقِظِينِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ اللُّصُوصُ وَقُولِي أَلاَ تُخْبِرُنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أَمْوَالِكَ هٰذِهِ الْكَثِيرَةِ وَكُنُوزِكَ الْعَظِيمَةِ؟ فَإِذَا نَهَيْتُكِ عَنْ هٰذَا السُّؤَالِ فَأَلِحِّي عَلَيَّ بِالسُّؤَالِ. فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذٰلِكَ وَسَأَلَتْهُ كَمَا أَمَرَهَا؛ وَأَنْصَتَتِ[1] اللُّصُوصُ إِلَى سَمَاعِ قَوْلِهِمَا.

فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ:

أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، قَدْ سَاقَكِ الْقَدَرُ إِلَى رِزْقٍ وَاسِعٍ كَثِيرٍ: فَكُلِي وَاسْكُتِي، وَلاَ تَسْأَلِي

---

(١) أنصتت: أصغت.



عَنْ أَمْرٍ إِنْ أَخْبَرْتُكِ بِهِ لَمْ آمَنْ أَن يَسْمَعَهُ أَحَدٌ، فَيَكُونَ فِي ذٰلِكَ مَا أَكْرَهُ وَتَكْرَهِينَ.

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَلَعَمْرِي مَا بِقُرْبِنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلاَمَنَا! فَقَالَ لَهَا: فَإِنِّي أُخْبِرُكِ أَنِّي لَمْ أَجْمَعْ هٰذِهِ الأَمْوَالَ إِلاَّ مِنَ السَّرِقَةِ.





قَالَتْ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟ وَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ؟ قَالَ: ذٰلِك لِعِلْمٍ أَصَبْتُهُ فِي السَّرِقَة، وَكَانَ الأَمْرُ عَلَيَّ يَسيراً، وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ يَتَّهِمَنِي أَحَدٌ أَوْ يَرْتَابَ فِيَّ. قَالَتْ: فَاذْكُرْ لِي ذٰلِك، قَالَ: كُنْتُ أَذْهَبُ في اللَّيْلَةِ الْمُقْمِرَةِ، أَنَا وَأَصْحَابِي، حَتَّى أَعْلُوَ دَارَ بَعْضِ الأَغْنِيَاءِ مِثْلِنَا؛ فَأَنْتَهِيَ إِلَى الْكُوَّةِ[1] الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضَّوْءُ فَأَرْقِيَ[2] بِهٰذِهِ الرُّقْيَةِ وَهِيَ شولم شولم سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَأَعْتَنِقُ الضَّوْءَ؛ فَلاَ يُحِسُّ بِوُقُوعِي أَحَدٌ، فَلاَ أَدَعُ مَالاً وَلاَ مَتَاعاً إِلاَّ أَخَذْتُهُ.

ثُمَّ أَرْقِي بِتِلْكَ الرُّقْيَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَأَعْتَنِقُ الضَّوْءَ؛ فَيَجْذِبُنِي. فَأَصْعَدُ إِلَى أَصْحَابِي، فَنَمْضِي سَالِمِينَ آمِنِينَ.

فَلَمَّا سَمِعَ اللُّصُوصُ ذٰلِكَ قَالُوا: قَدْ ظَفِرْنَا اللَّيْلَةَ بِمَا نُرِيدُ مِنَ الْمَالِ؛ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطَالُوا الْمُكْثَ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَدْ هَجَعَا[3]؛ فَقَامَ قَائِدُهُمْ

---

(١) الكوّة: خرق في الحائط.

(٢) أرقي: أتعوذ بترديد بعض الكلمات.

(٣) هجعا: ناما.



إِلَى مَدْخَلِ الضَّوْءِ؛ وَقَالَ: شولم شولم سَبْعَ مَرَّاتٍ، **ثُمَّ اعْتَنَقَ الضَّوْءَ لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنْزِلِ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنَكَّساً**[1]. **فَوَثَبَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِهِرَاوَتِهِ**[2]، وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الْمُصَدِّقُ الْمَخْدُوعُ الْمُغْتَرُّ بِمَا لاَ يَكُونُ أَبَداً؛ وَهٰذِهِ ثَمَرَةُ رُقْيَتِكَ.



(١) منكساً: منقلباً. (٢) هراوته: عصاه الضخمة.

فَلَمَّا تَحرَّزْتُ مِنْ تَصْدِيقِ مَا لاَ يَكُونُ، وَلَمْ آمَنْ إِنْ صَدَّقْتُهُ أن يُوقِعَنِي فِي مَهْلكةٍ عُدْتُ إلَى طَلَبِ الأَدْيَانِ وَالْتِمَاسِ الْعَدْلِ مِنْها؛ فلَمْ أجِدْ عِنْدَ أحَدٍ مِمَّنْ كَلَّمْتُهُ جَوَاباً فِيمَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ فِيهَا، وَلَمْ أرَ فِيمَا كَلَّمُونِي بِهِ شَيْئاً يَحِقُّ لِي في عَقْلِي أَنْ أُصَدقَ بِهِ وَلاَ أَنْ أَتَّبِعَهُ. فَقُلْتُ لَمَّا لَمْ أَجِدْ ثِقَةً آخُذُ مِنْهُ، الرَّأْيُ أَنْ أَلْزَمَ دِينَ آبَائِي وَأَجْدَادِي الَّذِي وَجَدْتُهُمْ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا ذَهَبْتُ أَلْتمِسُ الْعُذْرَ لِنَفْسِي فِي لُزُومِ دِينِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ، لَمْ أَجِدْ لَها عَلَى الثُّبُوتِ عَلى دِينِ الآبَاءِ طَاقَةً؛ بَلْ وَجَدْتُهَا تُرِيدُ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عَنِ الأَدْيَانِ وَالْمَسْأَلَةِ عَنْها، وَلِلنَّظَرِ فِيهَا؛ فَهَجَسَ[1] فِي قَلْبِي وَخَطَرَ عَلَى بَالِي قُرْبُ الأَجَلِ وَسُرْعَةُ انْقِطَاعِ الدُّنْيَا وَاعْتِبَاطُ[2] أَهْلِها وَتخَرُّمُ[3] الدَّهْرِ حَيَاتَهُمْ. فَفَكَّرْتُ فِي ذٰلِكَ.



وَقُلْتُ: أَمَّا أَنَا فَلَعَلِّي قَدْ قَرُبَ أَجَلِي وحانَتْ نُقْلَتِي[4]، وقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ أُمُوراً مَحْمُودَةً أَرْجُو أَنْ تَكُونَ أَصْلَحَ الأَعْمَالِ.

وَلَعَلَّ تَرَدُّدِي شَغَلَنِي عَنْ خَيْرٍ كُنْتُ أَعْمَلُهُ فَيَكُونَ أَجَلِي دُونَ ما تَطْمَحُ إِلَيْهِ نَفْسِي ويَطْلُبُهُ أَمَلِي. وَيُصِيبنِي ما أَصَابَ الرَّجُلَ وَالْخَادِمَ.

---

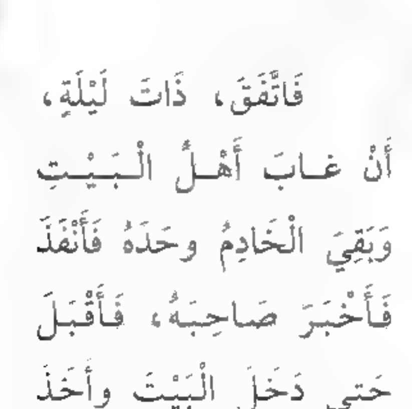
(١) هجس: بمعنى خطر.
(٢) اعتباط: يقال اعتبط الموت فلاناً أي أخذه بلا علّة.
(٣) تخرّم: استئصال.
(٤) نقلتي: انتقالي إلى دار الآخرة، موتي.



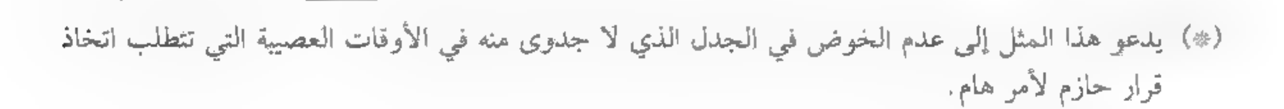
مثل الخادم والرجل(*)



زَعَمُوا أَنَّهُ تَوَاطَأَ[1] رَجُلٌ مَعَ خَادِمٍ في بَيْتٍ لأَحَدِ الأَغْنِيَاءِ عَلىٰ أَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَيْتَ في كُلِّ لَيْلَةٍ يَغِيبُ أَهْلُهُ فَيَجْمَعَ لَهُ الْخَادِمُ مِمَّا في الْبَيْتِ فَيَذْهَبَ بِهِ وَيَبِيعَهُ وَيَتَشَاطَرَا ثَمَنَهُ.



فَاتَّفَقَ، ذَاتَ لَيْلَةٍ، أَنْ غابَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَبَقِيَ الْخَادِمُ وحَدَهُ فَأَنْفَذَ فَأَخْبَرَ صَاحِبَهُ، فَأَقْبَلَ حَتى دَخَلَ الْبَيْتَ وأَخَذَ



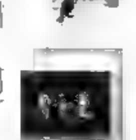
(*) يدعو هذا المثل إلى عدم الخوض في الجدل الذي لا جدوى منه في الأوقات العصيبة التي تتطلب اتخاذ قرار حازم لأمر هام.

(١) تواطأ: اتفق.

في الجَمْعِ ممَّا فِيهِ. وَبَيْنَا هُمَا يَجْمَعَانِ إِذْ قُرِعَ الْبَابُ: وَكانَ لِلْبَيْتِ بابٌ آخَرُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الرَّجُلُ. وكانَ ذٰلِكَ الْبَابُ عِنْدَ جُبِّ[1] الْمَاءِ. فَقَالَ الْخَادِمُ لِلرَّجُلِ، عَلى عَجَلٍ مِنْهُ وَخِيفَةٍ: بادِرِ اخْرُجْ مِنَ الْبَابِ الَّذِي عِنْدَ جُبِّ الْمَاءِ! وأَشَارَ لَهُ إِلىٰ مَوْضِعِهِ.



فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلىٰ ذٰلِكَ الْمَكَانِ فَوَجَدَ الْبَابَ ولٰكِنْ لَمْ يَجِدْ جُبَّ الْمَاءِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ وقالَ لَهُ: أَمَّا الْبَابُ فَوَجَدْتُهُ، وأَمَّا الْجُبُّ فَلَمْ أَجِدْهُ. فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَائِقُ[2] ومَا تَصْنَعُ بِالْجُبِّ؟ أَنا دَلَلْتُكَ بِهِ لِتَعْرِفَ الْبَابَ، فَإِذْ قَدْ عَرَفْتَهُ فَاذْهَبْ عاجِلاً، فَقَالَ لَهُ: لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ صِدْقاً، فَلِمَ ذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُوَ هُنَاكَ؟ فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ، أَيُّهَا الأَحْمَقُ، انْجُ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْحُمْقَ والتَّرَدُّدَ! فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَمْضِي وقَدْ خَلَطْتَ[3] عَلَيَّ وذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُنَاكَ؟ فَلَمْ يَزَلْ عَلىٰ مِثْلِ هذِهِ الْحَالِ حَتَّى دَخَلَ رَبُّ الْبَيْتِ فَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ[4] وأَوجَعَهُ ضَرْباً وَرَفَعَهُ[5] إِلىٰ السُّلْطَانِ.



فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرَدُّدِ وَالتَّحَوُّلِ، رَأَيْتُ أَلاَّ أَتَعَرَّضَ لِمَا أَتَخَوَّفُ مِنْهُ الْمَكْرُوهَ؛ وَأَنْ أَقْتَصِرَ عَلَى عَمَلٍ تَشْهَدُ النَّفْسُ أَنَّهُ يُوَافِقُ كُلَّ الأَدْيَانِ.

---

(١) جبّ: بئر. (٢) المائق: الأحمق في غباوة.

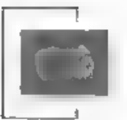
(٣) خلطت: أي خلطت الحق بالباطل.

(٤) تلبيبه: جمع ثيابه عند صدره وعنقه ساحباً إياه.

(٥) رفعه: شكاه.



فَكَفَفْتُ يَدِي عَنِ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ، وَطَرَحْتُ نَفْسِي عَنِ الْمَكْرُوهِ وَالْغَضَبِ وَالسَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ[1] وَالْغِيبَةِ، وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي أَلاَّ أَبْغِيَ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ أُكَذِّبَ بِالْبَعْثِ وَلاَ الْقِيَامَةِ وَلاَ الثَّوَابِ وَلا الْعِقَابِ؛ وَزَايَلْتُ[2] الأَشْرَارَ بِقَلْبِي، وَحَاوَلْتُ الْجُلُوسَ مَعَ الأَخْيَارِ بِجُهْدِي، وَرَأَيْتُ الصَّلاَحَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ صَاحِبٌ وَلاَ قَرِينٌ[3]، وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذَا وَفَّقَ اللَّهُ وَأَعَانَ يَسِيراً؛ وَوَجَدْتُهُ يَدُلُّ عَلَى الْخَيْرِ وَيُشِيرُ بِالنُّصْحِ، فِعْلَ الصَّدِيقِ بِالصَّدِيقِ؛ وَوَجَدْتُهُ لاَ يَنْقُصُ عَلَى الإِنْفَاقِ مِنْهُ؛ بَلْ يَزْدَادُ جِدَّةً وَحُسْناً؛ وَوَجَدْتُه لاَ خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَن يَغْصِبَهُ[4]، وَلاَ مِنَ الْمَاءِ أَنْ يُغْرِقَهُ، وَلاَ مِنَ النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ، وَلاَ مِنَ اللُّصُوصِ أَنْ تَسْرِقَهُ، وَلاَ مِنَ السِّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُمَزِّقَهُ.





التاجر والضارب بالصنج(*)

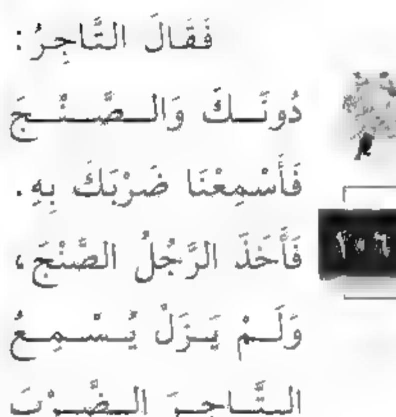


وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ السَّاهِيَ اللاَّهِيَ الْمُؤْثِرَ الْيَسِيرَ يَنَالُهُ فِي يَوْمِهِ وَيَعْدَمُهُ فِي غَدِهِ عَلَى الْكَثِيرِ الْبَاقِي نَعِيمُهُ، يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ، فَاسْتَأْجَرَ لِثَقْبِهِ رَجُلاً، الْيَوْمُ بِمِائَةِ دِينَارٍ؛ وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَعْمَلَ؛ وَإِذَا

(*) تفيد هذه القصة وجوب إعطاء الاهتمام والأولوية للعمل الجاد والمفيد وترك اللهو المكلف الذي لا طائل تحته.

---

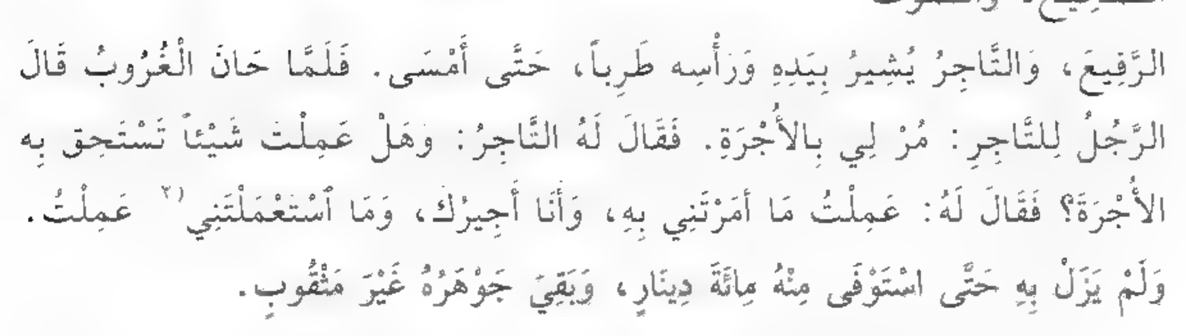
(١) البهتان: أن يقال عن الناس ما لم يفعلوه.
(٢) زايلت: فارقت.
(٣) قرين: مصاحب وعشير.
(٤) يغصبه: يأخذه قهراً وظلماً.



فِي نَاحِيةِ الْبَيْتِ صَنْجٌ[1] مَوْضُوعٌ. فَقَالَ التَّاجِرُ لِلصانِعِ: هَلْ تُحْسِنُ أَنْ تَلْعَبَ بِالصَّنْجِ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَكَانَ بِلَعِبِهِ مَاهِراً.



فَقَالَ التَّاجِرُ: دُونَكَ وَالصَّنْجَ فَأَسْمِعْنَا ضَرْبَكَ بِهِ. فَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّنْجَ، وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرَ الضَّرْبَ الصَّحِيحَ، وَالصَّوْتَ الرَّفِيعَ، وَالتَّاجِرُ يُشِيرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِه طَرِباً، حَتَّى أَمْسَى. فَلَمَّا حَانَ الْغُرُوبُ قَالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ: مُرْ لِي بِالأُجْرَةِ. فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: وَهَلْ عَمِلْتَ شَيْئاً تَسْتَحِق بِه الأُجْرَةَ؟ فَقَالَ لَهُ: عَمِلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، وَأَنَا أَجِيرُكَ، وَمَا ٱسْتَعْمَلْتَنِي[2] عَمِلْتُ. وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِائَةَ دِينَارٍ، وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَثْقُوبٍ.



فَلَمْ أَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا نَظَراً، إلاَّ ازْدَدْتُ فيها زَهَادَةً وَمِنْهَا هَرَباً.

---

(١) صنج: من آلات الطرب.
(٢) استعملتني: طلبت مني عمله.



وَوَجَدْتُ النُّسُكَ هُوَ الَّذِي يُمَهِّدُ لِلْمعادِ[1] كَمَا يُمَهِّدُ الْوَالِدُ لِوَلَدِهِ؛ وَوَجَدْتُهُ هُوَ الْبَابَ الْمَفْتُوحَ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ؛ وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فِعْلَتَهُ بِالسَّكِينَةِ[2] فَشَكَرَ؛ وَتَوَاضَعَ وَقَنِعَ فَاسْتَغْنَى، وَرَضِيَ وَلَمْ يَهْتَمَّ، وَخَلَعَ الدُّنْيَا فَنَجَا مِنَ الشُّرُورِ، وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ طَاهِراً، وَاطَّرَحَ الْحَسَدَ فَوَجَبَتْ لَهُ الْمَحَبَّةُ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ وَاسْتَعْمَلَ الْعَقْلَ وَأَبْصَرَ الْعَاقِبَةَ فَأَمِنَ النَّدَامَةَ، وَلَمْ يَخَفِ النَّاسَ وَلَمْ يَدِبَّ إِلَيْهِمْ فَسَلِمَ مِنْهُمْ.

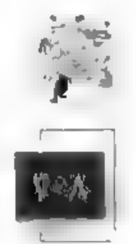


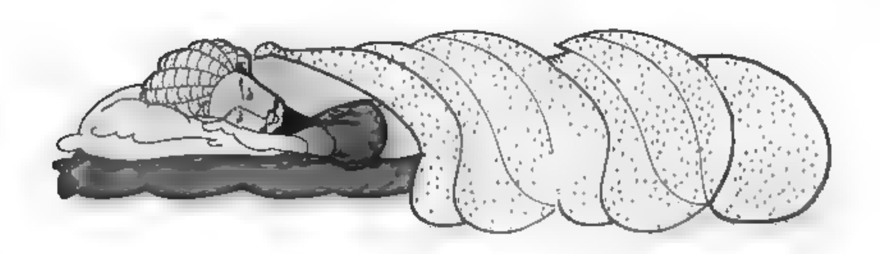
فَلَمْ أَزْدَدْ فِي أَمْرِ النُّسُكِ نَظَراً، إِلاَّ ازْدَدْتُ فِيهِ رَغْبَةً، حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ. ثُمَّ تَخَوَّفْتُ أَلاَّ أَصْبِرَ عَلَى عَيْشِ النَّاسِكِ، وَلَمْ آمَنْ إِنْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا وَأَخَذْتُ فِي النُّسُكِ، أَنْ أَضْعُفَ عَنْ ذٰلِكَ؛ وَرَفَضْتُ أَعْمَالاً كُنْتُ أَرْجُو عائِدَتَهَا[3]؛ وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُهَا فَأَنْتَفِعُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَكُونُ مَثَلِي فِي ذٰلِكَ مَثَلَ الْكَلْبِ الَّذِي مَرَّ بِنَهْرٍ وَفِي فِيهِ ضِلَعٌ؛ فَرَأَى ظِلَّهَا فِي الْمَاءِ، فَهَوَى لِيَأْخُذَهَا، فَأَتْلَفَ مَا كَانَ مَعَهُ؛ وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمَاءِ شَيْئاً. فَهِبْتُ[4] النُّسُكَ مَهَابَةً شَدِيدَةً، وَخِفْتُ مِنَ الضَّجَرِ وَقِلَّةِ الصَّبْرِ، وَأَرَدْتُ الثُّبُوتَ عَلَى حَالَتِي الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا.

---

(١) للمعاد: للآخرة.
(٢) السكينة: الطمأنينة والهدوء.
(٣) عائدتها: نفعها.
(٤) هبت: خفت.

ثُمَّ بَدَا لِيَ أَنْ أَقِيسَ مَا أَخَافُ أَلاَّ أَصْبِرَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّظَفِ[1] والأَذَى وَالضِّيقِ والْخُشُونَةِ فِي النُّسُكِ؛ وَمَا يُصِيبُ صَاحِبَ الدُّنْيَا مِنَ الْبَلاَءِ؛ وَكَانَ عِنْدِيَ أَنَّهُ لَيْس شيْءٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا إِلاَّ وَهُوَ مُتَحَوِّلٌ إِلَى الأَذَى وَمُوَلِّدٌ لِلْحُزْنِ. فَالدُّنْيَا كَالْمَاءِ الْمِلْحِ الَّذِي لاَ يَزْدَادُ شَارِبُهُ شُرْباً، إِلاَّ ازْدَادَ عَطَشاً. وَهِيَ كَالْعَظْمِ الَّذِي يُصِيبُهُ[2] الْكَلْبُ فَيَجِدُ فِيهِ رِيحَ اللَّحْمِ؛ فَلاَ يَزَالُ يَطْلُبُ ذَلِكَ حَتَّى يُدْمِيَ فَاهُ. وكَالْحِدَأَةِ[3] الَّتِي تَظْفَرُ بِقِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ، فَلاَ تَزَالُ تَدُورُ وَتَدْأَبُ[4] حَتَّى تَعْيَا وَتَتْعَبَ؛ فَإِذَا تَعِبَتْ أَلْقَتْ مَا مَعَهَا. وَكَالْكُوزِ مِنَ الْعَسَلِ الَّذِي فِي أَسْفَلِهِ السُّمُّ الَّذِي يُذَاقُ مِنْهُ حَلاَوَةٌ عَاجِلَةٌ وَآخِرُهُ مَوْتٌ ذُعَافٌ، وَكَأَحْلاَمِ النَّائِمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ذَهَبَ الْفَرَحُ. وكالبَرقِ الذي يُضيءُ يَسيراً فَيُطمِعُ بالنُّور ثم يَذهَبُ بَغتَةً ويَرجعُ الظّلامُ. وكدودَةِ القَزِّ التي تَنسِجُ نَهاراً وليلاً وتَهلِكُ وَسَطَ نَسيجِها الذي كلَّما زادَتْ منه نَسجاً زادَ استِحكاماً ومَنعاً لها عنِ الخُروجِ.





(١) الشظف: سوء العيش.

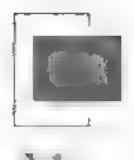
(٢) يصيبه: يجده.

(٣) الحدأة: طائر يعرف عند العامة بالشوحة.

(٤) تدأب: تجتهد.



فلمَّا فَكَّرتُ في هذه الأمورِ رَجَعتُ إلى طَلَبِ النُّسكِ إذْ تَفَكَّرتُ فيها وفي شُرورِها وأحزانِها. ثم خاصَمتُ نفسي إذ هي في شُرورِها سارِحَةٌ وقد لا تَثبُتُ على أمرٍ تَعزِمُ عليه كقاضٍ سَمِعَ من خَصمٍ واحدٍ فَحَكَمَ له، فلمَّا حَضَرَ الخَصمُ الثاني عادَ إلى الأوّلِ فَقَضى عليه.





ثم نَظَرتُ في الذي أُكابِدُهُ من احتِمالِ النُّسكِ وضيقِهِ فقلتُ: ما أصغَرَ هذه المَشَقَّةَ في جانِبِ رَوْحِ[1] الأبَدِ وراحَتِهِ. ثم نَظَرتُ فيما تَشرَهُ إليه النَّفسُ البَهيمِيَّةُ[2] من لَذَّةِ الدنيا فقلتُ ما أمرَّ هذا وأوجَعَهُ وهو يَدفَعُ إلى عذابِ الأبَدِ وأهوالِهِ. وكيفَ لا يَستَحلي الرجلُ مرارةً قليلَةً تَعقُبُها حلاوةٌ طويلةٌ، وكيفَ لا تَمَرُّ[3] عليه حَلاوَةٌ قليلةٌ تَعقُبُها مرارةٌ دائِمَةٌ؟ وقلتُ لو أنَّ رجلاً عُرِضَ عليه أن يَعيشَ مئةَ سنةٍ لا يأتي عليه يومٌ واحدٌ إلا بُضِعَ منه بَضعَةٌ غيرَ أنَّه يُشرطُ له أنَّه إذا استَوفى السِّنينَ المئةَ نَجا من كلِّ ألَمٍ وأذى وصارَ إلى الأمنِ والسُّرورِ كانَ حَقيقاً أن لا يَرى تلك السِّنينَ شيئاً. فكيفَ يأبى الصَّبرَ على أيامٍ قَلائِلَ يَعيشُها في النُّسكِ، وأذى تلك الأيامِ قليلٌ يُعقِبُ خيراً

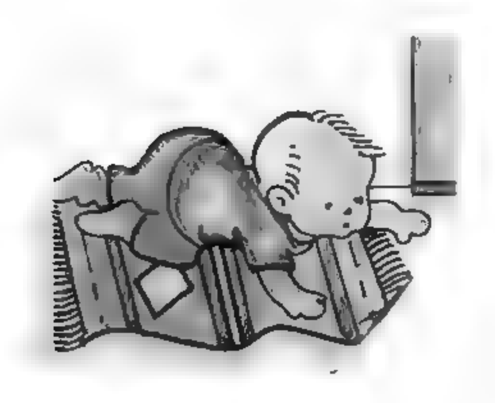
---

(١) روح: سرور.

(٢) البهيمية: أي فيما يشتدّ حرصها عليه.

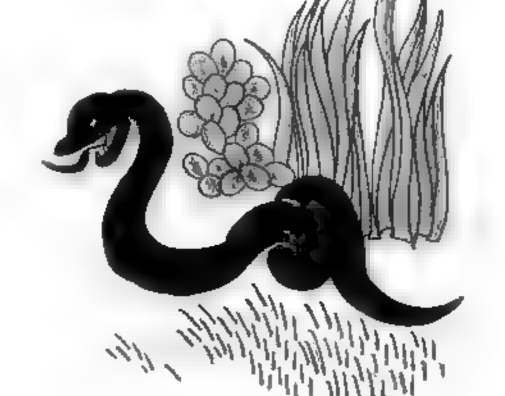
(٣) تمرّ: من المرارة.

كثيراً؟ أوَلَيسَ أنَّ الدُّنيا كلَّها بَلاءٌ وعذابٌ والإنسانُ إنَّما يَتَقَلَّبُ في عذابِها من حينِ يُولَدُ إلى أن يَستَوفِيَ أيامَ حَياتِهِ!



فإنَّه إذا كانَ طِفلاً ذاقَ مِنَ العذابِ ألواناً. إن جاعَ فليسَ به استِطعامٌ أو عَطِشَ فليسَ به استِسقاءٌ أو وَجِعَ فليسَ به استِغاثَةٌ. معَ ما يَلقى مِنَ الوَضعِ والحَملِ واللَّفِّ والدَّهنِ والمَسحِ. إن أُنيمَ على ظَهرِهِ لم يَستَطِعْ قِياماً ولا تَقَلُّباً ثم يَلقى أصنافَ العذابِ ما دام رَضيعاً. فإذا أفلَتَ من عذابِ الرَّضاعِ أخَذَ في عذابِ الأدَبِ فأُذيقَ منه ألواناً من عُنفِ المُعَلِّمِ وضَجَرِ الدَّرسِ وسآمةِ[1] الكِتابَةِ. ثم له مِنَ الدَّواءِ والحِمْيَةِ[2] والأسقامِ والأوجاعِ أوفى نَصيبٍ. فإذا أدرَكَ لَحِقَهُ هَمُّ الأهلِ وكانت هِمَّتُهُ في جَمعِ المالِ وتربيَةِ الوَلَدِ ومُخاطَرَةِ الطَّلَبِ والسَّعيِ والكَدِّ والتَّعَبِ. وهو معَ كلِّ ذلك يَتَقَلَّبُ مع أعدائِهِ الباطِنِيينَ اللازِمينَ له. وهُمُ المِرَّةُ الصَّفراءُ والمِرَّةُ السَّوداءُ والرِّيحُ والبَلغَمُ والدَّمُ معَ السُّمِ المُميتِ والحَيَّةِ اللاَّدِغَةِ والخَوفِ مِنَ السِّباعِ والهَوام معَ تَقَلُّبِ الفُصولِ مِنَ الحَرِّ والبَردِ والأمطارِ والرِّياحِ والثُّلوجِ والشَّيطانِ الدَّائِمِ والقَرينِ السَّوْءِ وغيرِ ذلك مِنَ الطوارىءِ الرَّديئَةِ ثمَّ أنواعِ عذابِ الهَرَمِ لِمَن يَبلُغُهُ.





فلو لم يَخَفْ من هذه الأمورِ شيئاً وكانَ قد

(١) سآمة: ملل.
(٢) الحمية: منع المريض عما يضره.



أمِنَ وَوَثِقَ بالسَّلامةِ منها فلم يُفكِّرْ بها لَوَجَبَ عليه أن يكون مُفكِّراً في السَّاعَةِ التي يَحضُرُهُ فيها المَوتُ ويُفارِقُ الدُّنيا فَيَذكُرَ ما هو نازِلٌ به في تلك السَّاعَةِ ممَّا هو أشَدُّ جِدًّا من ذلك من فِراقِ الأحِبَّةِ والأقارِبِ والمالِ وكلِّ مَضنُونٍ به مِنَ الدُّنيا معَ الإشرافِ على الهَولِ العَظيمِ بَعدَ المَوتِ. فلو لم يَفعَلْ ذلكَ لكانَ حَقيقاً أن يُعَدَّ عاجِزاً مُفَرِّطاً[1] مُحِباً للدَّناءَةِ مُستَحِقًّا لِلَّوم.



فمَنْ ذا الذي يَعلَمُ هذا ولا يَستَعِدُّ له قَبلَ حُلولِهِ ويَحتالُ لِغَدٍ جُهدَهُ في الحِيلَةِ ويَرفُضُ ما يَشغَلُهُ ويُلهيهِ من شَهواتِ الدُّنيا وغُرورِها ولا سِيَّما في هذا الزمانِ الشَّبيهِ بالصَّافي وهو كَدِرٌ. فإنَّه وإن كانَ المَلِكُ حازماً عَظيمَ المَقدِرَةِ رَفيعَ الهِمَّةِ بَليغَ الفَحصِ عَدلاً مَرْجُوًّا صَدوقاً شَكوراً رَحبَ الذِّراعِ مَواظباً على الحُسنى عالِماً بالناسِ مُهتَمّاً بأمورِ رعيَّتِهِ ناظِراً في أحوالِهِمْ مُحِبّاً للعِلمِ والخيرِ والأخيارِ شديداً على الظَّلَمَةِ غيرَ جبانٍ ولا خَفيفِ القِيادِ[2] رفيقاً بالتَّوَسُّعِ على الرعِيَّةِ فيما يُحِبُّونَ والدَّفع لِما يَكرَهونَ، فإنَّا قد نرى الزمانَ مُدبِراً[3] بكلِّ مكانٍ حتى كأنَّ أمورَ الصِدقِ قد نُزِعَتْ مِنَ الناسِ فأصبَحَ ما كانَ عَزيزاً فَقْدُهُ مَفقوداً ومَوجوداً ما كان ضائِراً[4] وُجودُهُ. وكأنَّ الخيرَ أصبَحَ ذابِلاً والشَّرَّ ناضِراً. وكأنَّ الفَهمَ أصبَحَ قد زالَتْ سُبُلُهُ. وكأنَّ الحقَّ وَلَّى كَسيراً[5] وأقبَلَ الباطِلُ تابِعَهُ. وكأنَّ اتِّباعَ الهوى وإضاعَةَ الحُكمِ أصبَحَ

---

(١) مفرطاً: مقصراً.
(٢) ولا خفيف القياد: أي غير سهل الانقياد.
(٣) مدبراً: مولياً.
(٤) ضائراً: مضراً.
(٥) كسيراً: أي مكسور الخاطر.

بالحُكَّام مُوَكَّلاً[١] وأصبح المَظلومُ بالحَيفِ[٢] مُقِرًّا والظَّالِمُ بنفسهِ مُستَطيلاً[٣]. وكأنَّ الحِرصَ أصبَحَ فاغِراً فاهُ من كلِّ جهةٍ يَتلقَّفُ[٤] ما قَرُبَ مِنْهُ وما بَعُدَ. وكأنَّ الرِضى أصبَحَ مجهولاً. وكأنَّ الأشرارَ يَقصِدونَ السَّماءَ صُعوداً وكأنَّ الأخيارَ يُريدونَ بَطنَ الأرضِ. وأصبَحَتِ المُروءَةُ مَقذوفاً بها من أعلى شَرَفٍ[٥] إلى أسفَلِ دَرَكٍ[٦] وأصبَحَتِ الدَّناءَةُ ممكَّنةً وأصبَحَ السُلطانُ مُنتَقِلاً عن أهلِ الفَضلِ إلى أهلِ النَّقص. وكأنَّ الدُّنيا جَذِلَةٌ مَسورَةٌ تقولُ قد غُيِّبَتِ الخيراتُ وأُظهِرَتِ السَّيِّئاتُ.



فلمَّا فَكَّرتُ في الدُّنيا وأمورِها وأنَّ الإنسانَ هو أشرَفُ الخَلقِ فيها وأفضَلُهُ ثم هو لا يَتَقَلَّبُ إلاَّ في الشُّرورِ والهُمومِ عَجِبتُ من ذلك كلَّ العَجَبِ وتَحَقَّقتُ أنَّه ليسَ إنسانٌ ذو عَقلٍ يَعلَمُ ذلك ثم لا يحتالُ لنفسِهِ في النَّجاةِ ويَلتَمِسُ الخَلاصَ. وإن فَرَّطَ في ذلكَ فهو عندي عاجِزٌ قليلُ الرَّأيِ ناقِصُ الهِمَّةِ فيما له وعليه. ثم نَظَرتُ فإذا الناسُ كلُّهُم مُفَرِّطونَ في ذلك مُغفِلونَ له، فَقَضَيتُ العَجَبَ من ذلك، والتَمَستُ[٧] لَهُم عُذراً فيه، ونَظَرتُ فإذا الإنسانُ لا يَمنَعُهُ عنِ الاحتِيالِ لنفسِهِ إلا لَذَّةٌ صغيرَةٌ حَقيرَةٌ مِنَ النَّظَرِ والسَّمعِ والشَّمِّ والذَّوقِ واللَّمسِ لعلَّهُ أن يُصيبَ منها الطَّفيفَ أو يَقتَني منها اليَسيرَ. فإذا ذلك يَشغَلُهُ ويَذهَبُ به عنِ الاهتِمامِ لنفسِهِ وطَلَبِ النَّجاةِ لها.

(١) موكّلاً: أي لازماً لهم.
(٢) الحيف: الظلم والجور.
(٣) مستطيلاً: متكبراً.
(٤) يتلقف: يتناول.
(٥) أعلى شرف: مكان عالٍ.
(٦) أسفل درك: قعر الشيء.
(٧) التمست: طلبت.




مثل الرجل الهارب من الفيل(*)



فالتَمَستُ للإنسانِ مَثَلاً فإذا مَثَلُهُ مَثَلُ رجلٍ نَجا من خَوفِ فيلٍ هائِجٍ إلى بِئرٍ فَتَدَلَّى فيها وتَعَلَّقَ بغُصنَينِ كانا على سمائِها. فَوَقَعَتْ رِجلاهُ على شيءٍ في طَيِّ البِئرِ. فإذا حَيَّاتٌ أربَعٌ قد أخرَجنَ رُؤوسَهُنَّ من أجحارِهِنَّ. ثم نَظَرَ فإذا في قعرِ البِئرِ تِنِّينٌ فاتِحٌ فاهُ مُنتَظِرٌ له لِيَقَعَ فيأخُذَهُ. فَرَفَعَ بَصَرَهُ إلى الغُصنينِ فإذا في أصلِهِما جُرَذانِ أسوَدُ وأبيَضُ وهما يَقرِضانِ الغُصنَينِ دائِبَينِ(1) لا يَفتُرانِ.

(*) بين سطور القصة حكمة تدعو الإنسان المتبصر العاقل إلى اجتناب اللذات والشهوات الدنيوية الزائلة حتماً والتفكير في الأعمال النافعة والصالحة المؤدية لخلاص نفسه من العذاب في الآخرة بعد انقضاء أجله المحتوم.

---

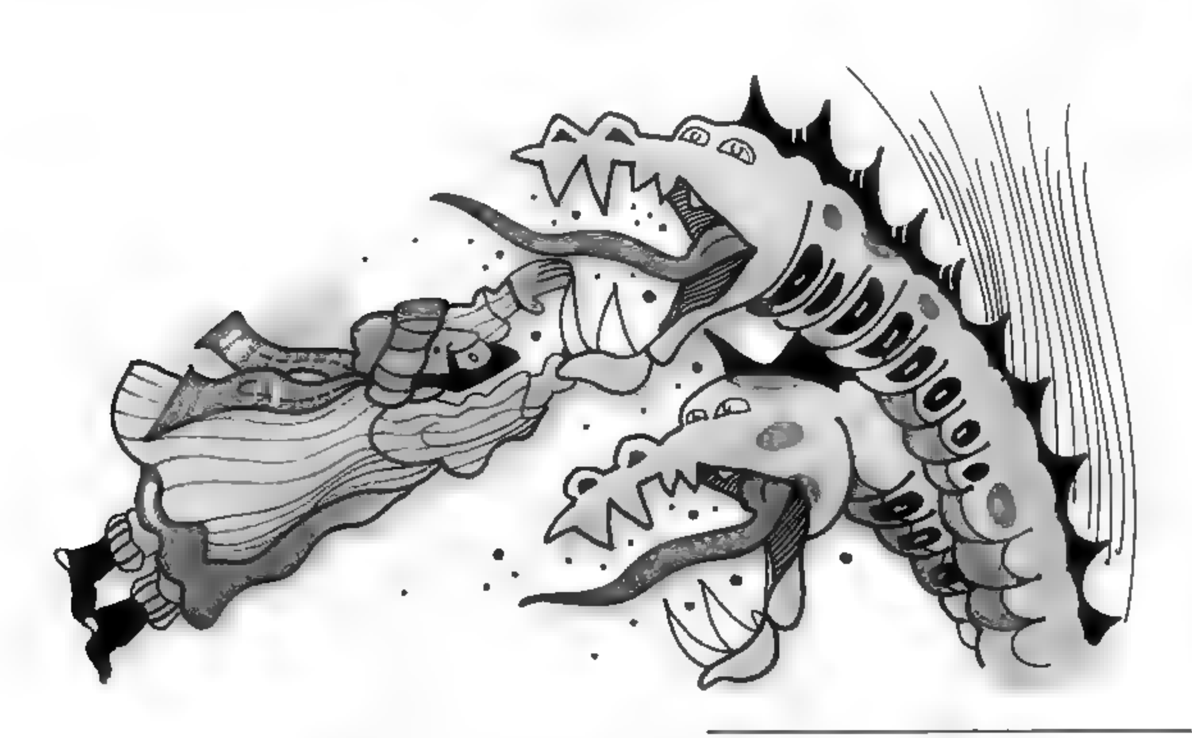
(١) دائبين: مستمرين.

فبينما هو في النَّظَرِ لأمرِهِ والاهتِمام لنفسِهِ إذ بَصُرَ قريباً منه بخَلِيَّةٍ فيها عَسَلٌ فذاقَ العَسَلَ فشَغَلَتهُ حَلاوَتُهُ وألهَتهُ لَذَّتُهُ عنِ الفِكرَةِ في شيءٍ من أمرِهِ وأن يَلتَمِسَ الخَلاصَ لِنفسِهِ. ولم يَذْكُرْ أنَّ الجُرَذَيْنِ دائِبانِ في قَطْعِ الغُصْنَيْنِ ومتى انْقَطعا وَقَعَ على التِّنينِ. فلم يَزَلْ لاهِياً غافِلاً مَشغُولاً بتلك الحَلاوَةِ حتى سَقَطَ في فَمِ التِّنِّينِ فَهَلَكَ.

فَشَبَّهتُ بالبِئرِ الدُّنيا المملوءَةَ آفاتٍ وشُروراً ومَخافاتٍ وعاهاتٍ[1]. وشَبَّهتُ بالحيَّاتِ الأربعِ الأخلاطَ الأربَعَةَ التي في البَدَنِ، فإنَّها متى هاجَت أو هاجَ أحدُها كانت كَحُمَةِ[2] الأفاعي والسُّم المُميتِ. وشَبَّهتُ بالغُصنينِ الأجَلَ الذي هو إلى حينٍ ثم لا بُدَّ من فَنائِهِ وانقِطاعِهِ. وشَبَّهتُ بالجُرَذَينِ الأسودِ والأبيضِ اللَّيلَ والنَّهارَ اللَّذينِ هما دائِبانِ في إفناءِ الأجَلِ. **وشَبَّهتُ بالتِّنِّينِ المَصيرَ[3] الذي لا بُدَّ منه.**





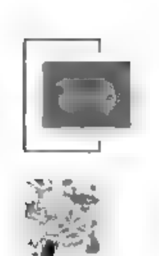


(١) عاهات: أعراضاً مفسدة.
(٢) الحُمة: الإبرة التي تلسع بها الحية.
(٣) المصير: المنتهى.



وشَبّهتُ بالعَسَلِ هذه الحَلاوَةَ القليلَةَ التي يَنالُ منها الإنسانُ فَيَرى ويَطعَمُ ويَسمَعُ ويَشُمُّ ويَلمُسُ ويَتَشاغَلُ عن نفسِهِ ويَلهو عن شأنِهِ فَيَنسى أمرَ الآخِرَةِ ويَصُدُّ عن سبيلِ قَصدِهِ.

فحينئِذٍ صارَ أمري إلى الرِّضى بحالي وإصلاحِ ما استَطَعتُ إصلاحَهُ من عَمَلي لعلّي أن أُصادِفَ باقِيَ أيامي زَماناً أُصيبُ فيه دَليلاً على هُدايَ وسُلطاناً على نفسي وقِواماً على أمري. فأَقَمتُ على هذه الحالِ واتَّجَهتُ إلى بلادِ الهِندِ في طَلَبِ العَقاقيرِ والأدوِيَةِ. ثم عُدتُ إليها في انتِساخِ هذا الكِتابِ وانصَرَفتُ منها إلى بلادي وقد انتَسَختُ من كُتُبِهِمْ كُتُباً كثيرَةً منها هذا الكتابُ.



كتـــاب

كليلة ودمنة



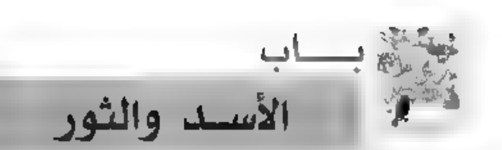




بـاب

الأَسَـدِ وَالثَّـوْرِ
وَهُوَ أَوَّلُ الْكِتَاب





بــاب
الأسـد والثور

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ، وَهُوَ رَأْسُ الْبَرَاهِمَةِ: اضْرِبْ لِي مَثَلاً لِمُتَحَابَّيْنِ يَقْطَعُ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ الْمُحْتَالُ، حَتَّى يَحْمِلَهُمَا عَلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ.



قَالَ بَيْدَبَا: إِذَا ٱبْتُلِيَ الْمُتَحَابَّانِ بِأَن يَدْخُلَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ الْمُحْتَالُ، لَمْ يَلْبَثَا أَن يَتَقَاطَعَا وَيَتَدَابَرَا[1].



التاجر وبنيه(*)

وَمِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ دَسْتَاوَنْدَ رَجُلٌ شَيْخٌ، وَكَانَ لَهُ ثَلاثَةُ بَنِينَ. فَلَمَّا بَلَغُوا أَشُدَّهُمْ[2] أَسْرَفُوا فِي مَالِ أَبِيهِمْ؛ وَلَمْ يَكُونُوا ٱحْتَرَفُوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ لِأَنْفُسِهِم بِهَا خَيْراً.

(*) في هذه القصة دعوة إلى حسن التصرف بالمال وكيفية اكتسابه بالطرق المشروعة أولاً ثم استثماره وتنميته وأخيراً كيفية إنفاقه في الوجوه الصحيحة.

---

(١) يتدابرا: يولي بعضهما عن بعض.
(٢) أشدّهم: قوتهم أي خرجوا من سن الصبوة.



فَلاَمَهُمْ أَبُوهُمْ؛ وَوَعَظَهُمْ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِمْ؛ وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ: يَا بَنِيَّ إِنَّ صَاحِبَ الدُّنْيَا يَطْلُبُ ثَلاَثَةَ أُمُورٍ لَن يُدْرِكَهَا إِلاَّ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. أَمَّا الثَّلاَثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ، فَالسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ وَالْمَنْزِلَةُ فِي النَّاسِ وَالزَّادُ لِلآخِرَةِ؛ وَأَمَّا الأَرْبَعَةُ الَّتِي



يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي دَرْكِ[1] هٰذِه الثَّلاَثَةِ، فَاكْتِسَابُ الْمَالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهٍ يَكُونُ، ثُمَّ حُسْنُ الْقِيَامِ عَلَى مَا اكْتُسَبَ مِنْهُ، ثُمَّ اسْتِثْمَارُهُ، ثُمَّ إِنْفَاقُهُ فِيمَا يُصْلِحُ الْمَعِيشَةَ وَيُرْضِي الأَهْلَ وَالإِخْوَانَ، فَيَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ في الآخِرَةِ.

فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئاً مِنْ هٰذِهِ الأَحْوَالِ لَمْ يُدْرِكْ مَا أَرَادَ مِنْ حَاجَتِهِ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ. لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَعِيشُ بِهِ؛ وَإِنْ هُوَ كانَ ذَا مَالٍ وَاكْتِسَابٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ عَلَيْهِ، أَوْشَكَ الْمَالُ أَنْ يَفْنَى وَيَبْقَى مُعْدِماً[2]؛ وَإِنْ هُوَ وَضَعَهُ وَلَمْ يَسْتَثْمِرْهُ، لَمْ تَمْنَعْهُ قِلَّةُ الإِنْفَاقِ من سُرْعَةِ الذَّهَابِ، كَالْكُحْلِ الَّذي لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلاَّ غُبَارُ الْمِيلِ ثُمَّ هُوَ مَعَ ذٰلِكَ سَرِيعٌ فَنَاؤُهُ.





وَإِنْ أَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَأَخْطَأَ بِهِ مَوَاضِعَ اسْتِحْقَاقِهِ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لاَ مَالَ لَهُ؛ ثُمَّ لاَ يَمْنَعُ ذٰلِكَ مَالَهُ مِنَ التَّلَفِ بِالْحَوَادِثِ وَالْعِلَلِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهِ؛ كَمَحْبِسِ الْمَاءِ الَّذِي لاَ تَزالُ الْمِيَاهُ تَنْصَبُّ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ وَمَفِيضٌ[3] وَمُتَنَفَّسٌ يَخْرُجُ الْمَاءُ مِنْهُ بِقَدْرِ مَا يَنْبَغِي، خَرِبَ وَسَالَ وَنَزَّ مِنْ نَوَاحٍ كَثِيرَةٍ، وَرُبَّمَا انْبَثَقَ[4] الْبَثْقُ الْعَظِيمُ فَذَهَبَ الْمَاءُ ضَيَاعاً.

ثُمَّ إِنَّ بَنِي الشَّيْخِ اتَّعَظُوا بِقَوْلِ أَبِيهِمْ وَأَخَذُوا بِهِ[5] وَعَلِمُوا أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ

---

(١) درك: إدراك.

(٢) معدماً: فقيراً.

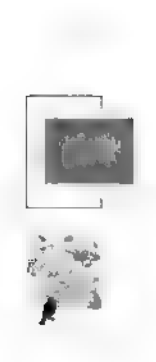
(٣) مفيض: مكان يفيض منه.

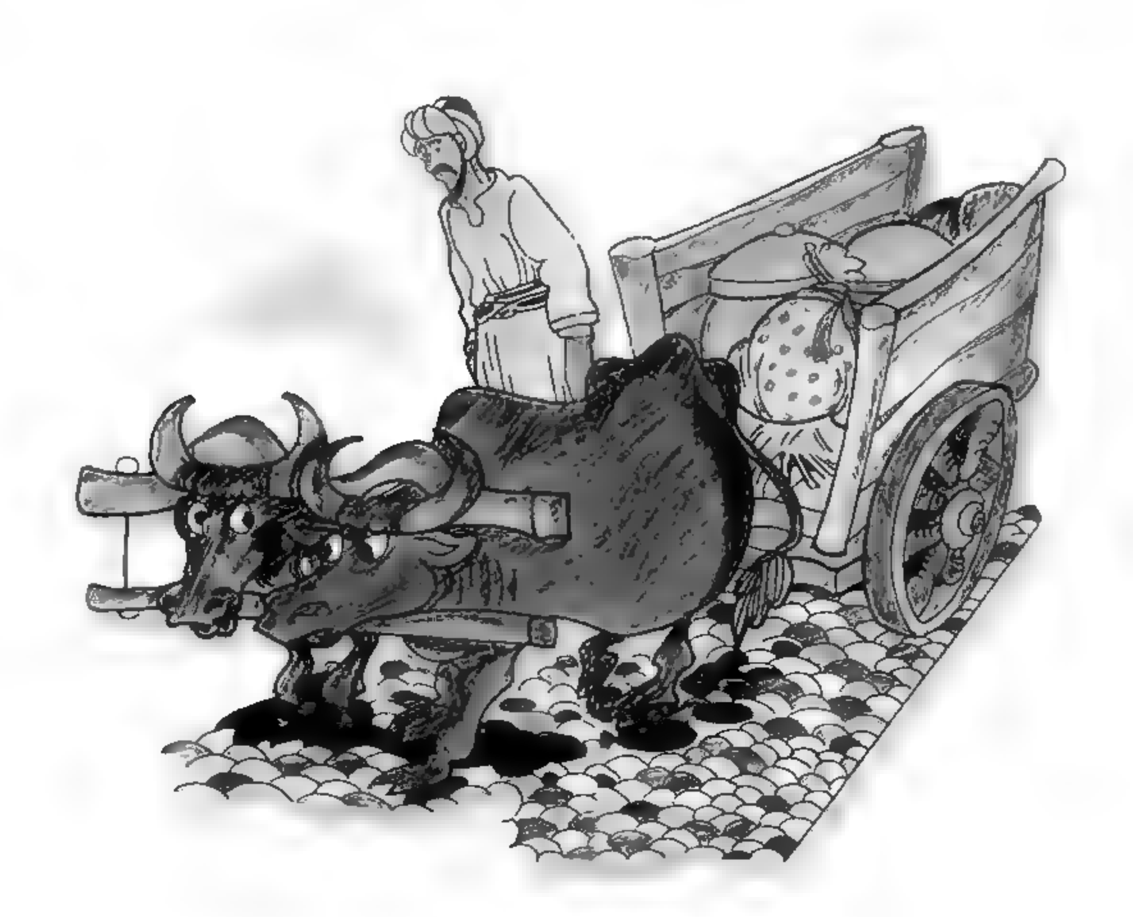
(٤) انبثق: انثغر وانفجر.

(٥) أخذوا به: عملوا بموجبه.



وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ؛ فَانْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ نَحْوَ أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا مَيونُ؛ **فَأَتَى فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَكَانٍ فِيهِ وَحَلٌ كَثِيرٌ؛ وَكَانَ مَعَهُ عَجَلَةٌ يَجُرُّهَا ثَوْرَانِ** يُقَالُ لأَحَدِهِمَا شَتْرَبَةُ وَلِلآخَرِ بَنْدَبَةُ؛ فَوَحِلَ شَتْرَبَةُ في ذٰلِكَ الْمَكَانِ، فَعَالَجَهُ[1] الرَّجُلُ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمُ الْجَهْدُ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلى إِخْرَاجِهِ؛ فَذَهَبَ الرَّجُلُ وَخَلَّفَ عِنْدَهُ رَجُلاً يُشَارِفُهُ[2]: لَعَلَّ الْوَحَلَ يَنْشَفُ فَيَتْبَعهُ بِالثَّوْرِ.

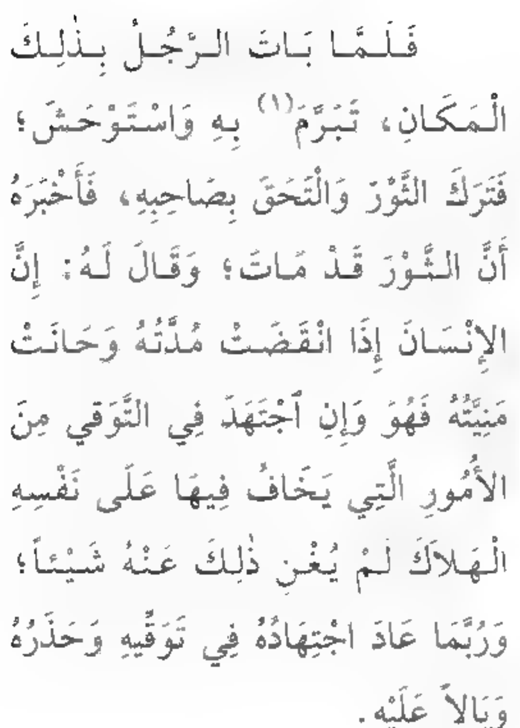




(١) فعالجه: حاول إخراجه.

(٢) يشارفه: يطلع عليه.





فَلَمَّا بَاتَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ، تَبَرَّمَ[١] بِهِ وَاسْتَوْحَشَ؛ فَتَرَكَ الثَّوْرَ وَالْتَحَقَ بِصَاحِبِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ مَاتَ؛ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا انْقَضَتْ مُدَّتُهُ وَحَانَتْ مَنِيَّتُهُ فَهُوَ وَإِنِ اجْتَهَدَ فِي التَّوَقِّي مِنَ الأُمُورِ الَّتِي يَخَافُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ الْهَلاَكَ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ شَيْئاً؛ وَرُبَّمَا عَادَ اجْتِهَادُهُ فِي تَوَقِّيهِ وَحَذَرُهُ وَبَالاً عَلَيْه.

الرجل الهارب من الموت(*)

كَالَّذِي قِيلَ: إِنَّ رَجُلاً سَلَكَ مَفَازَةً[٢] فِيهَا خَوْفٌ مِنَ السِّبَاعِ؛ وَكَانَ الرَّجُلُ خَبِيراً بِوَعْثِ[٣] تِلْكَ الأَرْضِ وَخَوْفِهَا؛ فَلَمَّا سَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ اعْتَرَضَ لَهُ ذِئْبٌ مِنْ أَحَدِ

(*) الحكمة التي تريد إيصالها القصة إلى القارىء هي أن أجل الإنسان متى دنا لا يستطيع أن يحول دونه شيء.

---

(١) تبرّم: ملّ.

(٢) مفازة: فلاة لا ماء فيها.

(٣) وعث: وعورة.



الذِّئَابِ وَأَضْرَاهَا[١]؛ فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ الذِّئْبَ قَاصِدٌ نَحْوَهُ خَافَ مِنْهُ، وَنَظَر يَميناً وَشِمَالاً لِيَجِدَ مَوْضِعاً يَتحَرَّزُ[٢] فيهِ مِنَ الذِّئبِ فَلَمْ يَرَ إِلاَّ قَرْيَةً خَلْفَ وادٍ؛ فَذَهَبَ مُسْرِعاً نَحْوَ الْقَرْيَةِ.

فَلَمَّا أَتَى الْوَادِيَ لَمْ يَرَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةً، وَرَأَى الذِّئْبَ قَدْ أَدْرَكَهُ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ، وَهُوَ لاَ يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ، وَكَادَ يَغْرَقُ، لَوْلاَ أَنْ بَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ؛ فَتَوَاقَعُوا[٣] لإِخْرَاجِهِ فَأَخْرَجُوهُ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلاَكِ؛ فَلَمَّا حَصَلَ الرَّجُلُ عِنْدَهُمْ وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ غَائِلَةِ[٤] الذِّئْبِ رَأَى عَلَى عُدْوَةِ[٥] الْوَادِي بَيْتاً



(١) أضراها: أشرسها.
(٢) يتحرّز: يتوقّى.
(٣) تواقعوا: أي رموا بأنفسهم.
(٤) غائلة: شر.
(٥) عدوة: جانب.



مُفْرَداً؛ فَقَالَ: أَدْخُلُ هَذَا الْبَيْتَ فَأَسْتَرِيحُ فِيهِ. فَلَمَّا دَخَلَهُ وَجَدَ جَمَاعَةً مِنَ اللُّصُوصِ قَدْ قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ التُّجَّارِ، وَهُمْ يَقْتَسِمُونَ مَالَهُ؛ وَيُرِيدُونَ قَتْلَهُ؛ فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذٰلِكَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَضَى نَحْوَ الْقَرْيَةِ؛ فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِهَا لِيَسْتَرِيحَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الْهَوْلِ(١) وَالإِعْيَاءِ(٢)، إِذْ سَقَطَ الْحَائِطُ عَلَيْهِ فَمَاتَ.



قَالَ التَّاجِرُ: صَدَقْتَ؛ قَدْ بَلَغَنِي هٰذَا الْحَدِيثُ. **وَأَمَّا الثَّوْرُ فَإِنَّهُ خَلَصَ مِنْ مَكَانِهِ وَانْبَعَثَ**(٣)؛ فَلَمْ يَزَلْ فِي مَرْجٍ مُخْصِبٍ كَثِيرِ الْمَاءِ وَالْكَلأ(٤)؛ فَلَمَّا سَمِنَ



---

(١) الهول: الخوف الشديد.

(٢) الإعياء: شدة التعب.

(٣) انبعث: سار مسرعاً.

(٤) الكلأ: العشب.



وَأَمِنَ جَعَلَ يَخُورُ[1] وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخُوَارِ. وَكَانَ قَرِيباً مِنْهُ أَجَمَةٌ[2] فِيهَا أَسَدٌ عَظِيمٌ؛ وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَمَعَهُ سِبَاعٌ كَثِيرَةٌ وَذِئَابٌ وَبَنَاتُ آوَى[3] وَثَعَالِبُ وَفُهُودٌ وَنُمُورٌ؛ وَكَانَ هَذَا الأَسَدُ مُنْفَرِداً بِرَأْيِهِ دُونَ أَخْذٍ بِرَأْيِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا سَمِعَ خُوَارَ الثَّوْرِ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثَوْراً قَطُّ، وَلاَ سَمِعَ خُوَارَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُقِيماً مَكَانَهُ لاَ يَبْرَحُ وَلاَ يَنْشَطُ؛ بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى يَدِ جُنْدِهِ. **وَكَانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ السِّبَاعِ ابْنَا آوَى يُقَالُ لأَحَدِهِمَا كَلِيلَةُ وَلِلآخَرِ دِمْنَةُ**؛ وَكَانَا ذَوَيْ دَهَاءٍ وعِلْمٍ وَأَدَبٍ.

فَقَالَ دِمْنَةُ لأَخِيهِ كَلِيلَةَ: يَا أَخِي مَا شَأْنُ الأَسَدِ مُقِيماً مَكَانَهُ لاَ يَبْرَحُ

---

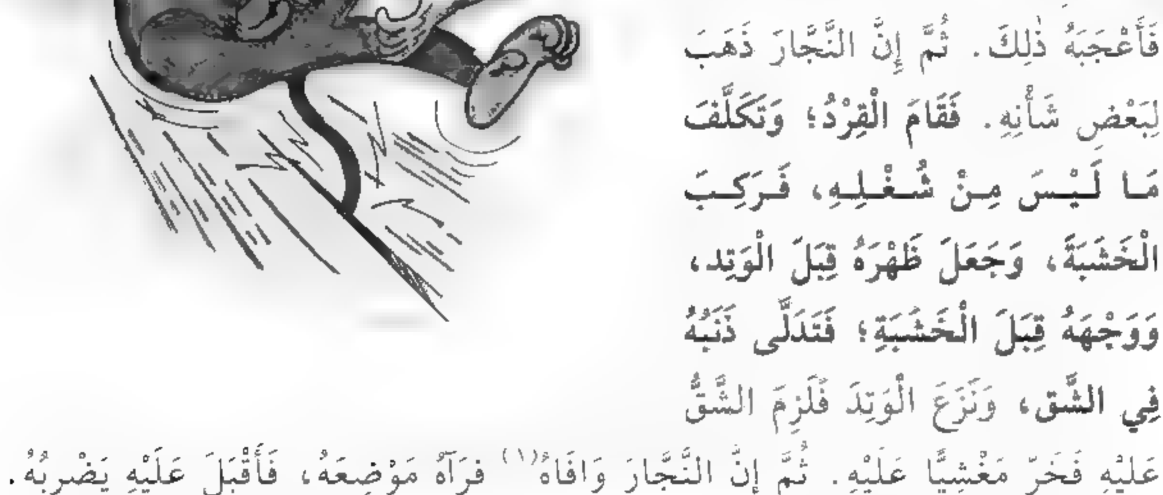
(١) يخور: من الخوار وهو صوت البقر. (٢) أجمة: شجر كثير ملتف.

(٣) بنات آوى: نوع من الثعالب الصغيرة.

ولاَ يَنْشَطُ؟ قَالَ لَهُ كَلِيلَةُ: مَا شَأْنُكَ أَنْتَ وَالْمَسْأَلَةَ عَنْ هٰذَا؟ نَحْنُ عَلَى بَابِ مَلِكِنَا آخِذِينَ بِمَا أَحَبَّ وَتَارِكِينَ مَا يَكْرَهُ؛ وَلَسْنَا مِنْ أَهْلِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ أَهْلُهَا كَلاَمَ الْمُلُوكِ وَالنَّظَرَ فِي أُمُورِهِمْ. فَأَمْسِكْ عَنْ هٰذَا، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْقِرْدَ مِنَ النَّجَّارِ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

القرد والنجار(*)



قَالَ كَلِيلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ قِرْداً رَأَى نَجَّاراً يَشُقُّ خَشَبَةً بَيْنَ وَتَدَيْنِ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا؛ فَأَعْجَبَهُ ذٰلِكَ. ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ. **فَقَامَ الْقِرْدُ؛ وَتَكَلَّفَ مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ، فَرَكِبَ الْخَشَبَةَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِبَلَ الْوَتِدِ، وَوَجْهَهُ قِبَلَ الْخَشَبَةِ؛ فَتَدَلَّى ذَنَبُهُ فِي الشَّقِّ،** وَنَزَعَ الْوَتِدَ فَلَزِمَ الشَّقُّ عَلَيْهِ فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ(١) فَرَآهُ مَوْضِعَهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ.

(*) مغزى القصة هو التنبيه على عدم الإقدام على عمل بدون فائدة ترجى منه ومجهولة نتائجه لأن عواقبه وخيمة.

(١) وافاه: أتاه.



فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَهُ[1] مِنَ الْخَشَبَةِ.



قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ، وَلٰكِنِ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْنُو مِنَ الْمُلُوكِ لَيْسَ يَدْنُو مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ، وَإِنَّمَا يَدْنُو مِنْهُمْ لِيَسُرَّ الصَّدِيقَ وَيَكْبِتَ[2] الْعَدُوَّ. وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لا مُرُوءَةَ لَهُ؛ وَهُمُ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِالْقَلِيلِ وَيَرْضَوْنَ بِالدُّونِ؛ كَالْكَلْبِ الَّذِي يُصِيبُ عَظْماً يابِساً فَيَفْرَحُ بِهِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمُرُوءَةِ فَلاَ يُقْنِعُهُمُ الْقَلِيلُ، وَلاَ يَرْضَوْنَ بِهِ، دُونَ أَنْ تَسْمُوَ بِهِ نُفُوسُهُمْ إِلَى مَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ، وَهُوَ أَيْضاً لَهُمْ أَهْلٌ؛ كَالأَسَدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الأَرْنَبَ، فَإِذَا رَأَى الْبَعِيرَ تَرَكَهَا وَطَلَبَ الْبَعِيرَ، أَلا تَرى أَنَّ الْكَلْبَ يُبَصْبِصُ بِذَنَبِهِ، حَتَّى تُرْمَى لَهُ الْكِسْرَةُ، وَأَنَّ الْفِيلَ الْمُعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ إِذَا قُدمَ إِلَيْهِ عَلَفُهُ لاَ يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يُمَسَّحَ وَيُتَمَلَّقَ لَهُ. فَمَنْ عَاشَ ذَا مالٍ وَكَانَ ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ عَلَى أَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمْرُهُ طَوِيلُ الْعُمْرِ. وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشِهِ ضِيقٌ وَقِلَّةٌ وَإِمْسَاكٌ[3] عَلَى نَفْسِهِ وَذَوِيهِ فَالْمَقْبُورُ أَحْيا[4] مِنْهُ. وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَقَنِعَ وَتَرَكَ

---

(١) أصابه: وجده.

(٢) يكبت: يذل ويقهر.

(٣) إمساك: بخل وشح.

(٤) أحيا: أفعل تفضيل من الحياة.

مَا سِوَى ذٰلِكَ عُدَّ مِنَ الْبَهَائِمِ.

قَالَ كَلِيلَةُ: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتَ؛ فَرَاجِعْ عَقْلَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَةً وَقَدْراً. فَإِنْ كَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مُتَمَاسِكاً[1]، كَانَ حَقِيقاً أَنْ يَقْنَعَ. وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْمَنْزِلَةِ مَا يَحُطُّ حَالَنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا.



قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الْمَنَازِلَ مُتَنَازَعَةٌ[2] مُشْتَرَكَةٌ عَلَى قَدْرِ الْمُرُوءَةِ؛ فَالْمَرْءُ تَرْفَعُهُ مُرُوءَتُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، وَمَن لا مُرُوءَةَ لَهُ يَحُطُّ نَفْسَهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ. وَإِنَّ الارْتِفَاعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الشَّرِيفَةِ شَدِيدٌ، وَالانْحِطَاطَ مِنْهَا هَيِّنٌ؛ كَالْحَجَرِ الثَّقِيلِ: رَفْعُهُ مِنَ الأَرْضِ إِلَى الْعَاتِقِ[3] عَسِرٌ، وَوَضْعُهُ إِلَى الأَرْضِ هَيِّنٌ. فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَرُومَ مَا فَوْقَنَا مِنَ الْمَنَازِلِ، وَأَنْ نَلْتَمِسَ ذٰلِكَ بِمُرُوءَتِنَا. ثُمَّ كَيْفَ نَقْنَعُ بِهَا وَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ التَّحَوُّلَ عَنْهَا؟



قَالَ كَلِيلَةُ: فَمَا الَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُكَ؟

قَالَ دِمْنَةَ: أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلأَسَدِ عِنْدَ هٰذِهِ الْفُرْصَةِ: فَإِنَّ الأَسَدَ ضَعِيفُ الرَّأْيِ. وَلَعَلِّي عَلَى هٰذِهِ الْحَالِ أَدْنُو مِنْهُ فَأُصِيبَ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً وَمَكَانَةً.

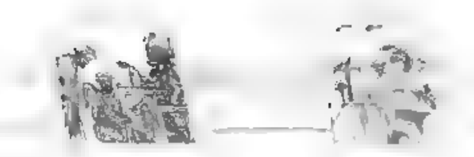
قَالَ كَلِيلَةُ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ الأَسَدَ قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ؟

---

(١) متماسكاً: أي مكتفياً.

(٢) متنازعة: أي كلٌّ يطلبها.

(٣) العاتق: ما بين العنق والكتف.



قَالَ دِمْنَةُ: بِالْحِس وَالرَّأْيِ أَعْلَمُ ذٰلِكَ مِنْهُ، فِإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الرَّأْيِ يَعْرِفُ حَالَ صَاحِبِهِ وَبَاطِنِ أَمْرِهِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ دَلِّهِ وَشَكْلِهِ.

قَالَ كَلِيلَةُ: فكَيْفَ ترْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الأَسدِ وَلَسْت بِصَاحِبِ السُّلْطَانِ، وَلاَ لَكَ عِلْمٌ بِخِدْمَةِ السَّلاَطِينِ؟

قَالَ دِمْنَةُ: الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ لاَ يُعْجِزُهُ الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الْحَمْلَ؛ وَالرَّجُلُ الضَّعِيفُ لاَ يَسْتَقِلُّ بِهِ وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ مِنْ صِنَاعَتِهِ.

قَالَ كَلِيلَةُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ لاَ يَتَوَخَّى[1] بِكَرَامَتِهِ فُضَلاَءَ مَنْ بِحَضْرَتِهِ؛ وَلَكِنَّهُ يُؤْثِرُ[2] الأَدْنَى وَمَنْ قَرُبَ مِنْهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ مَثَلَ السُّلْطَانِ فِي ذٰلِك مَثَلُ شَجَرِ الْكَرْمِ الَّذِي لاَ يَعْلَقُ إِلاَّ بِأَقْرَبِ الشَّجَر. وَكَيْفَ تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الأَسَدِ وَلَسْتَ تَدْنُو مِنْهُ؟





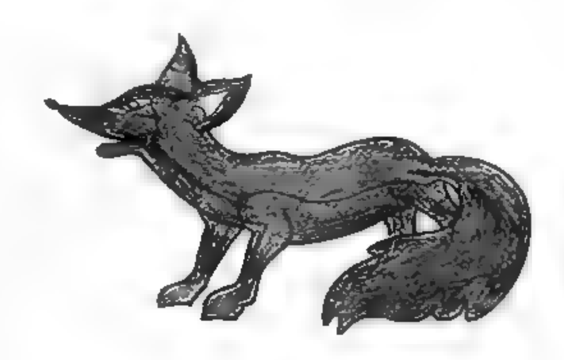


قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ فَهِمْتُ كَلاَمَكَ جَمِيعَهُ وَمَا ذَكَرْتَ، وَأَنْتَ صَادِقٌ. لٰكِن اَعْلَمْ أَنَّ الَّذِي هُوَ قَرِيبٌ مِنَ السُّلْطَانِ وَلاَ ذٰلِكَ مَوْضِعُهُ وَلاَ تِلْكَ مَنْزِلَتُهُ، لَيْسَ كَمَنْ دَنَا مِنْهُ بَعْدَ الْبُعْدِ وَلَهُ حَقٌّ وَحُرْمَةٌ؛ وَأَنَا مُلْتَمِسٌ بلُوغَ مَكَانَتِهِمْ بِجُهْدِي، وَقَدْ قِيلَ: لاَ يُوَاظِبُ عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ إِلاَّ مَنْ يَطْرحُ الأَنَفَةَ[3] وَيَحْمِلُ الأَذَى وَيَكْظِمُ[4] الْغَيْظَ وَيَرْفُقُ بِالنَّاس وَيَكْتُمُ السِّرَّ؛ فَإِذَا وَصَلَ إِلَى ذٰلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مُرَادَهُ.

---

(١) لا يتوخّى: لا يقصد ويتعمّد.
(٢) يؤثر: يختار.
(٣) الأنفة: عزّة النفس.
(٤) يكظم: يرد.

قَالَ كَلِيلَةُ: هَبْكَ[1] وَصَلْتَ إِلَى الأَسَدِ، فَمَا تَوْفِيقُكَ عِنْدَهُ الَّذِي تَرْجُو أَنْ تَنَالَ بِهِ الْمَنْزِلَةَ وَالْحُظْوَةَ لَدَيْهِ؟

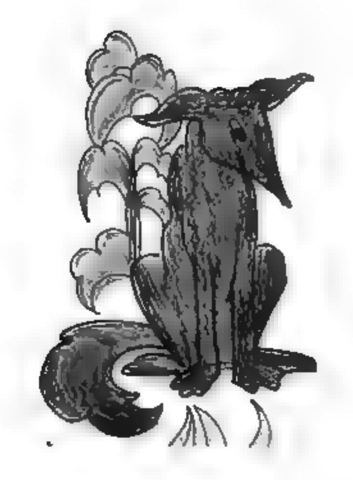


قَالَ دِمْنَةُ: لَوْ دَنَوْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ أَخْلاَقَهُ، لَرَفَقْتُ فِي مُتَابَعَتِهِ وَقِلَّةِ الْخِلاَفِ لَهُ. وَإِذَا أَرَادَ أَمْراً هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوَابٌ، زَيَّنْتُهُ لَهُ وَصَبَّرْتُهُ عَلَيْهِ، وَعَرَّفْتُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ؛ وَشَجَّعْتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَزْدَادَ بِهِ سُرُوراً. وَإِذَا أَرَادَ أَمْراً يُخَافُ عَلَيْهِ ضَرُّهُ وَشَيْنُهُ[2]، بَصَّرْتُهُ[3] بِمَا فِيهِ مِنَ الضُّرِّ وَالشَّيْنِ، وَأَوْقَفْتُهُ عَلَى مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالزَّيْنِ، بِحَسَبِ مَا أَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ. وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَزْدَادَ بِذٰلِكَ عِنْدَ الأَسَدِ مَكَانَةً وَيَرَى مِني مَا لاَ يَرَاهُ مِنْ غَيْرِي: فَإِنَّ الرَّجُلَ الأَدِيبَ الرَّفِيقَ لَوْ شَاءَ أَن يُبْطِلَ حَقًّا أَوْ يُحِقَّ بَاطِلاً لَفَعَلَ: كَالْمُصَوِّرِ الْمَاهِرِ الَّذِي يُصَوِّرُ فِي الْحِيطَانِ صُوَراً كَأَنَّهَا خَارِجَةٌ وَلَيْسَتْ بِخَارِجَةٍ، وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ.



فإذا هو عَرَفَ ما عندي وبانَ له حُسنُ رأيي وجُودَةُ فكري التَمَسَ إكرامي وقَرَّبَني إليه.

قالَ كَليلَةُ: أما إن قلتَ هذا أو قلتَ هذا فإني أخافُ عليكَ مِنَ السُلطانِ، فإنَّ صُحبَتَهُ خَطِرَةٌ، وأُحَذِّرُكَ مِنَ الذي أَرَدتَهُ لِعِظَم خَطَرِهِ[4] عندَكَ. وقد

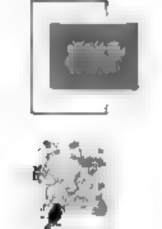


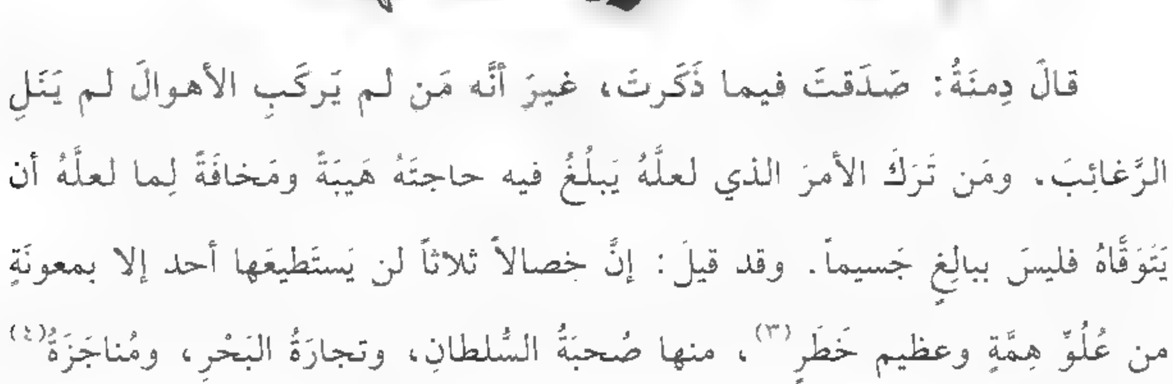
(١) هبك: افترض أنك. (٢) شينه: قبحه، عيبه.
(٣) بصّرته: عرّفته وأوضحت له. (٤) خطره: شرفه.



قالتِ العلماءُ: إنَّ ثلاثَةً لا يَجتَرِيءُ عليهنَّ إلا أهوَجُ ولا يَسلَمُ منهنَّ إلا قليلٌ، وهي صُحبَةُ السُّلطانِ، وائتِمانُ النّساء على الأسرارِ، وشُربُ السُّمِّ للتَّجرِبَةِ. **وإنَّما شبَّهَ العلماءُ السُّلطانَ بالجَبَلِ الصَّعبِ المُرتَقى الذي فيه الثِّمارُ الطَّيِّبَةُ والأنهارُ الجاريَةُ والجواهِرُ النَّفيسَةُ والأدويَةُ النَّافِعَةُ، وهو معَ ذلك مَعدِنُ[1] السِّباعِ والنُّمورِ والذِّئابِ وكلِّ ضارٍ[2] مَخوفٍ.** فالارتقاءُ إليه شديدٌ والمُقامُ فيه أشَدُّ.







قالَ دِمنَةُ: صَدَقتَ فيما ذَكَرتَ، غيرَ أنَّه مَن لم يَركَبِ الأهوالَ لم يَنَلِ الرَّغائِبَ. ومَن تَرَكَ الأمرَ الذي لعلَّهُ يَبلُغُ فيه حاجتَهُ هَيبَةً ومَخافَةً لِما لعلَّهُ أن يَتَوَقَّاهُ فليسَ ببالِغٍ جَسيماً. وقد قيلَ: إنَّ خِصالاً ثلاثاً لن يَستَطيعَها أحد إلا بمعونَةٍ من عُلُوِّ هِمَّةٍ وعظيمِ خَطَرٍ[3]، منها صُحبَةُ السُّلطانِ، وتجارَةُ البَحرِ، ومُناجَزَةُ[4]

---

(١) معدن: مكان.

(٢) ضار: معتد كاسر.

(٣) خطر: قدر ومنزلة.

(٤) مناجزة: مقاتلة.

العَدُوّ. وقد قالتِ العلماءُ في الرجلِ الفاضِلِ الرشيدِ: إنّه لا ينبغي أن يُرى إلا في مكانَينِ ولا يَليقُ به غيرُهُما: إمَّا معَ الملوكِ مُكرَّماً أو معَ النُسّاكِ مُتَعَبِّداً. كالفيلِ إنَّما جمالُهُ وبهاؤُهُ في مكانَينِ: إما أن تراهُ في البرّيَّةِ وحشِيًّا أو مركَباً للملوكِ.

قالَ كَليلَةُ: خارَ اللّهُ لك[1] فيما عَزَمتَ عليه.

ثم إنَّ دِمنَةَ انطلَقَ حتى دَخَلَ على الأَسَدِ فَعَفَّرَ وجهَهُ بين يديهِ وسلَّم عليه. فقالَ الأَسَدُ لبعضِ جُلَسائِهِ: مَن هذا؟ فقالَ: هذا دِمنَةُ بنُ سليط قالَ: قد كنتُ أعرِفُ أباهُ. ثم سأَلَهُ: أين تكونُ؟ قالَ: لم أزَلْ ببابِ الملِك مُرابِطاً داعياً له بالنّصرِ ودَوامِ البقاءِ، رَجاءَ أن يَحضُرَ أمرٌ فأُعينَ الملِكَ فيه بنفسي ورأيي. فإنَّ أبوابَ الملوكِ تكثُرُ فيها الأمورُ التي ربما يُحتاجُ فيها إلى الذي لا يُؤْبَهُ له. وليسَ أحدٌ يَصغُرُ أمرُهُ إلا وقد يكونُ بعضُ الغَناءِ[2] والمنافعِ عن قَدرِهِ، حتى العُودُ المُلقى في الأرضِ ربما نَفَعَ فيأخُذُهُ الرجلُ فَيَحُك بِهِ أُذُنَهُ فيكونُ عُدَّتَهُ عند الحاجَةِ إليه.



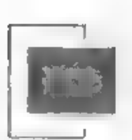
فلمَّا سَمِعَ الأَسَدُ قولَ دِمنَةَ أعجَبَهُ وطَمِعَ أن يكونَ نصيحة إليه. فأقبلَ على مَن حَضَرَ فقالَ: إنَّ الرجلَ ذا النُّبلِ[3] والمُروءَةِ يكونُ خامِلَ الذِّكرِ مُنخَفِضَ المنزِلَةِ فتأبى منزِلَتُهُ إلا أن تَشُبَّ[4] وترتَفِعَ كالشُّعْلةِ مِنَ النّارِ يَضرِبُها صاحِبُها وتأبى إلا ارتِفاعاً.

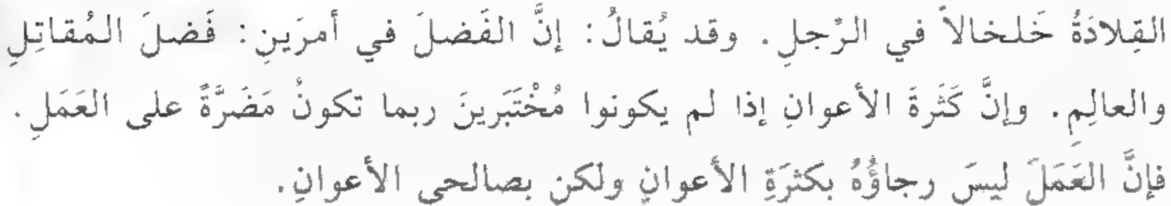


(١) خار الله لك: أي جعل كل الخير.
(٢) الغناء: النفع والاكتفاء.
(٣) النّبل: الذكاء.
(٤) تشبّ: ترداد.



فلمَّا عَرَفَ دِمنَةُ أنَّ الأَسَدَ قد عَجِبَ منهُ وحَسُنَ عِندَهُ كلامُهُ قالَ: أيها الملِكُ، إنَّ رَعيَّةَ الملِكِ تَحضُرُ بابَهُ رجاءَ أن يَعرِفَ ما عندَها من عِلمٍ وافِرٍ كالزَّرعِ المَدفونِ الذي لا يُعرَفُ فَضلُهُ حتى يَخرُجَ ويَظهَرَ على وجهِ الأرضِ. فيجبُ على الملِكِ أن يَبلُغَ بكلِّ امرِئٍ مَرتَبَتَهُ على قَدْرِ رأيِهِ وعلى قَدْرِ ما يَجِدُ عندَهُ مِنَ المنفعَةِ. وقد قيلَ: أمرانِ لا يَنبَغي لأحدٍ أن يأتِيَهُما[١] مِثلُ أن يُجعَلَ الخَلخالُ[٢] قِلادَةً للعُنُقِ ومِثلُ أنْ تُجعَلَ





القِلادَةُ خَلخالاً في الرِّجلِ. وقد يُقالُ: إنَّ الفَضلَ في أمرَينِ: فَضلَ المُقاتِلِ والعالِمِ. وإنَّ كَثرَةَ الأعوانِ إذا لم يكونوا مُختَبَرينَ ربما تكونُ مَضَرَّةً على العَمَلِ. فإنَّ العَمَلَ ليسَ رجاؤُهُ بكثرَةِ الأعوانِ ولكن بصالحي الأعوانِ.



ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الرجلِ الذي يَحمِلُ الحَجَرَ فيقتُلُ به نفسَهُ ولا يَجِدُ له ثَمناً. وحامِلُ الياقوتِ وإن قَلَّ يَقدِرُ على بَيعِهِ بالكثيرِ مِنَ المالِ. والعَمَلُ الذي يَحتاجُ فيه إلى الحِيَلِ والخِداعِ لا يَقتَحِمُهُ إلا أفهَمُ الرجالِ وأذكاهُمْ والرجلُ الذي يَحتاجُ إلى الجُذوعِ لا يُجزِئُهُ[٣] القَصَبُ وإن كَثُرَ.

---

(١) يأتيهما: يفعلهما.

(٢) الخلخال: سوار يلبس في الرجل للزينة.

(٣) لا يجزئه: أي لا يغنيه.

فأنتَ الآنَ أيُّها المَلِكُ حَقيقٌ أن لا تَحقُرَ مُروءةَ أنتَ تَجِدُها عند رجلٍ صغيرِ المنزلَةِ، فإنَّ الصَّغيرَ ربما عَظُمَ كالعَصَبِ الذي يُؤْخَذُ مِنَ المَيتَةِ فإذا عُمِلَتْ منه القَوسُ أُكْرِمَ فتقبِضُ عليه الملوكُ وتحتاجُ إليه في البأسِ واللَّهوِ.

وأحَبَّ دِمنَةُ أن يُرِيَ القَومَ أنَّ ما نالَهُ من كرامَةِ الملِكِ إنَّما هو لرأيِهِ ومُروءتِهِ وعَقلِهِ لأنَّهم عَرَفوا قَبلَ ذلك أنَّ ذلك لمعرفتِهِ أباهُ.

فقالَ: إنَّ السُّلطان لا يُقَرِّبُ آبائِهِمْ ولا يُبعِدُهُمْ لِبُعدِهِمْ، ولكن يَنبَغي أن يَنظُرَ إلى كلِّ رجلٍ بما عندَهُ لأنَّه لا شيءَ أقرَبُ إلى الرجلِ من جسدِهِ ومن جسدِهِ ما يَدْوَى[1] حتى يُؤْذِيَهُ ولا يُدفعُ ذلك عنه إلا بالدَّواء الذي يأتيهِ من بَعدُ.





فلمَّا فَرَغَ دِمنَةُ من مَقالَتِهِ هذه أُعجِبَ الأسَدُ به إعجاباً شديداً وأحسَنَ الرَّدَّ عليهِ وزادَ في كرامَتِهِ. ثم قالَ الملِكُ لجُلَسائِهِ: يَنبَغي للسُّلطانِ أن لا يُلِحَّ في تَضييعِ حَقِّ ذَوي الحقوقِ، فإنَّ عاقِبَةَ ذلك رَديئةٌ حتى ممَّن لا يَتَوَقَّعُ[2] أذاهُ والناسُ في ذلك رَجُلانِ: رجلٌ طَبعُهُ الشَّراسَةُ فهو كالحيَّةِ إن وَطِئها الواطِئُ فلم تَلدَغهُ[3] لم يكن جديراً أن يَغُرَّهُ ذلك منها فَيعودَ إلى وَطِئها ثانيةً فَتَلدَغَهُ. ورجلٌ أصلُ طِباعِهِ

---

(١) يدوى: يمرض.
(٢) لا يتوقّع: لا ينتظر.
(٣) تلدغه: تلسعه.



السُّهولَةُ فهو كالصَّندَلِ البارِدِ الذي إذَا أُفرِطَ في حَكِّهِ صارَ حارًّا مُؤْذِياً.

ثم أنَّ دِمنَةَ استأنَسَ بالأسَدِ وخَلا به فقالَ له يوماً: رأيتُ الملِكَ قد أقامَ



في مكانٍ واحدٍ لا يَبرَحُ منه خِلافاً لمألوفِهِ وهو ـ أعظَمَهُ اللّهُ ـ منيعُ الجانِبِ نافِذُ الأمرِ آمِنُ السَّاحَةِ. فرأيتُ أن أتطاوَلَ عليه بالاستِفهامِ على وجهِ النَّصيحَةِ، فإنّ الأمورَ الخَفِيَّةَ لا يُظهِرُهَا إلا البحثُ عنها،
فإذا أُظهِرَتْ أُجيلَتِ[1] الفِكْرةُ فيها.



فبينما هما في هذا الحديثِ إذ خارَ شَتْرَبَةُ خُواراً شديداً فَهَيَّجَ الأسَدَ وكَرِهَ أن يُخبِرَ دِمنَةَ بما نالَهُ. وعَلِمَ دِمنَةُ أنَّ ذلك

---

(١) أجيلت: أديرت.

بـــاب

الأسـد والثور

الصَّوتَ قد أدخَلَ على الأسَدِ رِيبَةً وهَيبَةً، فسألَهُ: هل رابَ الملِكَ سَماعُ هذا الصَّوتِ؟ قالَ: لم يَرِبني شيءٌ سوى ذلك وهو الذي حَبَسَني هذه المُدَّةَ في مكاني. وقد صَحَّ[1] عندي من طريقِ القِياسِ أنَّ جُثَّةَ صاحِبِ هذا الصَّوتِ المُنكَرِ الذي لم أَسْمَعْهُ قَطُّ عظيمَةٌ لأنَّ صوتَهُ تابعٌ لبدنِهِ. فإن يَكُنْ كذلك فليسَ لنا معه قرارٌ ولا مُقامٌ.

قالَ دِمنَةُ: ليسَ الملِكُ بحقيقٍ أن يَدَعَ مكانَهُ لأجلِ صوتٍ. فقد قالتِ العلماءُ: ليسَ من كلِّ الأصواتِ تَجِبُ الهَيبَةُ.



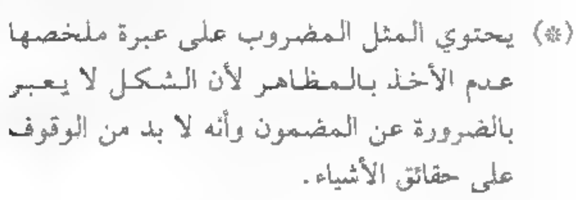
قالَ الأسَدُ: وما مَثَلُ ذلك؟

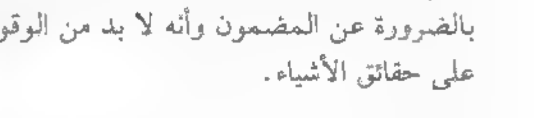




مثل الثعلب والطبل(*)

قالَ دِمنَةُ: زَعَموا أنَّ ثعلباً أتى أجَمَةً فيها طَبلٌ مُعَلَّقٌ على شَجَرَةٍ وكلَّما هَبَّتِ الريحُ على قُضبانِ تلك الشَّجَرَةِ حَرَّكَتها فَضَرَبَتِ الطَّبلَ فسُمِعَ له صوتٌ عظيمٌ باهِرٌ. فَتَوجَّهَ الثعلَبُ نحوه لأجلِ





(*) يحتوي المثل المضروب على عبرة ملخصها عدم الأخذ بالمظاهر لأن الشكل لا يعبر بالضرورة عن المضمون وأنه لا بد من الوقوف على حقائق الأشياء.

(١) صحّ: ثبت.



ما سَمِعَ من عَظيمِ صوتِهِ. فلمَّا أتاهُ وجدَهُ ضخماً فأيقَنَ في نفسِهِ بكثرَةِ الشَّحم واللَّحم. فعالَجَهُ حتى شَقَّهُ، فلمّا رآهُ أجوَفَ لا شيء فيه قالَ: لا أدري لعلَّ أفسَلَ[١] الأشياء أجهَرُها[٢] صوتاً وأعظَمُها جُثَّةً.

وإنَّما ضَرَبتُ لكَ هذا المَثَلَ لتعلَمَ أنَّ هذا الصَّوتَ الذي راعَنا[٣] لو وَصَلنا إليه لوجدناهُ أيسَرَ ممَّا في أنفسِنا. فإن شاء الملِكُ بَعَثَني وأقامَ بمكانِهِ حتى آتيَهُ ببَيانِ هذا الصَّوتِ. فوافَقَ الأسَدُ قولَهُ فأذِنَ له في الذَّهابِ نحو الصَّوتِ.







فانطَلَقَ دِمنَةُ إلى المكانِ الذي فيه شَتْرَبَةُ. فلمَّا فَصَلَ[٤] دِمنَةُ من عندِ الأسَدِ فكَّرَ الأسَدُ في أمرِهِ ونَدِمَ على إرسالِ دِمنَةَ حيثُ أرسَلَهُ وقالَ في نفسِهِ: ما أصبتُ في ائتِماني دِمنَةَ وإطلاعِهِ على سِرِّي وقد كانَ ببابي مَطروحاً. فإنَّ الرجلَ الذي يَحضُرُ بابَ الملِكِ إذا كانَ قد أُطيلَتْ جَفوَتُهُ[٥] من غيرِ جُرمٍ كانَ منه أو كانَ مَبغِيًّا عليه[٦] عند سلطانِهِ، أو كانَ عندَهُ معروفاً بالشَّرَهِ والحِرصِ، أو كانَ قد أصابَهُ ضَرٌّ وضيقٌ فلم يَنعَشهُ[٧]، أو كانَ قد اجتَرَمَ جُرماً فهو يَخافُ العُقوبَةَ منه، أو كانَ يرجو شيئاً يَضُرُّ الملكَ وله منْهُ نَفعٌ. أو يَخافُ في شيءٍ ممَّا يَنفَعُهُ ضَرًّا، أو كانَ لعدُوِّ الملِكِ سِلماً ولسِلمِهِ

---

(١) أفسل: أضعف.
(٢) أجهرها: أعلاها.
(٣) راعنا: أفزعنا.
(٤) فصل: خرج.
(٥) جفوته: نقيض المواصلة والمؤانسة.
(٦) مبغيّاً عليه: أي مظلوماً.
(٧) لم ينعشه: أي لم يجبره بعد فقره.

حَرباً، أو كانَ قد حِيلَ[1] بينه وبين ما في يديهِ مِنَ السُّلطانِ، أو باعَدَهُ، أو طَرَدَهُ. فليسَ السُّلطانُ بحقيقٍ أن يَعجَلَ في الاسترسالِ إلى هؤلاءِ والثِّقَةِ بهم والائتِمانِ لهم.

وإنَّ دِمنَةَ داهِيَةٌ[2] أريبٌ وقد كانَ ببابي مَطروحاً مَجفُوًّا. ولعلَّهُ قد احتَمَلَ عليَّ بذلك ضِغناً[3]، ولعلَّ ذلك يَحمِلُهُ على خيانَتي وإعانَةِ عَدُوِّي ونَقيصَتي عندَهُ، ولعلَّهُ أن يُصادِفَ صاحِبَ الصَّوتِ أقوى سلطاناً منّي فيرغَبَ به عنّي ويَميلَ معه عليَّ. ولقد كانَ الواجِبُ أن أهجُمَ على صاحِبِ هذا الصَّوتِ بنفسي. ولم يَزَلِ الأسَدُ يُحَدِّثُ نفسَهُ بأمثالِ ذلك حتى جَعَلَ يَمشي وينظُرُ إلى الطَّريقِ التي سارَ فيها دِمنَةُ. فلم يَمشِ غيرَ قليلٍ حتى بَصُرَ بدِمنَةَ مُقبِلاً نحوه فطابَتْ نفسُهُ بذلك ورَجَعَ إلى مكانِهِ.





ودَخَلَ دِمنَةُ عليه فقالَ له الأسَدُ: ماذا صَنَعتَ وماذا رأيتَ؟

قالَ: رأيتُ ثَوراً وهو صاحِبُ الخُوارِ والصَّوتِ الذي سَمِعتَهُ. قالَ: فما قُوَّتُهُ؟ قالَ: لا شَوكَةَ[4] له وقد دَنَوتُ منه وحاورتُهُ مُحاوَرَةَ الأكفاءِ فلم يَستَطِعْ لي شيئاً.

(١) حيل: اعترض.
(٢) داهية: أي ذو مكر وجودة رأي والتاء فيه للمبالغة.
(٣) ضغناً: أي حقداً.
(٤) لا شوكة: أي لا قوة له ولا شجاعة.



قالَ الأَسَدُ: لا يَغُرَّنَّكَ ذلك منه ولا يَصغُرَنَّ عندكَ أمرُهُ، فإنَّ الرِّيحَ الشَّديدَةَ لا تَعْبَأُ[1] بضعيفِ الحَشيشِ لكنَّها تَحطِمُ طِوالَ النَّخلِ وعَظيمَ الشَّجَرِ وتَقْلَعُ الدَّوْحَةَ[2] العاتِيَةَ من مَوْضِعِها.

قالَ دِمنَةُ: لا تَهابَنَّ أيُّها المَلِكُ منه شيئاً ولا يَكبُرَنَّ عليكَ أمرُهُ فأنا على ضعفي آتيكَ به فيكونُ لك عبداً سامِعاً مُطيعاً.

قالَ الأَسَدُ: دونَكَ[3] ما بدا لك. وقد تَعَلَّقَ أَمَلُهُ به.



فانطَلَقَ دِمنَةُ إلى الثَّورِ فقالَ له غيرَ هائِبٍ ولا مُكتَرِثٍ: إنَّ الأَسَدَ أرسَلَني إليكَ لآتِيَهُ بك وأمَرَني إن أنتَ عَجِلتَ إليه أن أُؤَمِّنَكَ على ما سَلَفَ من ذَنبِكَ في التَّأخُّرِ عنه

(١) لا تعبأ: لا تبالي.
(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة.
(٣) دونك: أي افعل.

وتركِكَ لِقاءهُ[١]. وإن أنت تأخَّرتَ وأحجَمتَ[٢] أن أُعَجِّلَ الرَّجعَةَ إليه فأُخبِرَهُ. قالَ له شتْرَبَةُ: ومَن هذا الأسَدُ الذي أرسَلَكَ إليَّ وأين هو وما حالُهُ؟

قالَ دِمنَةُ: هو مِلِكُ السِّباعِ وهذه الأرضُ التي نحن عليها له وهو بِمكانٍ كذا ومعه جُندٌ كثيرٌ من جِنسِهِ.

فَرُعِبَ شَتْرَبَةُ من ذِكرِ الأَسَدِ والسِّباعِ وقالَ: إن أنت جَعَلتَ لِيَ الأمانَ على نفسي أقبَلتُ معكَ إليه. فأعطاهُ دِمنَةُ مِنَ الأمانِ ما وَثِقَ به **ثم أقبَلَ والثَّورُ معه حتى دَخَلا على الأسَدِ. فأحسَنَ الأسَدُ إلى الثَّورِ وقَرَّبَهُ** وقالَ له: متى قَدِمتَ هذه البلادَ وما أقدَمَكَها[٣]؟ فقَصَّ شَتْرَبَةُ عليه قِصَّتَهُ. فقالَ له الأسَدُ: اصحَبني





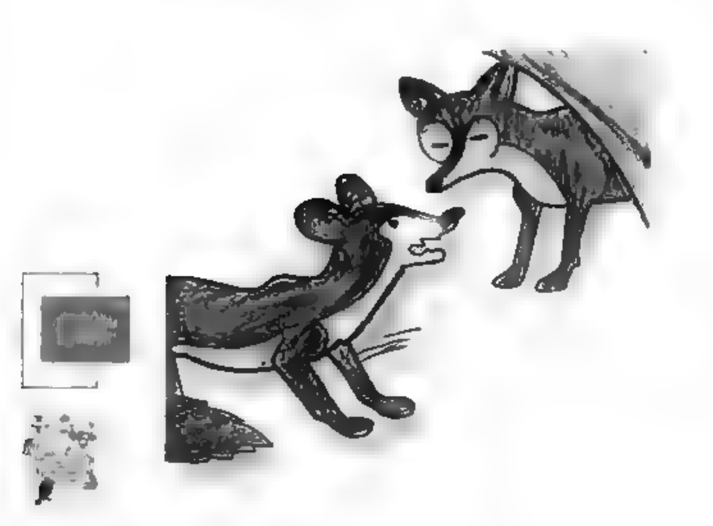


(١) لقاءه: مقابلته. (٢) أحجمت: كففت عنه.
(٣) أقدمكها: أي ما الذي جعلك تأتيها.



والزَمني فإني مُكرِمُكَ ومُحسِنٌ إليكَ. فَدَعا له الثَّورُ وأثنى عليه وانصَرَفَ وقد أُعجِبَ به الأسَدُ إعجاباً شديداً لما ظَهَرَ له من عَقلِهِ وأدَبِهِ. ثم إنَّه قَرَّبَهُ وأكرَمَهُ وأنِسَ به وائتَمَنَهُ على أسرارِهِ وشاوَرَهُ في أمرِهِ ولم تَزِدْهُ الأيامُ إلاَّ عُجباً به ورغبةً فيه وتقريباً له حتى صارَ أخَصَّ أصحابِهِ عندَهُ منزلةً.

فلمَّا رأى دِمنَةُ أنَّ الثَّورَ قدِ اختَصَّ[1] بالأسَدِ دونَهُ ودونَ أصحابِهِ وأنَّه قد صارَ صاحِبَ رأيِهِ وخَلَواتِهِ ولَهوِهِ حَسَدَهُ حَسَداً عظيماً وبَلَغَ منه غَيظُهُ كلَّ مَبلَغٍ. فشَكا ذلك إلى أخيهِ كَليلَةَ وقالَ له: ألا تَعجَبُ يا أخي من عَجزِ رأيي وصُنعي بنفسي ونَظَري فيما يَنفَعُ الأسَدَ وأغفلتُ[2] نَفعَ نفسي حتى جَلَبتُ إلى الأسَدِ ثَوراً غَلَبَني على منزلَتي! قال كليلةُ: قد أصابَكَ ما أصابَ النَّاسِكَ. قالَ دِمنَةُ: وكيف كانَ ذلكَ؟



مثل الناسك واللص(*)

قالَ كَليلَةُ: زَعَموا أنَّ ناسِكاً أصابَ من بعضِ الملوكِ كُسوَةً فاخِرَةً. فَبَصُرَ به

(*) عدم مصاحبة الأشرار والمواظبة على الأعمال النافعة وابتعاد الإنسان عن الأعمال التي تتسبب في إلحاق الأضرار به وبالمجتمع؛ هي الفوائد التي ترمي الأمثال الواردة في القصة إيصالها إلى القارىء.

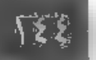
(١) اختصّ: انفرد به.
(٢) أغفلت: تركت وأهملت.

باب

الأسـد والثور

سارِقٌ فَطَمِعَ في الثِّيابِ وعَمِلَ على سَرِقَتِها. فأتى النَّاسِكَ وقالَ له: إني أُريدُ أن أصحَبَكَ فأتَعَلَّمَ منك وآخُذَ عنكَ. فأذِنَ له النَّاسِكُ في صُحبَتِهِ فَصَحِبَهُ مُتَشَبِّهاً به ورَفَقَ له في خدمتِهِ حتى أمِنَهُ النَّاسِكُ واطمَأنَّ إليه. فَرَصَدَهُ[1] حتى إذا ظَفِرَ به وأمكَنَتهُ الفرصَةُ أخَذَ تلك الثِّيابَ فذَهَبَ بها.





فلمَّا فَقَدَ النَّاسِكُ ثيابَهُ عَلِمَ أنَّ صاحِبَهُ قد أخَذَها فتَوَجَّهَ في طَلَبِهِ. فَمَرَّ في طريقِهِ بوعلَينِ يَتَناطَحانِ حتى سالَتْ دِماؤُهُما. فجاء ثعلَبٌ يَلَغُ[2] في تلك الدِّماءِ ويَتَحَكَّكُ بهما ويُزاحِمُهُما فغضِبا منه وأقبَلا عليه بنِطاحِهِما فقَتَلاهُ.

فعَجِبَ النَّاسِكُ من ذلك ومَضى حتى دَخَلَ إحدى المُدُنِ فلم يَجِدْ فيها قِرًى إلا بيتَ امرأةٍ فَنَزَلَ بها واستضافَها. وكانت للمرأةِ جارِيَةٌ تُؤاجِرُها وكانتِ الجاريَةُ قد عَلِقَتْ[3] رجلاً تُريدُ أن تَتَّخِذَهُ بعلاً لها. وقد أضَرَّ ذلك بمَولاتِها ولم يكن لها سبيلٌ إلى مُدافَعَتِهِ. فاحتالَت لقتلِهِ في تلك الليلةِ التي استضافَها فيها النَّاسِكُ. ثم إنَّ الرجلَ وافى[4] فسَقَتهُ مِنَ الخَمرَةِ حتى سَكِرَ ونامَ. فلمَّا استغرَقَ في النَّومِ ونامَ

---

(١) رصده: ترقبه.

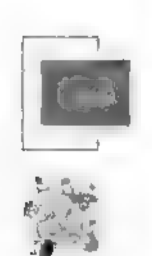
(٢) يلغ: يشرب بلسانه.

(٣) علقت: أحبت.

(٤) وافى: أتى.

مَن في البيتِ عَمَدتْ[١] لِسُم كانت قد أعدَّتهُ في قَصَبَةٍ لتنفُخَهُ في أنف الرجلِ. فلمّا أرادتْ ذلك بَدَرتْ[٢] من أنفِهِ عَطسَةٌ فعَكَسَتِ السُّمَّ إلى حَلقِ المَرأةِ فوقَعَتْ مَيتَةً. وكلُّ ذلك بعينِ النَّاسِكِ وسَمعِهِ.





فَلَمَّا رَأَى ذٰلِكَ لَمْ يُصَدِّقْ أَنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ، حَتَّى خَرَجَ يَبْتَغِي مَنْزِلاً غَيْرَهُ فَاسْتَضَافَ رَجُلاً إِسْكَافاً، فَأَتَى بِهِ امْرَأَتَهُ، وَقَالَ لَهَا: انْظُرِي إِلَى هٰذَا النَّاسِكِ وَأَكْرِمِي مَثْوَاهُ[٣]، وَقُومِي بِخِدْمَتِهِ؛ فَقَدْ دَعَانِي بَعْضُ أَصْدِقَائِي لِلشُّرْبِ عِنْدَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ ذَاهِباً.

وَكَانَ لِلْمَرْأَةِ ابْنَةٌ تُرِيدُ أَنْ تُزَوِّجَهَا لِرَجُلٍ لَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا يُرِيدُهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَخْتَلِفُ[٤] إِلَى الْبَيْتِ فِي غِيَابِ زَوْجِهَا، وَالْوَسِيطُ بَيْنَهُمَا امْرَأَةُ حَجَّامٍ، فَأَرْسَلَتِ امْرَأَةُ

---

(١) عمدت: قصدت.
(٢) بدرت: سبقت وأسرعت.
(٣) مثواه: مقامه.
(٤) يختلف: يأتي.

الإِسْكَافِ إِلَى امْرَأَةِ الْحَجَّامِ[١]، تَأْمُرُهَا بِالْمَصِيرِ[٢] إِلَيْهَا، وَتُعَرِّفُ الرَّجُلَ غِيَابَ زَوْجِهَا، وَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي قَدْ ذَهَبَ لِيَشْرَبَ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ، وَإِنْ عَادَ لاَ يَعُودُ إِلاَّ سَكْرَانَ، فَقُولِي لَهُ يُسْرِعِ الْكَرَّةَ[٣]. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ جَاءَ، فَقَعَدَ عَلَى الْبَابِ يَنْتَظِرُ الإِذْنَ، وَوَافَقَ ذٰلِكَ مَجِيءَ الإِسْكَافِ سَكْرَانَ، فَرَأَى الرَّجُلَ فِي الظُّلْمَةِ، وَارْتَابَ بِهِ فَلَمْ يُكَلِّمْهُ، وَدَخَلَ مُغْضَباً إِلَى امْرَأَتِهِ، فَأَوْجَعَهَا ضَرْباً ثُمَّ أَوْثَقَهَا فِي أُسْطُوَانَةٍ[٤] فِي الْمَنْزِلِ، وَذَهَبَ فَنَامَ لاَ يَعْقِلُ وَجَاءَتِ امْرَأَةُ الْحَجَّامِ تُعْلِمُهَا أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَطَالَ الْجُلُوسَ، فَقَالَتْ لَهَا انْظُرِي إِلَى مَا أَنَا فِيهِ بِسَبَبِهِ. فَإِنْ شِئْتِ، وَأَحْسَنْتِ إِلَيَّ، وَحَلَلْتِنِي، وَرَبَطْتُكِ مَكَانِي، حَتَّى أَنْطَلِقَ فَأَعْتَذِرَ إِلَيْهِ، وَأُعَجِّلَ الْعَوْدَةَ. فَأَجَابَتْهَا امْرَأَةُ الْحَجَّامِ إِلَى ذٰلِكَ، وَحَلَّتْهَا، وَانْطَلَقَتْ إِلَى الرَّجُلِ، وَأَوْثَقَتْ هِيَ نَفْسَهَا مَكَانَهَا. فَاسْتَيْقَظَ الإِسْكَافُ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ زَوْجَتُهُ؛ فَنَادَاهَا بِاسْمِهَا، فَلَمْ تُجِبْهُ امْرَأَةُ الْحَجَّامِ، وَخَافَتْ مِنَ الْفَضِيحَةِ أَنْ يُنْكِرَ صَوْتَهَا. ثُمَّ دَعَاهَا ثَانِيَةً، فَلَمْ تُجِبْهُ. فَامْتَلأَ غَيْظاً وَحَنَقاً، وَقَامَ نَحْوَهَا بِالشَّفْرَةِ، فَجَدَعَ[٥] أَنْفَهَا، وَقَالَ: «خُذِي هٰذَا فَأَتْحِفِي بِهِ صَدِيقَكِ»، وَهُوَ لاَ يَشُكُّ فِي أَنَّها امْرَأَتُهُ. ثُمَّ جَاءَتِ امْرَأَةُ الإِسْكَافِ، فَرَأَتْ صُنْعَ زَوْجِهَا بِامْرَأَةِ الْحَجَّامِ، فَسَاءَهَا ذٰلِكَ، وَأَكْبَرَتْهُ[٦] وَحَلَّتْ وِثَاقَهَا، فَانْطَلَقَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا مَجْدُوعَةَ الأَنْفِ، وَكُلُّ ذٰلِكَ بِعَيْنِ النَّاسِكِ



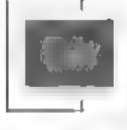




(١) الحجّام: هو الذي يعالج المريض بالمحجمة وهي قارورة يقال لها كاس الحجامة.
(٢) المصير: أي الرجوع. (٣) الكرّة: الرجعة.
(٤) أسطوانة: عمود. (٥) جدع: قطع.
(٦) أكبرته: أي رأته أمراً كبيراً.



وَسَمْعِهِ. ثُمَّ إِنَّ امْرَأَةَ الإِسْكَافِ جَعَلَتْ تَبْتَهِلُ[1]، وَتَدْعُو على زَوْجِهَا الَّذِي ظَلَمَهَا، وَتقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ زَوْجِي قَدْ ظَلَمَنِي، فَأَعِدْ عَلَيَّ أَنْفِي صَحِيحاً. ثُمَّ رَفَعَتْ صَوْتَهَا، وَنَادَتْ زَوْجَهَا: أَيُّهَا الْفَاجِرُ الظَّالِمُ، قُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ صُنْعُكَ بِي، وَصُنْعُ اللَّهِ بِي، كَيْفَ رَحِمَنِي وَرَدَّ أَنْفِي صَحِيحاً، كَمَا كَانَ؟! فَقَامَ، وَأَوْقَدَ الْمِصْبَاحَ، وَنَظَرَ فَإِذَا أَنْفُ زَوْجَتِهِ صَحِيحٌ؛ فَاسْتَغْفَرَ إِلَيْهَا، وَتَابَ عَنْ ذَنْبِهِ، وَاسْتَغْفَرَ إِلَى رَبِّهِ. وَأَمَّا امْرَأَةُ الْحَجَّامِ، فَإِنَّهَا لَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا، تَفَكَّرَتْ فِي طَلَبِ الْعُذْرِ عِنْدَ زَوْجِهَا وَأَهْلِهَا فِي جَدْعِ أَنفِهَا، وَرَفْعِ الالْتِبَاسِ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ السَّحَرِ، اسْتَيْقَظَ الْحَجَّامُ، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: هَاتِي أَدَوَاتِي كُلَّهَا، فَإِنِّي أُرِيدُ الْمُضِيَّ إِلَى بَعْضِ الأَشْرَافِ، فَأَتَتْهُ بِالْمُوسَى وَحْدَهُ. فَقَالَ لهَا: هَاتِي الأَدَوَاتِ جَمِيعَهَا، فَلَمْ تَزِدْهُ على المُوسَى. فَغَضِبَ، حِينَ أَطَالَتِ التَّكْرَارَ، وَرَمَاهَا بِهِ، فَوَلْوَلَتْ، وَصَاحَتْ: «أَنْفِي أَنْفِي» وَجَلَّبَتْ[2] حَتَّى جَاءَ أَهْلُهَا وَأَقْرِبَاؤُهَا، فَرَأَوْهَا على تِلْكَ الْحَالَةِ، فَأَخَذُوا الْحَجَّامَ فَانْطَلَقُوا بِهِ إِلَى الْقَاضِي، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: مَا حَمَلَكَ عَلَى جَدْعِ أَنْفِ امْرَأَتِكَ؟ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ حُجَّةٌ يَحْتَجُّ بِهَا. فَأَمَرَ بِهِ الْقَاضِي أَنْ يُقْتَصَّ[3] مِنْهُ فَلَمَّا قُدِّمَ لِلْقِصَاصِ، وَافَى النَّاسِكُ، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَاضِي وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْحَاكِمُ لاَ يَشْتَبِهَنَّ عَلَيْكَ هٰذَا الأَمْرُ، فَإِنَّ اللِّصَّ لَيْسَ هُوَ الَّذِي سَرَقَنِي، وَإِنَّ الثَّعْلَبَ







(١) تبتهل: تتضرع إلى الله.
(٢) جلّبت: صاحت وضجّت.
(٣) يقتص منه: أي يعاقب.

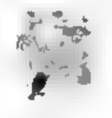
لَيْسَ الْوَعِلاَنِ قَتلاَهُ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَيْسَ السُّمُّ قَتَلَهَا، وَإِنَّ امْرَأَةَ الْحَجَّامَ لَيْسَ زَوْجُهَا جَدَعَ أَنْفَهَا، وَإِنَّما نَحْنُ فَعَلْنَا ذٰلِكَ بِأَنْفُسِنَا. فَسَأَلَهُ الْقَاضِي عَنِ التَّفْسِيرِ، فَأَخْبَرَهُ بِالقِصَّةِ، فَأَمَرَ الْقَاضِي بِإِطْلاَقِ الْحَجَّامِ.

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِأَمْرِي. وَلَعَلِّي مَا ضَرَّنِي أَحَدٌ سِوَى نَفْسِي، وَلٰكِنْ مَا الْحِيلَةُ؟

قَالَ كَلِيلَةُ: أَخْبِرْنِي عَن رَأْيِكَ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَعْزِمَ عَلَيْهِ في ذٰلِكَ.

قَالَ دِمْنَةُ: أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ الْيَوْمَ أَرْجُو أَنْ تَزْدَادَ مَنْزِلَتِي عِنْدَ الأَسَدِ فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَلٰكِنْ أَلْتَمِسُ أَنْ أَعُودَ إِلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ: فَإِنَّ أُمُوراً ثَلاثَةً الْعَاقِلُ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ فِيهَا، وَالاخْتِيالِ لَهَا بِجُهْدِهِ: مِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا مَضَى مِنَ الضُّر وَالنَّفْعِ، فَيَحْتَرِسُ مِنَ الضُّر الَّذي أَصَابَهُ فِيمَا سَلَفَ لِئَلاَّ يَعُودَ إِلَى ذٰلِكَ الضُّر، وَيَلْتَمِسُ النَّفْعَ الَّذِي مَضَى وَيَحْتَالُ لِمُعَاوَدَتِهِ؛ وَمِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَار، وَالاسْتِيثَاقُ[1] بِمَا يَنْفَعُ وَالْهَرَبُ مِمَّا يَضُرُّ؛ وَمِنْهَا النَّظَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ مَا يَرْجُو مِنْ قِبَلِ النَّفْعِ، وَمَا يَخَافُ مِنْ قِبَلِ الضُّرُ، فَيَسْتَتِمُّ مَا يَرْجُو وَيَتَوَقَّى مَا يَخَافُ بِجُهْدِهِ.





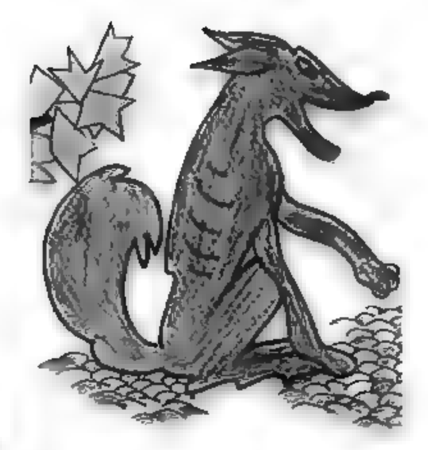


وَإِني لَمَّا نَظَرْتُ فِي الأَمْرِ الَّذِي بِهِ أَرْجُو أَنْ تَعُودَ مَنْزِلَتِي، وَمَا غُلِبْتُ عَلَيْه

(١) الاستيثاق: التثبت.

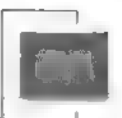


مِمَّا كُنْتُ فِيهِ، لَمْ أَجِدْ حيلَةً وَلاَ وَجْهاً إِلاَّ الاحْتِيَالَ لآكِلِ الْعُشْبِ هٰذَا، حَتَّى أُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ: فَإِنَّهُ إِنْ فَارَقَ الأَسَد عَادَتْ لِي مَنْزِلَتِي. وَلَعَلَّ ذٰلِكَ يَكُونُ خَيْراً لِلأَسَدِ: فَإِنَّ إِفْرَاطَهُ[1] فِي تَقْرِيبِ الثَّوْرِ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ.



قَالَ كَلِيلَةُ: مَا أَرَى عَلَى الأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْئاً وَلاَ شَرًّا.

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّمَا يُؤْتَى السُّلْطَانُ وَيَفْسُدُ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ سِتَّةِ أَشْيَاءَ: الْحِرْمَانِ وَالْفِتْنَةِ وَالْهَوَى وَالْفَظَاظَةِ وَالزَّمَانِ وَالْخُرْقِ.





فَأَمَّا الْحِرْمَانُ فَأَنْ يُحْرَمَ صَالِحَ الأَعْوَانِ وَالنُّصَحَاءِ وَالسَّاسَةِ[2] مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ[3] وَالأَمَانَةِ، وَتَرْكُ التَّفَقُّدِ لِمَنْ هُوَ كَذٰلِكَ.

وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَهِيَ تَحَارُبُ النَّاسِ وَوُقُوعُ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ.

وَأَمَّا الْهَوَى فَالْغَرَامُ بِالْحَدِيثِ وَاللَّهْوِ وَالشَّرَابِ وَالصَّيْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ.

وَأَمَّا الْفَظَاظَةُ فَهِيَ إِفْرَاطُ الشدَّةِ حَتَّى يَجْمَحَ[4] اللسَانُ بِالشَّتْمِ وَالْيَدُ بِالْبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِمَا.

---

(١) إفراطه: مجاوزته الحد.
(٢) السّاسة: جمع سائس وهو من يتولّى أمر الرعية ويدبرها ويحسن النظر إليها.
(٣) النجدة: الشدة والبأس.
(٤) يجمح: يسرع.

باب

الأسـد والثور

وَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ مَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنَ السنِينَ[1] وَالْمَوْتِ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالْغَزَوَاتِ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ.

وَأَمَّا الْخُرْقُ فَإِعْمَالُ الشدَّةِ فِي مَوْضِعِ اللِّينِ، وَاللِّينِ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ.

وَإِنَّ الأَسَدَ قَدْ أُغْرِمَ بِالثَّوْرِ إِغْرَاماً شَدِيداً وهُو الَّذِي ذَكَرْتُ لكَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أن يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ.

قَالَ كَلِيلَةُ: وَكَيْفَ تُطِيقُ الثَّوْرَ وَهُوَ أَشَدُّ مِنْكَ وَأَكْرَمُ عَلَى الأَسَدِ مِنْكَ وَأَكْثَرُ أَعْوَاناً؟



قَالَ دِمْنَةُ: لا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِي وَضَعْفِي: فَإِنَّ الأُمُورَ لَيْسَتْ بِالضَّعْفِ وَلاَ الْقُوَّةِ وَلاَ الصِّغَرِ وَلاَ الْكِبَرِ فِي الْجُثَّةِ: فَرُبَّ صَغِيرٍ ضَعِيفٍ قَدْ بَلَغَ بِحِيلَتِهِ وَدَهَائِهِ وَرَأْيِهِ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الأَقْوِيَاءِ. أَوَ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ غُرَاباً ضَعِيفاً احْتَالَ لأَسْوَدَ حَتَّى قَتَلَهُ؟

قَالَ كَلِيلَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

الغراب والثعبان الأسـود وابن آوى(*)

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ غُرَاباً كَانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ؛ وكَانَ قَرِيباً مِنْهُ

(*) تؤكد القصة على فائدة استخدام الحيلة والخديعة لإيقاع الظالم القوي والمتكبر في نتائج أعماله الشريرة.

(١) السنين: أي التي فيها شدّة وضيق.









جُحْرُ ثُعْبَانٍ أَسْوَدَ، **فَكَانَ الْغُرَابُ إِذَا فَرَّخَ عَمَدَ الأَسْوَدُ**[1] **إِلَى فِرَاخِهِ فَأَكَلَهَا**؛ فَبَلَغَ ذٰلِكَ[2] مِنَ الْغُرَابِ وَأَحْزَنَهُ، فَشَكَا ذٰلِكَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوَى؛ وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ؛ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ الْغُرَابُ: قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الأَسْوَدِ إِذَا نَامَ، فَأَنْقُرَ عَيْنَيْهِ، فَأَفْقَأَهُمَا، لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ آوَى: بِئْسَ الْحِيلَةُ الَّتِي احْتَلْتَ؛ فَالْتَمِسْ أَمْراً تُصِيبُ فِيهِ بُغْيَتَكَ مِنَ الأَسْوَدِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرِّرَ بِنَفْسِكَ[3] وَتُخَاطِرَ بِهَا. وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مَثَلُكَ مَثَلَ الْعُلْجُومِ[4] الَّذِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرَطَانِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

قَالَ الْغُرَابُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) الأسود: حية عظيمة.

(٢) بلغ ذلك: أي اشتدّ الأمر عليه.

(٣) تغرّر بنفسك: أي تعرّضها للهلكة.

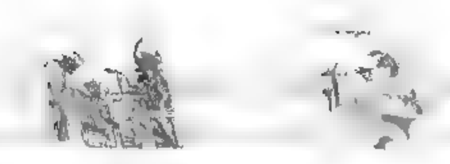
(٤) العلجوم: طائر أبيض.

العلجـوم والسـرطان(*)



قَــالَ ٱبْــنُ آوَى: زَعَـمُـوا أَنَّ عُلْجُوماً عَشَّشَ فِي أَجَـمَـةٍ كَـثِـيـرَةِ السَّمَكِ؛ فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ؛ ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْداً؛ فَأَصَابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَـدِيـدٌ؛ فَـجَـلَـسَ حَـزِيـنـاً يَـلْـتَـمِـسُ الْحِيلَةَ فِي أَمْرِهِ؛ فَـمَـرَّ بِـهِ سَـرَطَـانٌ، فَرَأَى حَالَتَهُ وَمَا هُوَ عَلَـيْـهِ مِـنَ الْـكَـآبَـةِ وَالْحُزْنِ؛ فَدَنَا مِنْهُ وَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ هٰكَذَا حَزِيناً كَئِيباً؟

(*) العبرة المستفادة من قصة العلجوم والسرطان أن بعض أساليب المكر والخداع تكون السبب في هلاك من يستخدمها ضد الآخرين.





قَالَ الْعُلْجُومُ: وَكَيْفَ لاَ أَحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ صَيدِ مَا هَاهُنَا مِنَ السَّمَكِ؟ وَإِني قَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَدْ مَرَّا بِهٰذَا الْمَكَانِ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ هَا هُنَا سَمَكاً كَثِيراً أَفَلاَ نَصِيدُهُ أَوَّلاً؟ فَقَالَ الآخَرُ: إِني قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانِ كَذَا سَمَكاً أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا السَّمَكِ؛ فَلْنَبْدَأْ بِذٰلكَ، فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ جِئْنَا إِلَى هٰذَا فَأَفْنَيْنَاهُ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا إِذَا فَرَغَا مِمَّا هُنَاكَ، انْتَهَيَا إِلَى هٰذِهِ الأَجَمَةِ فَاصْطَادَا مَا فِيهَا؛ فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ فَهُوَ هَلاَكِي وَنَفَادُ مُدَّتِي.



فَانْطَلَقَ السَّرَطَانُ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذٰلِكَ؛ فَأَقْبَلْنَ إِلَى الْعُلْجُوم فَاسْتَشَرْنَهُ؛ وَقُلْنَ لَهُ: إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ عَلَيْنَا: فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ لاَ يَدَعُ مُشَاوَرَةَ عَدُوِّهِ.

قَال الْعُلْجُومُ: أَمَّا مُكَابَرةُ[1] الصَّيَّادَيْنِ فَلاَ طَاقَةَ لِي بِهَا؛ وَلاَ أَعْلَمُ حِيلَةَ إِلاَّ الْمَصِيرَ إِلَى غَدِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ هَا هُنَا، فِيهِ سَمَكٌ وَمِيَاهٌ عظِيمَةٌ وَقَصَبٌ؛ فَإِن اسْتَطَعْتُنَّ الانْتِقَالَ إِلَيْهِ، كَانَ فِيهِ صَلاَحُكُنَّ وَخِصْبُكُنَّ[2]. فَقُلْنَ لَهُ: مَا يَمُنُّ عَلَيْنَا بِذٰلِك غَيْرُكَ. فَجَعَلَ الْعُلْجُومُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَمَكَتَيْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى بَعْضِ التلاَلِ فَيَأْكُلُهُمَا؛

(١) مكابرة: معاندة.

(٢) الخصب: رفاهة العيش.

حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ لأَخْذِ السَّمَكَتَيْنِ؛ فَجَاءَهُ السَّرَطَانُ؛ فَقَالَ لَهُ: إني أَيْضاً قَدْ أَشْفَقْتُ[1] مِن مَكَانِي هٰذَا وَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ فَاْذْهَبْ بي إِلَى ذٰلِكَ الْغَدِيرِ؛ فَاحْتَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ التَّلِّ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ السَّمَكَ فِيهِ نَظَرَ السَّرَطَانُ فَرَأَى عِظَامَ السَّمَكِ مَجْمُوعَةً هُنَاكَ؛ فَعَلِمَ أَنَّ الْعُلْجُومَ هُوَ صَاحِبُهَا؛ وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَ ذٰلِكَ. فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا هَالِكٌ، سَوَاءٌ قَاتَلَ أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ؛ كَانَ حَقِيقاً[2] أن يُقَاتِلَ عَنْ نَفْسِهِ كَرَماً وَحِفَاظاً، ثُمَّ أَهْوَى بِكَلْبَتَيْهِ[3] عَلَى عُنُقِ الْعُلْجُومِ، فَعَصَرَهُ فَمَاتَ؛ وَتَخَلَّصَ السَّرَطَانُ إِلى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذٰلِكَ.



وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِيلَةِ مَهْلَكَةٌ لِلْمُحْتَالِ وَلٰكِنِي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ، إِنْ أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْه. كَانَ فِيهِ هَلاَكُ الأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْلِكَ بِهِ نَفْسَكَ، وَتَكُونُ فِيهِ سَلاَمَتُكَ.

قَالَ الْغُرَابُ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ ابْنُ آوَى: تَنْطَلِقُ فَتَتَبَصَّرُ فِي طَيَرَانِكَ: لَعَلَّكَ أَنْ تَظْفَرَ بِشَيْءٍ مِنْ حُلْيِ النِّسَاءِ فَتَخْطَفَهُ؛ وَلاَ تَزَالُ طَائِراً وَاقِعاً، بِحَيْثُ لاَ تَفُوتُ الْعُيُونَ، حَتَّى تَأْتِيَ جُحْرَ الأَسْوَدِ فَتَرْمِيَ بِالْحُلْيِ عِنْدَهُ. فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذٰلِكَ أَخَذُوا حُلْيَهُمْ وَأَرَاحُوكَ مِنَ الأَسْوَدِ.



(١) أشفقت: خفت.
(٢) حقيقاً: أي الأولى به.
(٣) بكلبتيه: أي بظفريه.





فَانْطَلَقَ الْغُرَابُ مُحلقاً فِي السَّمَاءِ؛ فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ الْعُظَمَاءِ فَوْقَ سَطْحٍ تَغْتَسِلُ؛ وَقَدْ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا وَحُلِيَّهَا نَاحِيَةً؛ **فَانْقَضَّ[1] وَاخْتَطَفَ مِنْ حُلِيِّهَا عِقْداً، وَطَارَ بِهِ، فَتَبِعَهُ النَّاسُ**؛ وَلَمْ يَزَلْ طَائِراً وَاقِعاً، بِحَيْثُ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ؛ حَتَّى انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الأَسْوَدِ؛ فَأَلْقَى الْعِقْدَ عَلَيْهِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا أَتَوْهُ أَخَذُوا الْعِقْدَ وَقَتَلُوا الأَسْوَدَ.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْحِيلَةَ تُجْزِىءُ[2] مَا لاَ تُجْزِىءُ الْقُوَّةُ.

قَالَ كَلِيلَةُ: إِنَّ الثَّوْرَ لَوْ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِهِ رَأْيُهُ لَكَانَ كَمَا تَقُولُ. وَلٰكِنَّ لَهُ مَعَ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ. فَمَاذَا تَسْتَطِيعُ لَهُ؟

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الثَّوْرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ فِي قُوَّتِهِ وَرَأْيِهِ، وَلٰكِنَّهُ مُقِرٌّ لِي بِالْفَضْلِ؛ وَأَنَا خَلِيقٌ أَنْ أَصْرَعَهُ[3] كَمَا صَرَعَتِ الأَرْنَبُ الأَسَدَ.

---

(١) انقضّ: سقط بسرعة. (٢) تجزىء: تغني.
(٣) أصرعه: أهلكه.

باب
الأسد والثور

قَالَ كَلِيلَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

الأرنب والأسد(*)



قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسَداً كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الْمِيَاهِ وَالْعُشْبِ؛ وَكَانَ فِي تِلْكَ الأَرْضِ مِنَ الْوُحُوشِ فِي سَعَةِ الْمِيَاهِ وَالْمَرْعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ؛ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهَا ذٰلِكَ لِخَوْفِهَا مِنَ الأَسَدِ؛ فَاجْتَمَعَتْ وَأَتَتْ إِلَى الأَسَدِ، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّكَ لَتُصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الْجَهْدِ وَالتَّعَبِ؛ وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْياً فِيهِ صَلاَحٌ لَكَ وَأَمْنٌ لَنَا. فَإِنْ أَنْتَ أَمَّنْتَنَا وَلَمْ تُخِفْنَا، فَلَكَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ نُرْسِلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدَائِكَ. فَرَضِيَ الأَسَدُ بِذٰلِكَ، وَصَالَحَ الْوُحُوشَ عَلَيْهِ، وَوَفَيْنَ لَهُ بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ أَرْنَباً أَصَابَتْهَا الْقُرْعَةُ، وَصَارَتْ غَدَاءَ الأَسَدِ؛ فَقَالَتْ لِلْوُحُوشِ: إِنْ أَنْتُنَّ رَفَقْتُنَّ(١) بِي فِيمَا لاَ يَضُرُّكُنَّ؛ رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُنَّ مِنَ الأَسَدِ. فَقَالَتِ الْوُحُوشُ: وَمَا

(*) مغزى القصة هو تبيان قوة التفكير والعقل السليم في التغلب على صاحب القوة البدنية المعتمد على شدة بأسه وقوة بطشه.

(١) رفقتن: عاملتني بالرفق.



الَّذِي تُكَلِّفِينَنَا مِنَ الأُمُور؟ قَالَتْ: تَأْمُرْنَ الَّذِي يَنْطَلِقُ بِي إِلَى الأَسَدِ أَنْ يُمْهِلَنِي رَيْثَمَا أُبْطِىءُ علَيْهِ بَعْضَ الإِبْطَاءِ. فَقُلْنَ لَهَا: ذٰلِكِ لَكِ. فَانْطَلَقَتِ الأَرْنَبُ مُتَبَاطِئَةً؛ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَقْتَ الَّذِي كَانَ يَتَغَدَّى فِيهِ الأَسَدُ. ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَحْدَهَا رُوَيْداً، وَقَدْ جَاعَ؛ فَغَضِبَ وَقَامَ مِنْ مَكَانِهِ نَحْوَهَا؛ فَقَالَ لَهَا: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا رَسُولُ الْوُحُوشِ إِلَيْكَ: بَعَثْنَنِي وَمَعِي أَرْنَبٌ لَكَ، فَتَبِعَنِي أَسَدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَأَخَذهَا مِنِّي، وَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِهٰذِه الأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْوَحْشِ. فَقُلْتُ: إِنَّ هٰذا غداءُ الْمَلِكِ أَرْسَلَنِي بِهِ الْوُحُوشُ إِلَيْهِ فلاَ تغْصِبَنّهُ، فَسَبَّكَ وَشتَمَكَ. فَأَقْبَلْتُ مُسْرِعَةً لِأُخْبِرَكَ.

فَقَالَ الأَسَدُ: انْطَلِقِي مَعِي فَأَرِينِي مَوْضِعَ هٰذَا الأَسَدِ. فَانْطَلَقَتِ الأَرْنَبُ إِلَى جُبٍّ[1] فِيهِ مَاءٌ غامِرٌ صَافٍ؛ فاطَّلَعَتْ فِيه، وَقَالَتْ: هٰذَا الْمَكانُ. فَاطَّلَعَ الأَسَدُ، فَرَأَى ظِلَّهُ وَظِلَّ الأَرْنَبِ فِي الْمَاءِ؛ فَلَمْ يَشُكَّ فِي قَوْلِهَا؛ وَوَثَبَ إِلَيْه لِيُقَاتِلَهُ، فَغَرِقَ





(١) جبّ: بئر.

فِي الْجُبِّ. فَانْقَلَبَتِ الأَرْنَبُ إِلَى الْوُحُوشِ فَأَعْلَمَتْهُنَّ صَنِيعَهَا بِالأَسَدِ.

قَالَ كَلِيلَةُ: إِنْ قَدَرْتَ عَلَى هَلاَكِ الثَّوْرِ بِشَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ مَضَرَّةٌ لِلأَسَدِ فَشَأْنُكَ؛ فَإِنَّ الثَّوْرَ قَدْ أَضَرَّ بِي وَبِكَ وَبِغَيْرِنَا مِنَ الْجُنْدِ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرِ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ بِهَلاَكِ الأَسَدِ، فَلاَ تُقْدِمْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ غَدْرٌ مِنِّي وَمِنْكَ.

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ تَرَكَ الدُّخُولَ عَلَى الأَسَدِ أَيَّاماً كَثِيرَةً؛ ثُمَّ أَتَاهُ عَلَى خَلْوَةٍ مِنْهُ؛ فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ: مَا حَبَسَكَ عَنِّي؟ مُنْذُ زَمَانٍ لَمْ أَرَكَ. أَلاَ لِخَيْرٍ كَانَ انْقِطَاعُكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: فَلْيَكُنْ خَيْراً أَيُّهَا الْمَلِكُ. قَالَ الأَسَدُ: وَهَلْ حَدَثَ أَمْرٌ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يُرِيدُهُ وَلاَ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: كَلاَمٌ فَظِيعٌ. قَالَ: أَخْبِرْنِي بِهِ.





قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّهُ كَلاَمٌ يَكْرَهُهُ سَامِعُهُ، وَلاَ يَشْجُعُ عَلَيْهِ قَائِلُهُ. وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ لَذُو فَضِيلَةٍ، وَرَأْيُكَ يَدُلُّكَ عَلَى أَنْ يُوجِعَنِي أَنْ أَقُولَ مَا تَكْرَهُ؛ وَأَثِقُ بِكَ أَنْ تَعْرِفَ نُصْحِي وَإِيثَارِي إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي. وَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِيَ أَنَّكَ غَيْرُ مُصَدِّقِي فِيمَا أُخْبِرُكَ بِهِ؛ وَلَكِنِي إِذَا تَذَكَّرْتُ وَتَفَكَّرْتُ أَنَّ نُفُوسَنَا، مَعَاشِرَ الْوُحُوشِ، مُتَعَلِّقَةٌ بِكَ لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ أَدَاءِ[1] الْحَقِّ الَّذِي يَلْزَمُنِي، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي وَخِفْتُ أَلاَّ تَقْبَلَ مِنِّي فَإِنَّهُ يُقَالُ: مَنْ كَتَمَ السُّلْطَانَ نَصِيحَتَهُ وَالإِخْوَانَ رَأْيَهُ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ.

قَالَ الأَسَدُ: فَمَا ذَاكَ؟

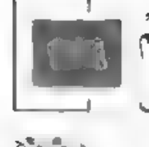
---

(١) أداء: إيصال.



قَالَ دِمْنَةُ: حَدَّثَنِي الأَمِينُ الصَّدُوقُ عِنْدِي أَنَّ شَتْرَبَةَ خَلاَ بِرُؤُوسِ جُنْدِكَ، وَقَالَ: قَدْ خَبَرْتُ(١) الأَسَدَ وَبَلَوْتُ(٢) رَأْيَهُ وَمَكِيدَتَهُ وَقُوَّتَهُ: فَاسْتَبَانَ لِي أَنَّ ذٰلِكَ يَؤُولُ(٣) مِنْهُ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ، وَسَيَكُونُ لِي وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشُّؤُونِ.

فَلَمَّا بَلَغَنِي ذٰلِكَ عَلِمْتُ أَنَّ شَتْرَبَةَ خَوَّانٌ غَدَّارٌ؛ وَأَنَّكَ أَكْرَمْتَهُ الْكَرَامَةَ كُلَّهَا، وَجَعَلْتَهُ نَظِيرَ نَفْسِكَ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ. وَأَنَّكَ مَتَى زُلْتَ عَنْ مَكَانِكَ صَارَ لَهُ مُلْكُكَ؛ وَلاَ يَدَعُ جُهْداً إِلاَّ بَلَغَهُ فِيكَ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِذَا عَرَفَ الْمَلِكُ مِنَ الرَّجُلِ أَنَّهُ قَدْ سَاوَاهُ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْحَالِ، فَلْيَصْرَعْهُ؛ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذٰلِكَ، كَانَ هُوَ الْمَصْرُوعَ. وَشَتْرَبَةُ أَعْلَمُ بِالأُمُورِ وَأَبْلَغُ فِيهَا؛ وَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْتَالُ لِلأَمْرِ قَبْلَ تَمَامِهِ وَوُقُوعِهِ. فَإِنَّكَ لاَ تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ وَلاَ تَسْتَدْرِكُهُ. فَإِنَّهُ يُقَالُ: الرِجَالُ ثَلاَثَةٌ: حَازِمٌ وَأَحْزَمُ مِنْهُ وَعَاجِزٌ؛ فَأَحَدُ الْحَازِمَيْنِ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ، وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ شَعَاعاً(٤)، وَلَمْ تَعْيَ(٥) بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ؛ وَأَحْزَمُ مِنْ هٰذَا الْمُتَقَدِّمِ ذُو الْعُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الابْتِلاَءَ(٦) قَبْلَ وُقُوعِهِ؛ فَيُعْظِمُهُ إِعْظَاماً، وَيَحْتَالُ لَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ، فَيَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ؛ وَيَدْفَعُ الأَمْرَ قَبْلَ وُقُوعِهِ. وَأَمَّا الْعَاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ(٧) حَتَّى يَهْلِكَ. وَمِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ مَثَلُ السَّمَكَاتِ الثَّلاَثِ.

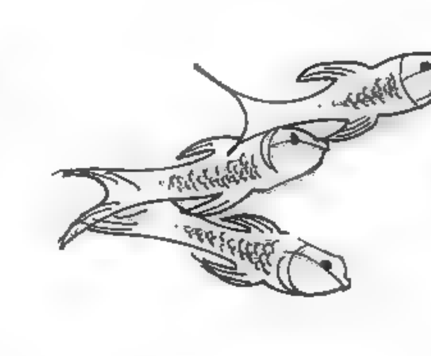


---

(١) خبرت: امتحنت.
(٢) بلوت: جرّبت.
(٣) يؤول: يرجع.
(٤) شعاعاً: متفرق.
(٥) تعي: تعجز.
(٦) الابتلاء: المحنة.
(٧) توان: تقصير.

قَالَ الأَسَدُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

السمكات الثلاث[*]



قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ غَدِيراً كَانَ فِيهِ ثَلاثُ سَمَكَاتٍ: كَيِّسَةٌ[1] وَأَكْيَسُ مِنْهَا وَعَاجِزَةٌ؛ وَكَانَ ذٰلِكَ الْغَدِيرُ بِنَجْوَةٍ[2] مِنَ الأَرْضِ لاَ يَكَادُ يَقْرَبُهُ أَحَدٌ؛ وَبِقُرْبِهِ نَهْرٌ جَارٍ. فَاتَّفَقَ أَنَّهُ اجْتَازَ بِذٰلِكَ النَّهْرِ صَيَّادَانِ؛ فَأَبْصَرَا الْغَدِيرَ، فَتَوَاعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشِبَاكِهِمَا فَيَصِيدَا مَا فِيهِ مِنَ السَّمَكِ. فَسَمِعَتِ السَّمَكَاتُ قَوْلَهُمَا. فَأَمَّا أَكْيَسُهُنَّ لَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهُمَا، وَارْتَابَتْ[3] بِهِمَا، وَتَخَوَّفَتْ مِنْهُمَا؛ فَلَمْ تُعَرِّجْ[4] عَلَى شَيْءٍ حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْمَاءُ مِنَ النَّهْرِ إِلَى الْغَدِيرِ. وَأَمَّا الْكَيِّسَةُ فَإِنَّهَا مَكَثَتْ مَكَانَهَا حَتَّى جَاءَ الصَّيَّادَانِ؛ فَلَمَّا رَأَتْهُمَا، وَعَرَفَتْ مَا يُرِيدَانِ، ذَهَبَتْ لِتَخْرُجَ مِنْ حَيْثُ يَدْخُلُ الْمَاءُ؛ فَإِذَا بِهِمَا قَدْ سَدَّا ذٰلِكَ الْمَكَانَ فَحِينَئِذٍ قَالَتْ: فَرَّطْتُ[5]، وَهٰذِهِ عَاقِبَةُ التَّفْرِيطِ؛ فَكَيْفَ الْحِيلَةُ عَلَى هٰذِهِ الْحَالِ؟ وَقَلَّمَا تَنْجَعُ حِيلَةُ الْعَجَلَةِ

(*) تفيد القصة بأن على المخطىء التفكير في خطئه والتراجع عنه والاستفادة من تجربته الخاطئة لاستنباط وسيلة أصح وصولاً لهدفه المنشود.

---

(١) كيّسة: حسنة التأني.
(٢) نجوة: مكان بعيد عن السكان.
(٣) ارتابت: شكّت.
(٤) لم تعرج: لم تقف.
(٥) فرّطت: قصرت.



وَالإِرْهَاقِ(١)، غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ لاَ يَقْنُطُ(٢) مِن مَنَافِعِ الرَّأْيِ، وَلاَ يَيْأَسُ عَلَى حَالٍ، وَلاَ يَدَعُ الرَّأْيَ وَالْجَهْدَ. ثُمَّ إِنَّهَا تَمَاوَتَتْ فَطَفَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ مُنْقَلِبَةً عَلَى ظَهْرِهَا تَارَةً، وَتَارَةً عَلَى بَطْنِهَا؛ فَأَخَذَهَا الصَّيَّادَانِ فَوَضَعَاهَا عَلَى الأَرْضِ بَيْنَ النَّهْرِ وَالْغَدِيرِ؛ فَوَثَبَتْ إِلَى النَّهْرِ فَنَجَتْ. وَأَمَّا الْعَاجِزَةُ فَلَمْ تَزَلْ فِي إِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ حَتَّى صِيدَتْ.



(١) الإرهاق: التأخر.

(٢) لا يقنط: أي لا يقطع الأمل.

باب

الأسد والثور

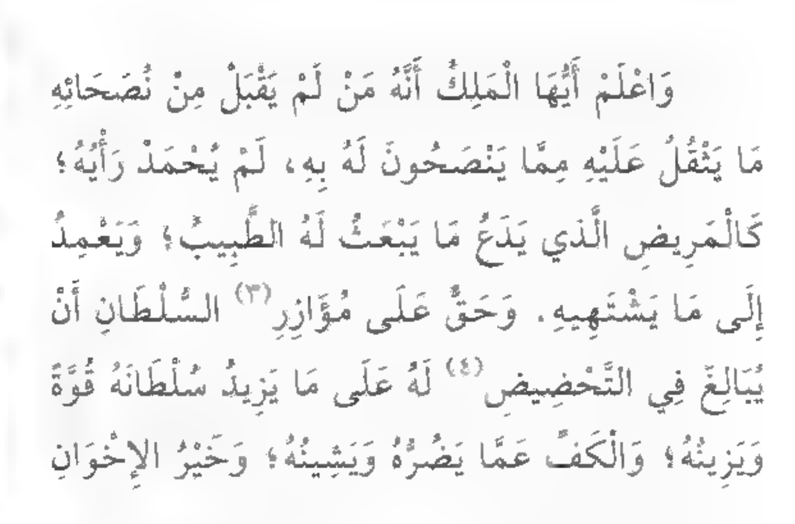


قَالَ الأَسَدُ: قَدْ فَهِمْتُ ذٰلِكَ؛ وَلاَ أَظُنُّ الثَّوْرَ يَغُشُّنِي وَيَرْجُو لِي الْغَوَائِلَ[1]. وَكَيْفَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ وَلَمْ يَرَ مِنِّي سُوءاً قَطُّ؟ وَلَمْ أَدَعْ خَيْراً إِلاَّ فَعَلْتُهُ مَعَهُ؟ وَلاَ أُمْنِيَّةً إِلاَّ بَلَّغْتُهُ إِيَّاهَا؟



قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ اللَّئِيمَ لاَ يَزَالُ نَافِعاً نَاصِحاً حَتَّى يُرْفَعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي ليس لها بِأَهْلٍ؛ فَإِذَا بَلَغَهَا الْتَمَس مَا فَوْقَهَا؛ وَلاَ سِيَّمَا أَهْلُ الْخِيَانَةِ وَالْفُجُورِ. فَإِنَّ اللَّئِيمَ الْفَاجِرَ لاَ يَخْدُمُ السُّلْطَانَ وَلاَ يَنْصَحُ لَهُ إِلاَّ مِنْ فَرَقٍ[2]. فَإِذَا اسْتَغْنَى وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ عَادَ إِلَى جَوْهَرِهِ، كَذَنَبِ الْكَلْبِ الَّذِي يُرْبَطُ لِيَسْتَقِيمَ فَلاَ يَزَالُ مُسْتَوِياً مَا دَامَ مَرْبُوطاً؛ فَإِذَا حُلَّ انْحَنَى وَاعْوَجَّ كَمَا كَانَ.





وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ نُصَحَائِهِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ بِهِ، لَمْ يُحْمَدْ رَأْيُهُ؛ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَدَعُ مَا يَبْعَثُ لَهُ الطَّبِيبُ؛ وَيَعْمِدُ إِلَى مَا يَشْتَهِيهِ. وَحَقٌّ عَلَى مُؤَازِرِ[3] السُّلْطَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّحْضِيضِ[4] لَهُ عَلَى مَا يَزِيدُ سُلْطَانَهُ قُوَّةً وَيَزِينُهُ؛ وَالْكَفِّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَشِينُهُ؛ وَخَيْرُ الإِخْوَانِ

---

(١) الغوائل: المكائد والغدر. (٢) فرق: خوف.

(٣) مؤازر: معاون. (٤) التحضيض: الحث.

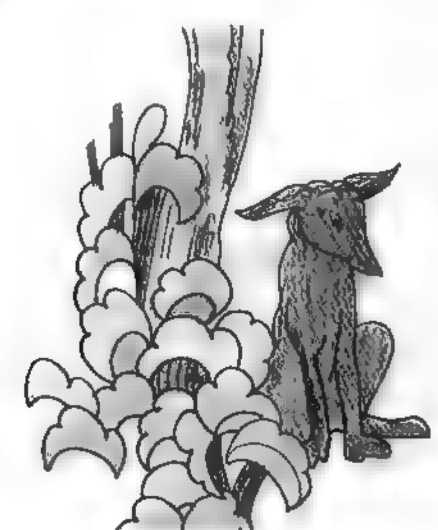


والأَعْوانِ أَقَلُّهُمْ مُداهنةً[١] فِي النَّصيحة؛ وَخَيْرُ الأَعْمالِ أَحْلاَهَا عاقِبَةً؛ وَخيْرُ النساء الْمُوافِقةُ لِبعْلِها؛ وَخيْرُ الثَّناء ما كَانَ عَلى أَفْواهِ الأَخْيارِ؛ وأَشْرفُ الْمُلُوكِ مَنْ لَمْ يُخالِطْهُ بَطَرٌ[٢]؛ وَخَيْرُ الأَخْلاَقِ أَعْوَنُها عَلى الْوَرَعِ[٣].

وَقَدْ قِيلَ: لَوْ أَنَّ امْرأً تَوسَّدَ النَّارَ وافْتَرَشَ الْحيَّاتِ، كَانَ أَحَقَّ أَلاَّ يَهْنِئَهُ النَّوْمُ. والرَّجُلُ إِذَا أَحسَّ مِنْ صَاحِبِه بِعَداوَةٍ يُرِيدُهُ بِهَا؛ لاَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ؛ وَأَعْجزُ الْمُلُوكِ آخَذُهُمْ بِالْهُوَيْنَى، وأَقَلُّهُمْ نظَراً فِي مُسْتَقْبَلِ الأُمُورِ، وَأَشْبَهُهُمْ بِالْفِيلِ الْهائِجِ الَّذِي لاَ يلْتفِتُ إِلَى شَيْءٍ، فَإِنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ تَهاوَنَ بِهِ[٤]، وَإِنْ أَضاعَ الأُمورَ حَمَلَ ذٰلِكَ عَلَى قُرَنائِه.

قَالَ لَهُ الأَسدُ: لَقَدْ أَغْلَظْتَ فِي الْقَوْلِ؛ وَقَوْلُ النَّاصِحِ مَقْبُولٌ مَحْمُولٌ. وَإِنْ كَانَ شَتْرَبَةُ مُعادِياً لِي، كَمَا تَقُولُ. فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ لِي ضَرّاً؛ وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلى ذٰلِكَ وَهُوَ آكِلُ عُشْبٍ وَأَنا آكِلُ لَحْم؟ وَإِنَّما هُوَ لِي طَعامٌ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخافَةٌ. ثُمَّ لَيْسَ إِلَى الْغَدْرِ بِهِ سَبِيلٌ بَعْدَ الأَمانِ الَّذِي جَعَلْتُهُ لَهُ، وَبَعْدَ إِكْرامِي لَهُ، وَثَنائِي عَلَيْهِ. وَإِنْ غَيَّرْتُ ما كَانَ مِنِّي وَبَدَّلْتُهُ، سَفَّهْتُ رَأْيِي وَجَهَّلْتُ نَفْسِي وَغَدَرْتُ بِذِمَّتِي.

قَالَ دِمْنَةُ: لاَ يَغُرَّنَّكَ قَوْلُكَ: هُوَ لِي طَعامٌ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخافَةٌ: فَإِنَّ شَتْرَبَةَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْكَ بِنَفْسِهِ احْتَالَ لَكَ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ. وَيُقَالُ: إِنِ اسْتَضافَكَ ضَيْفٌ ساعَةً مِنْ نَهارٍ، وَأَنْتَ لاَ تَعْرِفُ أَخْلاَقَهُ فَلاَ تَأْمَنْهُ عَلَى نَفْسِكَ؛ وَلاَ تَأْمَنْ أَنْ يَصِلَكَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ مَا أَصابَ الْقَمْلَةَ مِنَ الْبُرْغُوثِ. قَالَ الأَسَدُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟



(١) مداهنة: غشاً وتدليساً.
(٢) بطر: طغيان بالنعمة.
(٣) الورع: التقوى.
(٤) تهاون به: استحقره واستهزأ به.

القملة والبرغوث(*)

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ قَمْلَةً لَزِمَتْ فِرَاشَ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ دَهْراً فَكَانَتْ تُصِيبُ مِنْ دَمِهِ وَهُوَ نَائِمٌ لاَ يَشْعُرُ، وَتَدَبُّ دَبِيباً رَفِيقاً؛ فَمَكَثَتْ كَذٰلِكَ حِيناً حَتَّى اسْتَضَافَهَا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي بُرْغُوثٌ؛ فَقَالَتْ لَهُ: بِتِ اللَّيْلَةَ عِنْدَنَا فِي دَمٍ طَيِّبٍ وَفِرَاشٍ لَيِّنٍ؛ فَأَقَامَ الْبُرْغُوثُ عِنْدَهَا **حَتَّى إِذَا أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ وَثَبَ عَلَيْهِ الْبُرْغُوثُ فَلَدَغَهُ لَدْغَةً أَيْقَظَتْهُ**؛ وَأَطَارَتِ النَّوْمَ عَنْهُ؛ فَقَامَ الرَّجُلُ وَأَمَرَ أَنْ يُفَتَّشَ فِرَاشُهُ؛ فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ إِلاَّ الْقَمْلَةَ؛ فَأُخِذَتْ فَقُصِعَتْ[1] وَفَرَّ الْبُرْغُوثُ.





وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ لاَ يَسْلَمُ مِنْ شَرِّهِ أَحَدٌ؛

(*) يحث هذا المثل الإنسان العاقل على الابتعاد عن الأشرار لأن مخالطة رفاق السوء تؤدي إلى التهلكة.

---

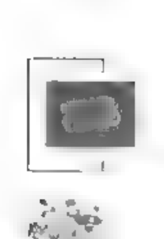
(١) قصعت: أي قتلت بالظفر.



وَإِنْ هُوَ ضَعُفَ عَنْ ذٰلِكَ جَاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ. وَإِنْ كُنْتَ لاَ تَخَافُ مِنْ شَتْرَبَةَ، فَخَفْ غَيْرَهُ مِنْ جُنْدِكَ الَّذِينَ قَدْ حَرَّشَهُمْ[1] عَلَيْكَ وحَمَلَهُمْ عَلَى عَدَاوَتِكَ.

فَوَقَعَ فِي نَفْسِ الأَسَدِ كَلاَمُ دِمْنَةَ. فَقَالَ: فَمَا الَّذِي تَرَى إذاً؟ وَبِمَاذَا تُشِيرُ؟

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الضِّرْسَ لاَ يَزَالُ مُتَآكِلاً، وَلاَ يَزَالُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلَمٍ وَأَذًى حَتَّى يُفَارِقَهُ. وَالطَّعَامُ الَّذي قَدْ عَفِنَ فِي الْبَطْنِ، الرَّاحَةُ فِي قَذْفِهِ. وَالْعَدُوُّ الْمَخُوفُ، دَوَاؤُهُ قَتْلُهُ.



قَالَ الأَسَدُ: لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَكْرَهُ مُجَاوَرَةَ شَتْرَبَةَ إِيَّايَ؛ وَأَنَا مُرْسِلٌ إِلَيْهِ، وَذَاكِرٌ لَهُ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ؛ ثُمَّ آمُرُهُ بِاللَّحَاقِ حَيْثُ أَحَبَّ.

فَكرِهَ دِمْنَةُ ذٰلِكَ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَسَدَ مَتَى كَلَّمَ شَتْرَبَةَ فِي ذٰلِكَ وَسَمِعَ مِنْهُ جَوَاباً عَرَفَ بَاطِلَ مَا أَتَى بِهِ، وَاطَّلَعَ عَلَى غَدْرِهِ وَكَذِبِهِ؛ وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ. فَقَالَ لِلأَسَدِ: أَمَّا إِرْسَالُكَ إِلَى شَتْرَبَةَ فَلاَ أَرَاهُ لَكَ رَأْياً وَلاَ حَزْماً؛ فَلْيَنْظُرِ الْمَلِكُ في ذٰلِكَ: فَإِنَّ شَتْرَبَةَ مَتَى شَعَرَ بِهٰذَا الأَمْرِ، خِفْتُ أَن يُعَاجِلَ الْمَلِكَ بِالْمُكَابَرَةِ. وَهُوَ إِنْ قَاتَلَكَ، قَاتَلَكَ مُسْتَعِدًّا؛ وَإِنْ فَارَقَكَ، فَارَقَكَ فِرَاقاً يَلِيكَ[2] مِنْهُ النَّقْصُ، وَيَلْزَمُكَ مِنْهُ الْعَارُ. مَعَ أَنَّ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ الْمُلُوكِ لاَ يُعْلِنُونَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُعْلِنْ ذَنْبَهُ؛ وَلٰكِنْ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهُمْ عُقُوبَةٌ: فَلِذَنْبِ الْعَلاَنِيَةِ عُقُوبَةُ الْعَلاَنِيَةِ، وَلِذَنْبِ السِّرِّ عُقُوبَةُ السِّرِّ.

(١) حرّشهم عليك: أغراهم بك.

(٢) يليك: يلحقك.

باب

الأسد والثور



قَالَ الأَسَدُ: إِنَّ الْمَلِكَ إِذَا عَاقَبَ أَحَداً عَنْ ظِنَّةٍ[1] ظَنَّهَا مِنْ غَيْرِ تَيَقُّنٍ بِجُرْمِهِ، فَنَفْسَهُ عَاقَبَ وَإِيَّاهَا ظَلَمَ.

قَالَ دِمْنَةُ: أَمَّا إِذَا كَانَ هٰذَا رَأْيَ الْمَلِكِ، فَلاَ يَدْخُلَنَّ عَلَيْكَ شَتْرَبَةُ إِلاَّ وَأَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيبَكَ مِنْهُ غِرَّةٌ أَوْ غَفْلَةٌ: فَإِنِّي لاَ أَحْسَبُ الْمَلِكَ حِينَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلاَّ سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيمَةٍ. وَمِنْ عَلاَمَاتِ ذٰلِكَ أَنَّكَ تَرَى لَوْنَهُ مُتَغَيِّراً؛ وَتَرى أَوْصَالَهُ[2] تُرْعَدُ[3]؛ وَتَرَاهُ مُلْتَفِتاً يَمِيناً وَشِمَالاً؛ وَتَرَاهُ يَهُزُّ قَرْنَيْهِ فِعْلَ الَّذِي هَمَّ بِالنِّطَاحِ وَالْقِتَالِ.

قَالَ الأَسَدُ: سَأَكُونُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ؛ وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتَ عَلِمْتُ أَنْ مَا فِي أَمْرِهِ شَكٌّ.

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ حَمْلِ الأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ، وَأَنَّ الأَسَدَ سَيَتَحَذَّرُ الثَّوْرَ، وَيَتَهَيَّأُ لَهُ، أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ الثَّوْرَ لِيُغْرِيَهُ بِالأَسَدِ؛ وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِتْيَانُهُ مِنْ قِبَلِ الأَسَدِ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذٰلِكَ فَيَتَأَذَّى بِهِ. فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَلاَ آتِي شَتْرَبَةَ فَأَنْظُرَ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ؛ وَأَسْمَعَ كَلاَمَهُ، لَعَلِّي أَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِ، فَأُطْلِعَ الْمَلِكَ عَلَى ذٰلِكَ، وَعَلَى مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ؟

فَأَذِنَ لَهُ الأَسَدُ فِي ذٰلِكَ. فَانْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى شَتْرَبَةَ كَالْكَئِيبِ الْحَزِينِ.

فَلَمَّا رَآهُ الثَّوْرُ رَحَّبَ بِهِ، وَقَالَ: مَا كَانَ سَبَبُ انْقِطَاعِكَ عَنِّي؟ فَإِنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ؛ وَلَعَلَّكَ فِي سَلاَمَةٍ!

---

(١) ظِنَّة: تهمة. (٢) أوصاله: أطرافه، يداه ورجلاه.

(٣) ترعد: تضطرب وتهتز.





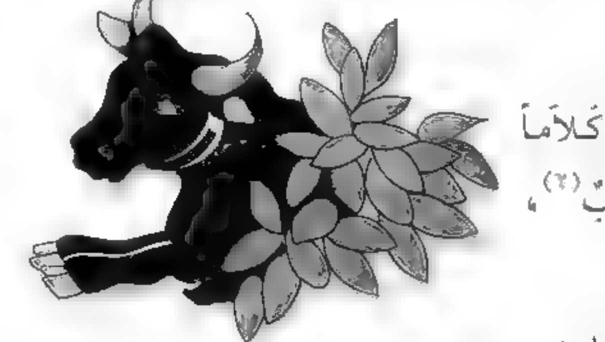
قَالَ دِمْنَةُ: وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلاَمَةِ مَنْ لاَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَأَمْرُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لاَ يُوثَقُ بِهِ، ولاَ يَنْفَكُّ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ. حَتَّى مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ.

قَالَ شَتْرَبَةُ: وَمَا الَّذِي حَدَثَ؟

قَالَ دِمْنَةُ: حَدَثَ مَا قُدِّرَ وَهُوَ كَائِنٌ. وَمَنْ ذَا الَّذِي غَالَبَ الْقَدَرَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسِيماً مِنَ الأُمُورِ فَلَمْ يَبْطَرْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلغ مُنَاهُ فَلَمْ يَغْتَرَّ[1]؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي تبع هَواهُ فَلَمْ يَخْسَرْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي طَلَبَ مِنَ اللِّئَام فَلَمْ يُحْرَمْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي خَالَطَ الأَشْرَارَ فَسَلِمَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطَانَ فَدَامَ لَهُ مِنْهُ الأَمْنُ وَالإِحْسَانُ؟







قَالَ شَتْرَبَةُ: إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ كَلاَماً يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَابَكَ مِنَ الأَسَدِ رَيْبٌ[2]، وَهَالَكَ مِنْهُ أَمْرٌ.

قَالَ دِمْنَةُ: أَجَلْ، لَقَدْ رَابَنِي مِنْهُ ذٰلِكَ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي. قَالَ شَتْرَبَةُ: فَفِي نَفْس مَنْ رَابَكَ؟

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ تَعْلَمُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَيَّ، وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ أَيَّامَ أَرْسَلَنِي الأَسَدُ إِلَيْكَ. فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنْ حِفْظِكَ

---

(١) لم يغترّ: أي فلم يغفل ولم يخدع.

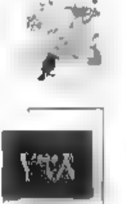
(٢) الريب: الشك والخوف.

وَإِطْلاَعِكَ عَلَى مَا اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ.

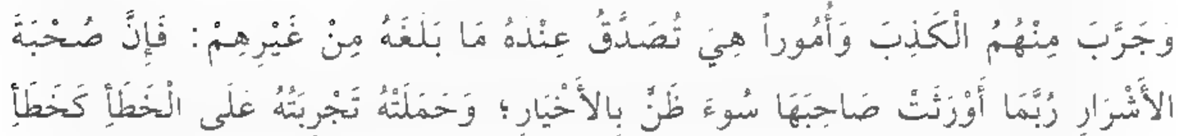
قَالَ شَتْرَبَةُ: وَمَا الَّذِي بَلَغَكَ؟

قَالَ دِمْنَةُ: حَدَّثَنِي الْخَبِيرُ الصَّدُوقُ الَّذِي لاَ مِرْيَةَ[1] فِي قَوْلِهِ أَنَّ الأَسَدَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ: قَدْ أَعْجَبَنِي سِمَنُ الثَّوْرِ، وَلَيْسَ لِي إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ؛ فَأَنَا آكِلُهُ وَمُطْعِمُ أَصْحَابِي مِنْ لَحْمِهِ. فَلَمَّا بَلَغَنِي هٰذَا الْقَوْلُ، وَعَرَفْتُ غَدْرَهُ وَنَقْضَ عَهْدِهِ؛ أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ لأَقْضِيَ حَقَّكَ؛ وَتَحْتَالَ أَنْتَ لأَمْرِكَ.





فَلَمَّا سَمِعَ شَتْرَبَةُ كَلاَمَ دِمْنَةَ، وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الأَسَدِ، ظَنَّ أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ وَنَصَحَ لَهُ؛ وَرَأَى أَنَّ الأَمْرَ شَبِيهٌ بِمَا قَالَ دِمْنَةُ. فَأَهَمَّهُ ذٰلِكَ؛ وَقَالَ: مَا كَانَ لِلأَسَدِ أَنْ يَغْدِرَ بِي وَلَمْ آتِ إِلَيْهِ ذَنْباً، وَلاَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ، مُنْذُ صَحِبْتُهُ؛ وَلاَ أَظُنُّ الأَسَدَ إِلاَّ قَدْ حُمِلَ عَلَيَّ[2] بِالْكَذِبِ وَشُبِّهَ[3] عَلَيْهِ أَمْرِي: فَإِنَّ الأَسَدَ قَدْ صَحِبَهُ قَوْمُ سَوْءٍ؛



وَجَرَّبَ مِنْهُمُ الْكَذِبَ وَأُمُوراً هِيَ تُصَدِّقُ عِنْدَهُ مَا بَلَغَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ: فَإِنَّ صُحْبَةَ الأَشْرَارِ رُبَّمَا أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا سُوءَ ظَنٍّ بِالأَخْيَارِ؛ وَحَمَلَتْهُ تَجْرِبَتُهُ عَلَى الْخَطَأِ كَخَطَأِ

---

(١) لا مرية: أي لا شك.

(٢) حمل علي: أي أغروه ليوقع بي.

(٣) شبّه: التبس.



الْبَطَّةِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا رَأَتْ فِي الْمَاءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ، فَظَنَّتْهُ سَمَكَةً، فَحَاوَلَتْ أَنْ



تَصِيدَهَا، فَلَمَّا جَرَّبَتْ ذٰلِكَ مِرَاراً، عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصَادُ فَتَرَكَتْهُ. ثُمَّ رَأَتْ مِنْ غَدِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ سَمَكَةً، فَظَنَّتْ أَنَّهَا مِثْلُ الَّذِي رَأَتْهُ بِالأَمْسِ، فَتَرَكَتْهَا وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَهَا. فَإِنْ كَانَ الأَسَدُ بَلَغَهُ عَنِي كَذِبٌ فَصَدَّقَهُ عَلَيَّ وَسَمِعَهُ فِيَّ، فَمَا جَرى عَلَى غَيْرِي يَجْرِي عَلَيَّ. وَإِنْ كَانَ لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ، وَأَرَادَ السُّوءَ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ أَعْجَبِ الأُمُورِ.

وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِنَّ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ رِضَا صَاحِبِهِ وَلاَ يَرْضَى. وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يَلْتَمِسَ رِضَاهُ فَيَسْخَطَ. فَإِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةُ[1] عَنْ عِلَّةٍ، كَانَ الرِّضَا مَوْجُوداً وَالْعَفْوُ مَأْمُولاً. وَإِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، انْقَطَعَ الرَّجَاءُ: لِأَنَّ الْعِلَّةَ

(١) الموجدة: الغضب.

باب

الأسد والثور

إِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةُ فِي وُرُودِهَا[1]، كَانَ الرِضَا مَأْمُولاً فِي صدورِهَا.

وقدْ نظَرْتُ: فلاَ أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَسَدِ جُرْماً، ولاَ صَغيرَ ذَنْبٍ، وَلاَ كَبيرَهُ. ولَعَمْرِي مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطَالَ صُحْبَةَ صَاحِبٍ أَنْ يَحْتَرِسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِه، وَلاَ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ صَغِيرَةٌ أَوْ كَبيرَةٌ يَكْرَهُهَا صَاحِبُهُ؛ وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْوفَاءِ إِذَا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقْطَةً نَظَرَ فِيهَا، وَعَرَفَ قَدْرَ مَبْلَغِ خَطَئِهِ عَمْداً كَانَ أَوْ خَطَأً. ثُمَّ يَنْظُرُ هَل فِي الصَّفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يَخَافُ ضَرَرَهُ وَشَيْنَهُ؟ فَلاَ يُؤَاخِذُ صَاحِبَهُ بِشَيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إِلَى الصَّفْحِ عَنْهُ سَبِيلاً.



فَإِنْ كَانَ الأَسَدُ قَدِ اعْتَقَدَ عَلَيَّ ذَنْباً؛ فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ؛ إِلاَّ أَنِّي خَالَفْتُهُ فِي بَعْضِ رَأْيِهِ نَصِيحَةً لَهُ؛ فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الْجَرَاءَةِ عَلَيْهِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ؛ وَلاَ أَجِدُ لِي فِي هٰذَا الْمَحْضَرِ إِثْماً مَا، لأَنِّي لَمْ أُخَالِفْهُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ ما قَدْ نَدَر مِنْ مُخَالَفَةِ الرُّشْدِ[2] وَالْمَنْفَعَةِ والدِّينِ؛ وَلَمْ أُجَاهِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ عَلَى رُؤُوسِ جُنْدِهِ وَعِنْد أَصْحَابِهِ؛ وَلٰكِنِّي كُنْتُ أَخْلُو بِهِ وأُكَلِّمُهُ سِرًّا كَلاَمَ الْهَائِبِ[3] الْمُوَقِّرِ.



وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَنِ الْتَمَسَ الرُّخَصَ[4] مِنَ الإِخْوَانِ عِنْدَ الْمُشَاوَرَةِ، وَمِنَ الأَطِبَّاءِ عِنْدَ الْمَرَضِ؛ وَمِنَ الْفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ، أَخْطَأَ مَنَافِعَ الرَّأْيِ؛ وَازْدَادَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذٰلِكَ تَوَرُّطًا، وحُمِّلَ الْوِزْرَ[5]. وَإِن لَمْ يَكُنْ هٰذا، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ مِنْ

---

(١) الورود: بلوغ الماء والقرب منه من غير دخول وقد يحصل دخول فيه والصدور خلافه وكلاهما هنا على الاستعارة والضمير للعلة.

(٢) الرّشد: الاستقامة على طريق الحق.

(٣) الهائب: اسم فاعل من هابه إذا أجله وخافه.

(٤) الرّخص: جمع رخصة وهي اليسر والسهولة.

(٥) الوزر: الإثم.



بَعْضِ سَكَرَاتِ السُّلْطَانِ، فَإِنَّ مُصَاحَبَةَ السُّلْطَانِ خَطِرَةٌ، وَإِنْ صُوحِبَ بِالسَّلاَمَةِ وَالثِّقَةِ وَالْمَوَدَّةِ وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هٰذَا، فَبَعْضُ مَا أُوتِيتُ مِنَ الْفَضْلِ قَدْ جُعِلَ لِي فِيهِ الْهَلاَكُ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هٰذَا وَلاَ هٰذَا، فَهُوَ إِذاً مِنْ مَوَاقِعِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي لاَ يُدْفَعُ؛ وَالْقَدَرُ هُوَ الَّذِي يَسْلُبُ الأَسَدَ قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ؛ وَيُدْخِلُهُ الْقَبْرَ؛ وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيفَ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْهَائِجِ؛ وَهُوَ الَّذِي يُسَلِّطُ عَلَى الْحَيَّةِ ذَاتِ الْحُمَةِ مَنْ يَنْزِعُ حُمَتَهَا وَيَلْعَبُ بِهَا؛ وَهوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَاجِزَ حَازِماً، وَيُثَبِّطُ[1] الشَّهْمَ، وَيُوسِعُ عَلَى الْمُقْتِرِ[2]، وَيُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُجَبِّنُ الشُّجَاعَ عِنْدَمَا تَعْتَرِيهِ[3] الْمَقَادِيرُ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا الأَقْدَارُ.

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ إِرَادَةَ الأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَحْرِيشِ الأَشْرَارِ وَلاَ سَكْرَةِ السُّلْطَانِ وَلاَ غَيْرِ ذٰلِكَ، وَلٰكِنَّهَا الْغَدْرُ وَالْفُجُورُ مِنْهُ: فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ غَدَّارٌ: لِطَعَامه حَلاَوَةٌ وَآخِرُهُ سُمٌّ مُمِيتٌ.

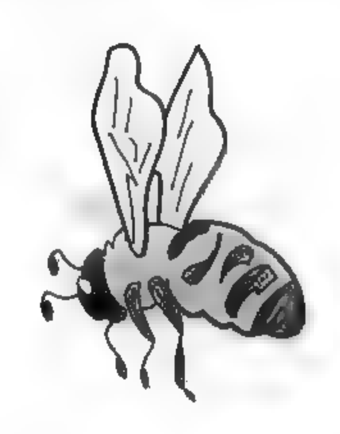
قَالَ شَتْرَبَةُ: فَأَرَانِي قدِ اسْتَلْذَذْتُ الْحَلاَوَة إِذْ ذُقْتُهَا، وَقَدِ انْتَهَيْتُ إِلَى آخِرِهَا

---

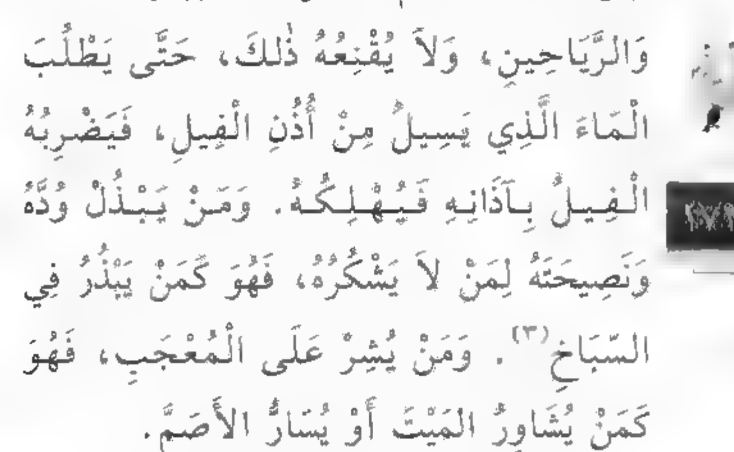
(١) يثبِّط: يعوق.

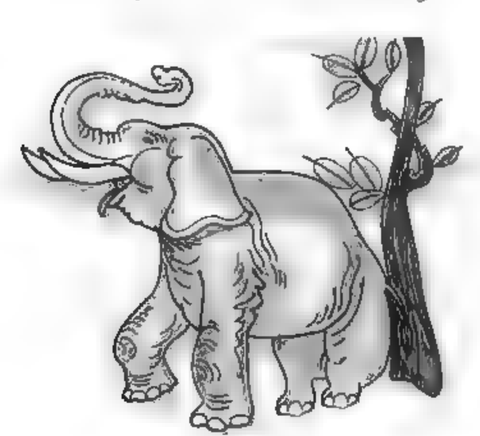
(٢) المقتر: المفتقر.

(٣) تعتريه: تصيبه.



الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ؛ وَلَوْلاَ الْحَيْنُ مَا كَانَ مُقَامِي عِنْدَ الأَسَدِ، وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ وَأَنَا آكِلُ عُشْبٍ فَأَنَا فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ كَالنَّحْلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ[1] النَّيْلَوْفَرِ[2] إِذْ تَسْتَلِذُّ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ، فَتَحْبِسُهَا تِلْكَ اللَّذَّةُ؛ فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضَمُّ عَلَيْهَا، فَتَرْتَبِكُ فِيهِ وَتَمُوتُ. وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِالكَفَافِ الَّذِي يُغْنِيهِ وَطَمَحَتْ عَيْنُهُ إِلَى مَا سِوَى ذٰلِكَ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْ عَاقِبَتَهَا، كَانَ كَالذُّبَابِ الَّذِي لاَ يَرْضَى بِالشَّجَرَةِ وَالرَّيَاحِينِ، وَلاَ يُقْنِعُهُ ذٰلِكَ، حَتَّى يَطْلُبَ الْمَاءَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الْفِيلِ، فَيَضْرِبُهُ الْفِيلُ بِآذَانِهِ فَيُهْلِكُهُ. وَمَنْ يَبْذُلْ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ لِمَنْ لاَ يَشْكُرُهُ، فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السِّبَاخِ[3]. وَمَنْ يُشِرْ عَلَى الْمُعْجَبِ، فَهُوَ كَمَنْ يُشَاوِرُ المَيْتَ أَوْ يُسَارُّ الأَصَمَّ.





قَالَ دِمْنَةُ: دَعْ عَنْكَ هٰذَا الْكَلاَمَ وَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ.

قَالَ شَتْرَبَةُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَحْتَالُ لِنَفْسِي، إِذَا أَرَادَ الأَسَدُ أَكْلِي، مَعَ مَا عَرَّفْتَنِي مِن رأْيِ الأَسَدِ وَسُوءِ أَخْلاَقِهِ؟ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُرِدْ بِي إِلاَّ خَيْراً، ثُمَّ أَرَادَ أَصْحَابُهُ

---

(١) نور: زهر.

(٢) النّيلوفر: ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ومتى ساوى سطح الماء أورق وأزهر.

(٣) السّباخ: من الأرض ما لم يحرث ولم يعمر.





بِمَكْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ هَلاَكِي لَقَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ الْمَكَرَةُ الظَّلَمَةُ عَلَى الْبَرِيءِ الصَّحِيحِ، كَانُوا خُلَقَاءَ[1] أَنْ يُهْلِكُوهُ، وَإِن كَانُوا ضُعَفَاءَ وَهُوَ قَوِيٌّ؛ كَمَا أَهْلَكَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى الْجَمَلَ، حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

الذئب والغراب وابن آوى والجمل(*)

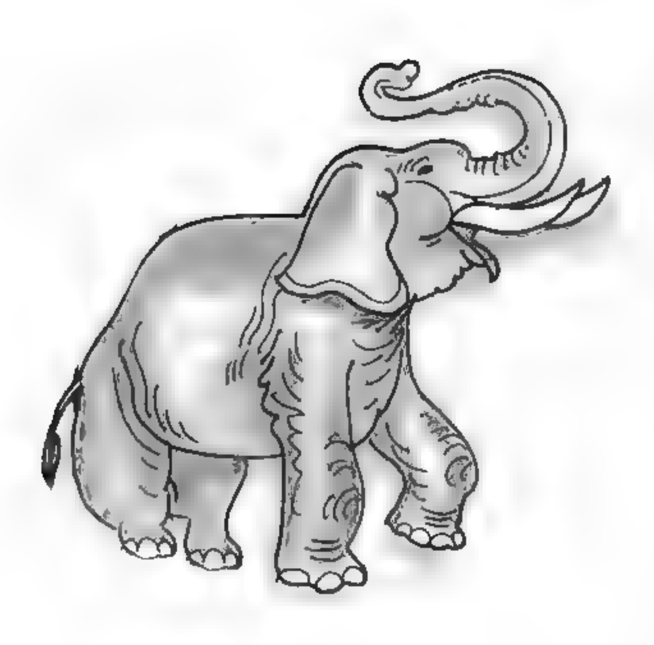
قَالَ شَتْرَبَةُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسَداً كَانَ فِي أَجَمَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِطَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ النَّاسِ؛ وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ ثَلاَثَةٌ: ذِئْبٌ وَغُرَابٌ وَابْنُ آوَى؛ وَأَنَّ رُعَاةً مَرُّوا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَمَعَهُمْ جِمَالٌ، فَتَخَلَّفَ مِنْهَا جَمَلٌ، فَدَخَلَ تِلْكَ الأَجَمَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الأَسَدِ؛ فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ مَوْضِعِ كَذَا. قَالَ: فَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: مَا يَأْمُرُنِي بِهِ الْمَلِكُ. قَالَ: تُقِيمُ عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالأَمْنِ وَالْخِصْبِ. فَأَقَامَ الأَسَدُ وَالْجَمَلُ مَعَهُ زَمَناً طَوِيلاً.

(*) تعطي هذه القصة العديد من العبر والحكم ومنها أن الضرورات تبيح المحظورات، وأن التصميم على القتل والعدوان يدفع لخلق المبررات الواهية، وأن المشاورة والأخذ برأي الآخرين وإن كانوا أضعف قوة يشكل خلاصة رأي الجماعة الأنجع من رأي الفرد والأصوب لمجاوزة المحن.

---

(١) خلقاء: جديرون، قادرون.

بـــاب
الأســد والثور



ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الأَيَّامِ لِطَلَبِ الصَّيْدِ، فَلَقِيَ فِيلاً عَظِيماً، فَقَاتَلَهُ قِتَالاً شَدِيداً، وَأَفْلَتَ مِنْهُ مُثْقَلاً مُثْخَناً[1] بِالْجِرَاحِ، يَسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ، وَقَدْ خَدَشَهُ الْفِيلُ بِأَنْيَابِه. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَانِهِ، وَقَعَ لاَ يَسْتَطِيعُ حَرَاكاً، وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ؛ فَلَبِثَ الذئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى أَيَّاماً لاَ يَجِدُونَ طَعَاماً، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلاَتِ الأَسَدِ وَطَعَامِه؛ فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ وهُزَالٌ، وَعَرَفَ الأَسَدُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ؛ فَقَالَ: لَقَدْ جُهِدْتُمْ وَاحْتَجْتُمْ إِلَى مَا تَأْكُلُونَ. فَقَالُوا: لاَ تَهُمُّنَا أَنْفُسُنَا، لٰكِنَّا نَرَى الْمَلِكَ عَلَى مَا نَرَاهُ. فَلَيْتَنَا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيُصْلِحُهُ. قَالَ الأَسَدُ: مَا أَشُكُّ فِي نَصِيحَتِكُمْ، وَلٰكِنِ انْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْداً تَأْتُونَنِي بِهِ؛ فَيُصِيبَنِي وَيُصِيبَكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ.





فَخَرَجَ الذئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الأَسَدِ؛ فَتَنَحَّوْا نَاحِيَةً، وَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا: مَا لَنَا وَلِهٰذَا الآكِلِ الْعُشْبِ الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ مِنْ شَأْنِنَا، وَلاَ رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنَا؟ أَلاَ نُزَيِّنُ لِلأَسَدِ فَيَأْكُلُهُ وَيُطْعِمُنَا مِنْ لَحْمِهِ؟

قَالَ ابْنُ آوَى: هٰذَا مِمَّا لاَ نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ لِلأَسَدِ: لِأَنَّهُ قَدْ أَمَّنَ الْجَمَلَ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ عَهْداً.

---

(١) مثخناً: أي مبالغاً بجراحه.

قَالَ الْغُرَابُ: أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الأَسَدِ. ثُمَّ انْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى الأَسَدِ. فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ: هَلْ أَصَبْتَ شَيْئاً؟ قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّما يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِر. وَأَمَّا نَحْنُ فَلاَ سَعْيَ لَنَا وَلاَ بَصَرَ. لِمَا بِنَا مِنَ الْجُوعِ؛ وَلٰكِنْ قَدْ وُفِّقْنا لِرَأْيٍ وَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ؛ إِنْ وَافَقَنَا الْمَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ. قَالَ الأَسَدُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ الْغُرَابُ: هٰذَا الْجَمَلُ آكِلُ الْعُشْبِ الْمُتَمَرِّغُ بَيْنَنا مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ لَنا مِنْهُ، وَلاَ رَدِّ عَائِدَةٍ[1]، وَلاَ عَمَلٍ يُعْقِبُ مَصْلَحَةً.



فَلَمَّا سَمِعَ الأَسَدُ ذٰلِكَ غَضِبَ وَقَالَ: ما أَخْطَأَ رَأْيَكَ، وَمَا أَعْجَزَ مَقَالَكَ، وَأَبْعَدَكَ مِنَ الْوَفاءِ وَالرَّحْمَةِ ! وَما كُنْتَ حَقِيقاً أَنْ تَجْتَرِىءَ عَلَيَّ بِهٰذِهِ المَقَالَةِ، وَتَسْتَقْبِلَنِي بِهٰذَا الْخِطَابِ؛ مَعَ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَني قَدْ أَمَّنْتُ الْجَمَلَ، وَجَعَلْتُ لَهُ مِن ذِمَّتِي ولَسْتُ بغادِرٍ بهِ ولا خافِرٍ[2] لهُ ذِمَّةً. أَوَ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ مُتَصَدقٌ بِصَدَقَةٍ هِيَ أَعْظَمُ أَجْراً مِمَّنْ أَمَّنَ نَفْساً خَائِفَةً، وَحَقَنَ دَماً مُهْدَراً؟ وَقَدْ أَمَّنْتُهُ وَلَسْتُ بِغَادِرٍ بِهِ.

قَالَ الْغُرَابُ: إِني لأَعْرِفُ مَا يَقُولُ الْمَلِكُ؛ وَلٰكِنَّ النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْبَيْتِ؛ وَأَهْلُ الْبَيْتِ تُفْتَدَى بِهِمُ الْقَبِيلَةُ؛ وَالْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْمِصْرِ[3]؛ وَأَهْلُ الْمِصْرِ فِدَاءُ الْمَلِكِ. وَقَدْ نَزَلَتْ بِالْمَلِكِ الْحَاجَةُ؛ وَأَنَا أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ

(١) عائدة: معروف.

(٢) خاقر: ناقض.

(٣) المصر: المدينة والصقع.

مَخْرَجاً، عَلَى ألاَّ يَتَكَلَّفَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ، وَلاَ يَلِيَهُ بِنَفْسِهِ، وَلاَ يَأْمُرَ بِهِ أَحداً؛ وَلٰكِنَّا نَحْتَالُ بِحِيلَةٍ لَنَا وَلَهُ فِيهَا إِصْلاَحٌ وَظَفَرٌ. فَسَكَتَ الأَسَدُ عَنْ جَوابِ الْغُرَابِ عَنْ هٰذا الْخِطَابِ.

فَلَمَّا عَرَفَ الْغُرَابُ إِقْرَارَ الأَسَدِ أَتى أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ كَلَّمْتُ الأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الْجَملَ؛ عَلَى أَنْ نَجْتَمِعَ نَحْنُ وَالْجَمَلُ عِنْدَ الأَسَدِ، فَنَذْكُرَ مَا أَصَابَهُ، وَنَتَوَجَّعُ لَهُ اهْتِمَاماً مِنَّا بِأَمْرِه، وَحِرْصاً عَلَى صَلاَحِهِ؛ وَيَعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ عَلَيْهِ تَجَمُّلاً لِيَأْكُلَهُ، فَيَرُدُّ الآخَرانِ عَلَيْهِ، وَيُسَفِّهَانِ رَأْيَهُ، وَيُبَيِّنَانِ الضَّرَرَ فِي أَكْلِه. فَإِذَا فَعَلْنَا ذٰلِكَ، سَلِمْنَا كُلُّنَا وَرَضِيَ الأَسَدُ عَنَّا. فَفَعَلُوا ذٰلِكَ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى الأَسَدِ.







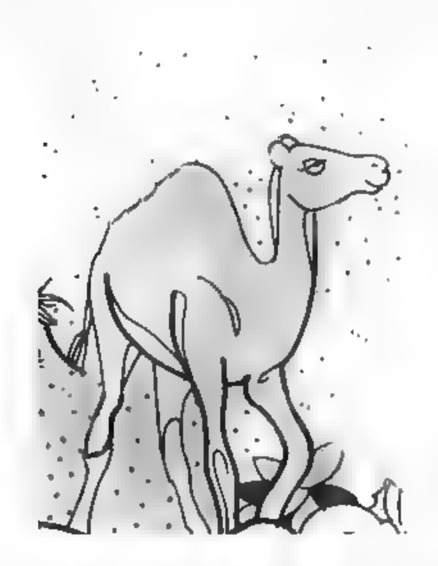
فقَال الْغُرَابُ: قَدِ احْتَجْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلى مَا يُقوِّيكَ؛ وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ أَنْفُسَنا لَكَ: فَإِنَّا بِك نَعِيشُ؛ فَإِذَا هلَكْتَ فَلَيْسَ لأحَدٍ مِنَّا بَقاءٌ بَعْدَكَ، ولاَ لَنَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ خِيرَةٍ؛ فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ: فَقَدْ طِبْتُ بِذٰلِكَ نَفْساً. فَأَجابَهُ الذئْبُ وَابْنُ آوى أَنِ اسْكُتْ؛ فَلاَ خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أكْلِكَ؛ وَلَيْسَ فِيكَ شِبَعٌ.

قَالَ ابْنُ آوَى: لٰكِنْ أَنَا أُشْبِعُ الْمَلِكَ، فَلْيَأْكُلْنِي، فَقَدْ رَضِيتُ بِذٰلِكَ، وَطِبْتُ عَنْهُ نَفْساً. فَرَدَّ عَلَيْهِ الذئْبُ وَالْغُرَابُ بِقَوْلِهِمَا: إِنَّكَ لَمُنْتِنٌ قَذِرٌ.

قَالَ الذئْبُ: إِني لَسْتُ كَذٰلِكَ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ، فَقَدْ سَمَحْتُ بِذٰلِكَ، وَطِبْتُ عَنْهُ نَفْساً؛ فَاعْتَرَضَهُ الْغُرَابُ وَابْنُ آوَى وَقَالاَ: قَدْ قَالَتِ الأطِبَّاءُ: مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ فَلْيَأْكُلْ لَحْمَ ذِئْبٍ.

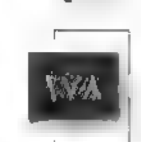


فظَنَّ الْجَمَلُ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الأكْلِ، الْتَمَسُوا لَهُ عُذْراً كَمَا الْتَمَس بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الأَعْذَارَ، فَيَسْلَمُ وَيَرْضَى الأَسَدُ عَنْهُ بِذٰلِكَ، وَيَنْجُو مِنَ الْمَهَالِكِ. فَقَالَ: لٰكِنْ أَنَا فِيَّ لِلْمَلِك شِبَعٌ وَرِيٌّ؛ وَلَحْمِي طَيبٌ هَنِيٌّ، وَبَطْنِي نَظِيفٌ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ، وَيُطْعِمْ أَصْحَابَهُ وَخَدَمَهُ: فَقَدْ رَضِيتُ بِذٰلِكَ، وَطَابَتْ نَفْسِي عَنْهُ، وَسَمَحْتُ بِهِ، فَقَالَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى: لَقَدْ صَدَقَ الْجملُ وَكَرُمَ؛ وَقَالَ مَا عُرِفَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَّقُوهُ.



وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذا الْمَثلَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَسَدِ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى هَلاَكِي فَإِنِي لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَمْتَنِعَ مِنْهُمْ، وَلاَ أَحْتَرِسَ؛ وَإِنْ كَانَ رَأْيُ الأَسَدِ فِيَّ عَلَى غَيْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ فِيَّ، فَلاَ يَنْفَعُنِي ذٰلِكَ، وَلاَ يُغْنِي عَنِي شَيْئاً. وَقَدْ يُقَالُ: خَيْرُ السَّلاَطِينِ مَنْ عَدَلَ فِي النَّاسِ. وَلَوْ أَنَّ الأَسَدَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ لِي إِلاَّ الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ، لَغَيَّرَتْهُ كَثْرَةُ الأَقَاوِيلِ، فَإِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ لَمْ نَلْبَثْ دُونَ أَنْ تُذْهِبَ الرِّقَّةَ وَالرَّأْفَةَ. أَلاَ تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَيْسَ كَالْقَوْلِ؛ وَأَنَّ الْحَجَرَ أَشَدُّ مِنَ الإِنْسَانِ؟ فَالْمَاءُ إِذَا دَامَ انْحِدَارُهُ عَلَى الْحَجَرِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى يَثْقُبَهُ وَيُؤَثِرَ فِيهِ. وَكَذٰلِكَ الْقَوْلُ فِي الإِنْسَانِ.

قَالَ دِمْنَةُ: فَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ الآنَ؟



قَالَ شَتْرَبَةُ: مَا أَرَى إِلاَّ الاجْتِهَادَ وَالْمُجَاهَدَةَ بِالْقِتَالِ: فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْمُصَلي فِي صَلاتِهِ، وَلاَ لِلْمُتَصَدقِ فِي صَدَقَتِهِ، وَلاَ لِلْوَرِعِ فِي وَرَعِهِ مِنَ الأَجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِ عَنْ نَفْسِهِ، إِذَا كَانَتْ مُجَاهَدَتُهُ عَلَى الْحَق.



قَالَ دِمْنَةُ: لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاطِرَ بِنَفْسِهِ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذٰلِكَ؛ وَلٰكِنَّ ذَا الرَّأْيِ جَاعِلُ الْقِتَالِ آخِرَ الْحِيَلِ؛ وَبَادِئٌ قَبْلَ ذٰلِكَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ رِفْقٍ وَتَمَحُّلٍ[١]. وَقَدْ قِيلَ: لاَ تَحْقِرَنَّ الْعَدُوَّ الضَّعِيفَ الْمَهِينَ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَ ذَا حِيلَةٍ وَيَقْدِرُ عَلَى الأَعْوَانِ؛ فَكَيْفَ بِالأَسَدِ عَلَى جَرَاءَتِهِ وَشِدَّتِهِ؟ فَإِنَّ مَنْ حَقَرَ عَدُوَّهُ لِضَعْفِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ وَكِيلَ الْبَحْرِ مِنَ الطِّيطَوَى.

---

(١) تمحّل: احتيال.



قَالَ شَتْرَبَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

وَكِيلُ البحرِ والطِّيطَوَى

قَالَ دِمْنَةُ: **زَعَمُوا أَنَّ طَائِراً مِنْ طُيُورِ الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ الطِّيطَوَى كَانَ وَطَنُهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ**، فَلَمَّا جَاءَ أَوَانُ تَفْرِيخِهِمَا قَالَتِ الْأُنْثَى لِلذَّكَرِ: لَوِ



الْتَمَسْنَا مَكَاناً حَرِيزاً[1] نُفَرِّخُ فِيهِ، فَإِنِي أَخْشَى مِن وَكِيلِ الْبَحْرِ إِذَا مَدَّ الْمَاءُ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاخِنَا. فَقَالَ لَهَا: أَفْرِخِي مَكَانَكِ، فَإِنَّهُ مُوافِقٌ لَنا؛ وَالمَاءُ وَالزَّهْرُ مِنَّا قَرِيبٌ. قَالَتْ لَهُ: يَا غَافِلُ لِيَحْسُنْ نَظَرُكَ، فَإِنِي أَخَافُ وَكِيلَ الْبَحْرِ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاخِنَا. فَقَالَ لَهَا: أَفْرِخِي مَكَانَكِ: فَإِنَّهُ لاَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ. فَقَالَتْ لَهُ: مَا أَشَدَّ عِنادَكَ

---

(١) حريزاً: حصيناً منيعاً.

وتَصَلُّبَكَ! أَمَا تَذْكُرُ وَعِيدَهُ وَتَهَدُّدَهُ إِيّاكَ؟ أَلاَ تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ؟ فَأَبى أَنْ يُطِيعَها.

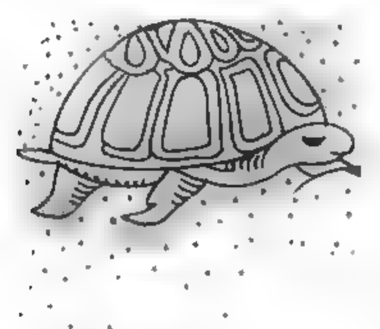
فَلَمّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ النَّاصِحِ يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ السُّلَحْفَاةَ حِينَ لَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الْبَطَّتَيْنِ.

قَالَ الذَّكَرُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

السلحفاة والبطتان (*)

قَالتِ الأُنْثَى: زَعَمُوا أَنَّ غَدِيراً كَانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ، وَكَانَ فِيهِ بَطَّتَانِ وَكَانَ فِي الْغَدِيرِ سُلَحْفَاةٌ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَطَّتَيْنِ مَوَدَّةٌ وَصَدَاقَةٌ.

فَاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ(١) ذٰلِكَ الْمَاءُ؛ فَجَاءَت الْبَطَّتَانِ لِوَدَاعِ السُّلَحْفَاةِ، وَقَالَتَا: السَّلاَمُ عَلَيْكِ فَإِنَّنَا ذَاهِبَتَانِ عَنْ هٰذَا الْمَكَانِ لِأَجْلِ نُقْصَانِ الْمَاءِ عَنْهُ. فَقَالَتْ: إِنَّمَا يَبِينُ نُقْصَانُ الْمَاءِ عَلَى مِثْلِي، فَإِنِّي كَأَنِّي السَّفِينَةُ لاَ أَقْدِرُ عَلى الْعَيْشِ إِلاَّ بِالْمَاءِ. فَأَمَّا أَنْتُمَا فَتَقْدِرَانِ عَلَى الْعَيْشِ حَيْثُ كُنْتُمَا. فَاذْهَبَا بِي مَعَكُمَا. قَالَتَا لَهَا: نَعَمْ. قَالَتْ: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى



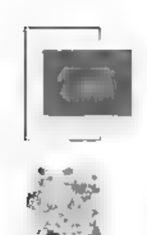
(*) تدعو القصة الإنسان العاقل إلى الاستماع لنصيحة الصديق والعمل بموجبها وضرورة الابتعاد عن المخاطر خاصة حين تكون نتائجها المدمرة معروفة سلفاً.

(١) غيض: نقص.



حَمْلِي؟ قَالَتَا: نَأْخُذُ بِطَرَفَيْ عُودٍ، وَتَتَعَلَّقِينَ بِوَسَطِهِ؛ وَنَطِيرُ بِكِ فِي الْجَو. وَإِيَّاكِ، إِذَا سَمِعْتِ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ، أَنْ تَنْطِقِي.

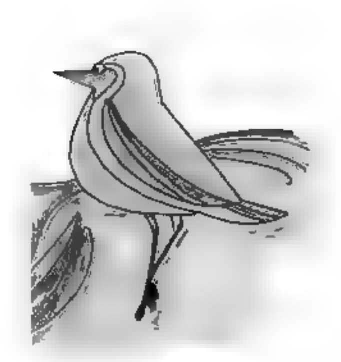




ثُمَّ أَخَذَتَاهَا فَطَارَتَا بِهَا فِي الْجَوِّ. **فَقَالَ النَّاسُ: عَجَبٌ! سُلَحْفَاةٌ بَيْنَ بَطَّتَيْنِ، قَدْ حَمَلَتَاهَا.** فَلَمَّا سَمِعَتْ ذٰلِكَ قَالَتْ: فَقَأَ اللّٰهُ أَعْيُنَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ! فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاهَا بِالنُّطْقِ وَقَعَتْ عَلَى الأَرْضِ فَمَاتَتْ.

قَالَ الذَّكَرُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكِ؛ فَلاَ تَخَافِي وَكِيلَ الْبَحْرِ.

فَلَمَّا مَدَّ الْمَاءُ ذَهَبَ بِفِرَاخِهِمَا. فَقَالَتِ الأُنْثَى قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدْءِ الأَمْرِ أَنَّ هٰذَا كَائِنٌ.



قَالَ الذَّكَرُ: سَوْفَ أَنْتَقِمُ مِنْهُ. ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فَقَالَ لَهنَّ: إِنَّكُنَّ أَخَوَاتِي وَثِقَاتِي: فَأَعِنَّنِي. قُلْنَ: مَاذَا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ؟ قَالَ: تَجْتَمِعْنَ وَتَذْهَبْنَ مَعِي إِلَى سَائِرِ الطَّيْرِ، فَنَشْكُو إِلَيْهِنَّ مَا لَقِيتُ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ؛ وَنَقُولُ لَهُنَّ: إِنَّكُنَّ طَيْرٌ مِثْلُنَا، فَأَعِنَّنَا.

فَقَالَتْ لَهُ جَمَاعَةُ الطَّيْرِ: إِنَّ الْعَنْقَاءَ هِيَ سَيِّدَتُنَا وَمَلِكَتُنَا. فَاذْهَبْ بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى نَصِيحَ بِهَا، فَتَظْهَرَ لَنَا؛ فَنَشْكُوَ إِلَيْهَا مَا نَالَكَ مِن وَكِيلِ الْبَحْرِ؛ وَنَسْأَلَهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِهَا.





ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطِّيطَوَى، فَاسْتَغَثْنَهَا[1]؛ وَصِحْنَ بِهَا؛ فَتَراءَتْ لَهُنَّ فَأَخْبَرْنَهَا بِقِصَّتِهِنَّ؛ وَسَأَلْنَها أَنْ تَسِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى مُحَارَبَةِ وَكِيلِ الْبَحْرِ، فَأَجَابَتْهُنَّ إِلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلُ الْبَحْرِ أَنَّ الْعَنْقَاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ خَافَ مِنْ مُحَارَبَةِ مَلِكٍ لاَ طَاقَةَ لَهُ بِهِ. فَرَدَّ فِرَاخَ الطِّيطَوَى؛ وَصَالَحَهُ فَرَجَعَتِ الْعَنْقَاءُ عَنْهُ.

وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهٰذَا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْقِتَالَ مَعَ الأَسَدِ لاَ أَرَاهُ لَكَ رَأْياً. قَالَ شَتْرَبَةُ: فَمَا أَنَا بِمُقَاتِلِ الأَسَدِ، وَلاَ نَاصِبٍ لَهُ الْعَدَاوَةَ سِرًّا وَلاَ عَلاَنِيَةً وَلاَ مُتَغَيِّرٍ لَهُ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَبْدُوَ لِي مِنْهُ مَا أَتَخَوَّفُ فَأُغَالِبَهُ.

فَكَرِهَ دِمْنَةُ قَوْلَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَسَدَ إِنْ لَمْ يَرَ مِنَ الثَّوْرِ الْعَلاَمَاتِ الَّتِي كَانَ

---

(١) استغثنها: أي طلبن مساعدتها.



ذكرَها لهُ اتَّهمَهُ وأَساءَ بِهِ الظَّنَّ. فقَالَ دِمْنَةُ لِشَتْرَبَةَ: اذْهَبْ إِلَى الأَسَد فَستَعْرِفُ حينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَا يُرِيدُ مِنْكَ.

قَالَ شَتْرَبَةُ: وَكَيْفَ أَعْرِفُ ذٰلِكَ؟

قَالَ دِمْنَةُ: **سَتَرَى الأَسَدَ حِينَ تَدْخُلُ عَلَيْه مُقْعِياً**[1] **عَلَى ذَنَبِهِ، رَافِعاً صَدْرَهُ إِلَيْكَ، مَادًّا بَصَرَهُ نَحْوَكَ، قَدْ صَرَّ**[2] **أُذُنَيْهِ، وَفَغَرَ فَاهُ**[3]**، وَاسْتَوَى لِلْوَثْبَةِ.** قَالَ شَتْرَبَةُ: إِنْ رَأَيْتُ هٰذِهِ الْعَلاَمَاتِ مِنَ الأَسَدِ عَرَفْتُ صِدْقَكَ فِي قَوْلِكَ.



ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ حَمْلِ الأَسدِ عَلَى الثَّوْرِ، وَالثَّوْرِ عَلَى الأَسَدِ تَوجَّهَ إِلَى كَليلَةَ. فَلَمَّا الْتَقَيَا، قَالَ كَلِيلَةُ: إِلاَمَ انْتَهى عَمَلُكَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ؟ قَالَ دِمْنَةُ:

(١) مقعياً: أي جالساً على استه ناصباً فخذيه كجلوس الكلب.

(٢) صرَّ: نصب.

(٣) فغر فاه: فتح فمه.

قَرِيبٌ مِنَ الْفَرَاغِ عَلَى مَا أُحِبُّ وَتُحِبُّ.

ثُمَّ إِنَّ كَليلَةَ وَدِمْنَةَ انْطَلَقَا جَمِيعاً لِيَحْضُرَا قِتَالَ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ، وَيَنْظُرَا مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا، وَيُعَايِنَا مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمَا. وَجَاءَ شَتْرَبَةُ، فَدَخَلَ عَلَى الأَسَدِ، فَرَآهُ مُقْعِياً كَمَا وَصَفَهُ لَهُ دِمْنَةُ، فَقَالَ: مَا صَاحِبُ السُّلْطَانِ إِلاَّ كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِي مَبِيتِهِ وَمَقِيلِهِ، فَلاَ يَدْرِي مَتَى تَهِيجُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ نَظَرَ إِلَى الثَّوْرِ فَرَأَى الدِّلاَلاَتِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَهُ دِمْنَةُ: فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ جَاءَ لِقِتَالِهِ. فَوَاثَبَهُ، وَنَشَأَ بَيْنَهُمَا الْحَرْبُ، وَاشْتَدَّ قِتَالُ الثَّوْرِ وَالأَسَدِ، وَطَالَ، وَسَالَتْ بَيْنَهُمَا الدِّمَاءُ.



فَلَمَّا رَأَى كَليلَةُ أَنَّ الأَسَدَ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ مَا قَدْ بَلَغَ. قَالَ لِدِمْنَةَ: أَيُّهَا الْفَسْلُ(١) مَا أَنْكَرَ جَهْلَتَكَ وَأَسْوَأَ عَاقِبَتَكَ فِي تَدْبِيرِكَ! **قَالَ دِمْنَةُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ كَلِيلَةُ: جُرِحَ الأَسَدُ وَهَلَكَ الثَّوْرُ.** وَإِنَّ أَخْرَقَ الْخُرْقِ مَنْ حَمَلَ صَاحِبَهُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ وَالْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ، وَهُوَ يَجِدُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَبِيلاً. وَإِنَّ الْعَاقِلَ يُدَبِّرُ الأَشْيَاءَ





(١) الفسل: الضعيف الرذل الذي لا مروءة له.

وَيَقِيسُهَا قَبْلَ مُبَاشَرَتِهَا: فَمَا رَجَا أَنْ يَتِمَّ لَهُ مِنْهَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَمَا خَافَ أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ مِنْهَا انْحَرَفَ عَنْهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ. وَإِنِّي لأَخَافُ عَلَيْكَ عَاقِبَةَ بَغْيِكَ هٰذَا: فَإِنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ وَلَمْ تُحْسِنِ الْعَمَلَ. أَيْنَ مُعَاهَدَتَكَ إِيَّايَ أَنَّكَ لاَ تَضُرُّ بِالأَسَدِ فِي تَدْبِيرِكَ؟ وَقَدْ قِيلَ: لاَ خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلاَّ مَعَ الْعَمَلِ، وَلاَ فِي الْفِقْهِ إِلاَّ مَعَ الْوَرَعِ، وَلاَ فِي الصَّدَقَةِ إِلاّ مَعَ النِّيَّةِ، وَلاَ فِي الْمَالِ إِلاَّ مَعَ الْجُودِ، وَلاَ فِي الصدْقِ إِلاَّ مَعَ الْوَفَاءِ، وَلاَ في الْحَيَاةِ إِلاَّ مَعَ الصِّحَّةِ، وَلاَ فِي الأَمْنِ إِلاَّ مَعَ السُّرُورِ.

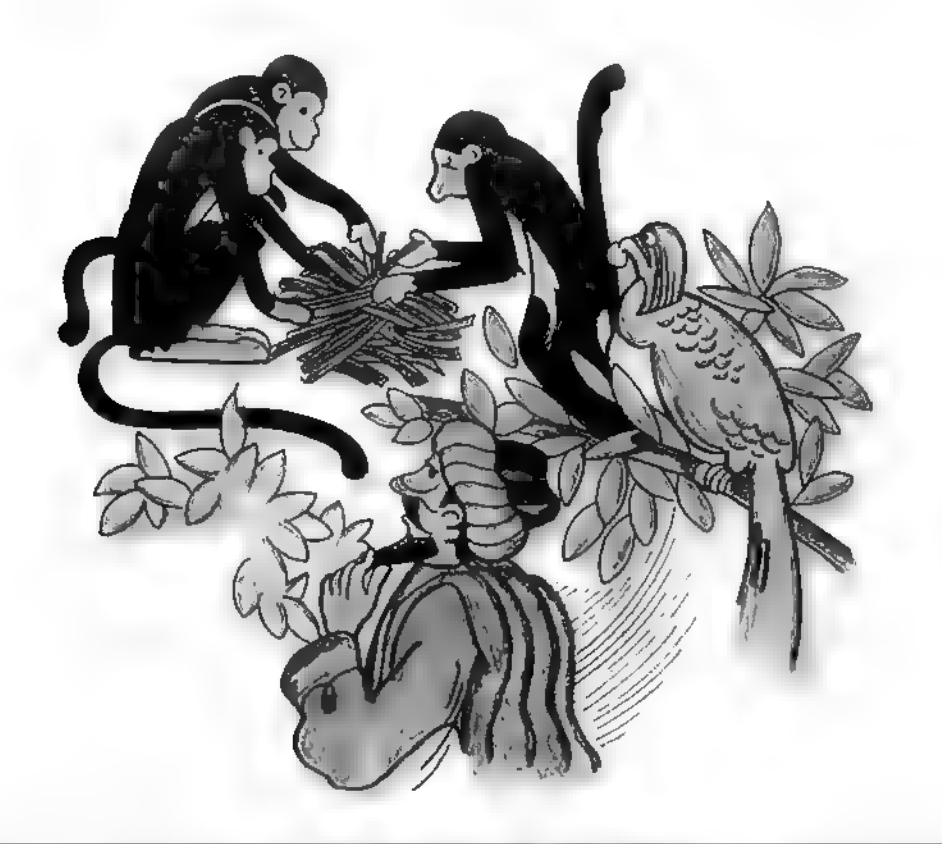
وَاعْلَمْ أَنَّ الأَدَبَ يُذْهِبُ عَنِ الْعَاقِلِ الطَّيْشَ، وَيَزِيدُ الأَحْمَقَ طَيْشاً؛ كَمَا أَنَّ النَّهَارَ يَزِيدُ كُلَّ ذِي بَصَرٍ نَظَراً، وَيَزِيدُ الْخُفَّاشَ سُوءَ النَّظَرِ؛ فَذُو الْعَقْلِ لاَ يَبْطَرُ مِنْ مَنْزِلَةٍ أَصَابَهَا، وَإِنْ تَعَاظَمَ أَمْرُهُ وَقَدْرُهُ، وَيَكُونُ عِنْدَ ذٰلِكَ كَالْجَبَلِ الَّذِي لاَ تُحَرِّكُهُ أَدْنَى رِيحٍ.

وَقَدْ أَذْكَرَنِي أَمْرُكَ شَيْئاً سَمِعْتُهُ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّ السُّلْطَانَ إِذَا كَانَ صَالِحاً، وَوُزَرَاؤُهُ وُزَرَاءَ سُوءٍ، مَنَعُوا خَيْرَهُ، فَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُ. وَمَثَلُهُ فِي ذٰلِكَ مَثَلُ الْمَاءِ الطَّيِّبِ الَّذِي فِيهِ التَّمَاسِيحُ: لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ، وَإِنْ كَانَ إِلَى الْمَاءِ مُحْتَاجاً. وَأَنْتَ يَا دِمْنَةُ أَرَدْتَ أَلاَّ يَدْنُوَ مِنَ الأَسَدِ أَحَدٌ سِوَاكَ. وَهٰذَا أَمْرٌ لاَ يَصِحُّ وَلاَ يَتِمُّ أَبَداً. وَذٰلِكَ لِلْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ: إِنَّ الْبَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ، وَالسُّلْطَانَ بِأَصْحَابِهِ. وَمِنَ الْحُمْقِ الْحِرْصُ عَلَى الْتِمَاسِ الإِخْوَانِ بِغَيْرِ الْوَفَاءِ لَهُمْ، وَطَلَبُ الآخِرَةِ بِالرِّيَاءِ، وَنَفْعُ النَّفْسِ بِضَرِ الْغَيْرِ. وَمَا عِظَتِي وَتَأْدِيبِي إِيَّكَ إِلاَّ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ لِلطَّائِرِ: لاَ تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لاَ يَسْتَقِيمُ، وَلاَ تُعَالِجْ تَأْدِيبَ مَنْ لاَ يَتَأَدَّبُ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

القرود والرجل والطائر[*]

قَالَ كَلِيلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقِرَدَةِ كَانُوا سُكَّاناً فِي جَبَلٍ، فَالْتَمَسُوا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ذَاتِ رِيَاحٍ وَأَمْطَارٍ نَاراً، فَلَمْ يَجِدُوا، فَرَأَوْا يَرَاعَةً[1] **تَطِيرُ كَأَنَّهَا شَرَارَةُ نَارٍ، فَظَنُّوهَا نَاراً، وَجَمَعُوا حَطَباً كَثِيراً فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا**، وَجَعَلُوا يَنْفُخُونَ طَمَعاً أَنْ يُوقِدُوا نَاراً يَصْطَلُونَ[2] بِهَا مِنَ الْبَرْدِ. وَكَانَ قَرِيباً مِنْهُمْ طَائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ، يَنْظُرُونَ



(*) تؤكد القصة على لزوم اجتناب العدمية كفلسفة في الحياة وصرورة وزن الأمور ووصعها في نصابها الصحيح.

---

(١) يراعة: ذبابة تطير بالليل كأنها نار وتعرف عند بعض العامة بسراج الليل.

(٢) يصطلون: يتدفأون.

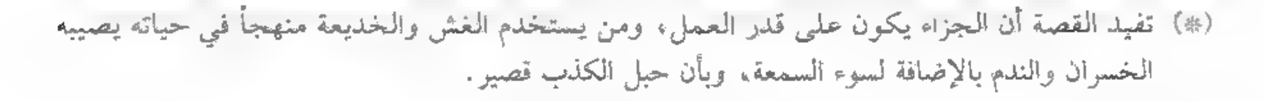


إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ. وَقَدْ رَأَى مَا صَنَعُوا، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ وَيَقُولُ: لاَ تَتْعَبُوا فَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ بِنَارٍ. فَلَمَّا طَالَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَزَمَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُمْ لِيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَعَرَفَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: لاَ تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لاَ يَسْتَقِيمُ: فَإِنَّ الْحَجَرَ الْمَانِعَ(١) الَّذِي لاَ يَنْقَطِعُ لاَ تُجَرَّبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ، وَالْعُودَ الَّذِي لاَ يَنْحَنِي لاَ يُعْمَلُ مِنْهُ الْقَوْسُ: فَلاَ تَتْعَبْ. فَأَبَى الطَّائِرُ أَنْ يُطِيعَهُ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِرَدَةِ لِيُعَرِّفَهُمْ أَنَّ الْيَرَاعَةَ لَيْستْ بِنَارٍ. فَتَنَاوَلَهُ بَعْضُ الْقِرَدَةِ فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ فَمَاتَ. فَهٰذَا مَثَلِي معكَ في ذٰلِكَ. ثُمَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْخِبُّ(٢) وَالْفُجُورُ(٣)، وَهُمَا خَلَّتَا(٤) سُوءٍ، وَالْخِبُّ شَرُّهُمَا عَاقِبَةً. وَلِهٰذَا مَثَلٌ. قَالَ دِمْنَةُ: وَمَا ذٰلِكَ الْمَثَلُ؟

الخَبُّ والمُغَفَّـلُ(*)

قَالَ كَلِيلَةُ: **زَعَمُوا أَنَّ خَبًّا وَمُغَفَّلاً اشْتَرَكَا فِي تِجَارَةٍ وَسَافَرَا،** فَبَيْنَمَا هُمَا فِي





(*) تفيد القصة أن الجزاء يكون على قدر العمل، ومن يستخدم الغش والخديعة منهجاً في حياته يصيبه الخسران والندم بالإضافة لسوء السمعة، وبأن حبل الكذب قصير.

(١) المانع: الصلب. (٢) الخبُّ: الخبث والخداع والغش.

(٣) الفجور: المعصية والكذب. (٤) خلّتا: خصلتا.

الطَّرِيقِ، إِذْ تَخَلَّفَ الْمُغَفَّلُ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَوَجَدَ كِيساً فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ، فَأَخَذَهُ؛ فَأَحَسَّ بِهِ الْخَبُّ، فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِهِمَا؛ حَتَّى إِذَا دَنَوَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَعَدَا لاِقْتِسَامِ الْمَالِ.



فَقَالَ الْمُغَفَّلُ: خُذْ نِصْفَه وَأَعْطِنِي نِصْفَهُ؛ وَكَانَ الْخَبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ بِالأَلْفِ جَمِيعِهِ. فَقَالَ لَهُ: لاَ نَقْتَسِمُ، فَإِنَّ الشَّرِكَةَ وَالْمُفَاوَضَةَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّفَاءِ وَالْمُخَالَطَةِ؛ وَلٰكِنْ آخُذُ نَفَقَةً، وَتَأْخُذُ مِثْلَهَا؛ وَنَدْفِنُ الْبَاقِيَ في أَصْلِ هٰذه الشَّجَرَةِ، فَهُوَ مَكَانٌ حَرِيزٌ[1]. فَإِذَا احْتَجْنَا جِئْنَا أَنَا وَأَنْتَ فَنَأْخُذُ حَاجَتَنَا مِنْهُ؛ وَلاَ يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنَا أَحَدٌ. فَأَخَذَا مِنْهُ يَسِيراً، وَدَفَنَا الْبَاقِيَ فِي أَصْلِ دَوْحَةٍ، وَدَخَلاَ الْبَلَدَ.



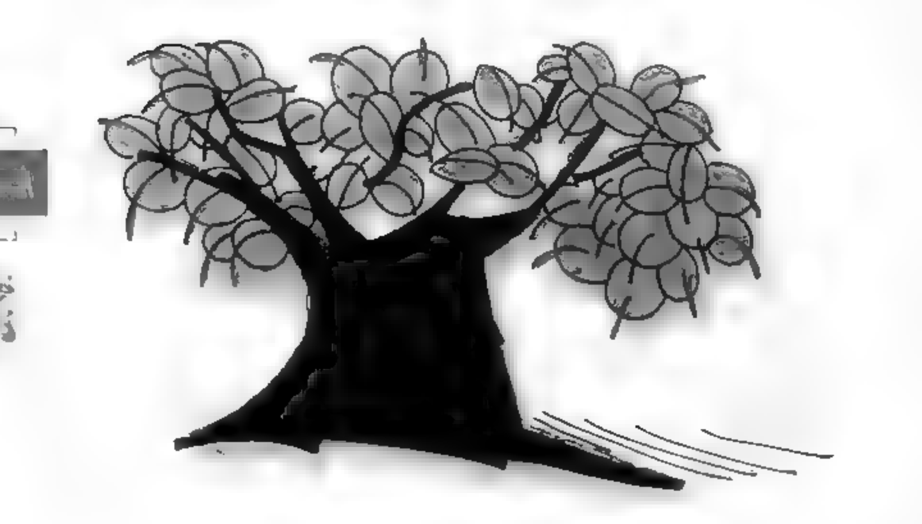
ثُمَّ إِنَّ الْخَبَّ خَالَفَ الْمُغَفَّلَ إِلَى الدَّنَانِير فَأَخَذَهَا، وَسَوَّى الأَرْضَ كَمَا كَانَتْ. وَجَاءَ الْمُغَفَّلُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِأَشْهُرٍ فَقَالَ لِلْخَبِّ: قَد احْتَجْتُ إِلَى نَفَقَةٍ فَانْطَلِقْ بِنَا نَأْخُذْ حَاجَتَنَا؛ فَقَامَ الْخَبُّ مَعَهُ وَذَهَبَا إِلَى الْمَكَانِ فَحَفَرَا، فَلَمْ يَجِدَا شَيْئاً. فَأَقْبَلَ الْخَبُّ عَلَى وَجْهِهِ يَلْطِمُهُ

(١) حريز: حصين.



يَقُولُ: لاَ تَغْتَرَّ بِصُحْبَةِ صَاحِب: خَالَفْتَنِي إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذْتَهَا. فَجَعَلَ الْمُغَفَّلُ يَحْلِفُ وَيَلْعَنُ آخِذَهَا وَلاَ يَزْدَادُ الْخَبُّ إِلاَّ شِدَّةً فِي اللَّطْم. وَقَالَ: مَا أَخَذَهَا غَيْرُكَ. وَهَلْ شَعَرَ بِهَا أَحَدٌ سِوَاكَ؟

ثُمَّ طَال ذٰلِكَ بَيْنَهُمَا، فَتَرَافَعَا إِلَى الْقَاضِي، فَاقْتَصَّ الْقَاضِي قِصَّتَهُمَا، فَادَّعَى الْخَبُّ أَنَّ الْمُغَفَّلَ أَخَذَهَا، وَجَحَدَ(١) الْمُغَفَّلُ. فَقَالَ لِلْخَبِّ: أَلَكَ عَلَى دَعْوَاكَ بَيِّنَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَت الدَّنَانيرُ عِنْدَهَا تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْمُغَفَّلَ أَخَذَهَا. وَكَانَ الْخَبُّ قَدْ أَمَرَ أَبَاهُ أَنْ يَذْهَبَ فَيَتَوَارَى فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذَا سُئِلَتْ أَجَابَ. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: رُبَّ مُتَحَيِّلٍ أَوْقَعَهُ تَحَيُّلُهُ فِي وَرْطَةٍ عَظِيمَةٍ، لاَ يَقْدِرُ عَلى الْخَلاَصِ مِنْهَا! فإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مَثَلُكَ مَثَلَ الْعُلْجُومِ.



قَالَ الْخَبُّ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) جحد: أنكر.



العلجوم والحية والسرطان(*)

قَالَ أَبُوهُ: زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُوماً جَاوَرَ حَيَّةً، فَكَانَ كُلَّمَا أَفْرَخَ، جَاءَتْ إِلَى عُشِّهِ، وَأَكَلَتْ فِرَاخَهُ. فَفَزِعَ[١] فِي ذٰلِكَ إِلَى السَّرَطَانِ، فَقَالَ لَهُ السَّرَطَانُ: إِنَّ بِقُرْبِكَ جُحْراً يَسْكُنُهُ ابْنُ عِرْسٍ، وَهُوَ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ. فَاجْمَعْ سَمَكاً كَثِيراً، وَفَرِّقْهُ



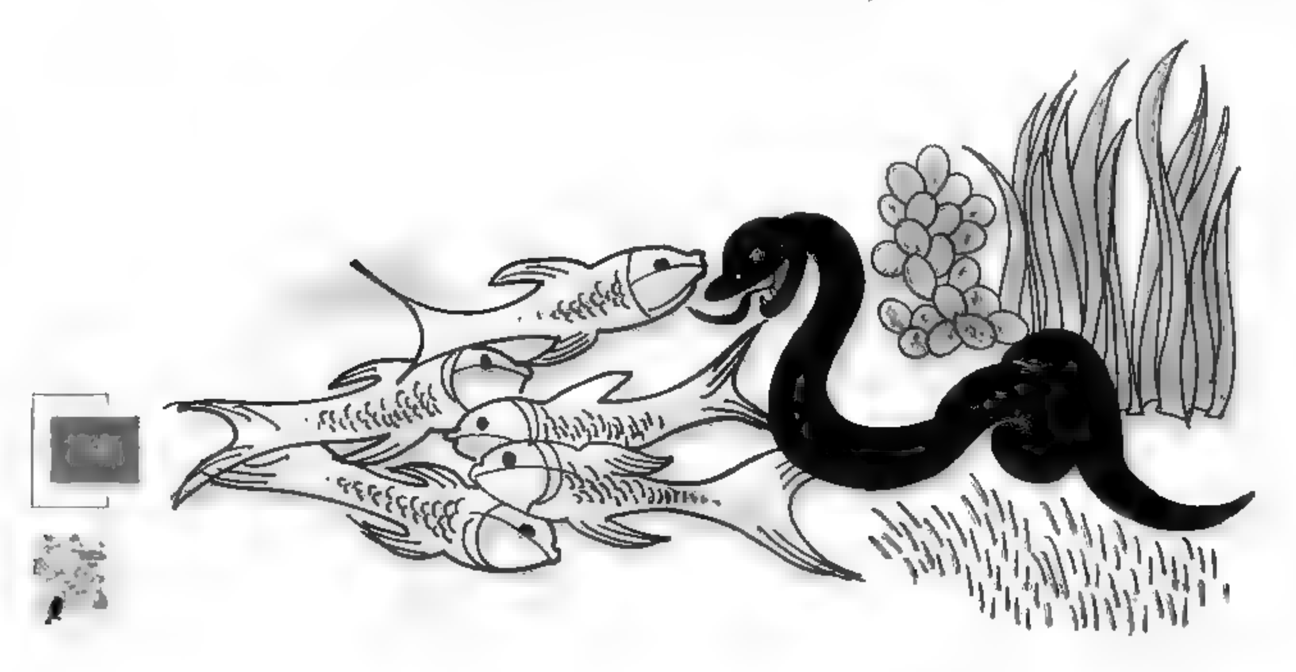


(*) عدم إسداء النصيحة للعدو واجتنابه هي الوسيلة للخلاص منه، هذه هي الحكمة التي ترمي القصة إيصالها للقارىء.

(١) فزع: التجأ.



مِنْ جُحْرِ ابْنِ عِرْسٍ إِلَى جُحْرِ الْحَيَّةِ، **فَإِنَّهُ إِذَا بَدَأَ فِي أَكْلِ السَّمَكِ، انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الْحَيَّةِ فَأَكَلَهَا**. فَفَعَلَ وَكَانَ كَذٰلِكَ. ثُمَّ تَدَرَّجَ ابْنُ عِرْسٍ مِنْ جُحْرِ الْحَيَّةِ فِي طَلَبِ غَيْرِهَا حَتَّى بَلَغَ إِلَى جُحْرِ الْعُلْجُومِ فَأَكَلَهُ أَيْضاً، وَفِرَاخَهُ جَمِيعاً.



وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ، لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَثَبَّتْ فِي الْحِيَلِ، وَيَتَدَبَّرْهَا وَيَنْظُرْ فِيهَا، أَوْقَعَتْهُ حِيلَتُهُ فِي أَشَدِّ مِمَّا يَحْتَالُ لَهُ. قَالَ الْخَبُّ: قَدْ فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ، وَلٰكِنْ لاَ تَخَفْ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَسِيرٌ حَقِيرٌ. وَلَمْ يَزَلْ بِهِ، حَتَّى طَاوَعَهُ. وَانْطَلَقَ مَعَهُ، فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ.

ثُمَّ إِنَّ الْقَاضِيَ لَمّا سَمِعَ ذٰلِك مِنَ الْخَبِّ حَدِيثَ شَهَادَةِ الشَّجَرَةِ، أَكْبَرَهُ وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَالْخَبُّ والْمُغَفَّلُ مَعَهُ، حَتَّى وَافَى الشَّجَرَةَ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْخَبَرِ. فَقَالَ

الشَّيْخُ مِنْ جَوْفِهَا: نَعم، الْمُغفَّلُ أَخذها. فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِي ذٰلِكَ اشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ، وجَعَلَ يَطُوفُ بِالشَّجَرَةِ، حَتَّى بَانَ لَهُ خَرْقٌ فِيهَا، فَتأَمَّلَهُ فَلَمْ يَرَ فِيهِ شَيْئاً، فَدَعَا بِحَطَبٍ، وَأَمَرَ أَنْ تُحْرَقَ الشَّجَرَةُ. فَأُضْرِمَتْ حَوْلَهَا النِّيرَانُ،



فَاسْتَغَاثَ أَبُو الخَبِّ، عِنْدَ ذٰلِكَ، فَأُخْرِجَ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلاَكِ فَسَأَلَهُ الْقَاضِي عَنِ الْقِصَّةِ، فَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ فَأَوْقَعَ بِالْخَبِّ ضَرْباً، وَبِأَبِيهِ صَفْعاً، وَأَرْكَبَهُ مَشْهُوراً، وَغَرَّمَ الْخَبَّ الدَّنَانِيرَ، فَأَخَذَهَا وَأَعْطَاهَا الْمُغَفَّلَ.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْخِبَّ وَالْخَدِيعَةَ رُبَّمَا كَانَ صَاحِبُهُمَا هُوَ الْمَغْبُون. وَإِنَّكَ يَا دِمْنَةُ جَامِعٌ لِلْخِبِّ وَالْخَدِيعَةِ وَالْفُجُور. وَإِنِي أَخْشَى عَلَيْكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ، مَعَ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَاجٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ: لأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ ولِسَانَيْنِ. وَإِنَّمَا عُذُوبَةُ مَاءِ الأَنْهَارِ مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْبِحَارِ. وَصَلاَحُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمُ الْمُفْسِدُ.

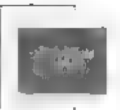
وَإِنَّهُ لاَ شَيْءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الْحَيَّةِ ذَاتَ اللسَانَيْنِ الَّتِي فيهَا السُّمُ، فَإِنَّهُ قَدْ يجْرِي مِن لِسَانِكَ كَسُمهَا. وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ لِذٰلِك السُّمّ مِنْ لسانِكَ خائِفاً، وَلِمَا يَحِلُّ





بِكَ مُتَوَقَّعاً، وَالْمُفْسِدُ بَيْنَ الإِخْوَانِ وَالأَصْحَابِ كَالْحَيَّةِ يُرَبِّيهَا الرَّجُلُ وَيُطْعِمُهَا وَيَمْسَحُهَا وَيُكْرِمُهَا، ثُمَّ لاَ يَكُونُ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ اللَّدْغِ.

وَقَدْ يُقَالُ: اِلْزَمْ ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْكَرَمِ وَاسْتَرْسِلْ إِلَيْهِمَا، وَإِيَّاكَ وَمُفَارَقَتَهُمَا؛ وَاصْحَبِ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ عَاقِلاً كَرِيماً أَوْ عَاقِلاً غَيْرَ كَرِيمٍ؛ فَالْعَاقِلُ الْكَرِيمُ كَامِلٌ، وَالْعَاقِلُ غَيْرُ الْكَرِيمِ اصْحَبْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَحْمُودِ الْخَلِيقَةِ. وَاحْذَرْ مِنْ سُوءِ أَخْلاَقِهِ وَانْتَفِعْ بِعَقْلِهِ، وَالْكَرِيمُ غَيْرُ الْعَاقِلِ، اِلْزَمْهُ وَلاَ تَدَعْ مُوَاصَلَتَهُ، وَإِنْ كُنْتَ لاَ تَحْمَدُ عَقْلَهُ، وَانْتَفِعْ بِكَرَمِهِ، وَانْفَعْهُ بِعَقْلِكَ؛ وَالْفِرَارَ كُلَّ الْفِرَارِ مِنَ اللَّئِيمِ الأَحْمَقِ.



وَإِنِّي بِالْفِرَارِ مِنْكَ لَجَدِيرٌ. وَكَيْفَ يَرْجُو إِخْوَانُكَ عِنْدَكَ كَرَماً وَوُدًّا وَقَدْ صَنَعْتَ بِمَلِكِكَ الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ مَا صَنَعْتَ؟ وَإِنَّ مَثَلَكَ مَثَلُ التَّاجِرِ الَّذِي قَالَ: إِنَّ أَرْضاً تَأْكُلُ جِرْذَانُها مِائَةَ مَنٍّ[1] حَدِيداً، لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَى بُزَاتِهَا[2] أَنْ تَخْتَطِفَ الأَفْيَالَ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) منّ: المن رطلان.

(٢) بزاتها: جمع باز وهو من جوارح الطير.

التاجـر وصاحبـه[*]

قالَ كَلِيلَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ كَذَا تاجِرٌ، فَأَرادَ الْخُرُوجَ إِلى بَعْضِ الْوُجُوهِ[١] لابْتِغَاءِ الرزْقِ؛ وَكَانَ عِنْدَهُ مِائَةُ مَنٍّ حَدِيداً؛ فَأَوْدَعَهَا رَجُلاً مِنْ إِخْوانِهِ، وَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ. ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِمُدَّةٍ؛ فَجَاءَ وَٱلْتَمَسَ الْحَدِيدَ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ أَكَلَتْهُ الْجِرْذَانُ. فَقَالَ: قَد سَمِعْتُ أَنَّهُ لاَ شَيْءَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيَابِهَا لِلْحَدِيد. فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِتَصْدِيقِهِ عَلَى مَا قَالَ وَٱدَّعَى.



ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ خرجَ، فَلَقِيَ ٱبْناً لِلرَّجُلِ؛ فَأَخَذَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ بِابْنِي؟ فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: إِني لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ بِالأَمْسِ، رَأَيْتُ بَازِياً قَدِ اخْتَطَفَ صَبِيًّا، وَلَعَلَّهُ ٱبْنُكَ. فَلَطَمَ الرَّجُلُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ: **يَا قَوْم هَلْ سَمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْبُزَاةَ تَخْطَفُ الصِّبْيَانَ؟** فَقَالَ: نَعَمْ. وَإِنَّ أَرْضاً





(*) المثل الوارد في هذه القصة يحث على اجتناب الكذب وما قد يصيب الكذاب مر مكروه لا تحمد عقباه.

(١) الوجوه: النواحي.



تأْكُلُ جِرْذَانُهَا مِائَةَ مَنٍّ حَديداً لَيْسَ بعَجَبٍ أَنْ تَخْتَطِفَ بُزَاتُهَا الْفِيَلَةَ. قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَنَا أَكَلْتُ حَدِيدَكَ وَهٰذَا ثَمَنُهُ. فَارْدُدْ عَلَيَّ ابْنِي.

وإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّكَ إِذَا غَدرْتَ بِصَاحِبِكَ فَلاَ شَكَّ أَنَّكَ بِمَنْ سِوَاهُ أَغْدَرُ؛ وَأَنَّهُ إِذَا صَاحَبَ أَحَدٌ صَاحِباً وَغَدَرَ بِمَن سِوَاهُ فَقَدْ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ لَيْس عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِعٌ؛ فَلاَ شَيْءَ أَضْيَعُ مِن مَوَدَّةٍ تُمْنَحُ مَنْ لاَ وَفَاءَ لَهُ، وَحِبَاءٍ[1] يُصْطَنَعُ عِنْد مَنْ لاَ شُكْرَ لَهُ، وَأَدَبٍ يُحْمَلُ إِلَى مَنْ لاَ يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلاَ يَسْمَعُهُ، وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ مَنْ لاَ يَحْفَظُهُ؛ فَإِنَّ صُحْبَةَ الأَخْيَارِ تُورِثُ الْخَيْرَ، وَصُحْبَةَ الأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ: كَالريحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطِّيبِ حَمَلَتْ طِيباً، وإِذَا مَرَّتْ بِالنَّتْنِ حَمَلَتْ نَتْناً، وَقَدْ طَالَ وَثَقُلَ كَلاَمِي عَلَيْكَ.

فَانْتَهَى كَلِيلَةُ مِنْ كَلاَمِهِ إِلَى هٰذَا الْمَكَانِ وَقَدْ فَرغَ الأَسَدُ مِنَ الثَّوْرِ. ثُمَّ فَكَّرَ فِي قَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ وَذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ. وَقَالَ: لَقَدْ فَجَعَنِي[2] شَتْرَبَةُ بِنَفْسِهِ؛ وَقَدْ



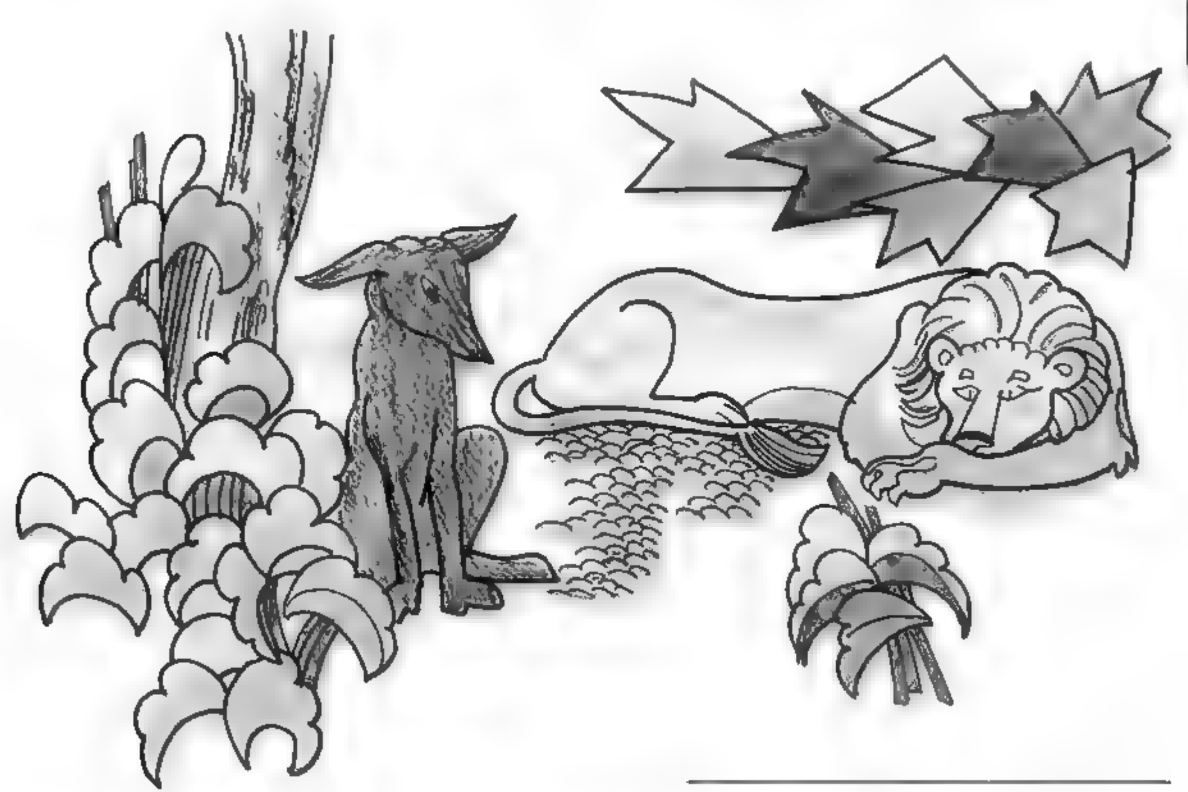
(١) حباء: عطاء. (٢) فجعني: أوجعني بفقده.

باب
الأسد والثور

كَانَ ذا عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَخُلُقٍ كريم، وَلاَ أَدْرِي لَعَلَّهُ كَانَ بَرِيئاً أَوْ مَكْذُوباً عَلَيْه؛ **فَحَزِنَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ،** وَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي وَجْهِهِ؛ وَبَصُرَ بِهِ دِمْنَةُ، فَتَرَكَ مُحَاوَرَةَ كَلِيلَةَ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الأَسَد فقَالَ لَهُ: لِيَهْنِئْكَ الظَّفَرُ إِذْ أَهْلَكَ اللَّهُ أَعْدَاءَكَ. فَمَاذَا يُحْزِنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ؟ قَالَ: أَنَا حَزِينٌ عَلَى عَقْلِ شَتْرَبَةَ وَرَأْيِهِ وَأَدَبِه؟ قَالَ لَهُ دِمْنَةُ: لاَ تَرْحَمْهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ: فَإِنَّ الْعَاقِلَ لاَ يَرْحَمُ مَنْ يَخَافُهُ. وَإِنَّ الرَّجُلَ الْحَازِمَ رُبَّمَا أَبْغَضَ الرَّجُلَ وَكَرِهَهُ، ثُمَّ قَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ: لِمَا يَعْلَمُ عِنْدَهُ مِنَ الْغَنَاءِ[1] والكِفَايَةِ، فِعْلَ الرَّجُلِ الْمُتَكَارِهِ عَلَى الدَّوَاءِ الشَّنِيعِ رَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ. وَرُبَّمَا أَحَبَّ الرَّجُلَ، وَعَزَّ عَلَيْهِ، فَأَقْصَاهُ وَأَهْلَكَهُ، مَخَافَةَ ضَرَرِه؛ كَالَّذِي تَلْدَغُهُ الْحَيَّةُ فِي إِصْبَعِه فَيَقْطَعُهَا، وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَسْرِيَ سُمُّهَا إِلَى بَدَنِهِ. فَرَضِيَ الأَسَدُ بِقَوْلِ دِمْنَةَ. ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِكَذِبِهِ وَغَدْرِهِ وَفُجُوره فَقَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَةٍ.







(١) الغناء: المنفعة.



بـاب

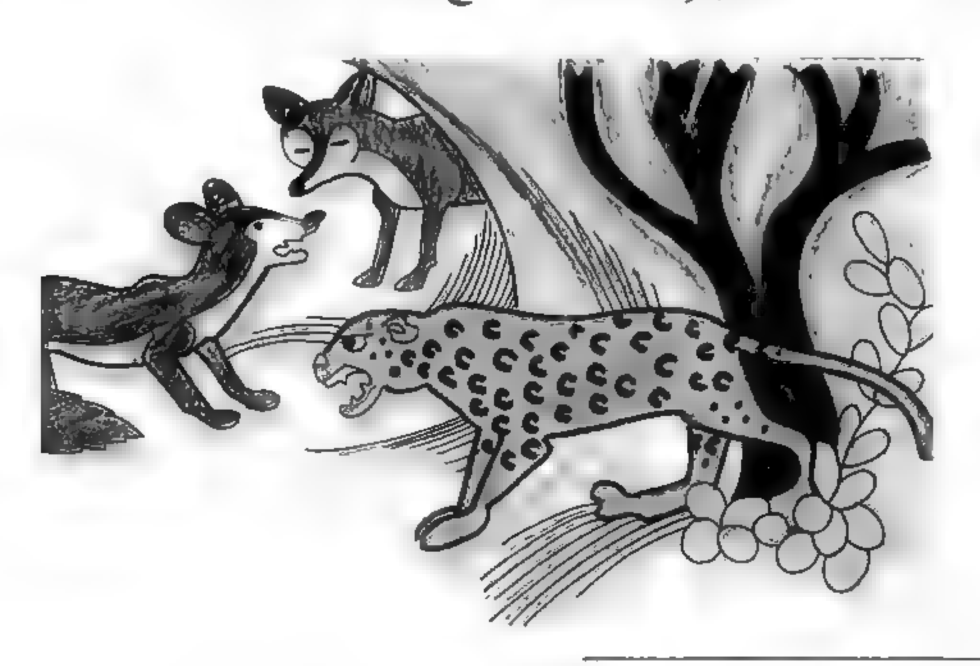
الْفَحْصِ عَنْ أَمْـرِ دِمْنَــةَ



قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ حَدَّثْتَنِي عَنِ الْوَاشِي الْمَاهِرِ الْمُحْتَالِ، كَيْفَ يُفْسِدُ بِالنَّمِيمَةِ الْمَوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ الْمُتَحَابَّيْنِ. فَحَدِّثْنِي حِينَئِذٍ بِمَا كَانَ مِن حَالِ دِمْنَةَ وَمَا آلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ بَعْدَ قَتْلِ شَتْرَبَةَ، وَمَا كَانَ من مَعَاذِيرِهِ عِنْدَ الأَسَدِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ رَاجَعَ الأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ، وَتَحَقَّقَ النَّمِيمَةَ مِنْ دِمْنَةَ، وَمَا كَانَتْ حُجَّتُهُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا.

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنِّي وَجَدْتُ فِي حَدِيثِ دِمْنَةَ أَنَّ الأَسَدَ حِينَ قَتَلَ شَتْرَبَةَ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ، وَذَكَرَ قَدِيمَ صُحْبَتِهِ وَجَسِيمَ خِدْمَتِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ، وَأَخَصَّهُمْ مَنْزِلَةً لَدَيْهِ، وَأَقْرَبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ؛ وَكَانَ يُوَاصِلُ لَهُ الْمَشُورَةَ دُونَ خَوَاصِّهِ[1]. وَكَانَ مِنْ أَخَص أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ النَّمِرُ. **فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى النَّمِرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الأَسَدِ؛ فَخَرَجَ مِنْ عِنْده جَوْفَ اللَّيْلِ يُرِيدُ مَنْزِلَهُ، فَاجْتَازَ عَلَى مَنْزِلِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَاب، سَمِعَ كَلِيلَةَ يُعَاتِبُ دِمْنَةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ،**





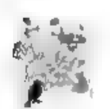
(١) خواصّه: المقربين من رجال دولته.

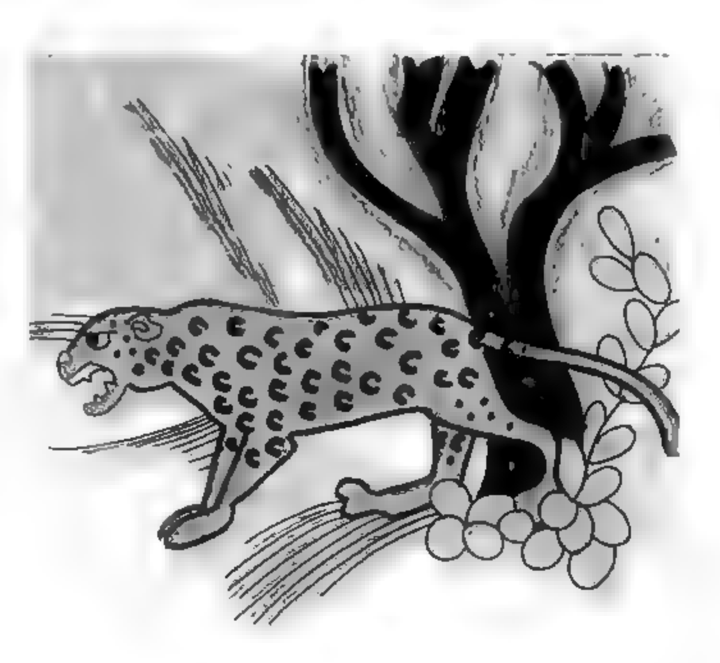


وَيَلُومُهُ عَلَى النَّمِيمَةِ وَاسْتِعْمَالِهَا؛ خُصُوصاً مَعَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ في حَقِّ الْخَاصَّة. وَعَرَفَ النَّمِرُ عِصْيَانَ دِمْنَةَ وَتَرْكَ الْقَبُولِ لَهُ. فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا.

فَكَانَ فِيمَا قَالَ كَليلةُ لدِمْنَةَ: لَقَدِ ٱرْتَكَبْتَ مَرْكَباً صَعْباً، وَدَخَلْتَ مَدْخَلاً ضَيقاً، وَجَنَيْتَ على نَفْسِكَ جِنَايَةً مُوبِقَةً[1]، وَعاقِبَتُهَا وَخِيمَةٌ؛ وَسَوْفَ يَكُونُ مَصْرَعُكَ شَدِيداً، إِذَا ٱنْكَشَفَ لِلأَسدِ أَمْرُكَ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ، وَعَرَفَ غَدْرَكَ وَمِحَالكَ[2]، وَبَقيتَ لاَ نَاصِرَ لكَ؛ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ الْهَوَانُ وَالْقَتْلُ، مَخَافَةَ شَرِّكَ، وَحَذَراً مِنْ غَوَائِلِكَ؛ فَلَسْتُ بِمُتَّخِذِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ خَلِيلاً، وَلاَ مُفْشٍ إِلَيْكَ سِرّاً؛ لأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا: تَبَاعَدْ عَمَّنْ لاَ رَغْبَةَ فِيهِ. وَأَنَا جَديرٌ بِمُبَاعَدَتِكَ، وَالْتِمَاسِ الْخلاَصِ لِي ممَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الأَسَدِ مِنْ هٰذَا الأَمْرِ.







فلمَّا سَمِعَ النَّمِرُ هذا من كلامِهما قَفَلَ راجِعاً فدَخَلَ على أُمِّ الأَسَدِ فأَخَذَ عليها العُهُودَ والمَواثيقَ أَنَّها لا تَبوحُ بما يُسِرُّ إليها. فعاهَدَتْهُ على ذلك. فأَخبَرَها بما سَمِعَ من كلامِ كَليلَةَ ودِمنَةَ. فلمَّا أصبَحَتْ دَخَلَتْ على الأَسَدِ فَوَجَدَتْهُ كَئيباً حَزيناً مَهموماً لِما وَرَدَ عليه من قَتْلِ

---

(١) موبقة: مهلكة.

(٢) محالك: أي طلبك الأمر بالحيل والمكر.

شَترَبَةَ، فقالت له: ما هذا الهَمُّ الذي أخَذَ منك وغَلَبَ عليكَ؟ قالَ: يُحزِنُني قَتلُ شَترَبَةَ إذا تَذَكَّرتُ صُحبَتَهُ ومُواظَبَتَهُ معي وما كنتُ أسمَعُ من مُؤامَرتِهِ وأسكُنُ إليه في مُشاوَرَتِهِ وأقبَلُ من مُناصَحَتِهِ. قالت أمُّ الأسَدِ: إن كنتَ تَرَى أنَّ لكَ في قَتلِهِ فَرَجاً لا يَنبَغي لك أن تَحزَنَ وإلا فقَلبُكَ يَشهَدُ أنَّ عَمَلَكَ الذي عَمِلتَهُ لم يكنْ صَواباً ولا عَدلاً. لأنّ العلماءَ قد قالوا: إذا أرَدتَ أن تَعلَمَ عَدُوَّكَ من صديقِكَ ففَكِّرْ في نفسِكَ فإن لم يكنْ قلبُكَ له سَليماً فاعلَمْ أنَّه لكَ كذلكَ.

فانظُرِ الآنَ وابحَثْ في ذاتِ نفسِكَ هل تَرَى ضَميرَكَ يَشهَدُ لك أنَّ الذي فَعَلتَهُ بالثَّورِ كانَ عَدلاً أم ظُلماً؟

فقالَ الأسَدُ: إن صَحَّ ما تَقولينَ فإني لم أقتُلِ الثَّورَ إلا ظُلماً لأني قد بَحَثتُ في نفسي كما تَقولينَ فلم أجِدْ فيها إلا ما يَدُلُّ على بَراءَةِ شَترَبَةَ وقتلِهِ ظُلماً وبَغياً[1] مَكذوباً عليه مِن الأشرارِ. وإنَّ كَثرَةَ البَحثِ عنِ الأمورِ تُحِقُّ الحَقَّ وتُبطِلُ الباطِلَ. وإنَّ حديثَكِ لَيَدُلُّ على مَكنونِ أمرٍ. أفَبَلَغَكِ شيءٌ عن هذا الأمرِ؟



فقالت أمُّ الأسَدِ: إنَّ أشَدَّ ما شَهِدَ امرُؤٌ على نفسِهِ. وهذا خَطَأٌ عَظيمٌ، كيفَ أقدَمتَ على قَتلِ الثَّورِ بلا عِلمٍ ولا يَقينٍ؟ ولولا ما قالتِ العلماءُ من إذاعَةِ الأسرارِ وما فيها مِنَ الإثمِ والشَّنارِ[2] لذَكَرتُ لكَ وأخبَرتُكَ بما عَلِمتُ. فإنَّ العلماءَ قد قالوا: إنَّ أحمَدَ الناسِ عاقِبَةً في الدُّنيا والآخرَةِ أكتَمُهُمْ للسِّرِّ.

---

(١) بغياً: تعدياً

(٢) الشّنار: العار.





قالَ الأَسَدُ: إنَّ أقوالَ العلماءِ لها وُجوهٌ كثيرَةٌ ومَعانٍ مختلِفَةٌ. فإنَّهم قد قالوا أيضاً: مَنِ اطَّلَعَ على ذُنوبِ المُذنِبينَ فكتَمَها عنِ السُّلطانِ فلم يُعاقَبوا على ذُنوبِهِمْ عُوقِبَ هو يومَ القيامةِ. وإنَّ الذي أطلَعَكِ على هذا السِّرِّ العَظيمِ لم يُطلِعكِ عليه إلا لِتُعلِميني به، فأطلِعيني على ما أسَرَّ إليكِ من ذلكَ وأخبِريني به ولا تَطويه عنّي.

فأخبَرَته بجميع ما ألقاهُ إليها النَّمِرُ من غيرِ أن تُخبِرَهُ باسمِهِ وقالت: إني لم أجهَلْ قولَ العلماءِ في تَعظيم العُقوبَةِ وتَشديدِها وما يَدخُلُ على الرجلِ مِنَ العارِ في إذاعَةِ الأسرارِ. ولكنَّني أحبَبتُ أن أُخبِرَكَ بما فيه المَصلَحَةُ لكَ. فقد قالتِ العلماءُ: إنَّ فَسادَ عامَّةِ الأشياء يكونُ من حالَتَينِ: إحداهُما إفشاءُ السِّرِّ، والأخرى تركُ عُقوبَةِ مَن يَستَوجِبُ العُقوبَةَ. ولإفشاءُ السِّرِّ خيرٌ من أن يُبقى على هذا الخائِنِ دِمْنَةَ الذي أدخَلَ الفَسادَ بينَكَ وبين الثَّورِ بمَكرِهِ وفُجورِهِ. فلو كُتِمَ أمرُهُ لنَجا مِنَ العِقابِ على فِعلِهِ ولَخيفَ منه أكبَرُ من هذه الفَعلَةِ من عَمَلِهِ. وقد أمَرَ العلماءُ بالعَفوِ عنِ الجاني والصَّفحِ عنِ المُذنِبِ. ولكنَّهُم قد نَهَوا عنِ اغتِفارِ الجُرمِ العَظيمِ والذَّنبِ الكبيرِ.

فلمَّا قضَتْ أمُّ الأسَدِ هذا الكلامَ صَحَّ عند الأسَدِ ما فَعَلَ دِمنَةُ. فاستَدعى أصحابَهُ وجُندَهُ فأُدخِلوا عليه. ثم أمَرَ أن يُؤتى بدِمنَةَ. فلمَّا حَضَرَ دِمنَةُ نَكَسَ الأسَدُ

رأسهُ إلى الأرضِ مليًا. فالتفتَ دِمنَةُ إلى بعضِ الحاضِرينَ فقالَ: ما الذي حَدَثَ وعلامَ اجتَمَعتُمْ وما الذي أحزنَ الملِكَ؟ فالتَفَتَتْ أُمُّ الأسَدِ إليه وقالتْ له: أحزَنَ الملِكَ بَقاؤُكَ ولو طَرفَةَ عَينٍ. ولن يَدَعَكَ بعد اليومِ حَيًّا.

قالَ دِمنَةُ: وما حَدَثَ من أمري حتى وَجَبَ به قَتلي؟

قالت: إنَّه قد بانَ للملِكِ كَذِبُكَ وفُجورُكَ وخَديعَتُكَ في قَتلِ الثَّورِ من غيرِ ذَنبٍ كانَ منه، فلستَ حَقيقاً أن تُترَكَ بالحياةِ طَرفَةَ عَينٍ.





قالَ دِمنَةُ: ما تَرَكَ الأوَّلُ للآخِرِ شيئاً لأنَّه يُقالُ: أشَدُّ الناسِ في تَوَقّي الشَّرِّ يُصيبُهُ الشَّرُّ قَبلَ المُستَسلِمِ له. فلا يَكونَنَّ الملِكُ وخاصَّتُهُ وجُنودُهُ المَثَلَ السَّوءَ. ولقد صَدَقَ مَن قالَ: كلَّما ازدادَ الإنسانُ في الخيرِ اجتِهاداً كانَ الشَّرُّ إليه أسرَعَ. وقد قيلَ: مَن صَحِبَ الأشرارَ وهو يَعلَمُ حالَهُمْ كانَ أذاهُ من نفسِهِ. ولذلك انقَطَعَتِ النُّسّاكُ بأنفسِها عنِ الخَلقِ، واختارَتِ الوَحدَةَ على المُخالَطَةِ، وحُبَّ العَمَلِ للّهِ على حُبِّ الدُّنيا وأهلِها. ومن يَجزي بالخيرِ خيراً وبالإحسانِ إحساناً إلا اللّهُ؟ ومن طَلَبَ الجَزاءَ على الخيرِ مِنَ الناسِ كانَ حقيقاً أن يَحظى بالحِرمانِ إذ يُخطِئُ الصَّوابَ في خُلوصِ العَمَلِ لغيرِ اللّهِ وطَلَبِ الجَزاءِ مِنَ الناسِ. ولكنَّ عاقِبَةَ ما يَنبَغي أن يُعاقَبَ به الفُجّارُ يُصابُ به



الأخيارُ. وهذا الأمرُ شَبيهٌ بشأني لأنَّني حَمَلَني حُبُّ الملِكِ ونُصحي له وإشفاقي عليه أن أُطلِعَهُ على سِرِّ عَدُوِّهِ الخائِنِ. وإنَّ الملِكَ قد شاهَدَ منه ذلك عِياناً وظَهرَتْ له منه العلاماتُ التي ذَكَرتُها له. أفَهَذا جَزائي منه أن أُقتَلَ؟



فلمَّا سَمِعَ الأَسَدُ ذلك من كلامِ دِمنَةَ أَمَرَ أن يُخرَجَ من عندِهِ حتى يَنظُرَ في أمرِهِ ليَجتَهِدَ بالفَحصِ عنه لِئلا يَعُودَ إلى العَجَلةِ والنَّدامَةِ. فعند ذلك سَجَد دِمنَةُ للأسَدِ شُكراً له ودَعا له وقالَ: أيُّها الملِكُ لا تَعجَلْ في قَتلي ولا تَسمَعْ فِيَّ كلامَ الأشرارِ. وليَبحَثِ الملِكُ عن أمري حتى يَتَبَيَّنَ له صِدقِي وقد قالتِ الحُكَماءُ: إنَّ النَّارَ أُخفِيَتْ في الحِجارَةِ فلا تُستَخرَجُ منها إلا بالمُعالَجَةِ والقَدحِ.





ولو كنتُ أعلَمُ لنفسي ذَنباً فيما بيني وبينَ الملِكِ لم أَقُمْ بين يَديكَ. وأنا أرغَبُ إلى الملِكِ إن كانَ في شَكٍّ من أمري أن يَأمُرَ بالنَّظَرِ فيه ويكونَ مَن يَتَوَلَّى ذلك لا تأخُذُهُ في اللهِ لَومَةُ لائِمٍ. وإلا فلا مَلجَأَ لي في ذلك إلا اللهُ وهو الذي يَعلَمُ سَرائِرَ العِبادِ وما تُكِنُّ صُدورُهُمْ. وإنَّ أحقَّ ما رَغِبَتْ فيه رعيَّةُ الملِكِ هو مَحاسِنُ الأخلاقِ ومواقِعُ الصَّوابِ وجميلُ السِّيَرِ. وإنَّ الباطِلَ قد يَتلَبَّسُ[1] بالحَقِّ حتى يَتشابَها كما أصابَ الخازِنَ الذي فَضَحَ سِرَّهُ بالتَّلبيسِ عليه. قال الأسَدُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

---

(١) يتلبّس: يختلط.

بـــاب

الفحص عن أمر دمنة

مثل الخازن الذي فضح سره بالتلبيس عليه(*)

قالَ دِمنَةُ: زَعَموا أنّه كانَ في بعضِ المُدُنِ تاجرٌ، وكانَ له خازِنٌ[1] لبيتِ مالِهِ. وإنَّ الخازِنَ أرادَ اختِلاسَ شيءٍ مِنَ المالِ فلم يَستَطِعْ لأنَّ التَّاجِرَ كانَ إذا دَخَلَ الخازِنُ بيتَ المالِ أقفَلَ عليه البابَ، فإذا أراد الخُروجَ أتى فَفَتَحَ له وفَتَّشَهُ قَبلَ أن يَخرُجَ. وكانَ إلى جَنبِ التَّاجِرِ رجلٌ مُصَوِّرٌ ماهِرٌ، وكان هو للخازِنِ صَديقاً. فقالَ له الخازِنُ يوماً: هل لكَ أن تُواطِئَني على الاختِلاسِ من هذا المالِ؟ قالَ: نعم. قالَ: وما الحِيلَةُ ولا سبيلَ لي إلى الخُروجِ إليك ولا سبيلَ لكَ إلى الدُّخولِ إلَيَّ؟ وذَكَرَ له حالَهُ معَ التَّاجر. قالَ المُصَوِّرُ: أوَما لبيتِ المالِ كُوَّةٌ إلى الخارِجِ تُناوِلُني منها شيئاً في الظَّلام؟ قالَ: بلى، ولكن أخشى أن يَرانا أحدٌ. قالَ: فأنا أمُرُّ قريباً مِنَ الكُوَّةِ إذا ابتَدَأَ الظَّلامُ فأصفِرُ لكَ أو أومِئُ إليكَ فتَرمي لي بصُرَّةٍ فآخُذُها ولا يُشعَرُ بنا. فَرَضِيَ الخازِنُ بذلك وأعجَبَهُ وأقاما عليه حيناً.







ثم إنَّ الخازِنَ قالَ ذاتَ يومٍ للمُصَوِّرِ: إنِ استَطَعتَ أن تَحتالَ بحيلَةٍ أعلَمُ بها

(*) يهدف هذا المثل الوصول بالقارىء إلى غايتين: أولهما ـ اجتناب الشبهات والخلط في الأمور، وثانيهما ـ إعلان التوبة عن ارتكاب الفواحش والأخطاء.

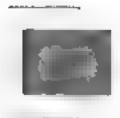
(١) خازن: أمين يتولى حفظ ماله.



مَجيئَكَ من غيرِ صَفْرٍ ولا إيماءٍ ولا ما يُرتابُ به من فِعلِكِ وفِعلي، فإني قد تَخوَّفتُ أن يُحِسَّ بنا أحدٌ. قالَ المُصَوِّرُ: عندي مِنَ الحيلَةِ ما سألتَ. إنَّ عندي مُلاءَةً[1] فيها من تَهاويلِ الصُّوَرِ[2] وتَماثيلِ الصَّنعَةِ فإني ألبَسُها حين مَجيئي وأتراءَى لكَ فيها.



ثم إنَّ المُصَوِّرَ لَبِسَ المُلاَءَةَ وتراءَى له فرَمى له بالصُّرَّةِ فتَناوَلَها. ولم يَزالا على ذلك حتى بَصُرَ بهما في تلك الحالَةِ جارٌ للمُصَوِّرِ. وكانَ بينه وبين خادِمِ للمُصَوِّرِ صَداقَةٌ. فطَلَبَ المُلاءَةَ منه وقالَ: أُريدُ أن أُريها صديقاً لي لأسُرَّهُ بذلك، وأُسرِعُ الكَرَّةَ بِرَدِّها قَبلَ أن يَعلَمَ بذلك مَولاكَ. فأعطاهُ إيَّاها. ولمَّا أتى الليلُ أسرَعَ فلَبِسَها ومَرَّ من حيثُ كانَ يَمُرُّ المُصَوِّرُ. فلمَّا رآهُ الخازِنُ لم يَشُكَّ في مَجيئِهِ فرَمى له بالصُّرَّةِ فتَناوَلَها وانطَلَقَ فرَجَعَ بالمُلاءَةِ إلى خادِمِ المُصَوِّرِ فدَفَعَها إليه فوَضَعَها مَوضِعَها.





وكانَ المصَوِّرُ عن بيتِهِ غائِباً. فلمَّا عادَ إلى منزلِهِ لَبِسَ المُلاءَةَ على عادَتِهِ وتَراءَى للخازِنِ، فعَجِبَ من رُجوعِهِ ولم يكنْ لديه ما يَرمي له به، وانصَرَفَ المُصَوِّرُ بلا شيءٍ. ثم تَلاقَيا بعد ذلك فقالَ له المُصَوِّرُ: لِم لم ترمِ لي بالصُّرَّةِ؟ قالَ: أوَلم تَمُرَّ قُبَيلَ مرورِكَ ورَمَيتُ لك بها؟ فَرَجَعَ المُصَوِّرُ إلى منزلِهِ فدَعا خادِمَهُ وتَوَعَّدَهُ بالقَتلِ أو يُخبِرَهُ بالحقيقَةِ، فأخبَرَهُ بالقِصَّةِ فأخَذَ المُلاءَةَ فأحرَقَها.

(١) ملاءة: كساء يلتف به.
(٢) تهاويل الصور: زينتها.

وإنَّما ضَرَبتُ لك هذا المَثَلَ إرادَةَ أن لا يَعْجَلَ الملِكُ في أمري بشُبهَةٍ. ولستُ أقولُ هذا كراهَةً للمَوتِ، فإنَّه وإن كان كَريهاً لا مَنجى منه وكلُّ حَيٍّ هالِكٌ. وإنّ العُلَماء قد قالوا: مَنِ اقتَرَفَ خَطيئَةً أو إثماً ثم أسلَمَ نفسَهُ إلى القَتلِ من غيرِ ضَرورَةٍ تَدعوهُ إلى ذلك عَفا اللّهُ عنه وأنجاهُ في الآخرَةِ من عَذابِ النَّارِ. ولو كانت لي مئةُ نفسٍ وأعلَمُ أنَّ هوى الملِكِ في إتلافِهِنَّ طِبْتُ له بذلك نفساً.

فقَالَ بَعْضُ الْجُنْدِ: لَمْ يَنْطِقْ بِهٰذَا لِحُبِّه الْمَلِكَ، وَلٰكِنْ لِخَلاصِ نَفْسِهِ، وَالْتماسِ الْعُذْرِ لَهَا. فَقَالَ لَهُ دِمْنَةُ: وَيْلَكَ! وَهَلْ عَلَيَّ فِي الْتِماسِ الْعُذْرِ لِنَفْسِي عَيْبٌ؟ وهَلْ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلى الإنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ؟ وإِذَا لَمْ يَلْتمِسْ لَهَا الْعُذْر، فَلِمَنْ يلْتمِسُهُ؟ لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ مَا لَمْ تكُنْ تَمْلِكُ كِتْمَانَهُ مِنَ الْحَسَدِ وَالبَغْضَاءِ؛ وَلَقَدْ عَرَفَ مَنْ سمعَ مِنْكَ ذٰلِكَ أَنَّكَ لاَ تُحِبُّ لأَحدٍ خَيْراً؛ وَأَنَّكَ عَدُوُّ نَفْسِكَ، فَمَنْ سِوَاهَا بالأَوْلى. فَمِثْلُكَ لاَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْبَهَائِمِ، فضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَلِكِ، وَأَنْ يَكُونَ بِبَابِهِ. فَلَمَّا أَجابَهُ دِمْنَةُ بِذٰلِكَ، خَرَجَ مُكْتَئِباً حَزِيناً مُسْتَحِياً.





فَقَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ لِدِمْنَةَ: لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ، أَيُّهَا الْمُحْتَالُ، فِي قِلَّةِ حَيَائِكَ، وَكَثْرَةِ وقَاحَتِكَ، وَسُرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ. قَالَ دِمْنَةُ: لأَنَّكِ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ بِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ، وَتَسْمَعِينَ مِني بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ، مَعَ أَنَّ شَقَاوَةَ جَدّي[1] قَدْ زَوتْ[2] عَني كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى لَقَدْ سَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ بِالنَّمِيمَةِ عَلَيَّ، وَلَقَدْ

(١) جدّي: حظي. (٢) زوت: منعت.



صَارَ مَنْ بِبَابِ الْمَلِكِ لاسْتِخْفَافِهِمْ بِهِ، وَطُولِ كَرَامَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ وَالنَّعْمَةِ، لاَ يَدْرُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَنْبَغِي لَهُمُ الْكَلاَمُ، وَلاَ مَتَى يَجِبُ عَلَيْهِمُ السُّكُوتُ. قَالَتْ: أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى هٰذَا الشَّقِيِّ، مَعَ عِظَمِ ذَنْبِهِ، كَيْفَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ بَرِيئاً كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ؟



قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ غَيْرَ أَعْمَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ؛ كَالَّذِي يَضَعُ الرَّمَادَ مَوْضِعاً يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِيهِ الرَّمْلَ؛ وَيَسْتَعْمِلُ فِيهِ السِّرْجِينَ[1]، وَالرَّجُلِ الَّذِي يَلْبَسُ لِبَاسَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةِ الَّتِي تَلْبَسُ لِبَاسَ الرَّجُلِ، وَالضَّيْفِ الَّذِي يَقُولُ: أَنَا رَبُّ الْبَيْتِ، وَالَّذِي يَنْطِقُ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ بِمَا لاَ يُسْأَلُ عَنْهُ. وَإِنَّمَا الشَّقِيُّ مَنْ لاَ يَعْرِفُ الأُمُورَ وَلاَ أَحْوَالَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ.

قَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: أَتَظُنُّ أَيُّهَا الْغَادِرُ الْمُحْتَالُ بِقَوْلِكَ هٰذَا أَنَّكَ تَخْدَعُ الْمَلِكَ، وَلاَ يَسْجُنُكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: الْغَادِرُ الَّذِي لاَ يَأْمَنُ عَدُوُّهُ مَكْرَهُ، وَإِذَا اسْتَمْكَنَ مِنْ عَدُوِّهِ قَتَلَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ.

قَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: أَيُّهَا الْغَادِرُ الْكَذُوبُ، أَتَظُنُّ أَنَّكَ نَاجٍ مِنْ عَاقِبَةِ كَذِبِكَ؟ وَأَنَّ مِحَالَكَ هٰذَا يَنْفَعُكَ مَعَ عِظَمِ جُرْمِكَ؟

قَالَ دِمْنَةُ: الْكَذُوبُ الَّذِي يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ، وَيَأْتِي بِمَا لَمْ يُقَلْ وَلَمْ يُفْعَلْ، وَكَلاَمِي وَاضِحٌ مُبِينٌ.

---

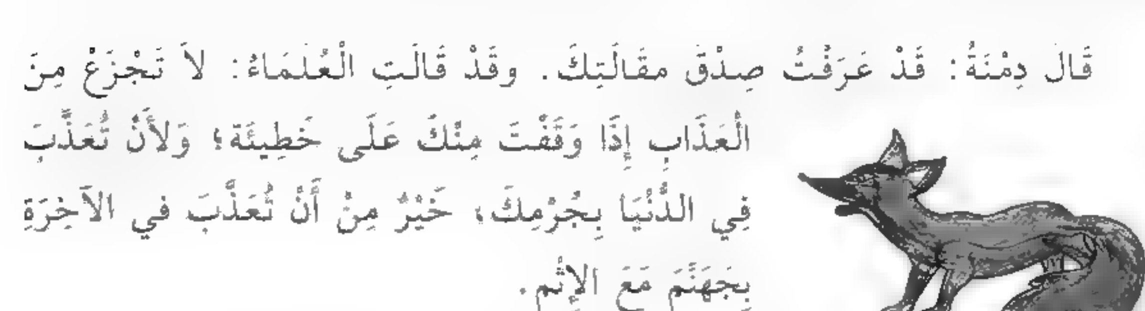
(١) السرجين: الزبل.

بــــاب
الفحص عن أمر دمنة

قالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: الْعُلَمَاءُ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِينَ يُوَضِحُونَ أَمْرَهُ بِفَصْلِ الْخِطَابِ. ثُمَّ نَهَضَتْ فخَرجَتْ. فَدَفَعَ الأَسَدُ دِمْنَةَ إِلى الْقَاضِي. فَأَمَرَ الْقَاضِي بحَبْسِهِ، فَأُلْقِيَ فِي عُنُقِهِ غُلٌّ[1]، وَانْطُلِقَ بِهِ إِلى السِّجْنِ.

فلمَّا انْتصفَ اللَّيْلُ أُخْبِرَ كَلِيلَةُ أَنَّ دِمْنَةَ فِي السِّجْنِ. فَأَتَاهُ مُسْتَخْفِياً؛ فَلَمَّا رَآهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيقِ الْقُيُودِ، وَحَرَجِ[2] الْمكَانِ، بَكى، وَقَالَ لَهُ: مَا وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ إِلاَّ لاِسْتِعْمَالِكَ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرَ، وَإِضْرَابِكَ عَنِ الْعِظَةِ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ فِيمَا مَضَى مِنْ إِنْذَارِكَ وَالنَّصِيحَةِ لَكَ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْكَ فِي خُلُوصِ الرَّغْبَةِ فِيكَ: فَإِنَّهُ لِكُلِ مَقَامٍ مَقَالٌ؛ وَلِكُلِ مَوْضِعٍ مَجَالٌ. وَلَوْ كُنْتُ قَصَّرْتُ فِي عِظَتِك حِينَ كُنْتَ فِي عَافِيَةٍ، لَكُنْتُ الْيَوْمَ شَرِيكَكَ فِي ذَنْبِكَ؛ غَيْرَ أَنَّ الْعُجْبَ دَخَلَ مِنْكَ مَدْخَلاً قَهَرَ رَأْيَكَ، وَغَلَبَ عَلَى عَقْلِكَ؛ وَكُنْتُ أَضْرِبُ لَكَ الأَمْثَالَ كَثِيراً، وَأُذَكِّرُكَ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْمُخْتَالَ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ.

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ عَرَفْتُ صِدْقَ مقَالَتِكَ. وقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لاَ تَجْزَعْ مِنَ الْعَذَابِ إِذَا وَقَفْتَ مِنْكَ عَلَى خَطِيئَةٍ؛ وَلأَنْ تُعَذَّبَ فِي الدُّنْيَا بِجُرْمِكَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُعَذَّبَ فِي الآخِرَةِ بِجَهَنَّمَ مَعَ الإِثْمِ.



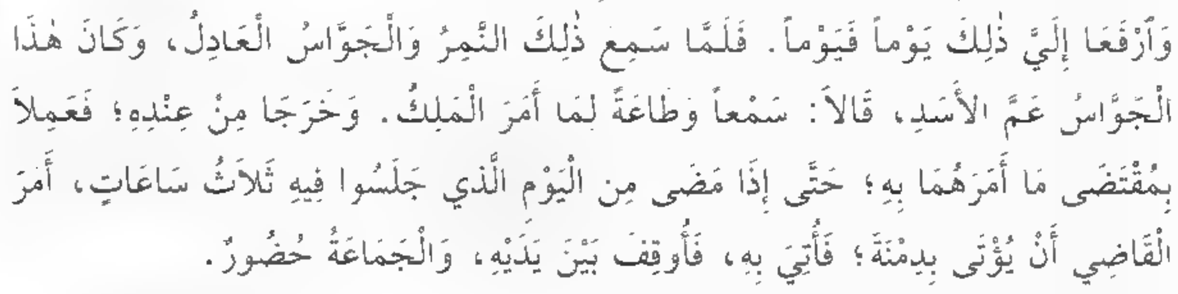
قَالَ كَلِيلَةُ: قَدْ فَهِمْتُ كَلاَمَكَ؛ وَلَكِنَّ ذَنْبَكَ عظِيمٌ، وَعِقَابَ الأَسَدِ شَدِيدٌ أَلِيمٌ. وَكَانَ بِقُرْبِهِمَا فِي السجْنِ فَهْدٌ مُعْتَقَلٌ يَسْمَعُ كَلاَمَهُما، وَلاَ يَرَيانِهِ؛ فعَرَفَ مُعاتَبَةَ كَلِيلَةَ لِدِمْنَةَ عَلى سُوءِ فِعْلِهِ، وَمَا كَانَ مِنْهُ؛ وَأَنَّ دِمْنَةَ مُقِرٌّ بِسُوءِ عَمَلِهِ، وعظِيمِ ذَنبِهِ؛ فحَفِظَ الْمُحَاوَرَةَ بَيْنَهُمَا، وَكَتَمَهَا لِيَشْهَدَ بِهَا إِنْ

(١) غلّ: طوق من حديد أو قدّ من جلد.   (٢) حرج: ضيق.



سُئِلَ عنْهَا.

ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَدَخَلَتْ أُمُّ الأَسَدِ حِينَ أَصْبَحَتْ عَلَى الأَسَدِ؛ وَقَالَتْ لَهُ: يا سَيدَ الْوُحُوشِ. حُوشِيتَ[1] أَنْ تَنْسَى مَا قُلْتَ بِالأَمْسِ؛ وَأَنَّكَ أَمَرْتَ بِهِ لِوَقْتِهِ؛ وَأَرْضَيْتَ بِهِ رَبَّ الْعِبَادِ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لاَ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَانَى فِي الْجِد لِلتَّقْوَى؛ بَلْ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُدَافِعَ عَنْ ذَنْبِ الأَثِيمِ.







فَلَمَّا سَمِعَ الأَسَدُ كَلاَمَ أُمِّهِ، أَمَرَ أَنْ يَحْضُرَ النَّمِرُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْقَضَاءِ. فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لَهُ وَلِلْجَوَّاسِ[2] الْعَادِلِ: اجْلِسَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، وَنَادِيَا فِي الْجُنْدِ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا وَيَنْظُرُوا فِي حَالِ دِمْنَةَ، وَيَبْحَثُوا عَنْ شَأْنِهِ، وَيَفْحَصُوا عَنْ ذَنْبِهِ، وَيُثْبِتُوا قَوْلَهُ وَعُذْرَهُ فِي كُتُبِ الْقَضَاءِ؛ وَارْفَعَا إِلَيَّ ذَلِكَ يَوْماً فَيَوْماً. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ النَّمِرُ وَالْجَوَّاسُ الْعَادِلُ، وَكَانَ هَذَا الْجَوَّاسُ عَمَّ الأَسَدِ، قَالاَ: سَمْعاً وَطَاعَةً لِمَا أَمَرَ الْمَلِكُ. وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ؛ فَعَمِلاَ بِمُقْتَضَى مَا أَمَرَهُمَا بِهِ؛ حَتَّى إِذَا مَضَى مِن الْيَوْمِ الَّذِي جَلَسُوا فِيهِ ثَلاَثُ سَاعَاتٍ، أَمَرَ الْقَاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةَ؛ فَأُتِيَ بِهِ، فَأُوقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْجَمَاعَةُ حُضُورٌ.

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكَانُ نَادَى سَيدُ الْجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا الْجَمْعُ. إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السباعِ لَمْ يَزَلْ مُنْذُ قُتِلَ شَتْرَبَةُ خَاثِرَ[3] النَّفْسِ، كَثِيرَ الْهَم وَالْحَزَنِ،

---

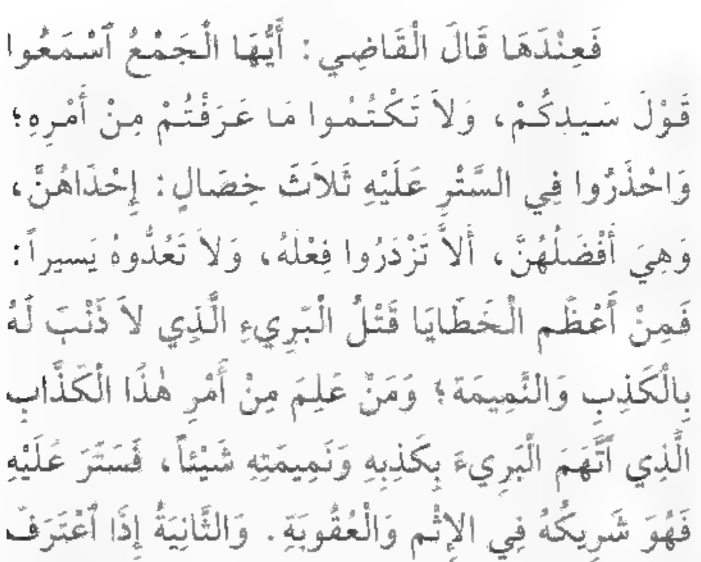
(١) حوشيت: نزهت.

(٢) الجوّاس: المحقق، وهو مبالغة من جاس الشيء إذا طلبه بالاستقصاء.

(٣) خاثر: مضطرب ومرتبك.

يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ شَتْرَبَة بِغَيْرِ ذَنْبٍ؛ وَأَنَّهُ أَخَذَهُ بِكَذِبِ دِمْنَةَ وَنَميمَتِهِ. وَهٰذَا الْقَاضِي قَدْ أُمِرَ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ، وَيَبْحَثَ عَنْ شَأْنِ دِمْنَةَ. فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئاً فِي أَمْرِ دِمْنَةَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَلْيَقُلْ ذٰلِكَ، وَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْجَمْعِ وَالأَشْهَادِ، لِيَكُونَ الْقَضَاءُ فِي أَمْرِهِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ؛ فَإِذَا اسْتَوْجَبَ الْقَتْلَ فَالتَّثَبُّتُ فِي أَمْرِهِ أَوْلَى، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الْهَوَى، وَمُتَابَعَةُ الأَصْحَابِ عَلَى الْبَاطِلِ ذُلٌّ.





فَعِنْدَهَا قَالَ الْقَاضِي: أَيُّهَا الْجَمْعُ اسْمَعُوا قَوْلَ سَيِّدِكُمْ، وَلاَ تَكْتُمُوا مَا عَرَفْتُمْ مِنْ أَمْرِهِ؛ وَاحْذَرُوا فِي السَّتْرِ عَلَيْهِ ثَلاَثَ خِصَالٍ: إِحْدَاهُنَّ، وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ، أَلاَّ تَزْدَرُوا فِعْلَهُ، وَلاَ تَعُدُّوهُ يَسِيراً: فَمِنْ أَعْظَمِ الْخَطَايَا قَتْلُ الْبَرِيءِ الَّذِي لاَ ذَنْبَ لَهُ بِالْكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ؛ وَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هٰذَا الْكَذَّابِ الَّذِي اتَّهَمَ الْبَرِيءَ بِكَذِبِهِ وَنَمِيمَتِهِ شَيْئاً، فَسَتَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ شَرِيكُهُ فِي الإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ. وَالثَّانِيَةُ إِذَا اعْتَرَفَ الْمُذْنِبُ بِذَنْبِهِ، كَانَ أَسْلَمَ لَهُ. وَأَحْرَى بِالْمَلِكِ وَجُنْدِهِ أَنْ يَعْفُوا عَنْهُ وَيَصْفَحُوا. وَالثَّالِثَةُ تَرْكُ مُرَاعَاةِ أَهْلِ الذَّمِّ وَالْفُجُورِ، وَقَطْعُ أَسْبَابِ مُوَاصَلاَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ؛ فَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هٰذَا الْمُحْتَالِ شَيْئاً، فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ مِمَّنْ حَضَرَ. لِيَكُونَ ذٰلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِ؛ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مَنْ كَتَمَ شَهَادَةَ مَيْتٍ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلْيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا عَلِمَ.

فَلَمَّا سَمِعَ ذٰلِكَ الْجَمْعُ كَلاَمَهُ، أَمْسَكُوا عَنِ الْقَوْلِ. فَقَالَ دِمْنَةُ: مَا يُسْكِتُكُمْ؟ تَكَلَّمُوا بِمَا عَلِمْتُمْ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ جَوَاباً. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: مَنْ يَشْهَدْ بِمَا لَمْ يَرَ. وَيَقُولُ مَا لاَ يَعْلَمُ، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الطَّبِيبَ الَّذِي قَالَ لِمَا لاَ يَعْلَمُهُ: إِنِي أَعْلَمُهُ.






قالَتِ الْجَمَاعَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

مثل الطبيب والجاهل[*]

قالَ دِمنَةُ: زَعَموا أنَّه كانَ في بعضِ المُدُنِ طَبيبٌ له رِفقٌ وعِلمٌ. وكانَ ذا فِطنَةٍ فيما يَجري على يَدِهِ مِنَ المُعالَجات. فكَبِرَ ذلك الطَّبيبُ وضَعُفَ بَصَرُهُ. وكانَ لملِكِ تلك المَدينَةِ ابنٌ وَحيدٌ، فأصابَهُ مَرَضٌ، فَجِيءَ بهذا الطَّبيبِ. فلمَّا حَضَرَ سألَ الفتى عن وَجَعِهِ وما يَجِدُ، فأخبَرَهُ، فعَرَفَ داءَهُ ودَواءَهُ وقالَ: لو كنتُ أُبصِرُ لجَمَعتُ الأخلاطَ[1] على مَعرِفَتي بأجناسِها ولا أثِقُ في ذلك بأحدٍ غيري.





وكان في المدينَةِ رجلٌ جاهِلٌ فبَلَغَهُ الخَبَرُ فأتاهُمْ وادَّعى عِلمَ الطِّبِّ وأعلَمَهُمْ أنَّه خبيرٌ بمعرِفَةِ أخلاطِ الأدويَةِ والعقاقيرِ، عارِفٌ بطبائِعِ الأدويَةِ المُرَكَّبَةِ والمُفرَدَةِ. فأمَرَهُ الملكُ أن يَدخُلَ خزانَةَ الأدويَةِ فيأخُذَ من أخلاطِ الدَّواءِ حاجَتَهُ. فلمَّا دَخَلَ الجاهِلُ الخزانَةَ وعُرِضَتْ عليه الأدويَةُ ولا يَدري ما هي ولا له بها معرِفَةٌ أخَذَ في جُملَةِ ما أخَذَ منها صُرَّةً فيها سُمٌّ قاتِلٌ لوقتِهِ ودافَهُ[2] بالأدويَةِ ولا عِلمَ له به ولا مَعرِفَةَ عندَهُ بجِنسِهِ. فلمَّا

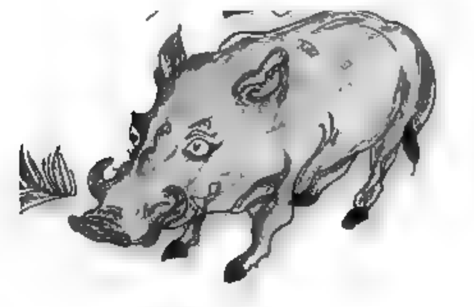
(*) تحض القصة الإنسان العاقل على معرفة قدره والوقوف عنده وعدم ادعاء معرفة ما لا يعلم لأن الجاهل عدو نفسه.

---

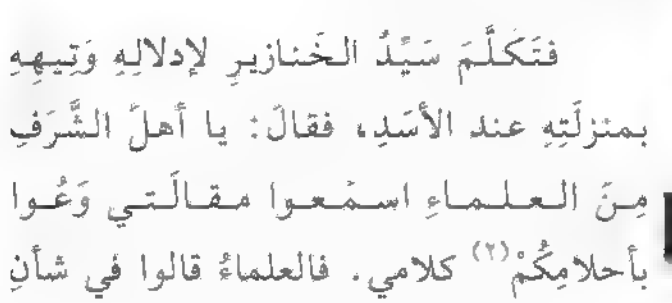
(١) الأخلاط: الأدوية المركّبة من أجزاء. (٢) دافه: خلطه.

تَمَّتْ أخلاطُ الأدويَةِ سقى الفَتى منه فماتَ لوقتِهِ. فلمَّا عَرَفَ الملِكُ ذلك دَعا بالجاهِلِ فسقَاهُ من ذلك الدَّواءِ فماتَ مِن ساعَتِهِ.

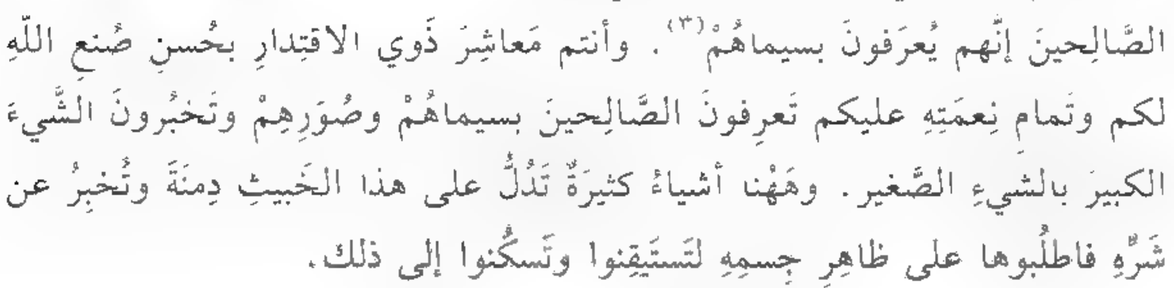
وإنَّما ضَرَبتُ لكم هذا المَثَلَ لتَعلَموا ما يَدخُلُ على القائِلِ والعامِلِ مِنَ الذِّلَّةِ بالشُّبهَةِ[1] في الخُروجِ عنِ الحَدِّ. فمَن خَرَجَ منكم عن حَدِّهِ أصابَهُ ما أصابَ ذلك الجاهِلَ ونفسُهُ المَلومَةُ. وقد قالت العلماءُ: ربما جُزِيَ المُتَكَلِّمُ بقَولِهِ، والكلامُ بين أيديكُمْ فانظُروا لأنفسِكُمْ.







فتَكَلَّمَ سَيِّدُ الخَنازيرِ لإدلالِهِ وَتيهِهِ بمنزِلَتِهِ عند الأسَدِ، فقالَ: يا أهلَ الشَّرَفِ مِنَ العلماءِ اسمَعوا مقالَتي وَعُوا بأحلامِكُمْ[2] كلامي. فالعلماءُ قالوا في شأنِ



الصَّالِحينَ إنَّهم يُعرَفونَ بسيماهُمْ[3]. وأنتم مَعاشِرَ ذَوي الاقتِدارِ بحُسنِ صُنعِ اللّهِ لكم وتَمامِ نِعمَتِهِ عليكم تَعرِفونَ الصَّالِحينَ بسيماهُمْ وصُوَرِهِمْ وتَخبُرونَ الشَّيءَ الكبيرَ بالشيءِ الصَّغيرِ. وهَهُنا أشياءُ كثيرَةٌ تَدُلُّ على هذا الخَبيثِ دِمنَةَ وتُخبِرُ عن شَرِّهِ فاطلُبوها على ظاهِرِ جِسمِهِ لتَستَيقِنوا وتَسكُنوا إلى ذلك.

قالَ القاضي لسَيِّدِ الخنازيرِ: قد عَلِمتُ وعَلِمَ الجماعَةُ الحاضِرونَ أنَّكَ عارِفٌ بما في الصُّوَرِ من علاماتِ السُّوءِ، ففَسِّرْ لنا ما تَقولُ وأطلِعنا على ما تَرى في صورَةِ هذا الخَبيثِ.

---

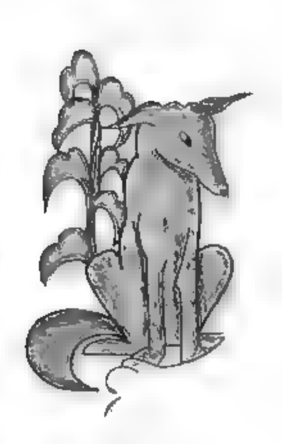
(١) الشُّبهة: ما بين الخطإ والصواب.

(٢) أحلامكم: عقولكم.

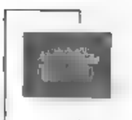
(٣) سيماهم: أي بعلاماتهم الحسنة.



فأخَذَ سَيِّدُ الخنازيرِ يَذُمُّ دِمنَةَ وقالَ: إنَّ العلماءَ قد كَتَبوا وأخبَروا أنّه مَن كانت عَينُهُ اليُسرى أصغَرَ من عَينِهِ اليُمنى وهيَ لا تَزالُ تختَلِجُ وكان أنفُهُ مائلاً إلى جَنبِهِ الأيمَنِ فهو خَبيثٌ جامعٌ للخِبِّ والفُجورِ. وكانَ دمنَةُ على هذه الصِّفَةِ.



فلمَّا سَمِعَ دِمنَةُ ذلك قالَ: من هَهُنا تَقيسونَ الكلامَ وتَترُكونَ العِلمَ، فاسمَعوا منّي ما أقولُهُ لكم وتَدَبَّروا بعقولِكُمْ فقد وَعَيتُمْ ما قالَ هذا. فإنْ كانَ يَزعَمُ أنَّ ما في جِسمي من هذه العلاماتِ هو الدَّليلُ على صِدقِ ما رُميتُ[1] به فإنِي إذن أكونُ قد وُسِمتُ بِسِماتٍ وعلاماتٍ اضطَرَّتني إلى الإثمِ فعَمِلتُ بها ما عَمِلتُ. ففي ذلك بَراءَةٌ لي وعُذرٌ مما عَمِلتُهُ.





ثم التَفَتَ إلى سَيِّدِ الخنازيرِ وقالَ: فقد بانَ لِمَن حَضَرَ قِلَّةُ عقلِكَ، وما مثَلُكَ في ذلك إلاَّ مَثَلُ رجلٍ قالَ لامرأتِهِ: انظُري إلى عُرْيِكِ وبعد ذلك انظُري إلى عُري غيرِكِ. قيلَ له: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

مثل الرجل وامرأتيه(*)

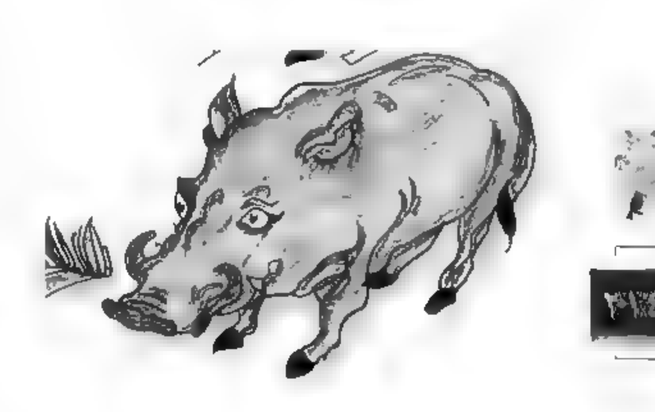
قالَ دِمنَةُ: زَعَموا أنَّ مدينَةً أغارَ عليها العَدُوُّ فقَتَلَ وسَبى وغَنِمَ وانطَلَقَ إلى بلادِهِ. فاتَّفَقَ أنَّه كانَ مع جُنديَ مما وَقَعَ في قِسمَتِهِ رجلٌ حَرَّاثٌ ومعه امرأتانِ له،

(*) يتوجب على الإنسان أن ينظر إلى عيوبه أولاً قبل معايرة الآخرين بعيوبهم، حيث تؤكد القصة في مغزاها ذلك.

---

(١) ما رميت: اتهمت.

وكانَ هذا الجُندِيُّ يُسيءُ إليهم في الطَّعامِ واللِّباسِ. فذَهَبَ الحَرَّاثُ ذاتَ يومٍ ومعه امرأتاهُ يحتَطِبونَ للجُنديِّ وهُم عُراةٌ. فأصابَتْ إحدى المرأتَينِ في طريقِها خِرقةً باليَةً فاستَتَرَتْ بها، ثم قالت لزوجِها: ألا تَنظُرُ إلى هذه القَبيحَةِ كيفَ لا تَستَحيي وتَستَتِرُ؟ قالَ لها زوجُها: لو بَدَأتِ بالنَّظَرِ إلى نفسِكِ وأنَّ جسمَكِ كلَّه عارٍ لما عَيَّرتِ صاحِبَتَكِ بما هو بعينِهِ فيكِ.



وشأنُكَ عَجَبٌ أيُّها القَذِرُ ذو العلاماتِ الفاضِحَةِ القَبيحَةِ. ثم العَجَبُ مِن جُرأتِكَ على طَعامِ الملِكِ وقيامِكَ بين يَدَيهِ مَعَ ما بجسمِكَ مِنَ القَذَرِ والقُبحِ، ومَعَ ما تَعرِفُهُ أنتَ ويَعرِفُهُ غَيرُكَ من عُيوبِ نفسِك. أفتَتَكَلَّمُ في النَّقِيِّ الجسمِ الذي لا عَيبَ فيه؟ ولستُ أنا وحدي أطَّلِعُ على عَيبِكَ لكنَّ جميعَ مَن حَضَر قد عَرَفَ ذلك. وقد كانَ يَحجِزُني عن إظهارِهِ ما بيني وبينكَ مِنَ الصَّداقةِ. فأمَّا إذ قد كذبتَ عليَّ وبَهَتَّني في وجهي وقُمتَ بعداوتي فقلتَ ما قلتَ فِيَّ بغيرِ عِلمٍ وعلى رؤوسِ الحاضِرينَ فإني أقتَصِرُ على إظهارِ ما أعرِفُ من عُيوبِكَ وتَعرِفُهُ الجماعَةُ. وحَقَّ على مَن عَرَفَكَ حَقَّ مَعرِفَتِكَ أن يَمنَعَ الملِكَ من استِعمالِهِ إيَّاكَ على طَعامِه. فلو كُلِّفتَ أن تَعمَلَ الزراعَةَ لكنتَ جَديراً بالخِذلانِ[1] فيها. فالأحرى بكَ أن لا تدنُوَ إلى عَمَلٍ مِنَ الأعمالِ وأن لا تكونَ دَبَّاغاً ولا حَجَّاماً لِعامِّيٍّ فضلاً عن خاصِّ خدمَةِ الملِكِ.

قالَ سَيِّدُ الخنازيرِ: أوَلي تقولُ هذه المقالَةَ وتَلقاني بهذا المَلقى!

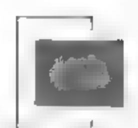
(١) الخذلان: الخيبة.



قال دِمنةُ: نعم، وحقًّا قلتُ فيكَ وإياكَ أعني أيُّها الأعرَجُ المكسورُ الذي في وركِهِ النَّاسورُ[١] الأفدَعُ[٢] الرّجلِ المَنفوخُ البَطنِ الأفلَحُ[٣] الشَّفَتَينِ السَّيِّىءُ المَنظَرِ والمَخبَرِ[٤]،

فلمَّا قالَ دِمنةُ ذلك تَغيَّرَ وجهُ سَيِّدِ الخنازيرِ واستَعبَرَ واستَحيا وتَلَجلَجَ لسانُهُ واستَكانَ وفَتَرَ نشاطُهُ. فقالَ دِمنَةُ حين رأى انكِسارَهُ وبُكاءَهُ: إنما يَنبَغي أن يطولَ بُكاؤُكَ إذا اطَّلَعَ الملِكُ على قَذَرِكَ وعُيوبِكَ فعَزَلَكَ عن طعامِهِ وحالَ بينكَ وبينَ خدمَتِهِ وأبعدَكَ عن حَضرَتِهِ.

ثم إنَّ شَعهراً كان الأسَدُ قد جَرَّبَهُ فوَجَدَ فيه أمانَةً وصِدقاً فرتَّبَهُ في خدمتِهِ وأمَرَهُ أن يَحفَظَ ما يَجري بينهم ويُطلِعَهُ عليه. فقامَ الشَّعهَرُ فدَخَلَ على الأسَدِ فحدَّثَهُ بالحديثِ كلِّه على جَليَّتِهِ. فأمَرَ الأسَدُ بعَزلِ سَيِّدِ الخنازيرِ عن عَمَلِهِ وأمَرَ أن لا يدخُلَ عليه ولا يرى وجهَهُ. وأمَرَ دِمنَةَ أن يُرَدَّ إلى السِّجن وقد مَضى مِن النَّهارِ أكثَرُهُ وجميعُ ما جرى وقالوا وقالَ كُتِبَ وخُتِمَ عليه بخاتِمِ النَّمرِ ورَجَعَ كلُّ واحدٍ منهم إلى منزِلِهِ.







ثُمَّ إنَّ شَعْبَراً (ابْنَ آوى) يُقالُ لَهُ رَوْزَبَةُ، كانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَليلَةَ إِخاءٌ وَمَوَدَّةٌ؛ وَكانَ عِنْدَ الأَسَدِ وَجيهاً، وَعَلَيْهِ كَريماً؛ واتَّفق أَنَّ كَليلةَ أَخَذَهُ الْوَجْدُ إِشْفَاقاً وَحَذَراً عَلَى نَفْسِهِ وَأَخيهِ، فَمَرِضَ وَماتَ؛ فَانْطَلَقَ هٰذا الشَّعْبَرُ إِلَى دِمْنَةَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ كَليلَةَ

---

(١) النّاسور: هو عرق غبر في باطنه فساد كلما برىء أعلاه رجع غبراً أي فاسداً والغبر المندمل على فساد.

(٢) الأفدع: من به فدع وهو اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم إلى إنسيهما.

(٣) الأفلح: المشقوق.

(٤) المخبر: خلاف المظهر أي قبيح الظاهر والباطن.

فَبَكَى وَحَزِنَ؛ وَقَالَ: مَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الأَخِ الصَّفِيِّ! وَلٰكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى حَيْثُ لَمْ يُمِتْ كَلِيلَةُ حَتَّى أَبْقَى لِي مِنْ ذَوِي قَرَابَتِي أَخاً مِثْلَكَ: فَإِنِي قَدْ وَثِقْتُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعالَى وَإِحْسَانِهِ إِلَيَّ فِيمَا رَأَيْتُ مِنَ اهْتِمَامِكَ بِي وَمُرَاعَاتِكَ لِي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجَائِي وَرُكْنِي فِيمَا أَنَا فِيهِ؛ فَأُرِيدُ مِن إِنْعَامِكَ أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى مَكَانِ كَذَا، فَتَنْظُرَ إِلَى مَا جَمَعْتُهُ أَنا وَأَخِي بِحِيلَتِنَا وَسَعْيِنَا وَمشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَتَأْتِيَنِي بِهِ؛ فَفَعَلَ الشَّغْبَرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ دِمْنَةُ.



فلَمَّا وَضَعَ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَعْطَاهُ شَطْرَهُ؛ وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ عَلَى الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الأَسَدِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِكَ، فَتَفَرَّغْ لِشَأْنِي، وَاْصْرِفِ اْهْتِمَامَكَ إِلَيَّ؛ وَاْسْمَعْ مَا أُذْكَرُ بِهِ عِنْدَ الأَسَدِ، إِذَا رُفِعَ إِلَيْهِ ما يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُصُومِ؛ وَمَا يَبْدُو مِنْ أُمِّ الأَسَدِ فِي حَقِي، وَمَا تَرَى مِنْ مَتابَعَةِ الأَسَدِ لَهَا، وَمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا فِي أَمْرِي؛ وَاحْفَظْ ذٰلِكَ كُلَّهُ. فَأَخَذَ الشَّغْبَرُ مَا أَعْطَاهُ دِمْنَةُ وَانْصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هٰذَا الْعَهْدِ. فَانْطَلَقَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَوَضَعَ الْمَالَ فِيهِ.





ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ بَكَرَ مِنَ الْغَدِ فَجَلَسَ، حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ النَّهَارِ سَاعَتَانِ، اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، وَوَضَعُوا الْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَلَمَّا عَرَفَ قَوْلَهُمْ وَقَوْلَ دِمْنَةَ دَعَا أُمَّهُ فَقَرَأَ عَلَيْهَا ذٰلِكَ. فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا فِي الْكِتَابِ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا: إِنْ أَنَا أَغْلَظْتُ فِي الْقَوْلِ فَلاَ تَلُمْنِي: فَإِنَّكَ لَسْتَ تَعْرِفُ ضُرَّكَ مِنْ نَفْعِكَ. أَلَيْسَ هٰذَا مِمَّا كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ سَمَاعِهِ:



لِأَنَّهُ كَلاَمُ هٰذَا الْمُجْرِمِ الْمُسيءِ إِلَيْنَا، الْغَادِرِ بِدِمَّتِنَا؟ ثُمَّ إِنَّهَا خَرَجَتْ مُغْضَبَةً، وَذٰلِكَ بِعَيْنِ الشَّغْبَرِ الَّذِي آخَاهُ دِمْنَةُ وبِسَمْعِهِ. فَخَرَجَ فِي أَثَرِهَا مُسْرِعاً، حَتَّى أَتَى دِمْنَةَ، فَحَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ. فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ إِذْ جَاءَ رَسُولٌ، فَٱنْطَلَقَ بِدِمْنَةَ إِلَى الْجَمْعِ عِنْدَ الْقَاضِي.

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي ٱسْتَفْتَحَ سَيدُ الْمَجْلِسِ فَقَالَ: يَا دِمْنَةُ، قَدْ أَنْبَأَنِي بِخَبَرِكَ الأَمِينُ الصَّادِقُ؛ وَلَيْسَ يَنْبَغِي لنَا أَنْ نَفْحَصَ عَنْ شَأْنِكَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا سَبَباً وَمِصْدَاقاً لِلآخِرَةِ، لِأَنَّهَا دَارُ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ الدَّالِينَ عَلَى الْخَيْرِ، الْهَادِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، الدَّاعِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا؛ وَأَخْبَرَنَا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنَا بِقَوْلِهِ، إِلاَّ أَنَّ سَيدَنَا أَمَرَنَا بِالْعَوْدِ فِي أَمْرِكَ وَالْفَحْصِ عَنْ شَأْنِكَ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَنَا ظَاهِراً بَيِّناً.





قَالَ دِمْنَةُ: أَرَاكَ أَيُّهَا الْقَاضِي لَمْ تَتَعَوَّدِ الْعَدْلَ فِي الْقَضَاءِ؛ وَلَيْسَ فِي عَدْلِ الْمُلُوكِ دَفْعُ الْمَظْلُومِينَ وَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ إِلَى قَاضٍ غَيْرِ عَادِلٍ؛ بَلِ الْمُخَاصَمَةُ عَنْهُمْ وَالذَّوْدُ[١] عن حُقوقِهِم. فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أُقْتَلَ وَلَمْ أُخاصِمْ؟ وَتُعَجِّلُ ذٰلِكَ مُوَافَقَةً لِهَوَاكَ، وَلَمْ تَمْضِ بَعْدَ ذٰلِكَ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ. وَلٰكِنْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: إِنَّ الَّذِي تَعَوَّدَ عَمَلَ الْبِرِّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَإِنْ أَضَرَّ بِهِ.

---

(١) الذَّود: الدفاع.





قَالَ الْقَاضِي: إِنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الأَوَّلِينَ أَنَّ الْقَاضِيَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، لِيُجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ؛ فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى هٰذَا ٱزْدَادَ الْمُحْسِنُونَ حِرْصاً عَلَى الإِحْسَانِ، وَالْمُسِيئُونَ ٱجْتِنَاباً لِلذُّنُوبِ. وَالرَّأْيُ لَكَ، يَا دِمْنَةُ، أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعْتَ فِيهِ، وَتَعْتَرِفَ بِذَنْبِكَ، وَتُقِرَّ بِهِ، وَتَتُوبَ. فَلأَنْ يُعَاقَبَ الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ عِقَابِ الآخِرَةِ.

فَأَجَابَهُ دِمْنَةُ: إِنَّ صَالِحِي الْقُضَاةِ لاَ يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ، وَلاَ يَعْمَلُونَ بِهِ، لاَ فِي الْخَاصَّةِ وَلاَ فِي الْعَامَّةِ: لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَق شَيْئاً. وَأَنْتُمْ إِنْ ظَنَنْتُمْ أَني مُجْرِمٌ فِيمَا فَعَلْتُ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنفْسِي منكُمْ؛ وَعِلْمي بِنَفْسِي يَقِينٌ لاَ شَكَّ فِيهِ؛ وَعِلْمُكُمْ بِي غَايَةُ الشَّك؛ وَإِنَّمَا قَبَّحَ أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَني سَعَيْتُ بِغَيْرِي، فَمَا عُذْرِي عِنْدَكُمْ إِذَا سَعَيْتُ بِنَفْسِي كَاذِباً عَلَيْهَا، فَأَسْلَمْتُهَا لِلْقَتْلِ وَالْعطَبِ، عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِبَرَاءَتِي وَسَلاَمَتِي مِمَّا قُرِفْتُ[1] بِهِ؟ وَنَفْسِي أَعْظَمُ الأَنْفُسِ عَلَيَّ حُرْمَةً وَأَوْجَبُهَا حَقّاً. فَلَوْ فَعَلْتُ هٰذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَدْنَاكُمْ، لَمَا وَسِعَنِي[2] فِي دِينِي، وَلاَ حَسُنَ بِي فِي مُرُوءَتِي، وَلاَ حَقَّ لِيَ أَنْ أَفْعَلَهُ؛ فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسِي؟ فَٱكْفُفْ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ هٰذِهِ الْمَقَالَةِ: فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ منكَ نَصِيحَةً، فَقَدْ أَخْطَأْتَ مَوْضِعَهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً، فَإِنَّ أَقْبَحَ الْخِدَاعِ مَا نَظَرْتَهُ وَعَرَفْتَ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ؛ مَعَ أَنَّ الْخِدَاعَ وَالْمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ صَالِحِي الْقُضَاةِ، وَلاَ تُقَاةِ الْوُلاَةِ.

(١) قرفت: عُيِّبت واتهمت.
(٢) وسعني: أي لما جاز لي.



وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الْجُهَّالُ وَالأَشْرَارُ سُنَّةً[١] يَقْتَدُونَ بِهَا: لِأَنَّ أُمُورَ الْقَضَاءِ يَأْخُذُ بِصَوابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ، وَبِخَطَئِهَا أَهْلُ الْخَطَأَ وَالْبَاطِلِ وَالْقَلِيلُو الْوَرَعِ؛ وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَاضِي مِنْ مَقَالَتِكَ هٰذِهِ أَعْظَمَ الرَّزَايَا وَالْبَلايَا؛ وَلَيْسَ مِنَ الْبَلاءِ وَالْمُصِيبَةِ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ وَالْجُنْدِ وَالْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فَاضِلاً فِي رَأْيِكَ، مُقْنِعاً فِي عَدْلِكَ، مَرْضِيّاً فِي حُكْمِكَ وَعَفَافِكَ وَفَضْلِكَ؛ وَإِنَّمَا الْبَلاءُ كَيْفَ أُنْسِيتَ ذٰلِكَ فِي أَمْرِي. أَوَمَا بَلَغَكَ عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنِ ادَّعَى عِلْمَ مَا لا يَعْلَمُ وَشَهِدَ عَلَى الْغَيْبِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْبَازِيَارَ[٢]؟ قَالَ الْقَاضِي: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟



عقاب الكاذب المفتري(*)

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ رَجُلٌ مِنَ الْمَرَازِبَةِ[٣] مَذْكُورٌ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَعَفَافٍ. وَكَانَ لِلرَّجُلِ بَازِيَارٌ مَاهِرٌ خَبِيرٌ بِعِلاجِ الْبُزَاةِ وَسِيَاسَتِهَا. وَكَانَ هٰذَا الْبَازِيَارُ، عِنْدَ هٰذَا الرَّجُلِ، بِمَكَانٍ خَلِيلٍ، بِحَيْثُ أَدْخَلَهُ دَارَهُ، وَجَعَلَهُ كَوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا.

(*) هدف المثال الوارد في القصة التحذير من عواقب شهادة الزور على صاحبها في الدنيا والعقاب الذي سيناله في الآخرة.

---

(١) سنّة: طريقة.

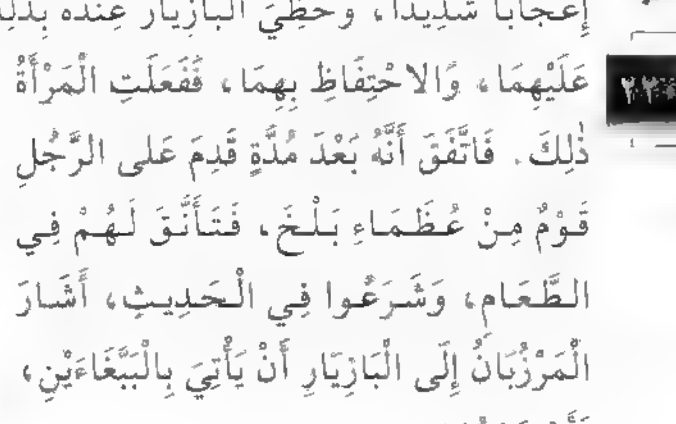
(٢) البازيار: حامل البازي ويقال له البازدار أيضاً.

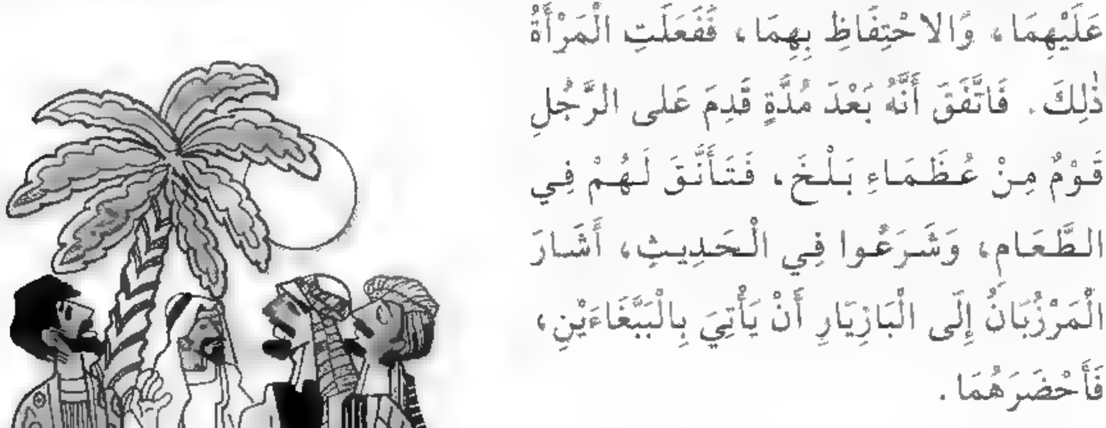
(٣) المرازبة: جمع مرزبان وهو رئيس الفرس.

فَاتَّفَقَ أَنْ وَقَعَتْ كَلِمَةٌ مِنَ الْبَازِيَارِ، فَتَسَخَّطَتْ لَهَا زَوْجَةُ مَوْلاَهُ، وَنَفَرَتْ، فَغَضِبَ وَعَمِلَ عَلَى أَنْ يَكِيدَهَا بِمَكِيدَةٍ.

فَخَرَجَ يَوْماً إِلَى الصَّيْدِ، عَلَى عَادَتِهِ، فَأَصَابَ فَرْخَيْ بَبَّغَاءَ، فَأَخَذَهُمَا وَجَاءَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ وَرَبَّاهُمَا. فَلَمَّا كَبِرَا، فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَجَعَلَهُمَا فِي قَفَصَيْنِ، وَعَلَّمَ أَحَدَهُمَا أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتُ رِيبَةً فِي بَيْتِ مَوْلاَيَ. وَعَلَّمَ الآخَرَ أَنْ يَقُولَ: أَمَّا أَنَا فَلاَ أَقُولُ شَيْئاً. ثُمَّ أَدَّبَهُمَا عَلَى ذٰلِكَ حَتَّى أَتْقَنَاهُ وَحَذَقَاهُ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ. فَلَمَّا بَلَغَ الَّذِي أَرَادَ مِنْهُمَا، حَمَلَهُمَا إِلَى مَوْلاَهُ. فَلَمَّا رَآهُمَا، أَعْجَبَاهُ وَنَطَقَا بَيْنَ يَدَيْهِ. فَأَطْرَبَاهُ. إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَا يَقُولاَنِ، لِأَنَّ الْبَازِيَارَ كَانَ قَدْ عَلَّمَهُمَا بِلُغَةِ الْبَلْخِيِّينَ. وَإِنَّ الْمَرْزُبَانَ أُعْجِبَ بِهِمَا إِعْجَاباً شَدِيداً، وَحَظِيَ الْبَازِيَارُ عِنْدَهُ بِذٰلِكَ حُظْوَةً كَرِيمَةً. فَأَمَرَ امْرَأَتَهُ بِالاحْتِيَاطِ عَلَيْهِمَا، وَالاحْتِفَاظِ بِهِمَا، فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذٰلِكَ. فَاتَّفَقَ أَنَّهُ بَعْدَ مُدَّةٍ قَدِمَ عَلَى الرَّجُلِ قَوْمٌ مِنْ عُظَمَاءِ بَلْخَ، فَتَأَنَّقَ لَهُمْ فِي الطَّعَامِ، وَشَرَعُوا فِي الْحَدِيثِ، أَشَارَ الْمَرْزُبَانُ إِلَى الْبَازِيَارِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْبَبَّغَاءَيْنِ، فَأَحْضَرَهُمَا.









فَلَمَّا وُضِعَتَا بَيْنَ يَدَيْهِ، صَاحَتَا بِمَا كَانَتَا عُلِّمَتَاهُ. فَعَرَفَ أُولٰئِكَ الْعُظَمَاءُ مَا قَالَتَا، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَنَكَسُوا رُؤُوسَهُمْ حَيَاءً وَخَجَلاً، وَجَعَلَ يَغْمِزُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا أَعْلَمُ مَا تَقُولاَنِ، وَلٰكِنِّي يُعْجِبُنِي ذٰلِكَ مِنْهُمَا،



وَسأَلُهمْ عمَّا تَقُولاَنِ، فامْتنعُوا أَنْ يَقُولُوا مَا قَالَتَا، فَأَلَحَّ علَيْهِمْ وأَكْثَرَ السُّؤَالَ عَمَّا قالتَا. فَقَالُوا: إِنَّما تَقُولاَنِ كَذا وَكَذا، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ بَيْتٍ يُعْمَلُ فِيهِ الْفُجُورُ. فلَمَّا قَالُوا ذٰلِكَ، سَأَلَهُمُ الرَّجُلُ أَنْ يُكَلِّمُوهُمَا بِلِسَانِ الْبَلْخِيَّةِ، بِغَيْرِ مَا نَطَقَتَا بِهِ، فَفَعلُوا ذٰلِكَ فلَمْ يَجِدُوهُمَا تَعرِفَانِ غَيْرَ ما تَكَلَّمتَا بِهِ. وَبَانَ لَهُمْ وَلِلْجَمَاعَةِ بَرَاءَةُ الْبَيْتِ مِمَّا رُمِيَ بِهِ، وَوَضَحَ كَذِبُ الْبَازِيَارِ. فَأَمَرَ بِالْبَازِيَارِ أَنْ يُدْخَلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَلَى يَدِهِ بازٌ أَشْهَبُ، فَصَاحَتْ بِهِ امْرَأَةُ الْمَرْزُبَانِ مِنْ دَاخِلِ الْبَيْتِ: أَيُّهَا الْعَدُوُّ لِنَفْسِهِ، أَنْتَ رَأَيْتَ فِي الْبَيْتِ مَا ذَكَرْتَ، وعَلَّمْتَ بِهِ الْبَبَّغَاءَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنا رَأَيْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا تَقُولاَنِ. فَوَثَبَ الْبَازِي إِلَى وَجْهِهِ، فَفَقَأَ عَيْنَهُ بِمَخَالِبِهِ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: بِحَقٍّ أَصَابَكَ هٰذَا، إِنَّهُ لَجزَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعالَى لِشَهَادَتِكَ بِمَا لَمْ تَرَهُ عَيْنُكَ.

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ، أَيُّهَا الْقَاضِي، لِتَزْدَادَ عِلْماً بِوَخَامَةِ عَاقِبَةِ الشَّهَادَةِ بالكَذِبِ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.



فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِي ذٰلِكَ مِنْ لَفْظِ دِمْنَةَ، نَهَضَ فَرَفَعَهُ إِلَى الأَسَدِ عَلَى وَجْهِهِ[1] فَنَظَرَ فِيهِ الأَسَدُ، ثُمَّ دَعَا أُمَّهُ فَعَرَضَهُ عَلَيْهَا. فَقَالَتْ حِينَ تَدَبَّرَتْ[2] كَلاَمَ دِمْنَةَ لِلأَسَدِ: لَقَدْ صَارَ اهْتِمَامِي بِمَا أَتَخَوَّفُ مِنَ احْتِيَالِ دِمْنَةَ لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ حَتَّى يَقْتُلَكَ أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ، أَعْظَمَ مِنَ اهْتِمَامِي بِمَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ

(١) رفعه على وجهه: أي على حكمه بدون مبالاة.

(٢) تدبرت: تأملت.

إِلَيْك في الْغِشِّ وَالسِّعَايَةِ[1]، حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. فَوَقَعَ قَوْلُهَا فِي نَفْسِهِ. فَقال لها: أَخْبِرِينِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكِ عَنْ دِمْنَةَ بِمَا أَخْبَرَكِ، فَيَكُونَ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَة. فَقَالَتْ: إني لأَكْرَهُ أَنْ أُفْشِي سِرَّ مَنِ اسْتَكْتَمَنِيهِ؛ فَلاَ يَهْنِئُنِي سُرُورِي بِقَتْلِ دِمْنَةَ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَني اسْتَظْهَرْتُ[2] عَلَيْهِ بِرُكُوب[3] مَا نَهَتْ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ؛ وَلٰكِنِّي أُطَالِبُ الَّذِي اسْتَوْدَعَنِيهِ أَنْ يَجْعَلَنِي فِي حِلٍّ مِنْ ذِكْرِهِ لَكَ؛ وَيَقُومَ هُوَ بِعِلْمِهِ وَمَا سَمِعَ مِنْهُ.





ثُمَّ انْصَرَفَتْ، وَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّمِرِ، وَذَكَرَتْ لَهُ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ مُعَاوَنَتِهِ الأَسَدَ عَلَى الْحَقِّ، وَإِخْرَاجِ نَفْسِهِ مِنَ الشَّهَادَةِ الَّتِي لاَ يَكْتُمُهَا مِثْلُهُ، مَعَ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ الْمَظْلُومِينَ، وَتَثْبِيتِ حُجَّةِ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: مَنْ كَتَمَ حُجَّةَ مَيْتٍ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَلَمْ تَزَلْ بِهِ، حَتَّى قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الأَسَدِ، فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِ دِمْنَةَ.

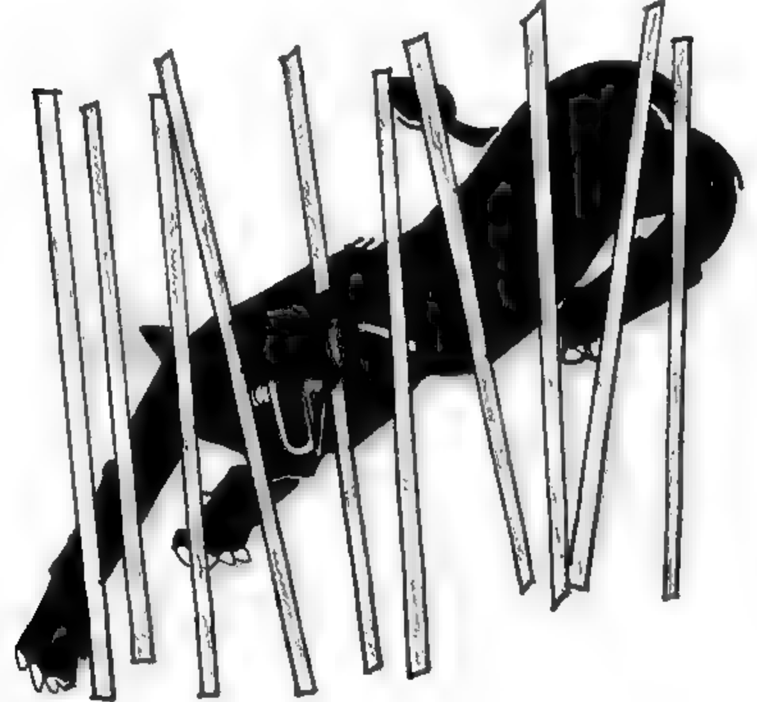
(١) السّعاية: النميمة والوشاية.
(٢) استظهرت: استعنت.
(٣) ركوب: ارتكاب.



فَلَمَّا شَهِدَ النَّمِرُ بِذٰلِكَ، أَرْسَلَ الْفَهْدُ الْمَحْبُوسُ الَّذِي سَمِعَ إِقْرَارَ دِمْنَةَ وَحَفِظَهُ إِلَى الأَسَدِ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي شَهَادَةً. فَأَخْرَجُوهُ. فَشَهِدَ عَلَى دِمْنَةَ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِهِ. فَقَالَ لَهُمَا الأَسَدُ: مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُومَا بِشَهَادَتِكُمَا، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَمْرَنَا وَاهْتِمَامَنَا بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةَ؟ فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ شَهَادَةَ الْوَاحِدِ لاَ تُوجِبُ حُكْماً فَكَرِهْنَا التَّعَرُّضَ لِغَيْرِ مَا يَمْضِي بِهِ الْحُكْمُ؛ حَتَّى إِذَا شَهِدَ أَحَدُنَا قَامَ الآخَرُ بِشَهَادَتِهِ، فَقَبِلَ الأَسَدُ قَوْلَهُمَا. وَأَمَرَ بِدِمْنَةَ أَنْ يُقْتَلَ فِي حَبْسِهِ: فَقُتِلَ أَشْنَعَ قِتْلَةٍ.

فَمَنْ نَظَرَ فِي هٰذَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضُرِّ غَيْرِهِ بِالْخِلاَبَةِ(١) وَالْمَكْرِ، فَإِنَّهُ سَيُجْزَى عَلَى خِلاَبَتِهِ وَمَكْرِهِ.





(١) الخلابة: أي الخديعة باللسان.



بـاب

الـحَمَامَـةِ الـمُطـوَّقَـةِ



قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ مَثَل الْمُتَحَابَّيْنِ كَيْف قَطَعَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ، وَإِلَى مَاذَا صَارَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ. فَحَدِّثْنِي، إِنْ رَأَيْتَ، عَنْ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ كَيْفَ يُبْتَدَأُ تَوَاصُلُهُمْ وَيَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنَّ الْعَاقِلَ لاَ يَعْدِلُ بِالإِخْوَانِ شَيْئاً. فَالإِخْوَانُ هُمُ الأَعْوَانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّه، وَالْمُؤَاسُونَ عِنْدَ مَا يَنُوبُ[1] مِنَ الْمَكْرُوهِ. وَمِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ وَالْجُرَذِ وَالظَّبْي وَالْغُرَابِ.

قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟



الحَمَامَةُ المُطَوَّقَةُ والجُرَذُ والظَّبْيُ والغُرَابُ(*)



قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ «سَكَاوَنْدَجِينَ»، عِنْدَ مَدِينَةِ «دَاهَرَ»، مَكَانٌ كَثِيرُ الصَّيْدِ، يَنْتَابُهُ الصَّيَّادُونَ؛ وَكَانَ فِي ذٰلِكَ الْمَكَانِ شَجَرَةٌ كَثِيرَةُ الأَغْصَانِ مُلْتَفَّةُ الْوَرَقِ، فِيهَا وَكْرُ غُرَابٍ. فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَاقِطٌ فِي وَكْرِهِ إِذْ بَصُرَ بِصَيَّادٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ، سَيِّءِ الْخُلُقِ. عَلَى عَاتِقِهِ شَبَكَةٌ، وَفِي يَدِهِ عَصاً،

(*) هدف القصة إيصال عدة نصائح، منها: التروي والتفكير لمعالجة المآزق الطارئة، وضرورة التكاتف والعمل الجماعي لما فيه من قوة، والانتفاع بمصاحبة الأخيار.

(١) ينوب: يصيب.



مُقْبِلاً نَحْوَ الشَّجَرَةِ. فَذُعِرَ مِنْهُ الْغُرَابُ؛ وَقَالَ: لَقَدْ سَاقَ هٰذَا الرَّجُلَ إِلَى هٰذَا الْمَكَانِ: إِمَّا حَيْنِي وَإِمَّا حَيْنُ غَيْرِي. فَلأَثْبُتَنَّ مَكَانِي حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ.



ثُمَّ إِنَّ الصَّيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ، وَنَثَرَ عَلَيْهَا الْحَبَّ، وَكَمَنَ قَرِيباً مِنْهَا؛ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ قَلِيلاً، حَتَّى مَرَّتْ بِهِ حَمَامَةٌ يُقَالُ لَهَا الْمُطَوَّقَةُ، **وَكَانَتْ سَيِّدَةَ الْحَمَامِ، وَمَعَهَا حَمَامٌ كَثِيرٌ؛ فَعَمِيَتْ هِيَ وَصَوَاحِبُهَا عَنِ الشَّرَكِ، فَوَقَعْنَ عَلَى الْحَبِّ يَلْتَقِطْنَهُ، فَعَلِقْنَ فِي الشَّبَكَةِ كُلُّهُنَّ؛ وَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ فَرِحاً مَسْرُوراً. فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمَامَةٍ تَضْطَرِبُ فِي حَبَائِلِهَا، وَتَلْتَمِسُ الْخَلاَصَ لِنَفْسِهَا.**





قالَتِ الْمُطَوَّقَةُ: لاَ تَخاذَلْنَ فِي الْمُعَالَجَةِ، وَلاَ تَكُنْ نَفْسُ إِحْداكُنَّ أَهَمَّ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِ صَاحِبَتِها؛ وَلٰكِنْ نَتَعَاوَنُ جَميعاً، فَنقْلَعُ الشَّبَكَةَ، فَيَنْجُو بَعْضُنا بِبَعْضٍ؛ فَقَلَعْنَ الشَّبَكَةَ جَمِيعُهُنَّ بِتَعاوُنِهِنَّ، وعَلَوْنَ فِي الْجَوِّ؛ وَلَمْ يَقْطَعِ الصَّيَّادُ رَجاءَهُ مِنْهُنَّ

وَظَنَّ أَنَّهُنَّ لاَ يُجاوِزْنَ إِلاَّ قَرِيباً وَيَقَعْنَ. فَقَالَ الْغُرَابُ: لأَتْبَعُهُنَّ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ مِنْهُنَّ. فَالْتَفَتَتِ الْمُطَوَّقَةُ فَرَأَتِ الصَّيَّادَ يَتْبَعُهُنَّ. فَقَالَتْ لِلْحَمَامِ: هٰذَا الصَّيَّادُ مُجِدٌّ فِي طَلَبِكُنَّ؛ فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا فِي الْفَضَاءِ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، وَلَمْ يَزَلْ يَتْبَعُنَا؛ وَإِنْ نَحْنُ تَوَجَّهْنَا إِلَى الْعُمْرَانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، وَانْصَرَفَ. وَبِمَكَانِ كَذَا جُرَذٌ هُوَ لِي أَخٌ؛ فَلَوِ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ قَطَّعَ عَنَّا هٰذَا الشَّرَكَ. فَفَعَلْنَ ذٰلِكَ. وَأَيِسَ الصَّيَّادُ مِنْهُنَّ وَانْصَرَفَ. وَتَبِعَهُنَّ الْغُرَابُ.





فَلَمَّا انْتَهَتِ الْحَمَامَةُ الْمُطَوَّقَةُ إِلَى الْجُرَذِ، أَمَرَتِ الْحَمَامَ أَنْ يَسْقُطْنَ، فَوَقَعْنَ؛ وَكَانَ لِلْجُرَذِ مِائَةُ جُحْرٍ لِلْمَخَاوِفِ؛ فَنَادَتْهُ الْمُطَوَّقَةُ بِاسْمِهِ، وَكَانَ اسْمُهُ «زِيرَكَ»، **فَأَجَابَهَا الْجُرَذُ مِنْ جُحْرِهِ: مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا خَلِيلَتُكَ الْمُطَوَّقَةُ. فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الْجُرَذُ يَسْعَى، فَقَالَ لَهَا: مَا أَوْقَعَكِ فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ؟** قَالَتْ لَهُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلاَّ وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَى مَنْ تُصِيبُهُ الْمَقَادِيرُ؟ وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْنِي فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ؛ فَقَدْ





لاَ يَمْتَنِعُ مِنَ الْقَدَرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْراً؛ وَقَد تَنْكَسِفُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِذَا قُضِيَ ذٰلِكَ عَلَيْهِمَا.

ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الْعَقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمُطَوَّقَةُ. فَقَالَتْ لَهُ الْمُطَوَّقَةُ: ٱبْدَأْ بِقَطْعِ عُقَدِ سَائِرِ الْحَمَامِ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ أَقْبِلْ عَلَى عَقْدِي؛ وَأَعَادَتْ ذٰلِكَ عَلَيْهِ مِرَاراً، وَهُوَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهَا؛ فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَكَرَّرَتْ، قَالَ لَهَا: لَقَدْ كَرَّرْتِ الْقَوْلَ عَلَيَّ كَأَنَّكِ لَيْسَ لَكِ فِي نَفْسِكِ حَاجَةٌ، وَلاَ لَكِ عَلَيْهَا شَفَقَةٌ، وَلاَ تَرْعَيْنَ لَهَا حَقًّا. قَالَتْ: إِنِي أَخَافُ إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِقَطْعِ عَقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتَكْسَلَ عَنْ قَطْعِ مَا بَقِيَ؛ وَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَّ قَبْلِي، وَكُنْتُ أَنَا الأَخِيرَةَ، لَمْ تَرْضَ، وَإِنْ أَدْرَكَكَ الْفُتُورُ، أَنْ أَبْقَى فِي الشَّرَكِ، قَالَ الْجُرَذُ: هٰذَا مِمَّا يَزِيدُ الرَّغْبَةَ وَالْمَوَدَّةَ فِيكِ. ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّبَكَةِ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَٱنْطَلَقَتِ الْمُطَوَّقَةُ وَحَمَامُهَا مَعَهَا.



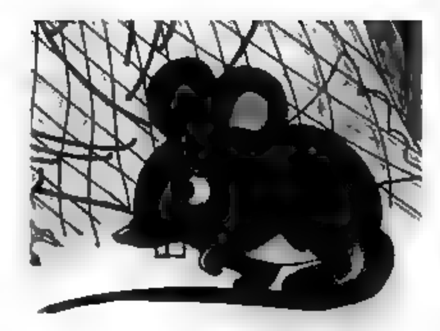
فَلَمَّا رَأى الْغُرَابُ صُنْعَ الْجُرَذِ، رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ؛ فَجَاءَ وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ، **فَأَخْرَجَ الْجُرَذُ رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟** قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ مُصَادَقَتَكَ. قَالَ الْجُرَذُ: لَيْس بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَوَاصُلٌ؛ وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَيَتْرُكَ الْتِمَاسَ مَا لَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ الآكِلُ، وَأَنَا طَعَامٌ لَكَ. قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّ أَكْلِي إِيَّاكَ، وَإِنْ كُنْتَ لِي طَعَاماً، مِمَّا لاَ يُغْنِي عَنِي شَيْئاً؛ وَإِنَّ مَوَدَّتَكَ آنَسُ[١] لِي مِمّا ذَكَرْتَ؛ وَلَسْتَ بِحَقِيقٍ، إِذَا جِئْتُ أَطْلُبُ مَوَدَّتَكَ، أَنْ تَرُدَّنِي خَائِباً. فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْكَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ مَا رَغَّبَنِي فِيكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمِسُ إِظْهَارَ ذٰلِكَ: فَإِنَّ الْعَاقِلَ لاَ يَخْفَى فَضْلُهُ، وَإِنْ هُوَ أَخْفَاهُ؛ كَالْمِسْكِ الَّذِي يُكْتَمُ ثُمَّ لاَ يَمْنَعُهُ ذٰلِكَ مِنَ النَّشْرِ[٢] الطَّيِّبِ وَالأَرَجِ الْفَائِحِ.



---

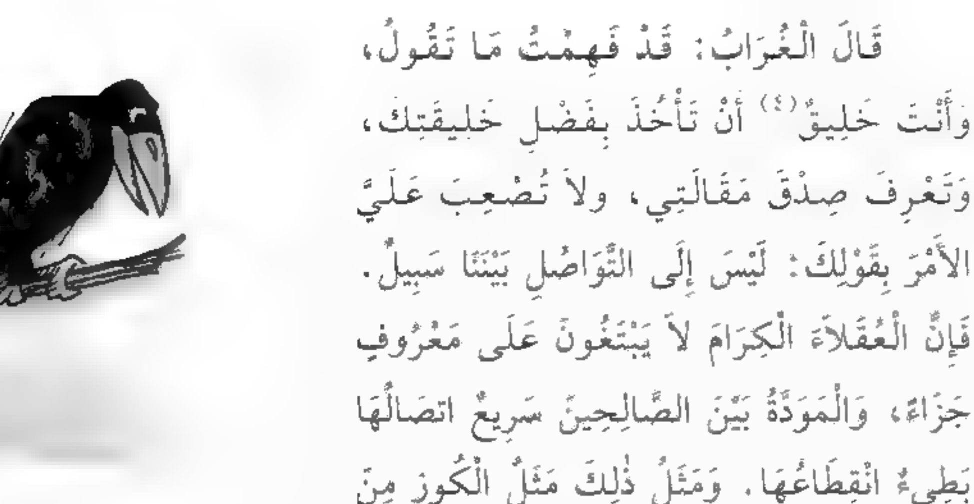
(١) آنس: أفعل تفضيل من أنس ضد استوحش.

(٢) النّشر: الرائحة.

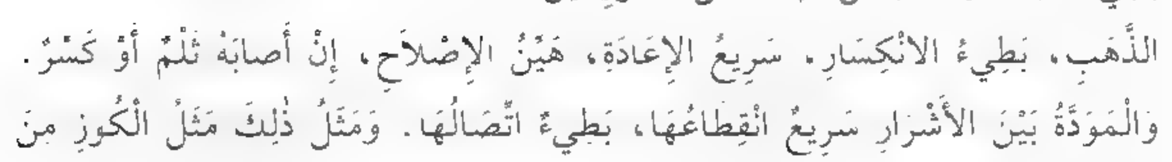


قَالَ الْجُرَذُ: إِنَّ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ عَدَاوَةُ الْجَوْهَرِ، وَهِيَ عَدَاوَتَانِ: مِنْهَا مَا هُوَ مُتَكَافِئٌ[1] كَعَدَاوَةِ الْفِيلِ وَالأَسَدِ. فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ الأَسَدُ الْفِيلَ أَوِ الْفِيلُ الأَسَدَ؛ وَمِنْهَا مَا قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى الآخَرِ كَعَدَاوَةِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السِّنَّوْرِ[2] وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ. فَإِنَّ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ؛ وَإِنَّمَا ضَرَرُهَا عَائِدٌ عَلَيَّ، فَإِنَّ الْمَاءَ لَوْ أُطِيلَ إِسْخَانُهُ لَمْ يَمْنَعْهُ ذٰلِكَ مِنْ إِطْفَائِهِ النَّارَ إِذَا صُبَّ عَلَيْهَا؛ وَإِنَّمَا مُصَاحِبُ الْعَدُوِّ وَمُصَالِحُهُ كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ يَحْمِلُهَا فِي كُمِّهِ، وَالْعَاقِلُ لاَ يَسْتَأْنِسُ إِلَى الْعَدُوِّ الأَرِيبِ[3].





قَالَ الْغُرَابُ: قَدْ فَهِمْتُ مَا تَقُولُ، وَأَنْتَ خَلِيقٌ[4] أَنْ تَأْخُذَ بِفَضْلِ خَلِيقَتِكَ، وَتَعْرِفَ صِدْقَ مَقَالَتِي، ولاَ تُصْعِبَ عَلَيَّ الأَمْرَ بِقَوْلِكَ: لَيْسَ إِلَى التَّوَاصُلِ بَيْنَنَا سَبِيلٌ. فَإِنَّ الْعُقَلاَءَ الْكِرَامَ لاَ يَبْتَغُونَ عَلَى مَعْرُوفٍ جَزَاءً، وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَرِيعٌ اتِصَالُهَا بَطِيءٌ انْقِطَاعُهَا. وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْكُوزِ مِنَ



الذَّهَبِ، بَطِيءُ الانْكِسَارِ، سَرِيعُ الإِعَادَةِ، هَيِّنُ الإِصْلاَحِ، إِنْ أَصَابَهُ ثَلْمٌ أَوْ كَسْرٌ. وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الأَشْرَارِ سَرِيعٌ انْقِطَاعُهَا، بَطِيءٌ اتِّصَالُهَا. وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْكُوزِ مِنَ

---

(١) متكافىء: متماثل.

(٢) السِّنَّور: القط.

(٣) الأريب: العاقل.

(٤) خليق: جدير.

الْفَخَّارِ، سَرِيعُ الانْكِسَارِ، يَنْكَسِرُ مِنْ أَدْنَى عَيْبٍ، وَلاَ وَصْلَ لَهُ أَبداً. وَالْكَرِيمُ يَوَدُّ الْكَرِيمَ، وَاللَّئِيمُ لاَ يَوَدُّ أَحداً إلاَّ عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ. وَأَنَا إِلَى وُدِّكَ وَمَعْرُوفِكَ مُحْتَاجٌ: لأَنَّكَ كَرِيمٌ؛ وَأَنَا مُلاَزِمٌ لِبَابِكَ، غَيْرَ ذَائِقٍ طَعَاماً، حَتَّى تُؤَاخِيَنِي.

قَالَ الْجُرَذُ: قَدْ قَبِلْتُ إِخَاءَكَ، فَإِنِّي لَمْ أَرْدُدْ أَحداً عَنْ حَاجَةٍ قَطُّ؛ وَإِنَّمَا بَدَأْتُكَ بِمَا بَدَأْتُكَ بِهِ إِرَادَةَ التَّوَثُّقِ[1] لِنَفْسِي؛ فَإِنْ أَنْتَ غَدَرْتَ بِي لَمْ تَقُلْ: إِنِّي وَجَدتُ الْجُرَذَ سَرِيعَ الانْخِدَاعِ. **ثُمَّ خَرَجَ مِنْ جُحْرِهِ، فَوَقَفَ عِنْدَ الْبَابِ.** فَقَالَ لَهُ الْغُرَابُ: مَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيَّ، وَالاسْتِئْنَاسِ بِي؟ فَهَلْ فِي نَفْسِكَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنِّي رِيبَةٌ؟ قَالَ الْجُرَذُ: إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ، وَيَتَوَاصَلُونَ عَلَيْهِمَا، وَهُمَا ذَاتُ النَّفْسِ، وَذَاتُ الْيَدِ. فَالْمُتَبَاذِلُونَ ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الأَصْفِيَاءُ[2]؛ وَأَمَّا الْمُتَبَاذِلُونَ ذَاتَ الْيَدِ فَهُمُ الْمُتَعَاوِنُونَ الَّذِينَ





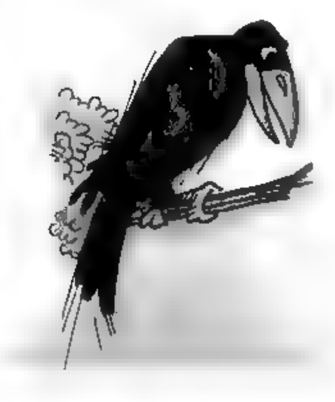


(١) التوثّق: التثبت والتحفظ.   (٢) الأصفياء: الأحباء الصادقون.



يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الانْتِفَاعَ بِبَعْضٍ.

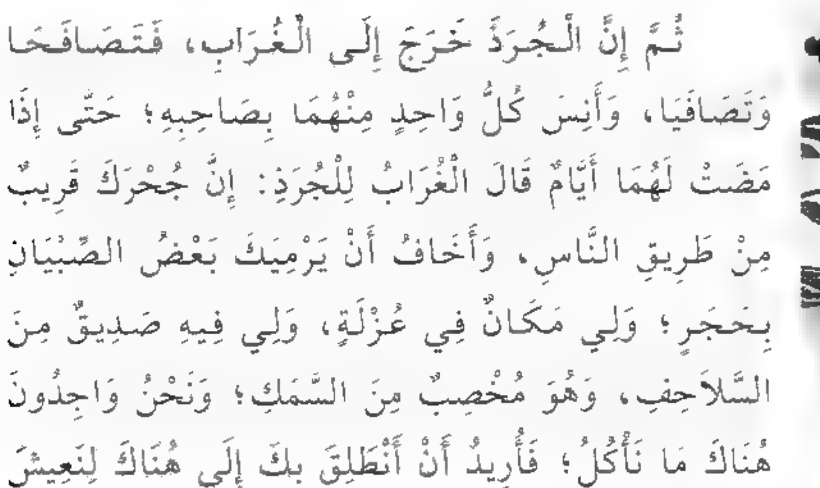
وَمَنْ كَانَ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ لِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا مَثَلُهُ فِيمَا يَبْذُلُ وَيُعْطِي كَمَثَلِ الصَّيَّادِ وَإِلْقَائِهِ الْحَبَّ لِلطَّيْرِ، لاَ يُرِيدُ بِذٰلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ. فَتَعَاطِي ذَاتِ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ تَعَاطِي ذَاتِ الْيَدِ. وَإِنِّي وَثِقْتُ مِنْكَ بِذَاتِ نَفْسِكَ، وَمَنَحْتُكَ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ ذٰلِكَ. وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ سُوءُ ظَنٍّ بِكَ؛ وَلٰكِنْ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحَاباً جَوْهَرُهُمْ كَجَوْهَرِكَ، وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فِيَّ كَرَأْيِكَ.





قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّ مِنْ عَلاَمَةِ الصَّدِيقِ أَنْ يَكُونَ لِصَدِيقِ صَدِيقِهِ صَدِيقاً، وَلِعَدُوِّ صَدِيقِهِ عَدُوًّا؛ وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبٍ وَلاَ صَدِيقٍ مَنْ لاَ يَكُونُ لَكَ مُحِبًّا؛ وَإِنَّهُ يَهُونُ عَلَيَّ قَطِيعَةُ مَنْ كَانَ كَذٰلِكَ مِنْ جَوْهَرِي.





ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ خَرَجَ إِلَى الْغُرَابِ، فَتَصَافَحَا وَتَصَافَيَا، وَأَنِسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ؛ حَتَّى إِذَا مَضَتْ لَهُمَا أَيَّامٌ قَالَ الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَخَافُ أَنْ يَرْمِيَكَ بَعْضُ الصِّبْيَانِ بِحَجَرٍ؛ وَلِي مَكَانٌ فِي عُزْلَةٍ، وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلاَحِفِ، وَهُوَ مُخْصِبٌ مِنَ السَّمَكِ؛ وَنَحْنُ وَاجِدُونَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ؛ فَأُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيشَ آمِنَيْنِ.



قَالَ الجُرَذُ: إِنَّ لِي أَخْبَاراً وَقِصَصاً سَأَقُصُّهَا عَلَيْكَ إِذَا انْتَهَيْنَا حَيْثُ تُرِيدُ، فَافْعَلْ مَا تَشَاءُ.

فَأَخَذَ الْغُرَابُ بِذَنَبِ الْجُرَذِ، وَطَارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ بِهِ حَيْثُ أَرَادَ. فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَيْنِ الَّتِي فِيهَا السُّلَحْفَاةُ، بَصُرَتِ السُّلَحْفَاةُ بِغُرَابٍ وَمَعَهُ جُرَذٌ، فَذُعِرَتْ مِنْهُ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا؛ فَنَادَاهَا، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ، وَسَأَلَتْهُ مِنْ أَينَ أَقْبَلْتَ؟ فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ حِينَ تَبِعَ الْحَمَامَ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْجُرَذِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا. فَلَمَّا سَمِعَتِ السُّلَحْفَاةُ شَأْنَ الْجُرَذِ، عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ وَوَفَائِهِ، وَرَحَّبَتْ بِهِ، وَقَالَتْ لَهُ: مَا سَاقَكَ إِلَى هٰذِهِ الأَرْضِ؟ قَالَ الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: اقْصُصْ عَلَيَّ الأَخْبَارَ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّكَ تُحَدِّثُنِي بِهَا، فَأَخْبِرْنِي بِهَا مَعَ جَوَابِ مَا سَأَلَتِ السُّلَحْفَاةُ: فَإِنَّهَا عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي، فَبَدَأَ الْجُرَذُ وَقَالَ:



الجُرَذُ والنّاسكُ(*)

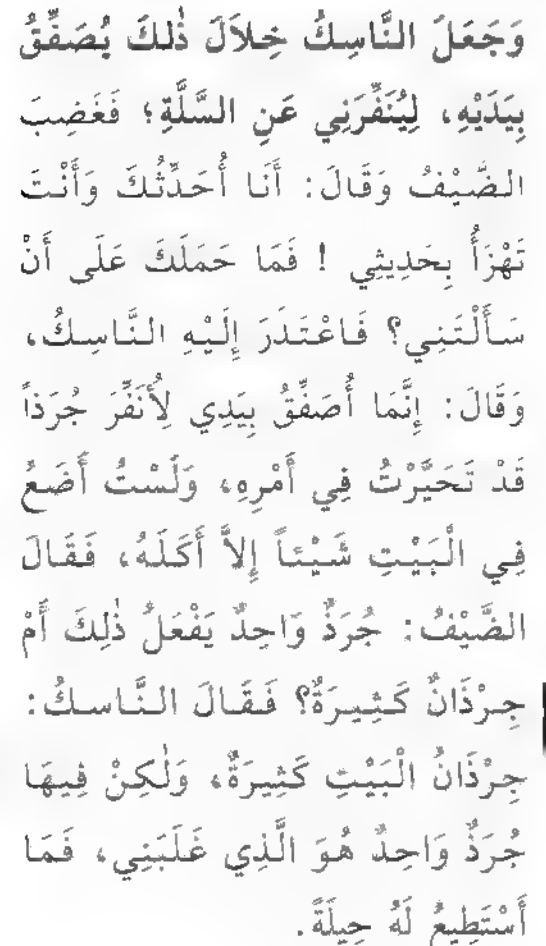
كَانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِي بِمَدِينَةِ مَارُوتَ فِي بَيْتِ رَجُلٍ ناسِكٍ؛ وَكَانَ خَالِياً مِنَ الأَهْلِ وَالْعِيَالِ؛ وَكَانَ يُؤْتَى فِي كُلِّ يَوْمٍ بِسَلَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا حَاجَتَهُ وَيُعَلِّقُ الْبَاقِيَ؛ وَكُنْتُ أَرْصُدُ النَّاسِكَ حَتَّى يَخْرُجَ وَأَثِبُ إِلَى السَّلَّةِ، فَلاَ أَدَعُ فِيهَا طَعَاماً إِلاَّ أَكَلْتُهُ، وَأَرْمِي بِهِ إِلَى الْجِرْذَانِ. فَجَهِدَ النَّاسِكُ مِرَاراً أَنْ يُعَلِّقَ السَّلَّةَ مَكَاناً لاَ أَنَالُهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذٰلِكَ؛ حَتَّى نَزَلَ بِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ضَيْفٌ، فَأَكَلاَ جَمِيعاً؛ ثُمَّ أَخَذَا فِي الْحَدِيثِ، فَقَالَ النَّاسِكُ لِلضَّيْفِ: مِنْ أَيِّ أَرْضٍ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ تُرِيدُ الآنَ؟





وَكَانَ الرَّجُلُ قَدْ جَابَ الآفَاقَ، وَرَأَى عَجَائِبَ؛ فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ النَّاسكَ عَمَّا وَطِىءَ مِنَ الْبِلاَدِ، وَرَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ؛

(*) تسدي مجموعة القصص المتتالية مجموعة من الفوائد والنصائح للقارىء، ومنها: عدم الندم على فعل الخير، والقناعة اكتفاء بما هو موجود وممكن، وتجنب الجشع والشره لما يجليه من البلاء على صاحبه، وتفضيل القليل الجيد على الكثير السيىء، ومساوىء الفقر والحاجة وسؤال الناس، والتعاون مع الأصدقاء الأوفياء والاستماع لنصائحهم.

وَجَعَلَ النَّاسِكُ خِلاَلَ ذٰلكَ يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ، لِيُنَفِّرَنِي عَنِ السَّلَّةِ؛ فَغَضِبَ الضَّيْفُ وَقَالَ: أَنَا أُحَدِّثُكَ وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيثِي ! فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَأَلْتَنِي؟ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ، وَقَالَ: إِنَّمَا أُصَفِّقُ بِيَدِي لِأُنَفِّرَ جُرَذاً قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ، وَلَسْتُ أَضَعُ فِي الْبَيْتِ شَيْئاً إِلاَّ أَكَلَهُ، فَقَالَ الضَّيْفُ: جُرَذٌ وَاحِدٌ يَفْعَلُ ذٰلِكَ أَمْ جِرْذَانٌ كَثِيرَةٌ؟ فَقَالَ النَّاسِكُ: جِرْذَانُ الْبَيْتِ كَثِيرَةٌ، وَلٰكِنْ فِيهَا جُرَذٌ وَاحِدٌ هُوَ الَّذِي غَلَبَنِي، فَمَا أَسْتَطِيعُ لَهُ حِيلَةً.



قَالَ الضَّيْفُ: لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قَوْلَ الَّذِي قَالَ: لِأَمْرٍ مَا بَاعَتْ هٰذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْسِماً مَقْشُوراً بِغَيْرِ مَقْشُورٍ!

قَالَ النَّاسِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟.

بائعة السمسم المقشور

قَالَ الضَّيْفُ: نَزَلْتُ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ بِمَكَانِ كَذَا، فَتَعَشَّيْنَا، ثُمَّ فَرَشَ لِي. وَانْقَلَبَ الرَّجُلُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ لِامْرَأَتِهِ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ



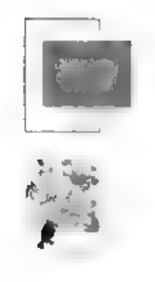
أَدْعُوَ غَداً رَهْطاً لِيَأْكُلُوا عِنْدَنَا، فَاصْنَعِي لَهُمْ طَعَاماً.

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: كَيْفَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِكَ، وَلَيْسَ فِي بَيْتِكَ فَضْلٌ عَنْ عِيَالِكَ؟ وَأَنْتَ رَجُلٌ لاَ تُبْقِي شَيْئاً وَلاَ تَدَّخِرُهُ. قَالَ الرَّجُلُ: لاَ تَنْدَمِي عَلَى شَيْءٍ أَطْعَمْنَاهُ وَأَنْفَقْنَاهُ: فَإِنَّ الْجَمْعَ وَالادِّخَارَ رُبَّمَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَعَاقِبَةِ الذِّئْبِ.

قَالَتْ الْمَرْأَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

عاقبة الذئب

قَالَ الرَّجُلُ: زَعَمُوا أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ قَانِصٌ، وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَنُشَّابُهُ فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ، حَتَّى رَمَى ظَبْياً، فَحَمَلَهُ وَرَجَعَ طَالِباً مَنْزِلَهُ؛ فَاعْتَرَضَهُ خِنْزِيرٌ





بَرِّيٌّ فَرَمَاهُ بِنُشَّابَةٍ نَفَذَتْ فِيهِ؛ فَأَدْرَكَهُ الْخِنْزِيرُ وَضَرَبَهُ بِأَنْيَابِهِ ضَرْبَةً أَطَارَتْ مِنْ يَدِهِ الْقَوْسَ، وَوَقَعَا مَيِّتَيْنِ؛ فَأَتَى عَلَيْهِمْ ذِئْبٌ فَقَالَ: هٰذَا الرَّجُلُ وَالظَّبْيُ وَالْخِنْزِيرُ يَكْفِينِي أَكْلُهُمْ مُدَّةً؛ وَلٰكِنْ أَبْدَأُ بِهٰذَا الْوَتَرِ فَآكُلُهُ، فَيَكُونُ قُوتَ يَوْمِي؛ فَعَالَجَ الْوَتَرَ حَتَّى قَطَعَهُ؛ فَلَمَّا انْقَطَعَ طَارَتْ سِيَةُ[1] الْقَوْسِ، فَضَرَبَتْ حَلْقَهُ فَمَاتَ.



وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكِ هٰذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمِي أَنَّ الْجَمْعَ وَالادِّخَارَ وَخِيمُ الْعَاقِبَةِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: نِعْمَ مَا قُلْتَ ! وَعِنْدَنَا مِنَ الأَرُزِّ وَالسِّمْسِمِ مَا يَكْفِي سِتَّةَ نَفَرٍ أَوْ سَبْعَةً. فَأَنَا غَادِيَةٌ عَلَى اصْطِنَاعِ الطَّعَامِ؛ فَادْعُ مَنْ أَحْبَبْتَ. وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ حِينَ

(١) سية: طرف.

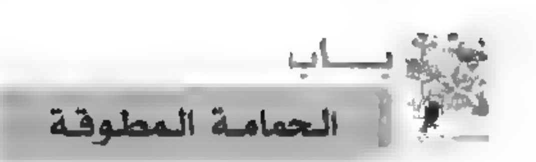


أَصْبَحَتْ سِمْسِماً فَقَشَرَتْهُ، وَبَسَطَتْهُ فِي الشَّمْسِ لِيَجِفَّ؛ وَقَالَتْ لِغُلَامٍ لَهُمْ: اُطْرُدْ عَنْهُ الطَّيْرَ وَالْكِلَابَ؛ وَتَفَرَّغَتِ الْمَرْأَةُ لِصُنْعِهَا؛ وَتَغَافَلَ الْغُلَامُ عَنِ السِّمْسِمِ؛ فَجَاءَ كَلْبٌ، فَعَاثَ فِيهِ؛ فَاسْتَقْذَرَتْهُ الْمَرْأَةُ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْهُ طَعَاماً مَا؛ فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى السُّوقِ، فَأَخَذَتْ بِهِ مُقَايَضَةً سِمْسِماً غَيْرَ مَقْشُورٍ: مِثْلاً بِمِثْلٍ، وَأَنَا وَاقِفٌ فِي السُّوقِ؛ فَقَالَ رَجُلٌ: **لِأَمْرٍ مَا بَاعَتْ هٰذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْسِماً مَقْشُوراً بِغَيْرِ مَقْشُورٍ.**



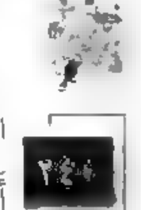


وَكَذٰلِكَ قَوْلِي فِي هٰذَا الْجُرَذِ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ عِلَّةٍ مَا يَقْدِرُ عَلَى مَا شَكَوْتَ مِنْهُ. فَالْتَمِسْ لِي فَأْساً لَعَلِّي أَحْتَفِرُ جُحْرَهُ فَأَطَّلِعَ عَلَى بَعْضِ شَأْنِهِ ! فَاسْتَعَارَ النَّاسِكُ مِنْ بَعْضِ جِيرَانِهِ فَأْساً، فَأَتَى بِهَا الضَّيْفُ؛ وَأَنَا حِينَئِذٍ فِي جُحْرٍ غَيْرِ جُحْرِي أَسْمَعُ كَلَامَهُمَا، وَفِي جُحْرِي كِيسٌ فِيهِ مِائَةُ دِينَارٍ، لا أَدْرِي مَنْ وَضَعَهَا، فَاحْتَفَرَ الضَّيْفُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا وَقَالَ لِلنَّاسِكِ: مَا كَانَ هٰذَا الْجُرَذُ يَقْوَى عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثِبُ إِلاَّ بِهٰذِهِ الدَّنَانِيرِ: فَإِنَّ الْمَالَ جَعَلَ لَهُ قُوَّةً وَزِيَادَةً فِي

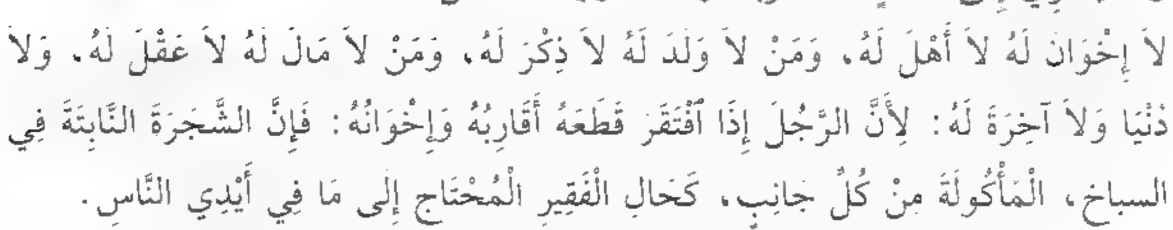


الرَّأْيِ وَالتَّمَكُّنِ. وَسَتَرَى بَعْدَ هٰذَا أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثِبُ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعَ الْجِرْذَانُ الَّتِي كَانَتْ مَعِي فَقَالَتْ: قَدْ أَصَابَنَا الْجُوعُ، وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا. فَانْطَلَقْتُ وَمَعِيَ الْجِرْذَانُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَثِبُ مِنْهُ إِلَى السَّلَّةِ. فَحَاوَلْتُ ذٰلِكَ مِرَاراً: فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ. فَاسْتَبَانَ لِلْجِرْذَانِ نَقْصُ حَالِي؛ فَسَمِعْتُهُنَّ يَقُلْنَ: انْصَرِفْنَ عَنْهُ، وَلاَ تَطْمَعْنَ فِيمَا عِنْدَهُ: فَإِنَّا نَرَى لَهُ حَالاً لاَ نَحْسَبُهُ إِلاَّ قَدِ احْتَاجَ مَعَهَا إِلَى مَنْ يَعُولُهُ. فَتَرَكْنَنِي، وَلَحِقْنَ بِأَعْدَائِي وَجَفَوْنَنِي، وَأَخَذْنَ فِي غِيبَتِي[1] عِنْدَ مَنْ يُعَادِينِي وَيَحْسُدُنِي.



فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا الإِخْوَانُ وَلاَ الأَعْوَانُ وَلاَ الأَصْدِقَاءُ إِلاَّ بِالْمَالِ. وَوَجَدْتُ مَنْ لاَ مَالَ لَهُ، إِذَا أَرَادَ أَمْراً، قَعَدَ بِهِ الْعُدْمُ[2] عَمَّا يُرِيدُهُ: كَالْمَاءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشِّتَاءِ: لاَ يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ وَلاَ يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ، فَتَشْرَبُهُ أَرْضُهُ. وَوَجَدْتُ مَنْ لاَ إِخْوَانَ لَهُ لاَ أَهْلَ لَهُ، وَمَنْ لاَ وَلَدَ لَهُ لاَ ذِكْرَ لَهُ، وَمَنْ لاَ مَالَ لَهُ لاَ عَقْلَ لَهُ، وَلاَ دُنْيَا وَلاَ آخِرَةَ لَهُ: لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ قَطَعَهُ أَقَارِبُهُ وَإِخْوَانُهُ: فَإِنَّ الشَّجَرَةَ النَّابِتَةَ فِي السباخِ، الْمَأْكُولَةَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، كَحَالِ الْفَقِيرِ الْمُحْتَاجِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ.



وَوَجَدْتُ الْفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلاءٍ، وَجَالِباً إِلَى صَاحِبِهِ كُلَّ مَقْتٍ، وَمَعْدِنَ النَّمِيمَةِ. وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ اتَّهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتَمِناً، وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ فِيهِ حَسَناً: فَإِنْ أَذْنَبَ غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلتُّهَمَةِ مَوْضِعاً. وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ هِيَ لِلْغَنِيِّ مَدْحٌ إِلاَّ وَهِيَ لِلْفَقِيرِ ذَمٌّ، فَإِنْ كَانَ شُجَاعاً قِيلَ: أَهْوَجُ؛ وَإِنْ كَانَ جَوَاداً

(١) أخذن في غيبتي: ذمّني في غيابي.



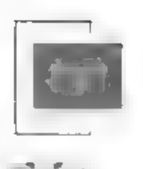
(٢) العدم: الفقر.

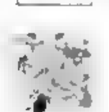


سُمِّيَ مُبَذِّراً؛ وَإِنْ كَانَ حَلِيماً سُمِّيَ ضَعِيفاً؛ وَإِنْ كَانَ وَقُوراً سُمِّيَ بَلِيداً. فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي تُحْوِجُ(١) صَاحِبَهَا إِلَى الْمَسْأَلَةِ، وَلا سِيَّمَا مَسْأَلَةُ الأَشِحَّاءِ(٢) وَاللِّئَامِ. فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ كُلِّفَ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي فَمِ الأَفْعَى، فَيُخْرِجَ مِنْهُ سَمّاً فَيَبْتَلِعَهُ، كَانَ ذٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ الْبَخِيلِ اللَّئِيمِ.

وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّيْفَ حِينَ أَخَذَ الدَّنَانِيرَ فَقَاسَمَهَا النَّاسِك، فَجَعَلَ النَّاسِكُ نَصِيبَهُ فِي خَرِيطَةٍ(٣) عِنْدَ رَأْسِهِ لَمَّا جَنَّ(٤) اللَّيْلُ. فَطَمِعْتُ أَنْ أُصِيبَ مِنْهَا شَيْئاً فَأَرُدَّهُ إِلَى جُحْرِي، وَرَجَوْتُ أَنْ يَزِيدَ ذٰلِكَ فِي قُوَّتِي، وَيُرَاجِعَنِي بِسَبَبِهِ بَعْضُ أَصْدِقَائِي. فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّاسِكِ وَهُوَ نَائِمٌ، حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ،







وَوَجَدْتُ الضَّيْفَ يَقْظَانَ، وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ، فَضَرَبَنِي على رَأْسِي ضَرْبَةً مُوجِعَةً، فَسَعَيْتُ إِلَى جُحْرِي. فَلَمَّا سَكَنَ عَنِي الأَلَمُ، هَيَّجَنِي الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ، فَخَرَجْتُ طَمَعاً كَطَمَعِيَ الأَوَّلِ. وَإِذَا الضَّيْفُ يَرْصُدُنِي، فَضَرَبَنِي ضَرْبَةً أَسَالَتْ مِنِّي الدَّمَ؛ فَتَقَلَّبْتُ ظَهْراً لِبَطْنٍ إِلَى جُحْرِي، فَخَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيّ، فَأَصَابَنِي مِنَ الْوَجَعِ مَا بَغَّضَ إِلَيَّ الْمَالَ، حَتَّى لاَ أَسْمَعُ بِذِكْرِهِ إِلاَّ تَدَاخَلَنِي مِنْ ذِكْرِ الْمَالِ رِعْدَةٌ وَهَيْبَةٌ.

---

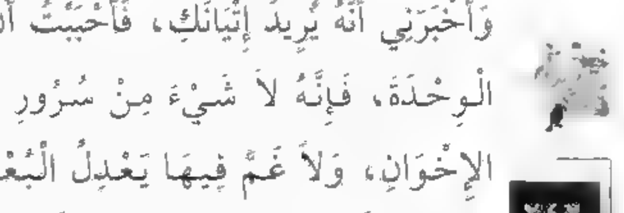
(١) تحوج إلى المسألة: الطلب على سبيل التكرم.

(٢) الأشحاء: البخلاء.

(٣) خريطة: وعاء من جلد أو غيره.

(٤) جنَّ: أظلم.

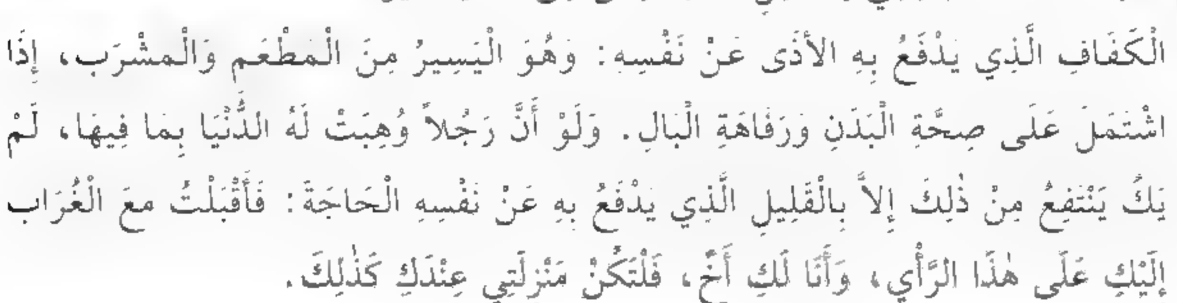
ثُمَّ تذَكَّرْتُ فَوَجَدْتُ الْبَلاَءَ فِي الدُّنْيا إِنَّمَا يَسُوقُهُ الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ. وَلاَ يَزَالُ صَاحِبُ الدُّنْيَا فِي بَلِيَّةٍ وَتَعَبٍ ونَصَبٍ، وَوَجَدْتُ تَجَشُّمَ الأَسْفَارِ الْبَعِيدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ بَسْطِ الْيَدِ إِلَى السَّخِيِّ بِالْمَالِ، وَلَمْ أَرَ كَالرِّضَا شَيْئاً، فَصَارَ أَمْرِي إِلَى أَنْ رَضِيتُ وَقَنِعْتُ، وَانْتَقَلْتُ مِنْ بَيْت النَّاسِكِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ؛ وَكَانَ لِي صَدِيقٌ مِنَ الْحَمَامِ، فَسِيقَتْ إِلَيّ بِصَدَاقَتِهِ صَدَاقَةٌ.



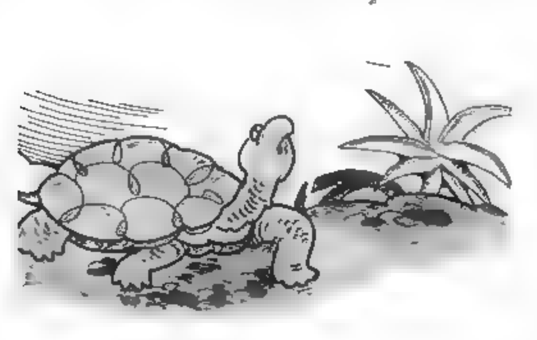
ثُمَّ ذَكَرَ لِي الْغُرابُ مَا بَيْنَك وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِتْيَانَكِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ آتِيَكِ مَعَهُ، فَكَرِهْتُ الْوِحْدَةَ، فَإِنَّهُ لاَ شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيا يَعْدِلُ صُحْبَةَ الإِخْوَانِ، وَلاَ غَمَّ فِيهَا يَعْدِلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ. وَجَرَّبْتُ: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الأذى عَنْ نَفْسِهِ: وَهُوَ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، إِذَا اشْتَمَلَ عَلَى صِحَّةِ الْبَدَنِ وَرَفَاهَةِ الْبَالِ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً وُهِبَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا، لَمْ يَكُ يَنْتَفِعُ مِنْ ذلِكَ إِلاَّ بِالْقَلِيلِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْحَاجَةَ: فَأَقْبَلْتُ مَعَ الْغُرَاب إِلَيْكِ عَلَى هٰذَا الرَّأْيِ، وَأَنَا لَكِ أَخٌ، فَلْتَكُنْ مَنْزِلَتِي عِنْدَكِ كَذٰلِكَ.

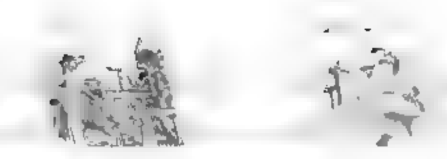


٢٤٢



فَلَمَّا فَرَغَ الْجُرَذُ مِنْ كَلاَمِهِ أَجَابَتْهُ السُّلَحْفَاةُ بِكَلاَمٍ رَقِيقٍ عذْبٍ، وَقَالَتْ: قَدْ سَمِعْتُ كَلاَمَكَ، وَمَا أَحْسَنَ مَا تَحَدَّثْتَ بِهِ! إِلاَّ أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذْكُرُ بَقَايَا أُمُورٍ هِيَ فِي نَفْسِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ الْكَلاَمِ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِحُسْنِ الْعَمَلِ، وَأَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي قَدْ عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوَ بِهِ، لَمْ يُغْنِ عِلْمُهُ





بِهِ شَيْئاً، وَلَمْ يَجِدْ لِدائِهِ راحَةً وَلاَ خِفَّةً. فَاسْتَعْمِلْ رَأْيك، وَلاَ تَحْزَنْ لِقِلَّةِ الْمَالِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْمُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ: كالأَسدِ الَّذِي يُهابُ، وَإِنْ كَانَ رابِضاً؛ وَالْغَنِيَّ الَّذي لاَ مُرُوءَةَ لَهُ يُهانُ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ: كَالْكَلْبِ لاَ يُحْفَلُ بِه، وَإِنْ طُوِّقَ وَخُلْخِلَ[1] بِالذَّهَبِ. فَلاَ تَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ. فَإِنَّ الْعَاقِلَ لاَ غُرْبَةَ لَهُ، كَالأَسَدِ الَّذِي لاَ يَنْقَلِبُ إِلاَّ وَمَعَهُ قُوَّتُهُ. فَلْتُحْسِنْ تعاهُدَكَ[2] لِنَفْسِكَ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ جَاءَكَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءُ انْحِدارَهُ. وَإِنَّمَا جُعِلَ الْفَضْلُ لِلْحَازِمِ الْبَصِيرِ بِالأُمُورِ؛ وَأَمَّا الْكَسْلانُ الْمُتَرَدِّدُ فَإِنَّ الْفَضْلَ لاَ يَصْحَبُهُ.

وَقَدْ قِيلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْس لَهَا ثَبَاتٌ وَلاَ بَقَاءٌ: ظِلُّ الْغِمَامَةِ[3] فِي الصَّيْفِ، وَخُلَّةُ الأَشْرَارِ، وَالْبِنَاءُ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ، وَالْمَالُ الْكَثِيرُ: فَالْعَاقِلُ لاَ يَحْزَنُ لِقِلَّتِهِ، وَإِنَّمَا مَالُ الْعَاقِلِ عَقْلُهُ، وَمَا قَدَّمَ مِن صَالِحِ عَمَلِهِ؛ فَهُوَ وَاثِقٌ بِأَنَّهُ لاَ يُسْلَبُ مَا عَمِلَ، وَلاَ يُؤَاخَذُ بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ؛ وَهُوَ خَلِيقٌ أَلاَّ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ: فَإِنَّ الْمَوْتَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بَغْتَةً، لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ. وَأَنْتَ عَنْ مَوْعِظَتِي غَنِيٌّ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ. وَلٰكِنْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْضِيَ مَا لَكَ مِنْ حَقٍّ قِبَلَنَا: لأَنَّكَ أَخُونَا، وَمَا عِنْدَنَا مِنَ النُّصْحِ مَبْذُولٌ لَكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْغُرَابُ كَلاَمَ السُّلَحْفَاةِ لِلْجُرَذِ، وَرَدَّهَا عَلَيْهِ، وَمُلاَطَفَتَهَا إِيَّاهُ فَرِحَ بِذٰلِكَ؛ وَقَالَ: لَقَدْ سَرَرْتِنِي، وَأَنْعَمْتِ عَلَيَّ، وَأَنْتِ جَدِيرَةٌ أَنْ تَسُرِّي نَفْسَكِ بِمِثْلِ مَا سَرَرْتِنِي بِهِ. وَإِنَّ أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيَا

(١) خُلخِل: وضع له خلخال في رجله.
(٢) تعاهدك: تفقدك.
(٣) الغمامة: السحابة.

بِشِدَّةِ السُّرُورِ مَنْ لاَ يَزَالُ رَبْعُهُ[1] مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ مِنَ الصَّالِحِين مَعْمُوراً، وَلاَ يَزَالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ يَسُرُّهُمْ وَيَسُرُّونَهُ، وَيَكُونُ مِن وَرَاءِ أُمُورِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ بِالْمِرْصَادِ: فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَثَرَ لاَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلاَّ الْكِرَامُ: كَالْفِيلِ إِذَا وَحَلَ لاَ تُخْرِجُهُ إِلاَّ الْفِيَلَةُ.

فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ فِي كَلاَمِهِ، إِذْ أَقْبَلَ نَحْوَهُمْ ظَبْيٌ يَسْعَى، فَذُعِرَتْ مِنْهُ السُّلَحْفَاةُ، فَغَاصَتْ فِي الْمَاءِ، وَخَرَجَ الْجُرَذُ إِلَى جُحْرِهِ، وَطَارَ الْغُرَابُ، فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ. ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ حَلَّقَ فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظَّبْيِ طَالِبٌ؟ فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ





(١) ربعه: أقاربه ومناصروه.

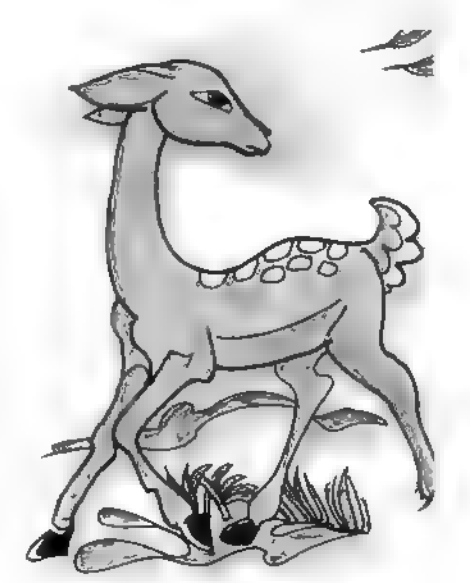


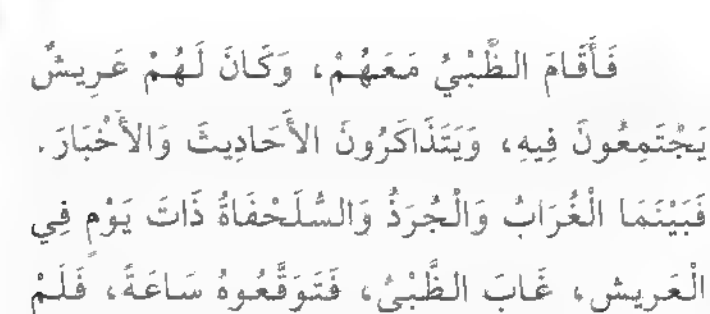




شَيْئاً؛ فَنَادَى الْجُرَذَ وَالسُّلَحْفَاةَ، وَخَرَجَا؛ فَقَالَتِ السُّلَحْفَاةُ لِلظَّبْيِ، حِينَ رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ: اَشْرَبْ إِنْ كَانَ بِكَ عَطَشٌ، وَلاَ تَخَفْ: فَإِنَّهُ لاَ خَوْفَ عَلَيْكَ. فَدَنَا الظَّبْيُ، فَرَحَّبَتْ بِهِ السُّلَحْفَاةُ وَحَيَّتْهُ، وَقَالَتْ لَهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْنَحُ[1] بِهٰذِهِ الصَّحَارَى. فَلَمْ تَزَلِ الأَسَاوِرَةُ[2] تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَبَحاً، فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصاً. قَالَتْ: لاَ تَخَفْ، فَإِنَّا لَمْ نَر هَاهُنَا قَانِصاً قَطُّ؛ وَنَحْنُ نَبْذُلُ لَكَ وُدَّنَا وَمَكَانَنَا، وَالْمَاءُ وَالْمَرْعَى كَثِيرَانِ عِنْدَنَا: فَارْغَبْ فِي صُحْبَتِنَا.







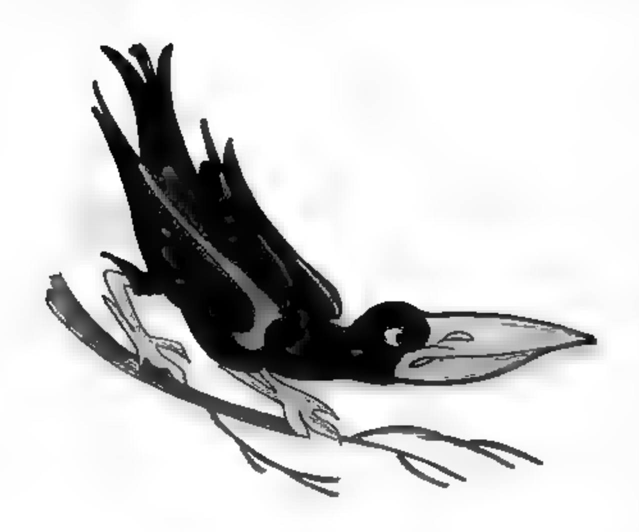
فَأَقَامَ الظَّبْيُ مَعَهُمْ، وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَيَتَذَاكَرُونَ الأَحَادِيثَ وَالأَخْبَارَ. فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ وَالْجُرَذُ وَالسُّلَحْفَاةُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ، غَابَ الظَّبْيُ، فَتَوَقَّعُوهُ سَاعَةً، فَلَمْ يَأْتِ. فَلَمَّا أَبْطَأَ أَشْفَقُوا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَنَتٌ[3]، فَقَالَ الْجُرَذُ وَالسُّلَحْفَاةُ لِلْغُرَابِ: اُنْظُرْ

---

(١) أَسْنَحُ: أتجول.

(٢) الأساورة: جمع إسوار وهو الجيد الرمي بالسهام.

(٣) عنت: وقوع في أمر شاق.



هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينَا شَيْئاً؟ فَحَلَّقَ **الْغُرَابُ فِي السَّماءِ** فَنَظَرَ: فَإِذَا الظَّبْيُ فِي الْحَبَائِلِ مُقْتَنَصاً[1]، فَانْقَضَّ مُسْرِعاً، فَأَخْبَرَهُمَا بِذٰلِكَ، فَقَالَتِ السُّلَحْفَاةُ وَالْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: هٰذَا أَمْرٌ لاَ يُرْجَى فِيهِ غَيْرُكَ، فَأَغِثْ أَخَاكَ. فَسَعَى الْجُرَذُ مُسْرِعاً، فَأَتَى الظَّبْيَ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ وَأَنْتَ مِنَ الأَكْيَاسِ؟



قَالَ الظَّبْيُ: هَلْ يُغْنِي الْكَيْسُ مَعَ الْمَقَادِيرِ شَيْئاً؟





فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الْحَدِيثِ إِذْ وَافَتْهُمَا السُّلَحْفَاةُ، فَقَالَ لَهَا الظَّبْيُ: مَا أَصَبْتِ بِمَجِيئِكِ إِلَيْنَا، فَإِنَّ الْقَانِصَ لَوِ انْتَهَى إِلَيْنَا وَقَدْ قَطَعَ الْجُرَذُ الْحَبَائِلَ اسْتَبَقْتُهُ عَدْواً، وَلِلْجُرَذِ أَجْحَارٌ كَثِيرَةٌ، وَالْغُرَابُ يَطِيرُ، وَأَنْتِ ثَقِيلَةٌ لاَ سَعْيَ لَكِ وَلاَ حَرَكَةَ، وَأَخَافُ عَلَيْكِ الْقَانِصَ. قَالَتْ: لاَ عَيْشَ مَعَ فِرَاقِ الأَحِبَّةِ، وَإِذَا فَارَقَ الأَلِيفُ أَلِيفَهُ فَقَدْ سُلِبَ فُؤَادَهُ،

---

(١) مقتنصاً: مصطاداً.



وَحُرِمَ سُرُورَهُ، وغُشِيَ بَصَرُهُ. فَلَمْ يَنْتَهِ كَلاَمُهَا حَتَّى وَافَى الْقَانِصُ؛ وَوَافَقَ ذٰلِكَ فَرَاغَ الْجُرَذِ مِنْ قَطْعِ الشَّرَكِ؛ فَنَجَا الظَّبْيُ بِنَفْسِهِ، وَطَارَ الْغُرَابُ مُحَلِّقاً، وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الأَجْحَارِ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السُّلَحْفَاةِ؛ وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ مُقَطَّعَةً، فَنَظَرَ يَميناً وَشِمَالاً فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ السُّلَحْفَاةِ تَدِبُّ، فَأَخَذَهَا وَرَبَطَهَا.



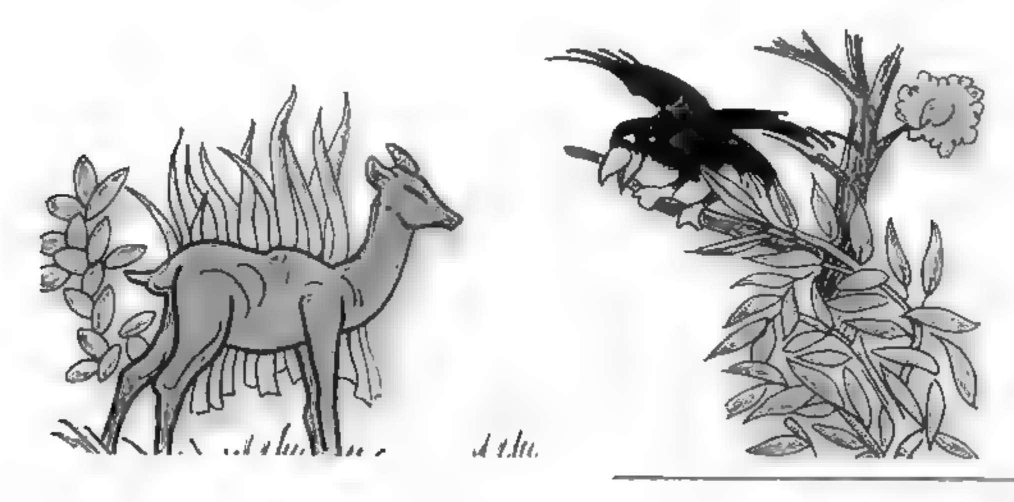
فَلَمْ يَلْبَثِ الْغُرَابُ وَالْجُرَذُ وَالظَّبْيُ أَنِ اجْتَمَعُوا فَنَظَرُوا الْقَانِصَ قَدْ رَبَطَ السُّلَحْفَاةَ، فَاشْتَدَّ حُزْنُهُمْ، وَقَالَ الْجُرَذُ: مَا أَرَانَا نُجَاوِزُ عَقَبَةً مِنَ الْبَلاءِ إلاَّ صِرْنَا فِي أَشَدَّ مِنْهَا. وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: لاَ يَزَالُ الإِنْسَانُ مُسْتَمِرًّا فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ

يَعْثُرْ؛ فَإِذَا عَثَرَ لَجَّ[1] بِهِ الْعِثَارُ، وَإِنْ مَشَى فِي جَدَدِ[2] الأَرْضِ. وَحَذَرِي عَلَى السُّلَحْفَاةِ خَيْرِ الأَصْدِقَاءِ الَّتِي خُلَّتُهَا[3] لَيْسَتْ لِلْمُجَازَاة وَلاَ لالْتِمَاسِ مُكَافَأةٍ، وَلَكِنَّهَا خُلَّةُ الْكَرَمِ وَالشَّرَفِ، خُلَّةٌ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ خُلَّةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، خُلَّةٌ لا يُزِيلُهَا إِلاَّ الْمَوْتُ. وَيْحٌ لِهَذَا الْجَسَدِ الْمُوَكَّلِ بِهِ الْبَلاَءُ الَّذِي لاَ يَزَالُ فِي تَصَرُّفٍ وَتَقَلُّبٍ، وَلاَ يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ، وَلاَ يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ: كَمَا لاَ يَدُومُ لِلطَّالِعِ مِنَ النُّجُومِ طُلُوعٌ، وَلاَ لِلآفِلِ[4] مِنْهَا أُفُولٌ، لَكِنْ لاَ يَزَالُ الطَّالِعُ مِنْهَا آفِلاً، وَالآفِلُ طَالِعاً؛ وَكَمَا تَكُونُ آلاَمُ الْكُلُومِ[5] وَانْتِقَاضُ الْجِرَاحَاتِ، كَذَلِكَ مَنْ قَرِحَتْ كُلُومُهُ بِفَقْدِ إِخْوَانِهِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ.





فَقَالَ الظَّبْيُ وَالْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: إِنَّ حَذَرَنَا وَحَذَرَكَ وَكَلاَمَكَ، وَإِنْ كَانَ بَلِيغاً، كُلٌّ مِنْهَا لاَ يُغْنِي عَنِ السُّلَحْفَاةِ شَيْئاً. وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ: إِنَّمَا يُخْتَبَرُ النَّاسُ عِنْدَ الْبَلاَءِ،



(١) لج: تمادى.
(٢) جدد الأرض: الأرض الغليظة المستوية وعليها قولهم في المثل من سلك الجدد أمن العثار.
(٣) خلتها: صحبتها وصداقتها.
(٤) الآفل: الغائب والغارب.
(٥) الكلوم: الجروح.



وَذُو الأَمَانَةِ عِنْدَ الأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، وَالأَهْلُ وَالْوَلَدُ عِنْدَ الْفَاقَةِ؛ كَذٰلِكَ يُخْتَبَرُ الإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَائِبِ[1].

قَالَ الْجُرَذُ: أَرَى مِنَ الْحِيلَةِ أَنْ تَذْهَبَ، أَيُّهَا الظَّبْيُ، فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقَانِصِ، كَأَنَّكَ جَرِيحٌ؛ **وَيَقَعُ الْغُرَابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ؛** وَأَسْعَى أَنَا فَأَكُونُ قَرِيباً مِنَ الْقَانِصِ، مُرَاقِباً لَهُ، فَعَلَّهُ أَنْ يَرْمِيَ مَا مَعَهُ مِنَ الآلَةِ، وَيَضَعَ السُّلَحْفَاةَ، وَيَقْصِدَكَ طَامِعاً فِيكَ، رَاجِياً تَحْصِيلَكَ. فَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَفِرَّ عَنْهُ رُوَيْداً، بِحَيْثُ لاَ يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ مِنْكَ، وَمَكِّنْهُ مِنْ أَخْذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، حَتَّى يَبْعُدَ عَنَّا؛ وَانْحُ مِنْهُ هٰذَا النَّحْوَ مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَلاَّ يَنْصَرِفَ إِلاَّ وَقَدْ قَطَّعْتُ الْحَبَائِلَ عَنِ السُّلَحْفَاةِ، وَأَنْجُو بِهَا.



فَفَعَلَ الْغُرَابُ وَالظَّبْيُ مَا أَمَرَهُمَا بِهِ الْجُرَذُ، وَتَبِعَهُمَا الْقَانِصُ، **فَاسْتَجَرَّهُ الظَّبْيُ،** حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْجُرَذِ وَالسُّلَحْفَاةِ؛ وَالْجُرَذُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ الْحَبَائِلِ، حَتَّى قَطَعَهَا، وَنَجَا بِالسُّلَحْفَاةِ، وَعَادَ الْقَانِصُ مَجْهُوداً لاَغِباً[2] فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ مُقَطَّعَةً. فَفَكَّرَ فِي أَمْرِهِ

---

(١) النوائب: المصائب والمكاره.
(٢) لاغباً: تعباً جداً.

مَعَ الظّبْيِ، فَظَنَّ أَنَّهُ خُولِطَ فِي عَقْلِهِ، وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الظَّبْيِ وَالْغُرَابِ الّذِي كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ، وَقَرْصِ حِبَالَتِهِ، فَاسْتَوْحَشَ مِنَ الأَرْضِ وَقَالَ: هٰذِهِ أَرْضُ جِنٍّ أَوْ سَحَرَةٍ. فَرَجَعَ مُوَلِّياً لاَ يَلْتَمِسُ شَيْئاً، وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ. **وَاجْتَمَعَ الْغُرَابُ وَالظَّبْيُ وَالْجُرَذُ وَالسُّلَحْفَاةُ إِلَى عَرِيشِهِمْ سَالِمِينَ آمِنِينَ كَأَحْسَنِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ.**



فَإِذَا كَانَ هٰذَا الْخَلْقُ مَعَ صِغَرِهِ وَضَعْفِهِ قَدْ قَدَرَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ مَرَابِطِ الْهَلَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ وَخُلُوصِهَا، وَثَبَاتِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا، وَاسْتِمْتَاعِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ؛ فَالإِنْسَانُ الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ الْعَقْلَ وَالْفَهْمَ، وَأُلْهِمَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَمُنِحَ التَّمْيِيزَ وَالْمَعْرِفَةَ، أَوْلَى وَأَحْرَى بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّعَاضُدِ. فَهٰذَا مَثَلُ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَائْتِلاَفِهِمْ فِي الصُّحْبَةِ.



باب

البُومِ وَالْغِرْبَانِ

باب

البوم والغربان

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وتعَاوُنِهِمْ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الْعَدُوِّ الَّذِي لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِ، وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعاً وَمَلَقاً[1].

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: مَنِ اغْتَرَّ بِالْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَدُوّاً، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْبُومَ مِنَ الْغِرْبَانِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

البوم والغربان[*]

قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الدَّوْحِ، فِيهَا وَكْرُ أَلْفِ غُرَابٍ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ؛ وَكَانَ عِنْدَ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ فِيهِ أَلْفُ بُومَةٍ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْهُنَّ. فَخَرَجَ مَلِكُ الْبُومِ لِبَعْضِ غَدَوَاتِهِ وَرَوْحَاتِهِ؛ وَفِي نَفْسِهِ الْعَدَاوَةُ لِمَلِكِ الْغِرْبَانِ؛ وَفِي نَفْسِ الْغِرْبَانِ وَمَلِكِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ لِلْبُومِ؛ **فَأَغَارَ مَلِكُ الْبُومِ فِي أَصْحَابِهِ عَلَى الْغِرْبَانِ فِي أَوْكَارِهَا، فَقَتَلَ وَسَبَى مِنْهَا خَلْقاً كَثِيراً، وَكَانَتْ الْغَارَةُ لَيْلاً.**

فَلَمَّا أَصْبَحَتِ الْغِرْبَانُ اجْتَمَعَتْ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْن لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَا لَقِينَا اللَّيْلَةَ

(*) فحوى القصة يؤكد أن مواجهة العدو القوي يجب أن تكون بالصبر والجلد وابتكار الوسيلة الناجعة للانتقام منه ورفع ظلمه وعدوانه، وأن الحل لا يكون في مغادرة أرض الوطن والاستسلام والانهزام أمام العدو.

(١) ملقاً: تودُّداً.



مِنْ مَلِكِ الْبُومِ، وما مِنَّا إِلاَّ مَنْ أَصْبَحَ قَتِيلاً أَوْ جَرِيحاً أَوْ مَكْسُورَ الْجَناحِ أَوْ مَنْتُوفَ الرِّيشِ أَوْ مَقْطُوفَ الذَّنَبِ وَأَشَدُّ مِمَّا أَصابَنا ضُرًّا عَلَيْنا جَراءَتُهُنَّ عَلَيْنا. وعِلْمُهُنَّ بمكانِنا، وَهُنَّ عائِداتٌ إِلَيْنا غَيْرُ مُنْقَطِعاتٍ عَنَّا، لعِلْمِهِنَّ بِمَكانِنا. فَإِنَّما نَحْنُ لَكَ، وَلكَ الرَّأْيُ. أَيُّها الْمَلِكُ، فَانْظُرْ لَنا وَلِنَفْسِكَ. وَكانَ فِي الْغِرْبانِ خَمْسَةٌ مُعْتَرَفٌ لَهُنَّ بِحُسْنِ الرَّأْيِ، يُسْنَدُ إِلَيْهِنَّ فِي الأُمُورِ، وَيُلْقى عَلَيْهِنَّ أَزِمَّةُ الأَحْوالِ. وَكانَ الْمَلِكُ كثيراً ما يُشاوِرُهُنَّ فِي الأُمُورِ، وَيَأْخُذُ آراءَهُنَّ فِي الْحَوادِثِ وَالنَّوازِلِ[1].

فَقالَ الْمَلِكُ لِلأَوَّلِ مِن الْخَمْسَةِ: ما رَأْيُكَ فِي هٰذا الأَمْرِ؟ قالَ: رَأْيِي قَدْ سَبَقَتْنا إِلَيْهِ الْعُلَماءُ، وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ قالُوا: لَيْسَ لِلْعَدُوِّ الْحَنِقِ[2] إِلاَّ الْهَرَبُ مِنْهُ.



قالَ الْمَلِكُ لِلثّانِي: ما رَأْيُكَ أَنْتَ فِي هٰذا الأَمْرِ؟ قالَ: رَأْيِي ما رَأَى هٰذا مِنَ الْهَرَبِ. قالَ الْمَلِكُ: لاَ أَرى لَكُما ذٰلِكَ رَأْياً، أَن نرحل عن أوطانِنا وَنُخْلِيَها لِعَدُوِّنا مِنْ أَوَّلِ نَكْبَةٍ أَصابَتْنا مِنْهُ، وَلاَ يَنْبَغِي لَنا ذٰلِكَ؛ وَلٰكِنْ نُجْمِعُ أَمْرَنا، وَنَسْتَعِدُّ لِعَدُوِّنا، وَنُذْكِي[3] نارَ الْحَرْبِ فِيما بَيْنَنا وَبَيْنَ عَدُوِّنا، وَنَحْتَرِسُ مِنَ الْغِرَّةِ[4] إِذا أَقْبَلَ إِلَيْنا، فَنَلْقاهُ مُسْتَعِدِّينَ، وَنُقاتِلُهُ قِتالاً غَيْرَ مُراجِعِينَ فِيهِ، وَلاَ مُقصرِينَ عَنْهُ؛ وَتَلْقَى أَطْرافُنا أَطْرافَ الْعَدُوِّ، وَنَتَحَرَّزُ[5] بِحُصُونِنا. وَنُدافِعُ عَدُوَّنا، بِالأَناةِ[6] مَرَّةً، وبِالْجِلادِ[7] أُخْرى، حَيْثُ نُصِيبُ فُرْصَتَنا وَبُغْيَتَنا، وَقَدْ ثَنَيْنا عَدُوَّنا عَنَّا.

---

(١) النوازل: الشدائد.
(٢) الحنق: الغاضب القوي.
(٣) نذكي: نشعل ونؤجج.
(٤) الغرّة: الأخذ على غفلة والمفاجأة.
(٥) نتحرز: نتحفظ.
(٦) الأناة: الرفق والانتظار.
(٧) الجلاد: المضاربة بالسيوف.



ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّالِثِ: مَا رَأْيُكَ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَرَى مَا قَالاَ رَأْياً. وَلٰكِنْ نَبُثُّ الْعُيُونَ، وَنَبْعَثُ الْجَوَاسِيسَ، وَنُرْسِلُ الطَّلاَئِعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُوِّنَا؛ فَنَعْلَمُ أَيُرِيدُ صُلْحَنَا أَمْ يُرِيدُ حَرْبَنَا أَمْ يُرِيدُ الْفِدْيَةَ؟ فَإِنْ رَأَيْنَا أَمْرَهُ أَمْرَ طَامِعٍ فِي مَالٍ، لَمْ نَكْرَهِ الصُّلْحَ عَلَى خَرَاجٍ نُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، نَدْفَعُ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا، وَنَطْمَئِنُّ فِي أَوْطَانِنَا: فَإِنَّ مِنْ آرَاءِ الْمُلُوكِ إِذَا اشْتَدَّتْ شَوْكَةُ عَدُوِّهِمْ، فَخَافُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِلاَدِهِمْ، أَنْ يَجْعَلُوا الأَمْوَالَ جُنَّةَ[1] الْبِلاَدِ وَالْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ.

قَالَ الْمَلِكُ لِلرَّابِعِ: فَمَا رَأْيُكَ فِي هٰذَا الصُّلْحِ؟ قَالَ: لاَ أَرَاهُ رَأْياً؛ بَلْ أَنْ نُفَارِقَ أَوْطَانَنَا وَنَصْبِرَ عَلَى الْغُرْبَةِ وَشِدَّةِ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِيعَ أَحْسَابَنَا[2] وَنَخْضَعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُ؛ مَعَ أَنَّ الْبُومَ لَوْ عَرَضْنَا ذٰلِكَ عَلَيْهِنَّ لَمَا رَضِينَ مِنَّا إِلاَّ بِالشَّطَطِ[3]. وَيُقَالُ فِي الأَمْثَالِ: قَارِبْ عَدُوَّكَ بَعْضَ الْمُقَارَبَةِ لِتَنَالَ حَاجَتَكَ، وَلاَ تُقَارِبْهُ كُلَّ الْمُقَارَبَةِ فَيَجْتَرِىءَ عَلَيْكَ، وَيُضْعِفَ جُنْدَكَ، وَتَذِلَّ نَفْسُكَ. وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْخَشَبَةِ



---

(١) جنّة: سترة.

(٢) أحسابنا: مفاخرنا.

(٣) الشّطط: مجاوزة الحدّ.

الْمَنْصُوبةِ فِي الشَّمْسِ: إذا أَمَلْتَهَا قَلِيلاً زادَ ظِلُّهَ، وإذا جَاوَزْتَ بِهَا الْحَدَّ فِي إمَالَتِهَا نَقَصَ الظِّلُّ. ولَيْسَ عَدُوُّنَا رَاضِياً مِنَّا بالدُّونِ فِي الْمُقَارَبَةِ. فَالرَّأْيُ لَنا ولَكَ الْمُحَارَبَةُ.



قَالَ الْمَلِكُ لِلْخَامِسِ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ وَمَاذَا تَرَى؟ الْقِتَالَ أَمِ الصُّلْحَ أَمِ الْجَلاَءَ عَنِ الْوَطَنِ؟ قَالَ: أَمَّا الْقِتَالُ فَلاَ سَبِيلَ لِلْمَرْءِ إِلَى قِتَالِ مَنْ لاَ يَقْوَى عَلَيْهِ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ نَفْسَهُ وَعَدُوَّهُ، وَقَاتَلَ مَنْ لاَ يَقْوَى عَلَيْهِ، حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى حَتْفِهَا؛ مَعَ أَنَّ الْعَاقِلَ لاَ يَسْتَصْغِرُ عَدُوًّا، فَإِنَّ مَن اسْتَصْغَر عَدُوَّهُ اغْتَرَّ بِهِ، وَمَنْ اغْتَرَّ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ. وَأَنَا لِلْبُوم شَدِيدُ الْهَيْبَةِ، وإِنْ أَضْرَبْنَ عَنْ قِتَالِنَا، وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْحَازِمَ لاَ يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنْ كَانَ بَعِيداً لَمْ يأْمَنْ سَطْوَتَهُ. وَإِنْ كَانَ مُكْثِباً[1] لَمْ يأْمَنْ وَثْبَتَهُ. وَإِنْ كَان وحِيداً لَمْ يَأْمَن مَكْرَهُ. وَأَحْزَمُ الأَقْوَام وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ كَرِه الْقِتَالَ لأَجْلِ النَّفقَةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ مَا دُونَ الْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الأَمْوَالِ وَالْقَوْلِ والْعَمَلِ؛ والْقِتَالُ النَّفقَةُ فِيهِ مِن الأَنْفُسِ وَالأَبْدَانِ. فَلاَ يَكُونَنَّ الْقِتَالُ لِلْبُوم مِنْ رَأْيِك، أَيُّهَا الْمَلِكُ، فإِنَّ مَنْ قَاتَلَ مَنْ لاَ يَقْوَى عَلَيْهِ فَقَدْ غَرَّر بِنَفْسِهِ. فإذا كَانَ الْمَلِكُ مُحَصِّناً للأَسْرَار، مُتَخيِّراً لِلْوُزَرَاءِ، مَهِيباً فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، بَعِيداً مِنْ أَنْ يُقْدَرَ علَيْه، كَانَ خَلِيقاً أَلاَّ يُسْلَبَ صَحِيح مَا أُوتِيَ مِنَ الْخَيْرِ. وَأَنْتَ، أَيُّهَا الْمِلِكُ، كَذَلِكَ. وَقَدِ اسْتَشَرْتَنِي فِي أَمْرِ جَوابُك مِنِّي عَنْهُ، فِي بَعْضِهِ عَلاَنِيَةٌ، وَفِي بَعْضِه سِرٌّ. وَللأَسْرَارِ مَنَازِلُ: مِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيه الرَّهْطُ، وَمِنْهَا ما يُسْتَعَانُ فِيهِ بِالْقَوْمِ، وَمِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرَّجُلاَنِ.



(١) مكثبا: قريباً.



وَلَسْتُ أَرَى لِهٰذَا السِّرِّ عَلى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُشَارِكَ فِيهِ إلاَّ أَرْبَعُ آذَانٍ وَلِسَانَانِ.

فَنَهَضَ الْمَلِكُ مِنْ سَاعَتِهِ، وَخَلاَ بِهِ. فَاسْتَشَارَهُ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ الْمَلِكُ أَنَّهُ قَالَ: هَلْ تَعْلَمُ ابْتِدَاءَ العَدَاوَةِ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبُومِ؟ قَالَ: نَعَمْ: كَلِمَةٌ تَكَلَّمَ بِهَا غُرَابٌ.

قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

كلمة الغراب



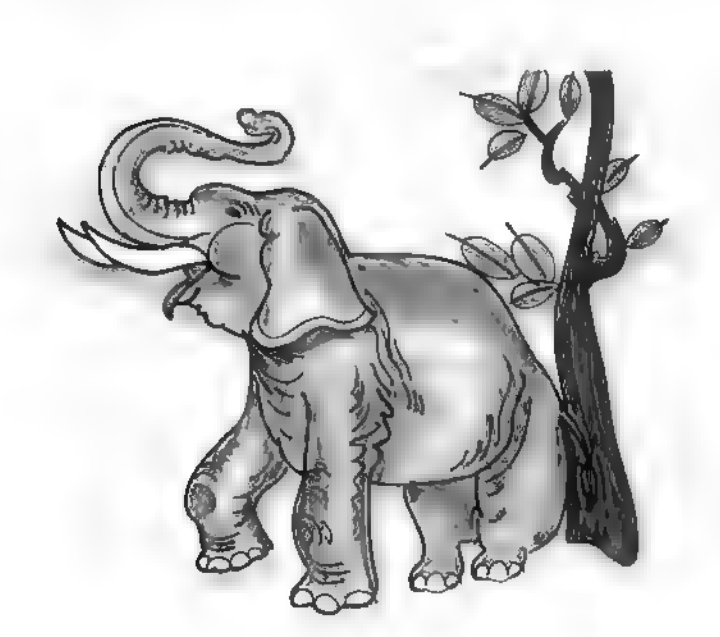
قَالَ الْغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْكَرَاكِي[1] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَلِكٌ، **فَأَجْمَعَتْ أَمْرَهَا عَلَى أَنْ يُمَلِّكْنَ عَلَيْهِنَّ مَلِكَ الْبُومِ**؛ فَبَيْنَمَا هِيَ فِي مَجْمَعِهَا إِذْ وَقَعَ لَهَا غُرَابٌ، فَقَالَتْ: لَوْ جَاءَنَا هٰذَا الْغُرَابُ لاسْتَشَرْنَاهُ فِي أَمْرِنَا؛ فَلَمْ يَلْبَثْنَ دُونَ أَنْ جَاءَهُنَّ الْغُرَابُ. فَاسْتَشَرْنَهُ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ بَادَتْ مِنَ الأَقَالِيمِ، وَفُقِدَ الطَّاوُوسُ وَالْبَطُّ وَالنَّعَامُ وَالْحَمَامُ مِنَ الْعَالَمِ لَمَا اضْطُرِرْتُنَّ إِلَى أَنْ تُمَلِّكْنَ عَلَيْكُنَّ الْبُومَ الَّتِي هِيَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ مَنْظَراً، وَأَسْوَؤُهَا خُلُقاً، وَأَقَلُّهَا عَقْلاً، وَأَشَدُّهَا غَضَباً، وَأَبْعَدُهَا مِنْ كُلِّ

(١) الكراكي: جمع كركي وهو طائر يقرب من الأوز.

رَحْمَةٍ؛ مَعَ عَمَاهَا وَمَا بِهَا مِنَ الْعَشَا[1] بِالنَّهارِ؛ وَأَشَدُّ مِنْ ذٰلِكَ وَأَقْبَحُ أُمُورِهَا سَفَهُهَا وَسُوءُ أَخْلاقِهَا، إِلاَّ أَنْ تَرَيْنَ أَنْ تُمَلِّكْنَهَا وَتَكُنَّ أَنْتُنَّ تُدبرْنَ الأُمُورَ دُونَهَا بِرَأْيِكُنَّ وَعُقُولِكُنَّ؛ كَما فَعَلَتِ الأَرْنَبُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ الْقَمَرَ مَلِكُهَا، ثُمَّ عَمِلَتْ بِرَأْيِهَا. قَالَ الطَّيْرُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

الأرنب والقمر والفيلة(*)

قَالَ الْغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ أَرْضاً مِنْ أَراضِي الْفِيَلَةِ تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا السُّنُونَ، وَأَجْدبَتْ[2]، وَقَلَّ مَاؤُهَا، وَغَارَتْ عُيُونُهَا، وَذَوَى[3] نَبْتُهَا، وَيَبِسَ شَجَرُهَا؛ فَأَصابَ الْفِيَلَةَ عَطَشٌ شَدِيدٌ، فَشَكَوْنَ ذٰلِكَ إِلَى مَلِكِهِنَّ؛ فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ رُسُلَهُ وَرُوَّادَهُ فِي طَلَبِ الْمَاءِ؛ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ. فَرَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّسُلِ، فَأَخْبَرَهُ إِنِي قَدْ وَجَدْتُ بِمَكَانِ كَذَا عَيْناً يُقَالُ لَهَا عَيْنُ الْقَمَرِ، كَثِيرَةَ الْمَاءِ. فَتَوَجَّهَ مَلِكُ الْفِيَلَةِ بِأَصْحَابِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَيْنِ لِيَشْرَبَ مِنْهَا هُوَ وَفِيَلَتُهُ. وَكَانَتِ الْعَيْنُ







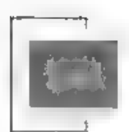
(*) تنطوي القصة على فلسفة مؤداها تسويغ استخدام الخديعة والمكر لاتقاء شر العدو القوي المتغطرس الذي لا سبيل إلى مواجهته مباشرة.

(١) العشا: ضعف البصر.
(٢) أجدبت: أمحلت.
(٣) ذوى: ذبل.



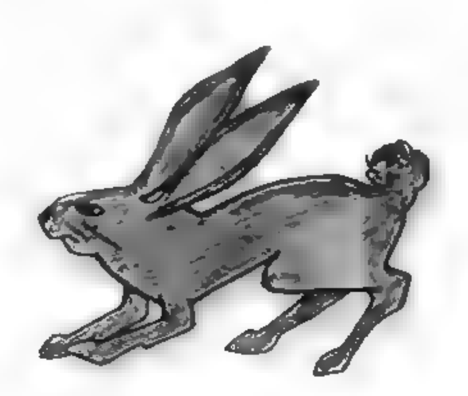
فِي أَرْضٍ لِلأَرَانِبِ؛ فَوطِئْنَ الأَرانِبَ فِي أَجْحارِهِنَّ، فَأَهْلَكْنَ مِنْهُنَّ كَثِيراً. فَاجْتَمَعَتِ الأَرَانِبُ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْفِيَلَةِ فَقَالَ: لِيُحْضِرْ مِنْكُنَّ كُلُّ ذِي رَأْيٍ رَأْيَهُ. فَتَقَدَّمَتْ أَرْنَبٌ مِنَ الأَرَانِبِ يُقَالُ لَهَا فَيْرُوزُ. وَكَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُهَا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَالأَدَبِ؛ فَقَالَتْ: إِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنْ يَبْعَثَنِي إِلَى الْفِيَلَةِ وَيُرْسِلَ مَعِي أَمِيناً، لِيَرَى وَيَسْمَعَ مَا أَقُولُ، وَيَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهَا الْملكُ: أَنْت أَمِينَةٌ، وَنَرْضى بِقَوْلِكِ؛ فَانْطَلِقي إِلَى الْفِيَلَةِ، وَبلغِي عَني مَا تُرِيدِينَ. وَاعْلَمي أَنَّ الرَّسُولَ برَأْيِهِ وَعَقْلِهِ، وَلِينِه وَفضْلِهِ، يُخْبِرُ عَنْ عَقْلِ الْمُرْسِلِ. فَعلَيْكِ بِاللينِ والرفْقِ، وَالْحِلْمِ وَالتَّأَنِّي، فَإِنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يُلِينُ الصُّدُورَ إِذَا رَفَقَ، وَيُخشِنُ الصُّدُورَ إِذا خَرُقَ(١).





ثُمَّ إِنَّ الأَرْنَبَ انْطَلَقَتْ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ، حَتَّى انْتهتْ إِلَى الْفِيَلَةِ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَدْنُوَ مِنْهُنَّ: مَخَافَةَ أَنْ يَطَأْنَها بِأَرْجُلِهِنَّ، فَيَقْتُلْنَهَا، وَإِنْ كُنَّ غَيْرَ مُتَعَمدَاتٍ.



(١) خرق: جهل وحمق.

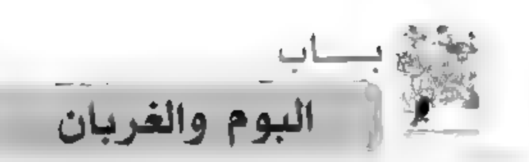
ثُمَّ أَشْرَفَتْ عَلَى الْجَبَلِ، وَنَادَتْ مَلِكَ الْفِيَلَةِ، وَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ الْقَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ؛ وَالرَّسُولُ غَيْرُ مَلُومٍ فِيمَا يُبَلِّغُ، وَإِنْ أَغْلَظَ فِي الْقَوْلِ.



قَالَ مَلِكُ الْفِيَلَةِ: فَمَا الرِّسَالَةُ؟ قَالَتْ: يَقُولُ لَكَ: إِنَّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضُّعَفَاءِ، فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ فِي شَأْنِ الأَقْوِيَاءِ، قِيَاساً لَهُمْ عَلَى الضُّعَفَاءِ، كَانَتْ قُوَّتُهُ وَبَالاً عَلَيْهِ. وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدَّوَابِ، فَغَرَّكَ ذَلِكَ؛ فَعَمَدْتَ إِلَى الْعَيْنِ الَّتِي تُسَمَّى بِاسْمِي، فَشَرِبْتَ مِنْهَا، وَكَدَّرْتَهَا. فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ: فَأَنْذِرْكَ أَلاَّ تَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ. وَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أُغَشِّ بَصَرَكَ، وَأُتْلِفْ نَفْسَكَ. وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِي، فَهَلُمَّ إِلَى الْعَيْنِ مِنْ سَاعَتِكَ: فَإِنِّي مُوَافِيكَ بِهَا.



فَعَجِبَ مَلِكُ الْفِيَلَةِ مِنْ قَوْلِ الأَرْنَب، فَانْطَلَقَ إِلَى الْعَيْنِ مَعَ فَيْرُوزَ الرَّسُولِ. فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا، رَأَى ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهَا. فَقَالَتْ لَهُ فَيْرُوزُ الرَّسُولُ: خُذْ بِخُرْطُومِكَ مِنَ الْمَاءِ فَاغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ، وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ.



فَأَدْخَلَ الْفِيلُ خُرْطُومَهُ فِي الْمَاءِ، فَتَحَرَّكَ فَخُيِّلَ لِلْفِيلِ أَنَّ الْقَمَرَ ارْتَعَدَ. فَقَالَ: مَا شَأْنُ الْقَمَرِ ارْتَعَدَ؟ أَتُرَاهُ غضِبَ مِنْ إِدْخَالِي الْخُرْطُومَ فِي الْمَاءِ؟ قَالَتْ فَيْرُوزُ الأَرْنَبُ: نَعَمْ. فَسَجَدَ الْفِيلُ لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى، وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ، وَشَرَطَ أَلاَّ يَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذٰلكَ هُوَ وَلاَ أَحَدٌ مِنْ فِيَلَتِهِ.



قَالَ الْغُرَابُ: وَمَعَ مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْبُومِ إِنَّ فِيهَا الْخِبَّ وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ، وشَرُّ الْمُلُوكِ الْمُخَادِعُ؛ وَمَنِ ابْتُلِي بِسُلْطَانٍ مُخَادِعٍ، وَخَدَمَهُ، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الأَرْنَبَ وَالصَّفْرِدَ[١] حِينَ احْتَكَمَا إِلَى السِّنَّوْرِ. قَالَتِ الْكَرَاكِيُّ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) الصّفرد: طائر من خشاش الطير تكنيه العامة أبا المليح يضرب به المثل في الجبن.



الأرنب والصفرد والسنور(*)



قَالَ الْغُرَابُ: كَانَ لِي جَارٌ مِنَ الصَّفَارِدَةِ، في أَصْلِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِن وَكْرِي، وَكَانَ يُكْثِرُ مُوَاصَلَتِي؛ ثُمَّ فقَدْتُهُ، فَلَمْ أَعْلَمْ أَيْنَ غَابَ؛ وَطَالَتْ غَيْبَتُهُ عَني. فَجَاءَتْ أَرْنَبٌ إِلَى مَكَانِ الصفْرِدِ، فَسَكَنَتْهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُخَاصِمَ الأَرْنَبَ، فَلَبِثَتْ فِيهِ زَمَاناً. ثُمَّ إِنَّ الصفْرِدَ عَادَ بَعْدَ زَمَانٍ، فَأَتَى مَنْزِلَهُ، فَوَجَدَ فِيهِ الأَرْنَب. فَقَالَ لَهَا: هٰذَا الْمَكَانُ لِي، فَانْتَقِلِي عَنْهُ. قَالَت الأَرْنَبُ: الْمَسْكَنُ لِي. وَتحْتَ يَدِي؛ وَأَنْتَ مُدَّعٍ لَهُ. فَإِنْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فَاسْتَعِدَّ[1] بِإِثْبَاتِه عَلَيَّ. قَالَ الصِّفْرِدُ: الْقَاضِي منَّا قَرِيبٌ: فَهَلُمّي بِنَا إِلَيْهِ. قَالَتِ الأَرْنَبُ: وَمَنِ الْقَاضِي؟ قَالَ الصفْرِدُ: إِنَّ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ سِنَّوْراً مُتَعَبداً، يَصُومُ النَّهارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ؛ وَلاَ يُؤْذِي دَابَّةً، وَلاَ يُهَرِيقُ[2] دَماً؛ عَيْشُهُ مِنَ الْحَشِيشِ وَمِمَّا يَقْذِفُهُ إِلَيْهِ الْبَحْرُ. فَإِنْ أَحْبَبْتِ تحَاكَمْنَا إِلَيْهِ، وَرَضِينَا بِهِ. قَالَتِ الأَرْنَبُ: مَا أَرْضَانِي بِهِ إِذَا كَانَ كَمَا وَصَفْتَ!



فَانْطَلَقَا إِلَيْهِ، فَتَبِعْتُهُمَا لِأَنْظُرَ إِلَى حُكُومَةِ الصَّوَّامِ الْقَوَّامِ. ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَيْهِ،

(*) لا يمكن اللجوء إلى العدو الرئيسي والتقليدي لاستشارته والقضاء لديه ومطالبته لإحقاق الحق حيث أن مهمته الأساسية هي القضاء على عدوه وإهلاكه، هذا ما يمكن استخلاصه من بين سطور القصة.

---

(١) استعد: استعن.

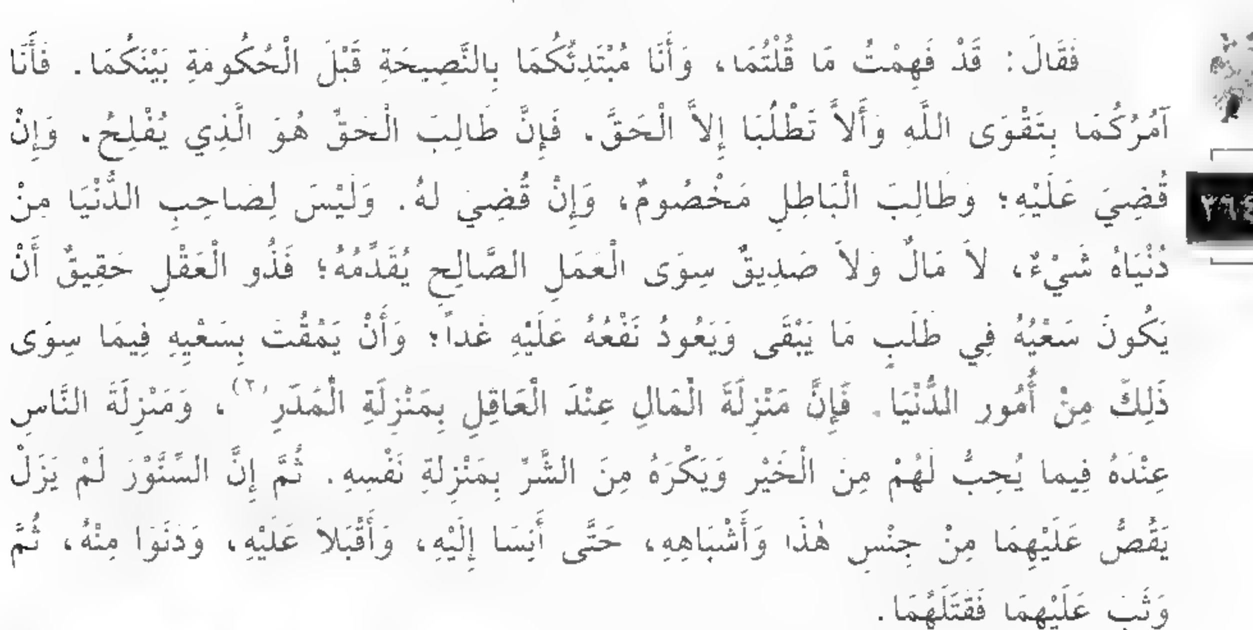
(٢) يهريق: يريق أي يسفك.



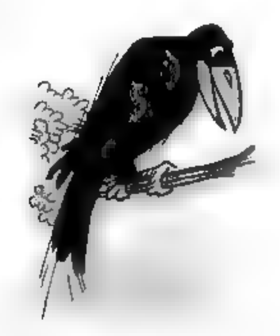
فَلَمَّا بَصُرَ السِّنَّوْرُ بالأَرْنَبِ وَالصَّفْرِدِ مُقْبِلَيْنِ نَحْوَهُ، انْتَصَبَ قَائِماً يُصَلِّي، وَأَظْهَرَ الْخُشُوعَ وَالتَّنَسُّكَ. فَعَجِبَا لِمَا رَأَيَا مِنْ حَالِهِ، وَدَنَوَا مِنْهُ هَائِبَيْنِ[1] لَهُ، وَسَلَّمَا عَلَيْهِ، وَسَأَلاَهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا. فَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقُصَّا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَفَعَلاَ.

فَقَالَ لَهُمَا: قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ، وَثَقُلَتْ أُذُنَايَ. فَادْنُوَا مِنِي، فَأَسْمِعَانِي مَا تَقُولاَنِ. فَدَنَوَا مِنْهُ، وَأَعَادَا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، وَسَأَلاَهُ الْحُكْمَ.





فَقَالَ: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُمَا، وَأَنَا مُبْتَدِئُكُمَا بِالنَّصِيحَةِ قَبْلَ الْحُكُومَةِ بَيْنَكُمَا. فَأَنَا آمُرُكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَلاَّ تَطْلُبَا إِلاَّ الْحَقَّ. فَإِنَّ طَالِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِحُ. وَإِنْ قُضِيَ عَلَيْهِ؛ وَطَالِبَ الْبَاطِلِ مَخْصُومٌ، وَإِنْ قُضِيَ لهُ. وَلَيْسَ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ، لاَ مَالٌ وَلاَ صَدِيقٌ سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ؛ فَذُو الْعَقْلِ حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى وَيَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ غَداً؛ وَأَنْ يَمْقُتَ بِسَعْيِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا. فَإِنَّ مَنْزِلَةَ الْمَالِ عِنْدَ الْعَاقِلِ بِمَنْزِلَةِ الْمَدَرِ[2]، وَمَنْزِلَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيما يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِهِ. ثُمَّ إِنَّ السِّنَّوْرَ لَمْ يَزَلْ يَقُصُّ عَلَيْهِمَا مِنْ جِنْسِ هٰذَا وَأَشْبَاهِهِ، حَتَّى أَنِسَا إِلَيْهِ، وَأَقْبَلاَ عَلَيْهِ، وَدَنَوَا مِنْهُ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا.



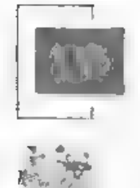
قَالَ الْغُرَابُ: ثُمَّ إِنَّ الْبُومَ تَجْمَعُ، مَعَ مَا وَصَفْتُ لَكُنَّ مِنَ الشُّؤْمِ، سَائِرَ الْعُيُوبِ: فَلاَ يَكُونَنَّ تَمْلِيكُ الْبُومِ مِن رَأْيِكُنَّ. فَلَمَّا سَمِعَ الْكَرَاكِيُّ ذٰلِكَ مِنْ كَلاَمِ الْغُرَابِ

---

(١) هائبين له: أي معظمين إياه. (٢) المدر: التراب المتلبد.



أَضْرَبْنَ عَنْ تَمْلِيكِ الْبُوم. وَكَانَ هُنَاكَ بُومٌ حَاضِرٌ قَدْ سَمِعَ مَا قَالُوا، فَقَالَ لِلْغُرَابِ: لَقَدْ وَتَرْتَنِي[1] أَعْظَمَ التِّرَةِ، وَلاَ أَعْلَمُ أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي إِلَيْكَ سُوءٌ أَوْجَبَ هٰذَا. وَبَعْدُ فَاعْلَمْ أَنَّ الفَأْسَ يُقْطَعُ بِهِ الشَّجَرُ، فَيَعُودُ يَنْبُتُ؛ وَالسَّيْفَ يَقْطَعُ اللَّحْمَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْدَمِلُ؛ وَاللِّسَانَ لاَ يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ وَلاَ تُؤْسَى[2] مَقَاطِعُهُ. وَالنَّصْلُ مِنَ السَّهْمِ يَغِيبُ فِي اللَّحْمِ، ثُمَّ يُنْزَعُ فَيُخْرَجُ؛ وَأَشْبَاهُ النَّصْلِ مِنَ الْكَلاَمِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ تُنْزَعْ وَلَمْ تُسْتَخْرَجْ. وَلِكُلِّ حَرِيقٍ مُطْفِيءٌ: فَلِلنَّارِ الْماءُ، ولِلسُّمِّ الدَّوَاءُ، وَلِلْحُزْنِ الصَّبْرُ؛ وَنَارُ الْحِقْدِ لاَ تَخْبُو أَبَداً. وَقَدْ غَرَسْتُمْ، مَعَاشِرَ الْغِرْبَانِ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ شَجَرَ الْحِقْدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضاءِ.





فَلَمَّا قَضَى الْبُومُ مَقَالَتَهُ، وَلَّى مُغْضَباً، فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْبُوم بِمَا جَرَى وَبِكُلِّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْغُرَابِ؛ ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ نَدِمَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَقَالَ: وَاللّهِ لَقَدْ خَرُقْتُ[3] فِي قَوْلِيَ الَّذِي جَلَبْتُ بِهِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ عَلَى نَفْسِي وَقَوْمِي! وَلَيْتَنِي لَمْ أُخْبِرِ الْكَرَاكِيَّ بِهٰذِهِ الْحَالِ! وَلاَ أَعْلَمْتُهَا بِهٰذَا الأَمْرِ! وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ قَدْ رَأَى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ، وَعَلِمَ أَضْعَافَ مَا عَلِمْتُ، فَمَنَعَهَا مِنَ الْكَلاَمِ بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُ اتِّقَاءُ مَا لَمْ أَتَّقِ، وَالنَّظَرُ فِيمَا لَمْ أَنْظُرْ فِيهِ مِنْ حِذَارِ الْعَوَاقِبِ، لاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْكَلاَمُ أَفْظَعَ كَلاَمٍ، يَلْقَى مِنْهُ سَامِعُهُ وَقَائِلُهُ الْمَكْرُوهَ مِمَّا يُورِثُ الْحِقْدَ وَالضَّغِينَةَ، فَلاَ يَنْبَغِي لِأَشْبَاهِ

---

(١) وترتني: أصبتني بعداوة وحقد. (٢) تؤسى: تداوى.

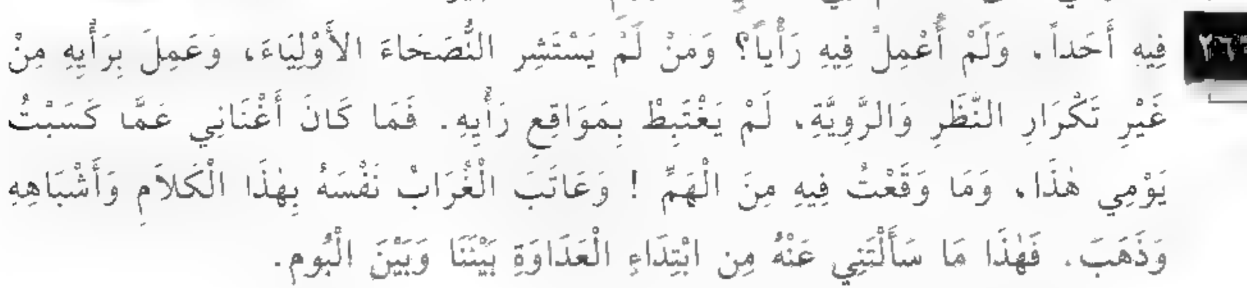
(٣) خرقت: جهلت وأخطأت.

هٰذا الْكَلاَمَ أَنْ تُسَمَّى كَلاَماً، وَلٰكِنْ سِهَاماً. وَالْعَاقِلُ، وَإِنْ كَانَ وَاثِقاً بِقُوَّتِهِ وَفَضْلِهِ، لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ ذٰلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلِبَ الْعَدَاوَةَ عَلَى نَفْسِهِ اتِّكَالاً عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ؛ كَمَا أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ التِّرْيَاقُ لاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْرَبَ السُّمَّ اتِّكَالاً عَلَى مَا عِنْدَهُ. وَصَاحِبُ حُسْنِ الْعَمَلِ، وَإِنْ قَصَّرَ بِهِ الْقَوْلُ فِي مُسْتَقْبَلِ الأَمْرِ، كَانَ فَضْلُهُ بَيِّناً وَاضِحاً فِي الْعَاقِبَةِ وَالاخْتِبَارِ؛ وَصَاحِبُ حُسْنِ الْقَوْلِ، وَإِنْ أَعْجَبَ النَّاسَ مِنْهُ حُسْنُ صِفَتِهِ لِلأُمُورِ، لَمْ تُحْمَدْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ. وَأَنَا صَاحِبُ الْقَوْلِ الَّذِي لاَ عَاقِبَةَ لَهُ مَحْمُودَةٌ. أَلَيْسَ مِنْ سَفَهِيَ اجْتِرَائِي عَلَى التَّكَلُّمِ فِي الأَمْرِ الْجَسِيمِ لاَ أَسْتَشِيرُ









فِيهِ أَحَداً، وَلَمْ أُعْمِلْ فِيهِ رَأْياً؟ وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرِ النُّصَحَاءَ الأَوْلِيَاءَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ تَكْرَارِ النَّظَرِ وَالرَّوِيَّةِ، لَمْ يَغْتَبِطْ بِمَوَاقِعِ رَأْيِهِ. فَمَا كَانَ أَغْنَانِي عَمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هٰذَا، وَمَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنَ الْهَمِّ! وَعَاتَبَ الْغُرَابُ نَفْسَهُ بِهٰذَا الْكَلاَمِ وَأَشْبَاهِهِ وَذَهَبَ. فَهٰذَا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنِ ابْتِدَاءِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبُومِ.

وَأَمَّا الْقِتَالُ فَقَدْ عَلِمْتَ رَأْيِي فِيهِ، وَكَرَاهَتِي لَهُ؛ وَلٰكِنَّ عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ وَالْحِيلَةِ غَيْرَ الْقِتَالِ مَا يَكُونُ فِيهِ الْفَرَجُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى. فَإِنَّهُ رُبَّ قَوْمٍ قَدِ احْتَالُوا بِآرَائِهِمْ حَتَّى ظَفِرُوا بِمَا أَرَادُوا. وَمِنْ ذٰلِكَ حَدِيثُ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ ظَفِرُوا بِالنَّاسِكِ، وَأَخَذُوا عَرِيضَهُ[1].

قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

(١) العريض من المعز: ما أتى عليه سنة وتناول النبت بعرض شدقه.



الناسك والعريض(*)

قَالَ الْغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً اشْتَرَى عَرِيضاً ضَخْماً لِيَجْعَلَهُ قُرْبَاناً؛ فَانْطَلَقَ بِهِ يَقُودُهُ. فَبَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنَ الْمَكَرَةِ، فَأْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنَ النَّاسِكِ. فَعَرَض لَهُ أَحدُهُمْ فَقَالَ لَهُ: **أَيُّهَا النَّاسِكُ، مَا هٰذَا الْكَلْبُ الَّذِي مَعَكَ؟** ثُمَّ عَرَضَ لَهُ الآخَرُ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ: ما هذا نَاسِكٌ، لِأَنَّ النَّاسِكَ لاَ يَقُودُ كَلْباً فَلَمْ يَزَالُوا مَعَ مَا هٰذَا



(*) تشير القصة إلى احتمال انطلاء الخديعة والمكر على الناس المتصفين بالطيبة وحسن النية.

النّاسِكِ عَلَى هٰذَا وَمِثْلِهِ حَتَّى لَمْ يَشُكَّ أَنَّ الَّذِي يَقُودُهُ كَلْبٌ؛ وَأَنَّ الَّذِي بَاعَهُ إِيَّاهُ سَحَرَ عَيْنَهُ، فَأَطْلَقَهُ مِنْ يَدِهِ؛ فَأَخَذَهُ الْجَمَاعَةُ الْمُحْتَالُونَ وَمَضَوْا بِهِ.

وإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ لِمَا أَرْجُو أَنْ نُصِيبَ مِنْ حَاجَتِنَا بِالرِّفْقِ وَالحِيلَةِ. وإِنِّي أُرِيدُ مِنَ الْملِكِ أَنْ يَنْقُرَنِي[1] عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، وَيَنْتِفَ رِيشِي وَذَنَبِي؛ ثُمَّ يَطْرَحنِي فِي أَصْلِ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ. وَيَرْتَحِلَ الْمَلِكُ هُوَ وَجُنُودُهُ إِلَى مَكَانِ كَذا. فَأَرْجُو أَنِي أَصْبِرُ وَأَطَّلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ، وَمَوَاضِعِ تَحْصِينِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ، فَأُخَادِعُهُمْ وَآتِيَ إِلَيْكُمْ لِنَهْجُمَ عَلَيْهِمْ، وَنَنَالَ مِنْهُمْ غَرَضَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



قَالَ الْمَلِكُ: أَتَطِيبُ نَفْسُكَ لِذٰلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَيْفَ لاَ تَطِيبُ نَفْسِي لِذٰلِكَ وَفِيهِ أَعْظَمُ الرَّاحَاتِ لِلْمَلِكِ وَجُنُودِهِ؟ فَفَعَلَ الْمَلِكُ بِالْغُرَابِ مَا ذَكَرَ؛ ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ. فَجَعَلَ الْغُرَابُ يَئِنُّ وَيَهْمِسُ حَتَّى رَأَتْهُ الْبُومُ وَسَمِعَتْهُ يَئِنُّ؛ فَأَخْبَرْنَ مَلِكَهُنَّ بِذٰلِكَ، فَقَصَدَ نَحْوَهُ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الْغِرْبَانِ. فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَمَرَ بُوماً أَنْ يَسْأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَأَيْنَ الْغِرْبَانُ؟ فَقَالَ: أَمَّا اسْمِي فَفُلاَنٌ. وَأَمَّا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ فَإِنِي أَحْسَبُكَ تَرَى أَنَّ حَالِي حَالُ مَنْ لاَ يَعْلَمُ الأَسْرَارَ. فَقِيلَ لِمَلِكِ الْبُومِ: هٰذَا وَزِيرُ مَلِكِ الْغِرْبَانِ وَصَاحِبُ رَأْيِهِ؛ فَنَسْأَلُهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ مَا صُنِعَ؟ فَسُئِلَ الْغُرَابُ عَنْ أَمْرِهِ فَقَالَ:





(١) ينقرني: يعيبني ويضربني.



إِنَّ مَلِكَنَا اسْتَشَارَ جَمَاعَتَنَا فِيكُنَّ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِمَحْضَرٍ مِنَ الأَمْرِ؛ فَقَالَ: أَيُّهَا الْغِرْبَانُ، مَا تَرَوْنَ فِي ذٰلِكَ؟ فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لاَ طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ الْبُومِ، لأَنَّهُنَّ أَشَدُّ بَطْشاً، وَأَحَدُّ قَلْباً مِنَّا. وَلٰكِنْ أَرَى أَنْ نَلْتَمِسَ الصُّلْحَ؛ ثُمَّ نَبْذُلَ الْفِدْيَةَ فِي ذٰلِكَ؛ فَإِنْ قَبِلَتِ الْبُومُ ذٰلِكَ مِنَّا، وَإِلاَّ هَرَبْنَا فِي الْبِلاَدِ. وَإِذَا كَانَ الْقِتَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبُومِ كَانَ خَيْراً لَهُنَّ وَشَرًّا لَنَا، فَالصُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ الْخُصُومَةِ. وَأَمَرْتُهُنَّ بِالرُّجُوعِ عَنِ الْحَرْبِ؛ وَضَرَبْتُ لَهُنَّ الأَمْثَالَ فِي ذٰلِكَ؛ وَقُلْتُ لَهُنَّ: إِنَّ الْعَدُوَّ الشَّدِيدَ لاَ يَرُدُّ بَأْسَهُ وَغَضَبَهُ مِثْلُ الْخُضُوعِ لَهُ. أَلا تَرَيْنَ إِلَى الْحَشِيشِ كَيْفَ يَسْلَمُ مِنْ عَاصِفِ الرِيحِ لِلِينِهِ وَمَيْلِهِ مَعَهَا حَيْثُ مَالَتْ؟ فَعَصَيْنَنِي فِي ذٰلِكَ؛ وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ الْقِتَالَ وَاتَّهَمْنَنِي فِيمَا قُلْتُ. وَقُلْنَ: إِنَّكَ قَدْ مَالأْتَ[1] الْبُومَ عَلَيْنَا؛ وَرَدَدْنَ قَوْلِي وَنَصِيحَتِي، وَعَذَّبْنَنِي بِهٰذَا الْعَذَابِ، وَتَرَكَنِي الْمَلِكُ وَجُنُودُهُ وَارْتَحَلَ. وَلاَ عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذٰلِكَ.





فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكُ الْبُومِ مَقَالَةَ الْغُرَابِ قَالَ لِبَعْضِ وُزَرَائِهِ: مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ؟ وَمَا تَرَى فِيهِ؟ قَالَ: مَا أَرَى إِلاَّ الْمُعَاجَلَةَ لَهُ بِالْقَتْلِ، فَإِنَّ هٰذَا أَفْضَلُ عُدَدِ الْغِرْبَانِ، وَفِي قَتْلِهِ لَنَا رَاحَةٌ مِنْ مَكْرِهِ، وَفَقْدُهُ عَلَى الْغِرْبَانِ شَدِيدٌ. وَيُقَالُ: مَنْ ظَفِرَ بِالسَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا يَنْجَحُ الْعَمَلُ، ثُمَّ لاَ يُعَاجِلُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ، فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ، فَإِنَّ

---

(١) مالأت: ساعدت.

البوم والغربان

الأُمُور مَرْهُونَةٌ بأَوْقَاتِهَا. وَمَنْ طَلَبَ الأَمْرَ الْجَسِيم، فَأَمْكَنَهُ ذٰلِكَ، فَأَغْفَلَهُ، فَاتَهُ الأَمْرُ؛ وَهُوَ خَلِيقٌ أَلاَّ تعُود لَهُ الْفُرْصَةُ ثَانِيَةً. وَمَنْ وَجَدَ عَدُوَّهُ ضَعِيفاً وَلَمْ يُنْجِزْ قَتْلَهُ، نَدِمَ إِذَا اسْتَقْوَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ.

قَالَ الْمَلِكُ لِوَزِير آخَرَ: مَا تَرَى أَنْتَ فِي هٰذَا الْغُرَابِ؟ قَالَ: أَرَى أَلاَّ تَقْتُلَهُ، لِأَنَّهُ قَدْ لَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ مَا تَرَاهُ، فَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ دَلِيلاً لَكَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، وَمُعِيناً لَكَ عَلَى مَا فِيهِ هَلاَكُهُمْ. فَإِنَّ الْعَدُوَّ الذَّلِيلَ الَّذِي لاَ نَاصِرَ لَهُ أَهْلٌ لِأَنْ يُسْتَبْقَى وَيُرْحَمَ وَيُصْفَحَ عَنْهُ، لاَ سِيَّمَا الْمُسْتَجِيرُ الْخَائِفُ: فَإِنَّهُ أَهْلٌ لأَنْ يُؤَمَّنَ. وَالْعَدُوُّ، إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الْمَنْفَعَةُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ لَهَا، أَهْلٌ لِأَنْ يُصْفَحَ عَنْهُ بِسَبَبِهَا؛ كَالتَّاجِرِ الَّذِي عَطَفَ على سَارِقٍ، لاصْطِلاَحِهِ مَعَ امْرَأَتِهِ بِسَبَبِهِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟



اللص والتاجر وزوجته(*)

قَالَ الْوَزِيرُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ تَاجِرٌ كَثِيرُ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱمْرَأَتِهِ وحْشَةٌ. وَإِنَّ سَارِقاً تَسَوَّرَ[1] بَيْتَ التَّاجِرِ، فَدَخَلَ، فَوَجَدَهُ نَائِماً، وَوَجَدَ ٱمْرَأَتَهُ

(*) العبرة المستوحاة من القصة هي معنى المثل المشهور «رُبَّ ضارةٍ نافعة» فالأمور الضارة من ناحية قد تكون نافعة من نواحٍ أخرى.

---

(١) تسوّر: أي صعد على الحائط.



مُسْتَيْقِظَةً، فَذُعِرَتْ مِنَ السَّارِقِ، وَوَثَبَتْ إِلَى التَّاجِرِ، فَالْتَزَمَتْهُ وَأَيْقَظَتْهُ وَلَمْ يَكُنْ يَجْرِي بَيْنَهُمَا كَلامٌ، فَاسْتَيْقَظَ التَّاجِرُ وَتَكَالَمَا، وَانْحَلَّتِ الْوَحْشَةُ مِنْ بَيْنِهِمَا. ثُمَّ بَصُرَ بِالسَّارِقِ فَقَالَ: أَيُّهَا السَّارِقُ أَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا أَخَذْتَ مِنْ مَالِي وَمَتَاعِي، وَلَكَ الْفَضْلُ بِما أَصْلَحْتَ بَيْنَنا.



قَالَ مَلِكُ الْبُومِ لِوَزِيرٍ آخَرَ مِنْ وُزَرَائِهِ: مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ؟ قَالَ: أَرَى أَنْ تَسْتَبْقِيَهُ وَتُحْسِنَ إِلَيْهِ: فَإِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَنْصَحَكَ. وَالْعَاقِلُ يَرَى مُعَادَاةَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بَعْضاً ظَفَراً حَسَناً؛ وَيَرَى ٱشْتِغَالَ بَعْضِ الأَعْدَاءِ بِبَعْضٍ خَلاصاً لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ، وَنَجَاةً كَنَجَاةِ النَّاسِكِ مِنَ اللِّصِّ وَالشَّيْطَانِ حِينَ اخْتَلَفَا عَلَيْهِ.

قَالَ الْمَلِكُ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

باب

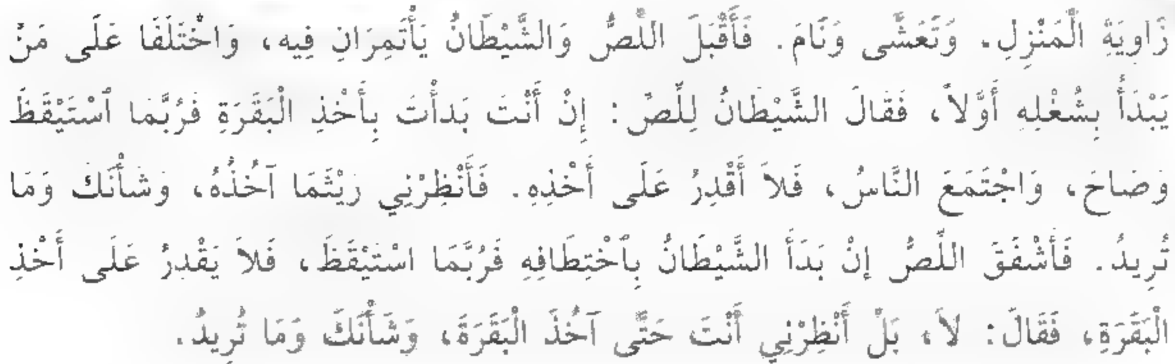
البوم والغربان

اللّص والشّيطان والنّاسك(*)



قَالَ الْوَزِيرُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً أَصَابَ مِنْ رَجُلٍ بَقَرَةً حَلُوباً، فَانْطَلَقَ بِهَا يَقُودُهَا إِلَى مَنْزِلِهِ، فَعَرَضَ لَهُ لِصٌّ أَرَادَ سَرِقَتَهَا، واتَّبَعَهُ شَيْطَانٌ يُرِيدُ اخْتِطَافَهُ. فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلِّصِّ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا اللِّصُّ، أُرِيدُ أَنْ أَسْرِقَ هٰذِهِ الْبَقَرَةَ مِنَ النَّاسِكِ إِذَا نَامَ. فَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الشَّيْطَانُ أُرِيدُ اخْتِطَافَهُ إِذَا نَامَ وَأَذْهَبُ بِهِ. فَانْتَهَيَا عَلَى هٰذَا إِلَى الْمَنْزِلِ، فَدَخَلَ النَّاسِكُ مَنْزِلَهُ، وَدَخَلاَ خَلْفَهُ، وَأَدْخَلَ الْبَقَرَةَ فَرَبَطَهَا فِي





زَاوِيَةِ الْمَنْزِلِ، وَتَعَشَّى وَنَامَ. فَأَقْبَلَ اللِّصُّ وَالشَّيْطَانُ يَأْتَمِرَانِ فِيهِ، وَاخْتَلَفَا عَلَى مَنْ يَبْدَأُ بِشُغْلِهِ أَوَّلاً، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلِّصِّ: إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِأَخْذِ الْبَقَرَةِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقَظَ وَصَاحَ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَلاَ أَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهِ. فَأَنْظِرْنِي رَيْثَمَا آخُذُهُ، وَشَأْنَكَ وَمَا تُرِيدُ. فَأَشْفَقَ اللِّصُّ إِنْ بَدَأَ الشَّيْطَانُ بِاخْتِطَافِهِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقَظَ، فَلاَ يَقْدِرُ عَلَى أَخْذِ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ: لاَ، بَلْ أَنْظِرْنِي أَنْتَ حَتَّى آخُذَ الْبَقَرَةَ، وَشَأْنَكَ وَمَا تُرِيدُ.

فَلَمْ يَزالاَ فِي الْمُجَادَلَةِ هٰكَذَا، حَتَّى نَادَى اللِّصُّ: أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ، فَهٰذَا الشَّيْطَانُ يُرِيدُ اخْتِطَافَكَ؛ وَنَادَى الشَّيْطَانُ: أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ، فَهٰذَا اللِّصُّ يرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ بَقَرَتَكَ. فَانْتَبَهَ النَّاسِكُ وَجِيرَانُهُ بِأَصْوَاتِهِمَا، وَهَرَبَ الْخَبِيثَانِ.

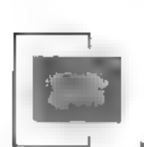
(*) تؤشر القصة إلى مدى الضرر الذي يلحق بذي الرأي غير السديد وعاقبة الاختلاف وسوء النية.

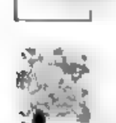




قَالَ الْوَزِيرُ الأَوَّلُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِ الْغُرَابِ: أَظُنُّ أَنَّ الْغُرَابَ قَدْ خَدَعَكُنَّ، وَوَقَعَ كَلامُهُ فِي نَفْسِ الْغَبِيِّ مِنْكُنَّ مَوْقِعَهُ؛ فَتُرِدْنَ أَنْ تَضَعْنَ الرَّأْيَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. فَمَهْلاً مَهْلاً أَيُّهَا الْمَلِكُ عَنْ هٰذَا الرَّأْيِ. وَلاَ تَكُونَنَّ لِما تَسْمَع أَشَدَّ تَصْدِيقاً مِنْكَ لِما تَرَى، كَالرَّجُلِ الَّذِي كَذَّبَ بِما رَأى، وَصَدَّقَ بِمَا سَمِعَ، وَانْخَدَعَ بِالْمُحالِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

اللصوص والرجل المخدوع(*)







قَالَ الْوَزِيرُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ نَائِماً وَحْدَهُ، إِحْدَى اللَّيالِي، فِي بَيْتِهِ، وَإِذَا لُصوصٌ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْهِ الْبَيْتَ، وَأَخَذُوا فِي جَمْعِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَتاعِ، حَتَّى أَفْضُوا[1] إِلَى حَيْثُ هُوَ نَائِمٌ. فَانْتَبَهَ عَلَيْهِمْ، وَخَافَ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهِمْ، حِذارَ أَنْ يَبْطُشُوا بِهِ. وَكَانَ لِلْحُجْرَةِ الَّتِي هُوَ فِيها بَابٌ آخَرُ إِلَى الطَّرِيقِ. فَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

(*) مغزى القصة الدعوة لعدم الانخداع بالأقوال ووجوب البحث والاستقصاء لمعرفة الحقيقة وعدم تصديق كل ما يقال.

---

(١) أفضوا: وصلوا.

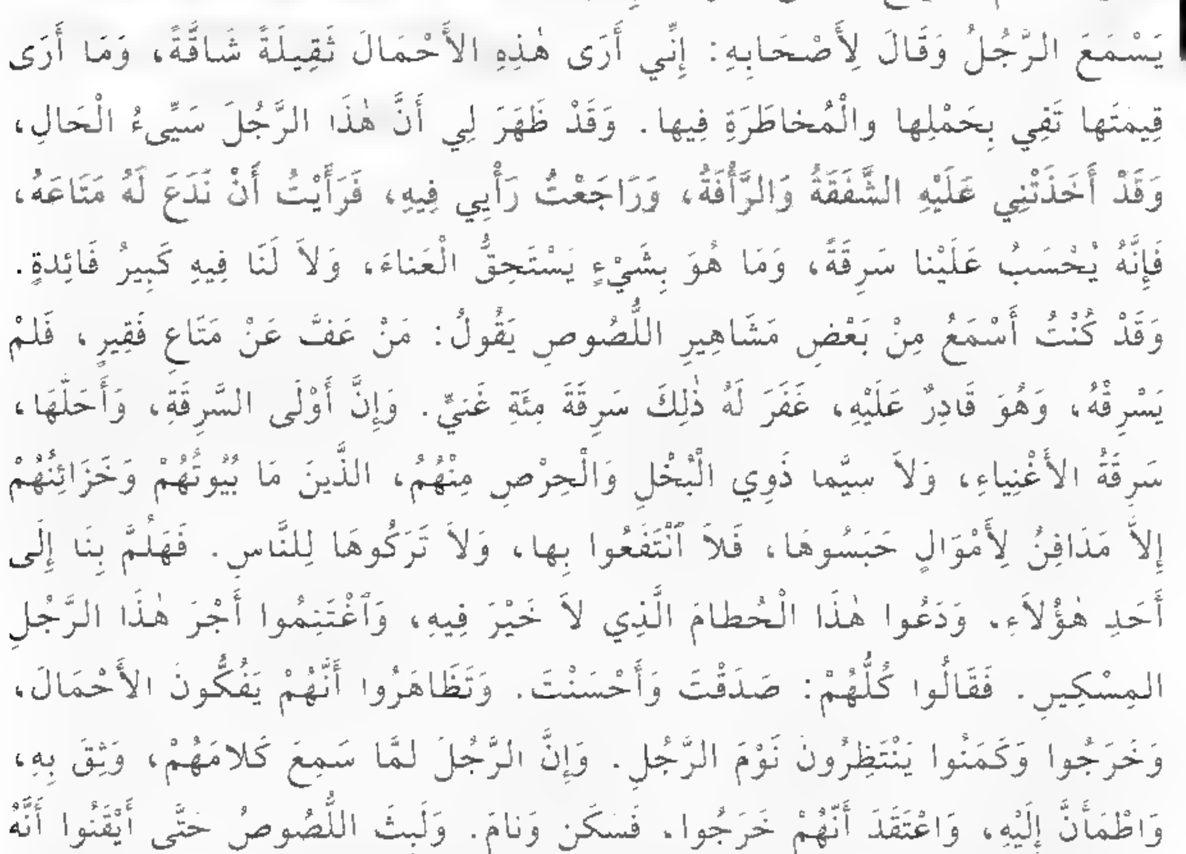
الرَّأْيُ أَنْ لاَ أُشْعِرَهُمْ بِانْتِباهِي، وَلاَ أُذْعِرَهُمْ، حَتّى يَفْرَغُوا مِمَّا يُرِيدُونَ أَخْذَهُ ويُخْرِجُوهُ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُون احْتِمالَهُ. فَأَخْرُجُ مِنَ الْبَابِ الآخرِ، وَأَدْعُوا الْجِيرَانَ فَنَفْجأُهُمْ، وَنُوقِعُ بِهِمْ، فلَبِثَ عَلَى فِرَاشِهِ مُتَناوِماً، حَتَّى فَرَغَ اللُّصُوصُ مِمَّا أَرَادُوا جَمْعَهُ، وَخَرَجُوا يُرِيدُونَ حَمْلَهُ. فَهَمَّ الرَّجُلُ بِالقِيامِ، فَشَعَرُوا بِحَرَكَةٍ مِنْهُ، فَهَمَسَ إِلَيْهِمْ رَئِيسُهُمْ أَنْ قِفُوا، وَلاَ تَرْتَاعُوا، وَتَعالَوا نَحْتَلْ لَهُ بِحِيلَةٍ نَخْدَعُهُ بِهَا، وَلاَ يَذْهَبُ تَعَبُنا ضَياعاً. وَأَنَا الآنَ رَافِعٌ صَوْتِي، وَمُخاطِبُكُمْ بِشَيْءٍ، فَصَوِّبُوا فِيهِ رَأْيِي، وَأَجِيبُونِي إِلَيْهِ. قَالُوا: نَعَمْ. فَرَفَعَ اللِّصُّ صَوْتَهُ، بِحَيْثُ







يَسْمَعَ الرَّجُلُ وَقَالَ لأَصْحابِهِ: إِنِّي أَرَى هٰذِهِ الأَحْمَالَ ثَقِيلَةً شَاقَّةً، وَمَا أَرَى قِيمتَها تَفِي بِحَمْلِها والْمُخاطَرَةِ فِيها. وَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هٰذَا الرَّجُلَ سَيِّءُ الْحالِ، وَقَدْ أَخَذَتْنِي عَلَيْهِ الشَّفَقَةُ وَالرَّأْفَةُ، وَرَاجَعْتُ رَأْيِي فِيهِ، فَرَأَيْتُ أَنْ نَدَعَ لَهُ مَتاعَهُ، فَإِنَّهُ يُحْسَبُ عَلَيْنا سَرِقَةً، وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ يَسْتَحِقُّ الْعَناءَ، وَلاَ لَنَا فِيهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ. وَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ بَعْضِ مَشَاهِيرِ اللُّصُوصِ يَقُولُ: مَنْ عَفَّ عَنْ مَتَاعِ فَقِيرٍ، فَلَمْ يَسْرِقْهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، غَفَرَ لَهُ ذٰلِكَ سَرِقَةَ مِئَةِ غَنِيٍّ. وَإِنَّ أَوْلَى السَّرِقَةِ، وَأَحَلَّهَا، سَرِقَةُ الأَغْنِياءِ، وَلاَ سِيَّما ذَوِي الْبُخْلِ وَالْحِرْصِ مِنْهُمْ، الَّذِينَ مَا بُيُوتُهُمْ وَخَزَائِنُهُمْ إِلاَّ مَدَافِنُ لِأَمْوَالٍ حَبَسُوهَا، فَلاَ انْتَفَعُوا بِها، وَلاَ تَرَكُوهَا لِلنَّاسِ. فَهَلُمَّ بِنَا إِلَى أَحَدِ هٰؤُلاَءِ. وَدَعُوا هٰذَا الْحُطامَ الَّذِي لاَ خَيْرَ فِيهِ، وَاغْتَنِمُوا أَجْرَ هٰذَا الرَّجُلِ المِسْكِينِ. فَقَالُوا كُلُّهُمْ: صَدَقْتَ وَأَحْسَنْتَ. وَتَظَاهَرُوا أَنَّهُمْ يَفُكُّونَ الأَحْمَالَ، وَخَرَجُوا وَكَمَنُوا يَنْتَظِرُونَ نَوْمَ الرَّجُلِ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَمَّا سَمِعَ كَلامَهُمْ، وَثِقَ بِهِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا. فَسَكَنَ وَنامَ. وَلَبِثَ اللُّصُوصُ حَتَّى أَيْقَنُوا أَنَّهُ

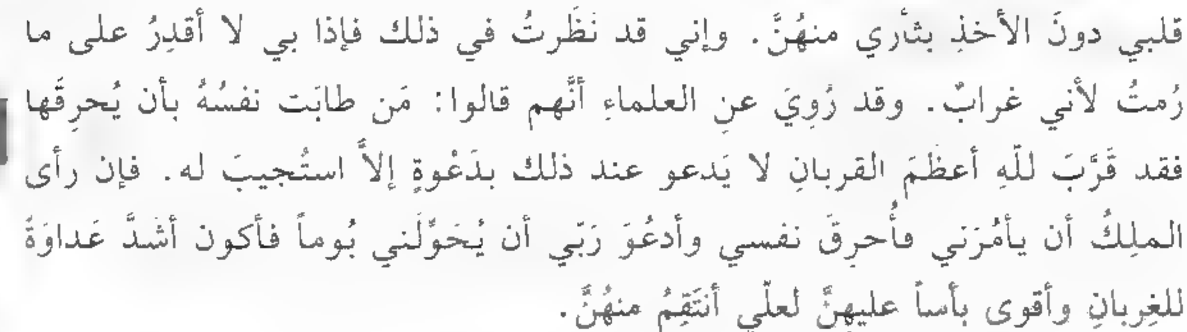




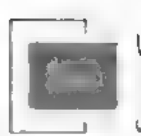
قَدْ نامَ، فَثارُوا إِلى الأَحْمالِ فَاحْتَمَلُوها، وَفَازُوا بِها.

وإنَّما ضَرَبتُ لكَ هذا المَثَلَ إرادَةَ أن لا تكونَ كذلكَ الرجلِ الذي كَذَّبَ بما رأى وصَدَّقَ بما سَمِعَ. فلم يَلتَفِتِ الملِكُ إلى قَولِهِ وأمَرَ بالغرابِ أن يُحمَلَ إلى منازِلِ البومِ ويُكرَمَ ويُستَوصى به خيراً.

ثم إنَّ الغرابَ قالَ للملِكِ يوماً وعندَهُ جماعَةٌ مِنَ البومِ وفيهِنَّ الوَزيرُ الذي أشارَ بقَتلِهِ: أيُّها الملِكُ قد عَلِمتَ ما جَرى عليَّ مِنَ الغِربانِ وإنَّه لا يَستَريحُ



قلبي دونَ الأخذِ بثأري منهُنَّ. وإني قد نظَرتُ في ذلك فإذا بي لا أقدِرُ على ما رُمتُ لأني غرابٌ. وقد رُوِيَ عنِ العلماءِ أنَّهم قالوا: مَن طابَت نفسُهُ بأن يُحرِقَها فقد قَرَّبَ للّهِ أعظَمَ القربانِ لا يَدعو عند ذلك بدَعْوةٍ إلاَّ استُجيبَ له. فإن رأى الملِكُ أن يأمُرَني فأُحرِقَ نفسي وأدعُوَ رَبّي أن يُحَوِّلَني بُوماً فأكون أشَدَّ عَداوَةً للغِربانِ وأقوى بأساً عليهِنَّ لعلّي أنتَقِمُ منهُنَّ.





فقالَ الوَزيرُ الذي أشارَ بقَتلِهِ: ما أشبَهَكَ في خَيرِ ما تُظهِرُ وشَرِّ ما تُضمِرُ بالخَمرَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعمِ والرِّيحِ المُنقَعِ فيها السُّمُ. أرأيتَ لو أحرَقنا جِسمَكَ بالنارِ أنَّ جَوهَرَكَ وطَبعَكَ مُتَغَيِّرٌ؟ أوَلَيسَت أخلاقُكَ تَدورُ معكَ حيث دُرتَ وتَصيرُ بعد ذلك إلى أصلِكَ وطينَتِكَ؟ كالفأرَةِ التي خُيِّرَت في الأزواجِ بين الشَّمسِ والرِّيحِ والسَّحابِ والجَبَلِ فلم تَزَلْ تَتَخَيَّرُهُمْ حتى رَجَعَتْ إلى أصلِها وتَزَوَّجَتِ الجُرَذَ. قيلَ له:



وكيفَ كانَ ذلكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ نَاسِكٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ، **فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ إِذْ مَرَّتْ بِهِ حِدَأَةٌ[1] فِي رِجْلِهَا دِرْصُ[2] فَأْرَةٍ.** فَوَقَعَتْ مِنْهَا عِنْدَ النَّاسِكِ، وَأَدْرَكَتْهُ لَهَا رَحْمَةٌ. فَأَخَذَهَا وَلَفَّهَا فِي وَرَقَةٍ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ؛ ثُمَّ خَافَ أَنْ تَشُقَّ[3] عَلَى أَهْلِهِ تَرْبِيَتُهَا، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا جَارِيَةً، فَتَحَوَّلَتْ جَارِيَةً حَسْنَاءَ. فَانْطَلَقَ بِهَا إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ لَهَا: هٰذِهِ ابْنَتِي، فَاصْنَعِي مَعَهَا صَنِيعَكِ بِوَلَدِي.





(١) الحدأة: طائر يصطاد الجرذان ويعرف عند العامة بالشوحة.
(٢) درص: ولد الفأرة. (٣) تشق: تصعب.





فَلَمَّا كَبِرَتْ قَالَ لَهَا النَّاسِكُ: يَا بُنَيَّةُ اخْتَارِي مَنْ أَحْبَبْتِ حَتَّى أُزَوِّجَكِ بِهِ. فَقَالَتْ: أَمَّا إِذْ خَيَّرْتَنِي فَإِنِّي أَخْتَارُ زَوْجاً يَكُونُ أَقْوَى الأَشْيَاءِ. فَقَالَ النَّاسِكُ: لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ الشَّمْسَ! ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الشَّمْسِ فَقَالَ: أَيُّهَا الْخَلْقُ الْعَظِيمُ، لِي جَارِيَةٌ، وَقَدْ طَلَبَتْ زَوْجاً يَكُونُ أَقْوَى الأَشْيَاءِ، فَهَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجُهَا؟ فَقَالَتِ الشَّمْسُ: أَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، السَّحَابُ الَّذِي يُغَطِّينِي، وَيَرُدُّ حَرَّ شُعَاعِي، وَيَكْسِفُ أَشِعَّةَ أَنْوَارِي. فَذَهَبَ النَّاسِكُ إِلَى السَّحَابِ فَقَالَ لَهُ مَا قَالَ



لِلشَّمْسِ، فَقَالَ السَّحَابُ: وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، فَاذْهَبْ إِلَى الرِّيحِ الَّتِي تُقْبِلُ بِي وَتُدْبِرُ، وَتَذْهَبُ بِي شَرْقاً وَغَرْباً. فَجَاءَ النَّاسِكُ إِلَى الرِّيحِ فَقَالَ لَهَا كَقَوْلِهِ لِلسَّحَابِ. فَقَالَتْ: وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي لاَ أَقْدِرُ عَلَى تَحْرِيكِهِ. فَمَضَى إِلَى الْجَبَلِ فَقَالَ لَهُ الْقَوْلَ الْمَذْكُورَ.

فَأَجَابَهُ الْجَبَلُ وَقَالَ لَهُ: أَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي: الْجُرَذُ الَّذِي لاَ أَسْتَطِيعُ الامْتِنَاعَ مِنْهُ إِذا ثَقَبَنِي، وَاتَّخَذَنِي مَسْكَناً. فَانْطَلَقَ النَّاسِكُ إِلَى الْجُرَذِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجٌ هٰذِهِ الْجَارِيَةَ؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ أَتَزَوَّجُهَا وَجُحْرِي ضَيِّقٌ؟ وَإِنَّمَا يَتَزَوَّجُ الْجُرَذُ الْفَأْرَةَ. فَدَعَا النَّاسِكُ رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا فَأْرَةً كَمَا كَانَتْ وَذٰلِكَ بِرِضَا الْجَارِيَةِ؛ فَأَعَادَهَا اللَّهُ إِلَى عُنْصُرِهَا الأَوَّلِ فَانْطَلَقَتْ مَعَ الْجُرَذِ. فَهٰذَا مَثَلُكَ. أَيُّهَا الْمُخَادِعُ.



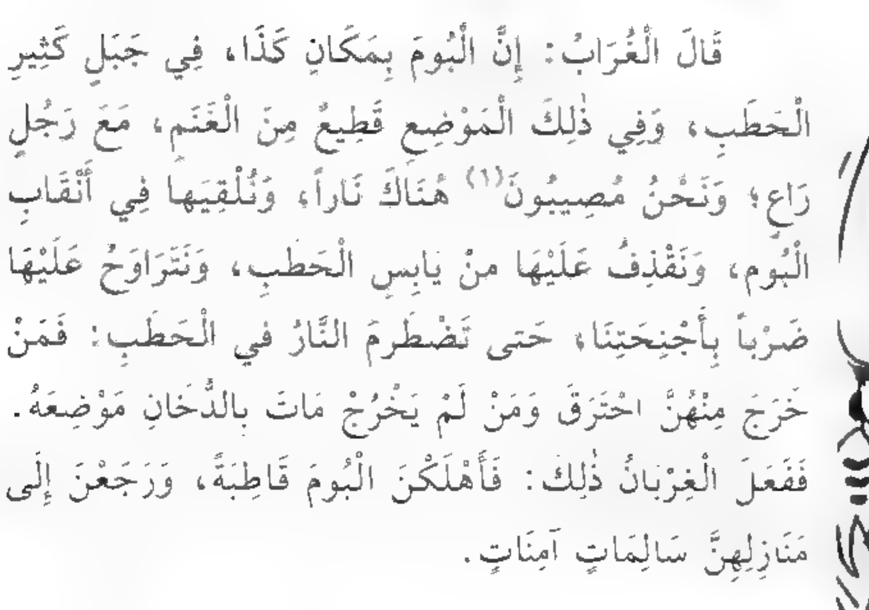
فَلَمْ يَلْتَفِتْ مَلِكُ الْبُوم إِلَى ذٰلِكَ الْقَوْلِ، وَرَفَقَ بِالْغُرَابِ، وَلَمْ يَزْدَدْ لَهُ إِلاَّ إِكْرَاماً، حَتَّى إِذَا طَابَ عَيْشُهُ، وَنَبَتَ رِيشُهُ؛ وَاطَّلَعَ عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ، رَاغَ[١] رَوْغَةً. فَأَتَى أَصْحَابَهُ بِمَا رَأَى وَسَمِعَ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ فَرَغْتُ مِمَّا كُنْتُ أُرِيدُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ، قَالَ لَهُ: أَنَا وَالْجُنْدُ تَحْتَ أَمْرِكَ، فَاحْتَكِمْ كَيْفَ شِئْتَ.



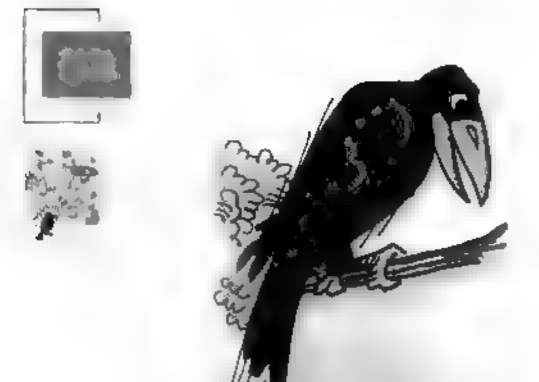
( ) راغ: مال بحيلة.







قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّ الْبُومَ بِمَكَانِ كَذَا، فِي جَبَلٍ كَثِيرِ الْحَطَبِ، وَفِي ذٰلِكَ الْمَوْضِعِ قَطِيعٌ مِنَ الْغَنَمِ، مَعَ رَجُلٍ رَاعٍ؛ وَنَحْنُ مُصِيبُونَ[١] هُنَاكَ نَاراً، وَنُلْقِيهَا فِي أَنْقَابِ الْبُومِ، وَنَقْذِفُ عَلَيْهَا مِنْ يَابِسِ الْحَطَبِ، وَنَتَرَاوَحُ عَلَيْهَا ضَرْباً بِأَجْنِحَتِنَا، حَتى تَضْطَرِمَ النَّارُ في الْحَطَبِ: فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُنَّ احْتَرَقَ وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ مَاتَ بِالدُّخَانِ مَوْضِعَهُ. فَفَعَلَ الْغِرْبَانُ ذٰلِكَ: فَأَهْلَكْنَ الْبُومَ قَاطِبَةً، وَرَجَعْنَ إِلَى مَنَازِلِهِنَّ سَالِمَاتٍ آمِنَاتٍ.



ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الْغِرْبَانِ قَالَ لِذٰلِكَ الْغُرَابِ: كَيْفَ صَبَرْتَ عَلَى صُحْبَةِ الْبُومِ، وَلاَ صَبْرَ لِلأَخْيَارِ عَلَى صُحْبَةِ الأَشْرَارِ؟ فَقَالَ الْغُرَابُ: إِنَّ مَا قُلْتَهُ، أَيُّهَا الْمَلِكُ لَكَذٰلِكَ. وَلٰكِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا أَتَاهُ الأَمْرُ الْفَظِيعُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَخَافُ مِنْ عَدَمِ تَحَمُّلِهِ الْجَائِحَةَ[٢] عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ، لِمَا يَرْجُو مِنْ أَنْ يُعْقِبَهُ صَبْرُهُ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ وَكَثِيرَ الْخَيْرِ فَلَمْ يَجِدْ لِذٰلِكَ أَلَماً، وَلَمْ تَكْرَهْ نَفْسُهُ الْخُضُوعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ، حتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ، فَيَغْتَبِطَ بِخَاتِمَةِ أَمْرِهِ، وَعَاقِبَةِ صَبْرِهِ.

---

(١) مصيبون: واجدون.

(٢) الجائحة: المصيبة العظيمة التي تهلك الناس.

باب
البوم والغربان



فَقَالَ الْمَلِكُ: أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُولِ الْبُوم. قَالَ الْغُرَابُ: لَمْ أَجِدْ فِيهِنَّ عَاقِلاً إِلاَّ الَّذِي كَانَ يَحُثُّهُنَّ عَلَى قَتْلِي، وَكَانَ حَرَّضَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ مِرَاراً، فَكُنَّ أَضْعَفَ شَيْءٍ رَأْياً! فَلَمْ يَنْظُرْنَ فِي أَمْرِي، وَيَذْكُرْنَ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذَا مَنْزِلَةٍ فِي الْغِرْبَانِ، وَأَنِّي أُعَدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْنَ مَكْرِي وَحِيلَتِي، وَلاَ قَبِلْنَ مِنَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ، وَلاَ أَخْفَيْنَ دُونِي أَسْرَارَهُنَّ.

وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُحَصِّنَ أُمُورَهُ مِنْ أَهْلِ النَّمِيمَةِ، وَلاَ يُطْلِعَ أَحَداً مِنْهُمْ عَلَى مَوَاضِعِ سِرِّهِ.

وقَدْ قِيلَ: يَنْبَغِي للمَرْءِ أَنْ يَتَحفَّظَ منْ عَدُوِّه في كُلِّ شَيءٍ حَتَّى في الْمَاءِ الَّذي يَشْرَبُهُ وَيغْتَسلُ بِه والْفراش الَّذي يَنامُ عَلَيْه وَالْحُلَّة الَّتي يَلْبَسُهَا والدَّابَّة التي يرْكَبُها، وَلا يَأْمَنَ على نفْسه إلا الثِّقَةَ الأمينَ السَّالمَ الْبَاطنِ والظَّاهرِ، ويَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلى حَذَرٍ مِنْهُ لِأَنَّ عَدُوَّهُ لا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إلاَّ مِنْ جِهَةِ ثِقَاتِهِ فرُبَّما كانَ أَحَدُهُمْ لِعَدُوِّهِ صَدِيقاً فَيَصِلُ الْعَدُوُّ إلى مُرَادِهِ مِنْهُ.

فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا أَهْلَكَ الْبُومَ فِي نَفْسِي إِلاَّ الْبَغْيُ، وضَعْفُ رَأْيِ الْمَلِكِ، وَمُوَافَقَتُهُ وُزَرَاءَ السُّوءِ.

فَقَالَ الْغُرَابُ: صَدَقْتَ أَيُّها الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَلَّما ظَفِرَ أَحَدٌ بِغِنًى ولَمْ يُطْغِ، وَقَلَّ مَنْ أَكْثَرَ مِن الطَّعَامِ إلاَّ مَرِضَ. وَقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَرَاءِ السُّوءِ وَسَلِمَ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي الْمَهَالِكِ. وَكَانَ يُقَالُ: لاَ يَطْمَعَنَّ ذُو الْكِبْرِ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ، وَلاَ الْخِبُّ فِي كَثْرَةِ الصَّدِيقِ، وَلاَ السَّيِّءُ الأَدَبِ فِي الشَّرَفِ، وَلاَ الشَّحِيحُ فِي الْبِرِّ، وَلاَ الْحَرِيصُ فِي



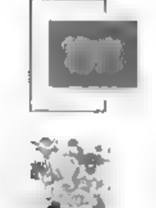
قِلَّةِ الذُّنوبِ، وَلاَ الْمَلِكُ الْمُخْتَالُ، الْمُتَهاوِنُ بِالأُمُورِ، الضَّعِيفُ الْوُزَرَاءِ فِي ثَبَاتِ مُلْكِهِ، وَصَلاحِ رَعِيَّتِهِ.

قَالَ الْمَلِكُ: لَقَدِ احْتَمَلْتَ مَشَقَّةً شَدِيدَةً فِي تَصَنُّعِكَ لِلْبُومِ، وَتَضَرُّعِكَ لَهُنَّ.



قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّهُ مَنِ احْتَمَلَ مَشَقَّةً يَرْجُو نَفْعَهَا، وَنَحَّى عَنْ نَفْسِهِ الأَنَفَةَ[1] وَالْحَمِيَّةَ[2]، وَوَطَّنَهَا عَلَى الصَّبْرِ حَمِدَ غِبَّ[3] رَأْيِهِ؛ كَمَا صَبَرَ الأَسْوَدُ عَلَى حَمْلِ مَلِكِ الضَّفَادِعِ عَلَى ظَهْرِهِ، وَشَبِعَ بِذَلِكَ وَعَاشَ.

قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟



الأسود وملك الضفادع(*)

قَالَ الْغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسْوَدَ مِنَ الْحَيَّاتِ كَبِرَ، وَضَعُفَ بَصَرُهُ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْداً، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى طَعَامٍ؛ وَأَنَّهُ انْسَابَ يَلْتَمِسُ شَيْئاً يَعِيشُ بِهِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنٍ كَثِيرَةِ الضَّفَادِعِ، قَدْ كَانَ يَأْتِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَيُصِيبُ مِنْ ضَفَادِعِهَا



(*) ترمز القصة إلى إجارة مهادنة العدو لفترة مؤقتة للاستفادة من مواقع ضعفه.

---

(١) الأنفة: عزة النفس.
(٢) الحمية: النخوة والمروءة والحماسة.
(٣) غب: عاقبة.

رِزْقَهُ، فَرَمَى نَفْسَهُ قَرِيباً مِنْهُنَّ مُظْهِراً لِلْكَآبَةِ وَالْحُزْنِ. فَقَالَ لَهُ ضِفْدِعٌ: مَا لِيَ أَرَاكَ، أَيُّهَا الأَسْوَدُ، كَئِيباً حَزِيناً؟ قَالَ: وَمَنْ أَحْرَى بِطُولِ الْحُزْنِ مِني ! وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرَ مَعِيشَتِي مِمَّا كُنْتُ أُصِيبُ مِنَ الضَّفَادِعِ، فَابْتُلِيتُ بِبَلاَءٍ، وَحَرُمَتْ عَلَيَّ الضَّفَادِعُ مِنْ أَجْلِهِ؛ حَتَّى إِنِّي إِذَا الْتَقَيْتُ بِبَعْضِهَا، لاَ أَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِهِ.

فَانْطَلَقَ الضِّفْدَعُ إِلَى مَلِكِ الضَّفَادِعِ، فَبَشَّرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الأَسْوَدِ. فَأَتَى مَلِكُ الضَّفَادِعِ إِلَى الأَسْوَدِ. فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ كَانَ أَمْرُكَ؟ قَالَ: سَعَيْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ فِي



طَلَبِ ضِفْدَعٍ، وَذٰلِكَ عِنْدَ الْمَسَاءِ؛ فَاضْطَرَرْتُهُ إِلَى بَيْتِ نَاسِكٍ، وَدَخَلْتُ فِي أَثَرِهِ فِي الظُّلْمَةِ وَفِي الْبَيْت ابْنٌ لِلنَّاسِكِ، فَأَصَبْتُ إِصْبَعَهُ؛ فَظَنَنْتُ أَنَّهَا الضِّفْدَعُ؛ فَلَدَغْتُهُ فَمَاتَ. فَخَرَجْتُ هَارِباً، فَتَبِعَنِي النَّاسِكُ فِي أَثَرِي، وَدَعَا عَلَيَّ، وَلَعَنَنِي. وَقَالَ: كَمَا قَتَلْتَ ابْنِي الْبَرِيءَ ظُلْماً وَتَعَدِّياً، أَدْعُو عَلَيْكَ أَنْ تَذِلَّ وَتَصِيرَ مَرْكَباً لِمَلِكِ الضَّفَادِعِ، فَلاَ تَسْتَطِيعُ أَخْذَهَا، وَلاَ أَكْلَ شَيْءٍ مِنْهَا، إِلاَّ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْكَ




مَلِكُهَا. فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ لِتَرْكَبَنِي، مُقِرًّا بِذٰلِكَ، رَاضِياً بِهِ. **فَرَغِبَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ فِي رُكُوبِ الأَسْوَدِ**، وَظَنَّ أَنَّ ذٰلِكَ فَخْرٌ لَهُ وَشَرَفٌ، وَرِفْعَةٌ، فَرَكِبَهُ وَاسْتَطَابَ ذٰلِكَ. فَقَالَ لَهُ الأَسْوَدُ: قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ



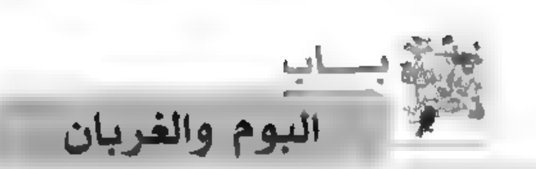
أَنِّي مَحْرُومٌ، فَاجْعَلْ لِي رِزْقاً أَعِيشُ بِهِ. قَالَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ: لَعَمْرِي لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ رِزْقٍ يَقُومُ بِكَ، إِذْ كُنْتَ مَرْكَبِي. فَأَمَرَ لَهُ بِضِفْدَعَيْنِ يُؤْخَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَيُدْفَعَانِ إِلَيْهِ. فَعَاشَ بِذٰلِكَ، وَلَمْ يَضُرَّهُ خُضُوعُهُ لِلْعَدُوِّ الذَّلِيلِ؛ بَلِ انْتَفَعَ بِذٰلِكَ، وَصَارَ لَهُ رِزْقاً وَمَعِيشَةً.

وَكَذٰلِكَ كَانَ صَبْرِي عَلَى مَا صَبَرْتُ عَلَيْهِ، الْتِمَاساً لِهٰذَا النَّفْعِ الْعَظِيمِ الَّذِي اجْتَمَعَ لَنَا فِيهِ الأَمْنُ وَالظَّفَرُ، وَهَلاَكُ الْعَدُوِّ وَالرَّاحَةُ مِنْهُ. وَوَجَدْتُ صَرْعَةَ(١) اللِّينِ وَالرِّفْقِ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ اسْتِئْصَالاً لِلْعَدُوِّ مِنْ صَرْعَةِ الْمُكَابَرَةِ: فَإِنَّ النَّارَ لاَ تَزِيدُ بِحِدَّتِهَا وَحَرِّهَا إِذَا أَصَابَتِ الشَّجَرَةَ عَلَى أَنْ تُحْرِقَ مَا فَوْقَ الأَرْضِ مِنْهَا. وَالْمَاءُ بِبَرْدِهِ وَلِينِهِ يَسْتَأْصِلُ مَا تَحْتَ الأَرْضِ مِنْهَا. وَيُقَالُ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ لاَ يُسْتَقَلُّ قَلِيلُهَا: النَّارُ وَالْمَرَضُ وَالْعَدُوُّ وَالدَّيْنُ.



قَالَ الْغُرَابُ: وَكُلُّ ذٰلِكَ كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَأَدَبِهِ وَسَعَادَةِ جَدِّهِ. وَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: إِذَا طَلَبَ اثْنَانِ أَمْراً ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمَا أَفْضَلُهُمَا مُرُوءَةً. فَإِنِ اعْتَدَلاَ فِي

(١) صرعة: أي إهلاك.



الْمُرُوءَةِ، فَأَشَدُّهُمَا عزماً. فَإِنِ اسْتَوَيَا فِي الْعَزْمِ، فَأَسْعَدُهُمَا جِدًا. وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ حَارَبَ الْمَلِكَ الْحَازِمَ الأَرِيبَ[1] الْمُتَضَرِّعَ الَّذِي لاَ تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ، وَلاَ تُدْهِشُهُ الضَّرَّاءُ، كَانَ هُوَ داعي الْحَتْفِ إِلَى نَفْسِهِ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِثْلَكَ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَالِمُ بِفُرُوضِ الأَعْمَالِ، وَمَوَاضِعِ الشِّدَّةِ وَاللِّينِ، وَالْغَضَبِ وَالرِّضا، وَالْمُعَاجَلَةِ وَالأَنَاةِ؛ النَّاظِرُ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَغَدِهِ، وَعَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ.

قَالَ الْمَلِكُ لِلْغُرَابِ: بَلْ بِرَأْيِكَ وَعَقْلِكَ وَنَصِيحَتِكَ وَيُمْنِ طَالِعِكَ كَانَ ذَلِكَ، فَإِنَّ رَأْيَ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، الْعَاقِلِ الْحَازِمِ، أَبْلَغُ فِي هَلاَكِ الْعَدُوِّ مِنَ الْجُنُودِ الْكَثِيرَةِ، مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ، وَالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ. وَإِنَّ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِكَ عِنْدِي طُولَ لُبْثِكَ[2] بَيْنَ ظَهْرَانَي[3] الْبُوم تَسْمَعُ الْكَلاَمَ الْغَلِيظَ، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ بِكَلِمَةٍ !





قَالَ الْغُرَابُ: لَمْ أَزَلْ مُتَمَسِّكاً بِأَدَبِكَ. أَيُّهَا الْمَلِكُ: أَصْحَبُ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ، بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ، وَالْمُبَالَغَةِ وَالْمواتَاة[4].

قَالَ الْمَلِكُ: أَصْبَحْتُ وَقَدْ وَجَدْتُك صَاحِبَ الْعَمَلِ، وَوَجَدْتُ غَيْرَكَ مِنَ الْوُزَرَاءِ أَصْحَابَ أَقَاوِيلَ: لَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ. فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بِكَ مِنَّةً عَظِيمَةً لَمْ نَكُنْ قَبْلَها نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعامِ وَلاَ الشَّرَابِ، وَلاَ النَّوْمِ وَلاَ الْقَرَارِ. وَكَانَ يُقَالُ: لاَ يَجِدُ الْمَرِيضُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالنَّوْمِ حَتَّى يَبْرَأَ؛ وَلاَ الرَّجُلُ الشَّرِهُ الَّذِي قَدْ أَطْمَعَهُ سُلْطَانُهُ فِي مَالٍ وَعَمَلٍ فِي يَدِهِ، حَتَّى يُنْجِزَهُ لَهُ؛ وَلاَ الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ عَدُوُّهُ، وَهُوَ

---

(١) الأريب: الحاذق بكل عمل.

(٢) لبثك: إقامتك.

(٣) ظهراني: أي في وسطهم.

(٤) المواتاة: الملاينة والموافقة.



يَخَافُهُ صَبَاحاً وَمساءً حَتّى يَسْتريحَ مِنْهُ قَلْبُهُ. وَمَنْ وَضعَ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ عَنْ يَدَيْهِ أَرَاحَ نَفْسَهُ. وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ ثَلَجَ صَدْرُهُ.

قَالَ الْغُرَابُ: أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ أَنْ يُمتِّعَكَ بِسُلْطَانِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي ذٰلِكَ صَلاَحَ رَعِيَّتِكَ، وَيُشْرِكَهُمْ فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمُلْكِكَ ! فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مُلْكِهِ قُرَّةَ عُيُونِ رَعِيَّتِهِ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ زَنَمَةِ[1] الْعَنْزِ الَّتِي يَمَصُّهَا، وَهُوَ يَحْسَبُهَا حَلَمَةَ الضَّرْعِ[2]، فَلاَ يُصَادِفُ فِيهَا خَيْراً.



قَالَ الْمَلِكُ: أَيُّهَا الْوَزِيرُ الصَّالِحُ، كَيْفَ كَانَتْ سِيرَةُ الْبُوم وَمَلِكِهَا فِي حُرُوبِهَا، وَفِيمَا كَانَتْ فِيهِ مِنْ أُمُورِهَا؟ قَالَ الْغُرَابُ: كَانَتْ سِيرَتُهُ سِيرَةَ بَطَرٍ، وَأَشَرٍ[3] وَخُيَلاَءَ، وَعَجْزٍ، وَفَخْرٍ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ. وَكُلُّ أَصْحَابِهِ وَوُزَرَائِهِ شَبِيهٌ بِهِ، إِلاَّ الْوَزِيرَ الَّذِي كَانَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِي: فَإِنَّهُ كَانَ حَكِيماً أَرِيباً، فَيْلَسُوفاً حَازِماً عَالِماً، قَلَّمَا يُرَى مِثْلُهُ فِي عُلُوِّ الْهِمَّةِ، وَكَمَالِ الْعَقْلِ، وَجَوْدَةِ الرَّأْيِ.

قَالَ الْمَلِكُ: وَأَيُّ خَصْلَةٍ رَأَيْتَ مِنْهُ كَانَتْ أَدلَّ عَلى عَقْلِهِ؟ قال: خَلَّتَانِ: إِحْدَاهُمَا رَأْيُهُ فِي قَتْلِي، والأُخْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ صَاحِبَهُ نَصِيحَتَهُ، وَإِنِ اسْتَقَلَّهَا؛ وَلَمْ يَكُنْ كَلاَمُهُ كَلاَمَ عُنْفٍ وَقَسْوَةٍ، وَلٰكِنَّهُ كَلاَمُ رِفْقٍ وَلِينٍ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْض عُيُوبِهِ، وَلاَ يُصَرحُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الأَمْثَالَ، وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ

---

(١) زنمة: لحمة تتدلى من عنق العنز.

(٢) الضرع: لذات الظلف كالثدي للمرأة والخلف للناقة.

(٣) أشر: نزق واختيال.

غَيْرِهِ، فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ. فَلاَ يَجِدُ مَلِكُهُ إِلَى الْغَضَبِ عَلَيْهِ سَبِيلاً.

وَكَانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِمَلِكِهِ: إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِهِ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيمٌ، لاَ يَظْفَرُ بِهِ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ قَلِيلٌ، وَلاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْحَزْمِ؛ فَإِنَّ الْمُلْكَ عَزِيزٌ، فَمَنْ ظَفِرَ بِهِ فَلْيُحْسِنْ حِفْظَهُ وَتَحْصِينَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ فِي قِلَّةِ بَقَائِهِ بِمَنْزِلَةِ قِلَّةِ بَقَاءِ الظِّلِّ عَنْ وَرَقِ النَّيْلَوْفَرِ؛ وَهُوَ فِي خِفَّةِ زَوَالِهِ، وَسُرْعَةِ إِقْبَالِهِ وَإِدْبَارِهِ كَالرِّيحِ؛ وَفِي قِلَّةِ ثَبَاتِهِ كَاللَّبِيبِ[1] مَعَ اللِّئَامِ؛ وَفِي سُرْعَةِ اضْمِحْلاَلِهِ كَحَبَابِ الْمَاءِ مِنْ وَقْعِ الْمَطَرِ.



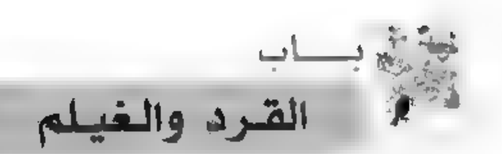
فَهَذَا مَثَلُ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ الَّذِينَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِمْ؛ وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّداً وَتَضَرُّعاً.

(١) اللّبيب: العاقل.



بـاب

القِرْد وَالغَـيْـلَم



القِرْدُ وَالغَيْلَم(*)

قَال دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ، فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا، أَضَاعَهَا.

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنَّ طَلَبَ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنَ الاحْتِفَاظِ بِهَا، وَمَنْ ظَفِرَ بِحاجَةٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيامَ بِهَا، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْغَيْلَمَ(١). قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟



قَالَ بَيْدَبَا: **زَعَمُوا أَنَّ قِرْداً يُقَالُ لَهُ مَاهِرٌ، كَانَ مَلِكَ الْقِرَدَةِ، وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شَابٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ.** فَخَرَجَ هَارِباً عَلَى وَجْهِهِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ،

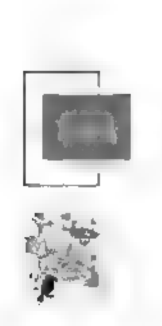
(*) مضمون القصة يتمحور حول ذكاء القرد من جهة، وحول وقوع الريبة والشك بين الأصدقاء وسرعة البديهة للتخلص من المصائب.

(١) الغيلم: ذكر السلحفاة.



فَوَجَدَ شَجَرَةً مِنْ شَجَرَ التِّينِ، فَارْتَقَى إِلَيْهَا وَجَعَلَهَا مُقَامَهُ.

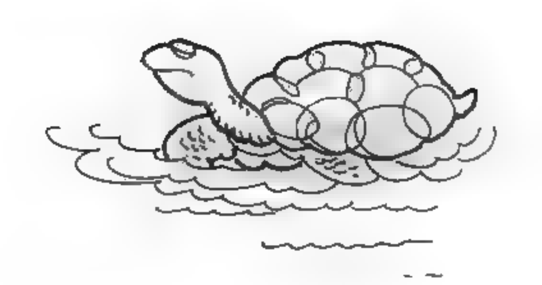
فَبَيْنَما هُوَ ذاتَ يَوْم يَأْكُلُ مِنْ ذٰلِك التِّينِ، إذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تِينَةٌ فِي الْماءِ، فَسَمِعَ لَهَا صَوْتاً وَإِيقَاعاً، فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَرْمِي فِي الْماءِ، فَأَطْرَبَهُ ذٰلِكَ. **فَأَكْثَرَ مِنْ طَرْحِ التِّينِ فِي الْمَاءِ، وَثَمَّ**[1] **غَيْلَمٌ**، كُلَّما وَقَعَتْ تِينَةٌ أَكَلَها. فَلَمّا كَثُرَ ذٰلِكَ ظَنَّ أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ لأَجْلِهِ، فَرَغِبَ في مُصادَقَتِهِ، وَأَنِسَ إِلَيْهِ، وَكَلَّمَهُ، وَأَلِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ.





(١) ثَمّ: هناك.

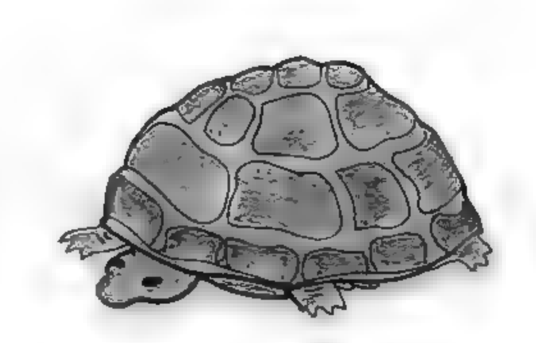
بـــاب
القـرد والغيـلم



وَطَالَتْ غَيْبَةُ الْغَيْلَمِ عَنْ زَوْجَتِهِ، فَجَزِعَتْ[1] عَلَيْهِ، وَشَكَتْ ذَلِكَ إِلَى جَارَةٍ لَهَا، وَقَالَتْ: قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ فَاغْتَالَهُ.

فَقَالَتْ لَهَا: إِنَّ زَوْجَكِ بِالسَّاحِلِ قَدْ أَلِفَ قِرْداً وَأَلِفَهُ الْقِرْدُ، فَهُوَ مُؤَاكِلُهُ وَمُشَارِبُهُ، وَهُوَ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْكِ، وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكِ حَتَّى تَحْتَالِي لِهَلاَكِ الْقِرْدِ. قَالَتْ: وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ قَالَتْ جَارَتُهَا: إِذَا وَصَلَ إِلَيْكِ فَتَمَارَضِي، فَإِذَا سَأَلَكِ عَنْ حَالِكِ فَقُولِي: إِنَّ الْحُكَمَاءَ وَصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ.



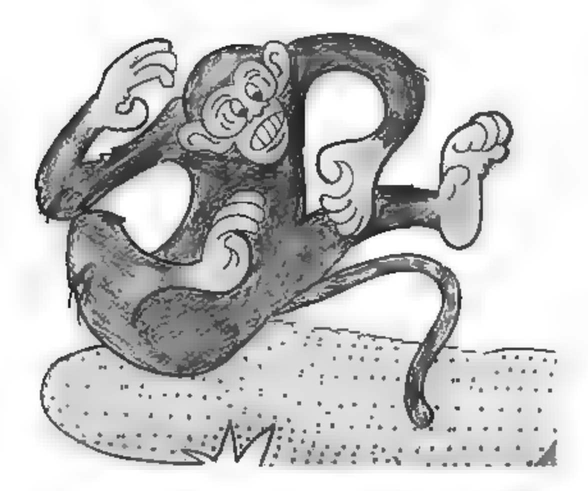


ثُمَّ إِنَّ الْغَيْلَمَ انْطَلَقَ بَعْدَ مُدَّةٍ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ سَيِّئَةَ الْحَالِ مَهْمُومَةً، فَقَالَ لَهَا الْغَيْلَمُ: مَا لِي أَرَاكِ هٰكَذَا؟ فَأَجَابَتْهُ جَارَتُهَا، وَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجَتَكَ مَرِيضَةٌ مِسْكِينَةٌ. وَقَدْ وَصَفَ لَهَا الأَطِبَّاءُ قَلْبَ قِرْدٍ، وَلَيْسَ لَهَا دَوَاءٌ سِوَاهُ. قَالَ الْغَيْلَمُ: هٰذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ. مِنْ أَيْنَ لَنَا قَلْبُ قِرْدٍ، وَنَحْنُ فِي الْمَاءِ؟ وَبَقِيَ مُتَحَيِّراً. ثُمَّ قالَ في نَفْسِهِ: مَا لي قُدْرَةٌ على ذٰلِكَ إِلاَّ أَنْ أَغْدُرَ بِخَلِيلي وَصَاحِبي وَإِثْمُهُ عِنْدي شَدِيدٌ. وَأَشَدُّ

(١) جزعت: حزنت.



مِنْ ذٰلِكَ هَلاَكُ زَوْجَتي، لأَنَّ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَة لاَ يَعْدِلُهَا شَيْءٌ، لِأَنَّهَا عَوْنٌ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.







ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ. فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ: يَا أَخِي، مَا حَبَسَكَ عَنِّي؟ قَالَ لَهُ الْغَيْلَمُ: مَا حَبَسَنِي عَنْكَ إِلاَّ حَيَائِي، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أُجَازِيكَ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَيَّ، وَأُرِيدُ أَنْ تُتِمَّ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ بِزِيَارَتِكَ لِي فِي مَنْزِلِي، فَإِنِّي سَاكِنٌ فِي جَزِيرَةٍ طَيِّبَةِ الْفَاكِهَةِ. فَارْكَبْ ظَهْرِي لأَسْبَحَ بِكَ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَلْتَمِسُهُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِلاَّئِهِ أَنْ يَغْشَوْا[١] مَنْزِلَهُ وَيَنَالُوا مِنْ طَعَامِهِ وشَرَابِهِ ويَعْرِفَهُمْ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ وجِيرَانُهُ، وَأَنْتَ لَمْ تَطَأْ مَنْزِلي ولَمْ تَذُقْ طَعاماً ولا شَرَاباً، وذٰلِكَ مَنْقَصَةٌ وعَارٌ عَلَيَّ. قالَ لهُ الْقِرْدُ: وَمَا يُرِيدُ الْمَرْءُ مِنْ خَليله إلاَّ أَنْ يَبْذُلَ لَهُ وُدَّهُ ويُصْفِي لَهُ قَلْبَهُ وما سوَىٰ ذٰلِكَ فَفُضُولٌ.

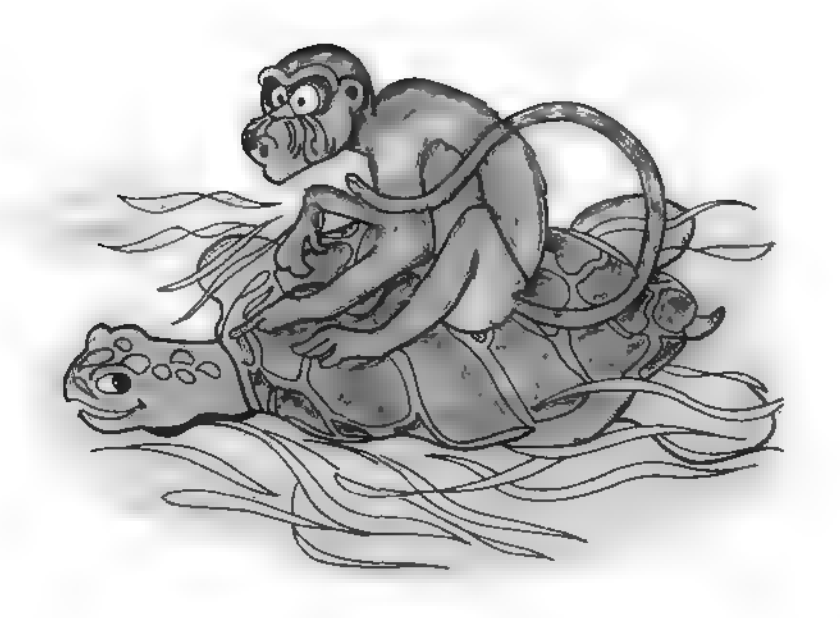
قالَ الْغَيْلَمْ: نَعَمْ، غيْرَ أَنَّ الاجْتِمَاعَ على الطَّعَام والشَّرَابِ آكَدُ للموَدَّة والأُنْسِ، لِأَنَّا نرَىٰ الدَّوَابَّ إِذَا اعْتَلَفَتْ مَعاً أَلِفَ بَعْضُهَا بَعْضاً. وكانَ يُقَالُ: لا يَنْبَغي للعَاقِلِ أَنْ يَلَجَّ عَلى إِخْوَانه في الْمَسْأَلَة. فَإِنَّ الْعِجْل إِذا أَكْثَر مَصَّ ضَرْعِ أُمِّه نَطَحَتْهُ.

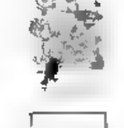
---

(١) يغشوا: يأتوا.

بـــاب

القـرد والغيـلم





فَرَغِبَ الْقِرْدُ فِي ذٰلِكَ، **وَنَزَلَ فَرَكِبَ ظَهْرَ الْغَيْلَمِ، فَسَبَحَ بِهِ،** حَتّى تَجاوَزَ قليلاً، عَرَضَ لَهُ قُبْحُ مَا أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغَدْرِ. فَنَكَسَ رَأْسَهُ وَوَقَفَ، وقالَ في نَفْسه: كَيْفَ أَغْدُرُ بِخليلي لكَلمَةٍ قالَتْهَا ٱمْرَأَةٌ منَ الْجاهِلات؟ وما أدري، لَعَلَّ جارَتي قَدْ خَدَعَتْني وكَذَبَتْ بما رَوَتْ عَنِ الأطبَّاءِ. فإِنَّ الذَّهَبَ يُجَرَّبُ بالنَّارِ والرِّجالَ بِالأَخْذ وَالْعَطاءِ. والدَّوابَّ بالحَمْلِ والْجَرْيِ، ولا يَقْدرُ أحدٌ أَنْ يُجَرِّبَ مَكْرَ النِّسَاءِ ولا يَقْدرُ عَلىٰ كَيْدهِنَّ وكَثْرَة حيَلهِنَّ.

فقَالَ لَهُ الْقِرْدُ: مَا لِيَ أَرَاكَ مُهْتَمًّا؟ قَالَ الْغَيْلَمُ: إِنَّما هَمِّي لأنّي ذَكَرْتُ أَنَّ زَوْجَتِي شَدِيدَةُ الْمَرَضِ، وَذٰلِكَ يَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا أُرِيدُ أَنْ أَبْلُغَهُ مِنْ كَرامَتِكَ وَمُلاطَفَتِكَ. قَالَ الْقِرْدُ: إِنَّ الَّذِي أَعْرِفُ مِنْ حِرْصِكَ عَلى كَرَامَتِي يَكْفِيكَ مؤُونَةَ التَّكَلُّفِ.

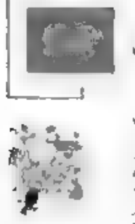
قَالَ الْغَيْلَمُ: أَجلْ. وَمضى بِالْقِرْدِ ساعَةً، ثُمَّ توقَّف بِهِ ثَانِيَةً. فَساءَ ظَنُّ الْقِرْدِ



وَقالَ فِي نَفْسِهِ: مَا احْتِبَاسُ الْغَيْلَم وَإِبْطَاؤُهُ إِلاَّ لِأَمْر ! وَلَسْتُ آمِناً أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ قَدْ تَغَيَّر لي، وَحَال عَنْ مَوَدَّتِي، فأَرَادَ بي سُوءاً: فَإِنَّهُ لاَ شَيْءَ أَخفُ وَأَسْرَعُ تقلُّباً مِنَ الْقَلْبِ. وَقَدْ يُقَالُ: يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلاَّ يَغْفُلَ عَنِ الْتماسِ ما فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوَانِهِ وَصَدِيقِهِ، عِنْد كُلِّ أَمْرٍ، وَفي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكَلِمَةٍ، وَعِنْدَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ.

وَقَدْ قالَتِ الْعُلَمَاءُ إِذا دَخَلَ قَلْبَ الصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ رِيبةٌ فَلْيَأْخُذْ بِالْحَزْم في التَّحَفُّظِ مِنْهُ، وَلْيَتَفَقَّدْ ذٰلكَ فِي لَحَظَاتِهِ وَحَالاَتِهِ. فَإِنْ كَانَ مَا يَظُنُّ حَقًّا ظَفِر بِالسَّلاَمَةِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً ظَفِرَ بِالْحَزْمِ، وَلَمْ يَضُرَّهُ ذٰلِكَ.

ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلَم: مَا الَّذِي يَحْبِسُكَ؟ وَمَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا، كَأَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى؟ قَالَ: يَهُمُّنِي أَنَّكَ تَأْتِي مَنْزِلِي فَلاَ تَجِدُ أَمْرِي كَمَا أُحِبُّ، لِأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيضَةٌ. قَالَ الْقِرْدُ: لاَ تَهْتَمَّ، فَإِنَّ الْهَمَّ لاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. وَلٰكِنِ الْتَمِسْ ما يُصْلِحُ زَوْجَتَكَ مِنَ الأَدْوِيَةِ وَالأَغْذِيَةِ، فَإِنَّهُ يُقَالُ لِيَبْذُلْ ذُو الْمَالِ مَالَهُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ: فِي الصَّدَقَةِ، وَفِي وَقْتِ الْحَاجَةِ، وَعَلَى الْبَنِينَ، وَعَلَى الأَزْوَاجِ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كُنَّ صَالِحَاتٍ.



قَالَ الْغَيْلَمُ: صَدَقْتَ. وَقَدْ قَالَتِ الأَطِبَّاءُ: إِنَّهُ لاَ دَوَاءَ لَهَا إِلاَّ قَلْبُ قِرْدٍ.

فَقَالَ الْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ: وَاأَسَفَاهُ ! لَقَدْ أَدْرَكَنِي الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ عَلَى كِبَرِ سِنِّي، حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ وَرْطَةٍ ! وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: يَعِيشُ الْقَانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيحاً مُطْمَئِنًّا، وَذُو الْحِرْصِ وَالشَّرَهِ يَعِيشُ

مَا عَاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ[1]. وَإِنِّي قَدِ احْتَجْتُ الآنَ إِلَى عَقْلِي فِي الْتِمَاسِ الْمَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلَم: وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْلِمَنِي عِنْدَ مَنْزِلِي، حَتَّى كُنْتُ أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي؟ فَهٰذِهِ سُنَّةٌ[2] فِينَا، مَعَاشِرَ[3] الْقِرَدَةِ، إِذَا خَرَجَ أَحَدُنَا لِزِيَارَةِ صَدِيقٍ، خَلَّفَ قَلْبَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ، أَوْ فِي مَوْضِعِهِ، لِنَنْظُرَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُرَمِ[4] الْمَزُورِ وَلَيْسَ قُلُوبُنَا مَعَنَا. قَالَ الْغَيْلَمُ: وَأَيْنَ قَلْبُكَ الآنَ؟ قَالَ: خَلَّفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ. فَإِنْ شِئْتَ فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ، حَتَّى آتِيَكَ بِهِ.





فَفَرِحَ الْغَيْلَمُ بِذٰلِكَ. وَقَالَ: لَقَدْ وَافَقَنِي صَاحِبِي بِدُونِ أَنْ أَغْدِرَ بِهِ. ثُمَّ رَجَعَ بِالْقِرْدِ إِلَى مَكَانِهِ. فَلَمَّا قَارَبَ السَّاحِلَ، وَثَبَ عَنْ ظَهْرِهِ، فَارْتَقَى الشَّجَرَةَ. فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الْغَيْلَمِ، نَادَاهُ: يَا خَلِيلِي، احْمِلْ قَلْبَكَ وَانْزِلْ، فَقَدْ حَبَسْتَنِي. فَقَالَ الْقِرْدُ: هَيْهَاتَ ! أَتَظُنُّ أَنِّي كَالْحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلاَ أُذُنَانِ.

قَالَ الْغَيْلَمُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) نصب: إعياء.

(٢) سنّة: طريقة.

(٣) معاشر: جماعات.

(٤) حرم: نساء.



الأسد وابن آوى والحمار [*]

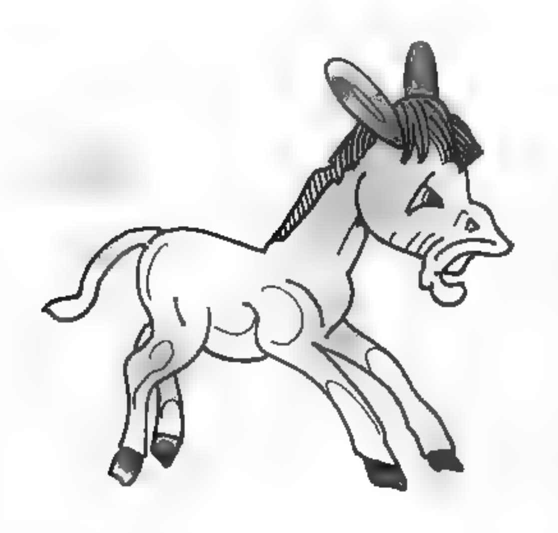
قَالَ الْقِرْدُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ أَسَدٌ فِي أَجَمَةٍ[1]، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُ آوَى يَأْكُلُ مِنْ فَوَاضِلِ طَعَامِهِ، فَأَصَابَ الأَسَدَ جَرَبٌ، وَضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَجَهْدٌ. فَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّيْدَ. **فَقَالَ لَهُ ابْنُ آوَى: مَا بَالُكَ، يَا سَيِّدَ السِّبَاعِ، قَدْ تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُكَ؟** قَالَ: هٰذَا الْجَرَبُ الَّذِي قَدْ أَجْهَدَنِي، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلاَّ قَلْبُ حِمَارٍ وَأُذُنَاهُ. قَالَ ابْنُ آوَى:



(*) تكشف القصة عن ذكاء ابن آوى وخبثه وبلادة الحمار وجهله، وهي ترمي إلى بيان فائدة العقل والعلم وضرر الجهل وقلة المعرفة.

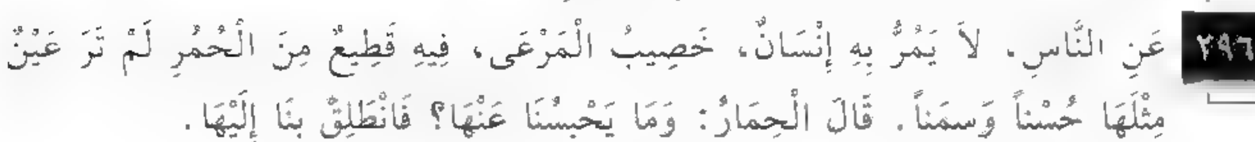
(١) أجمة: غابة.

مَا أَيْسَرَ هٰذَا ! وَقَدْ عَرَفْتُ بِمَكَانِ كَذَا حِمَاراً مَعَ قَصَّارٍ يَحْمِلُ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ، وَأَنا آتيكَ بِهِ.



ثُمَّ دَلَفَ[1] إِلَى الْحِمَارِ فَأَتَاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: مَا لِي أَرَاكَ مَهْزُولاً؟ قَالَ: مَا يُطْعِمُنِي صَاحِبِي شَيْئاً. فَقَالَ لَهُ: وَكَيْفَ تَرْضَى الْمُقَامَ مَعَهُ عَلَى هٰذَا؟ قَالَ: فَمَا لِي حِيلَةٌ فِي الْهَرَبِ مِنْهُ، لَسْتُ أَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ إِلاَّ أَضَرَّ بِي إِنْسَانٌ فَكَدَّنِي وَأَجَاعَنِي. قَالَ ابْنُ آوَى: فَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَكَانٍ مَعْزُولٍ عَنِ النَّاسِ، لاَ يَمُرُّ بِهِ إِنْسَانٌ، خَصِيبُ الْمَرْعَى، فِيهِ قَطِيعٌ مِنَ الْحُمُرِ لَمْ تَرَ عَيْنٌ مِثْلَهَا حُسْناً وَسِمَناً. قَالَ الْحِمَارُ: وَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهَا؟ فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهَا.





فَانْطَلَقَ بِهِ ابْنُ آوَى نَحْوَ الأَسَدِ، وَتَقَدَّمَ ابْنُ آوَى، وَدَخَلَ الْغَابَةَ عَلَى الأَسَدِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِ الْحِمَارِ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَأَرَادَ أَنْ يَثِبَ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِضَعْفِهِ، وَتَخَلَّصَ الْحِمَارُ مِنْهُ. فَأَفْلَتَ هَلِعاً عَلَى وَجْهِهِ.



فَلَمَّا رَأَى ابْنُ آوَى أَنَّ الأَسَدَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحِمَارِ، قَالَ لَهُ: أَعَجَزْتَ يَا سَيِّدَ السِّبَاعِ إِلَى هٰذِهِ الْغَايَةِ؟ فَقَالَ لَهُ: إِنْ جِئْتَنِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَنْ يَنْجُوَ مِنِّي أَبَداً. فَمَضَى ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمَارِ فَقَالَ لَهُ: مَا الَّذِي جَرَى عَلَيْكَ؟ إِنَّ أَحَدَ الْحُمُرِ رَآكَ

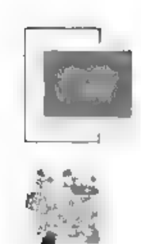
(١) دلف: ذهب مسرعاً.



غَرِيباً، فَخرَجَ يَتَلَقَّاكَ مُرَحِّباً بِكَ، وَلَوْ ثَبَتَّ لَهُ لآنَسَكَ، وَمَضَى بِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْحِمَارُ كَلاَمَ ابْنِ آوَى، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى أَسَداً قَطُّ، صَدَّقَهُ، وَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الأَسَدِ. فَسَبَقَهُ ابْنُ آوَى إِلَى الأَسَدِ، وَأَعْلَمَهُ بِمَكَانِهِ. وَقَالَ لَهُ: اسْتَعِدَّ لَهُ، فَقَدْ خَدَعْتُهُ لَكَ، فَلاَ يُدْرِكَنَّكَ الضَّعْفُ فِي هٰذِهِ النَّوْبَةِ، فَإِنَّهُ إِنْ أُفْلِتَ فَلَنْ يَعُودَ مَعِيَ أَبَداً.





فَجَاشَ[1] جَأْشُ الأَسَدِ لِتَحْرِيضِ ابْنِ آوَى لَهُ، وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِعِ الْحِمَارِ. **فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ عَاجَلَهُ بِوَثْبَةٍ افْتَرَسَهُ بِهَا.** ثُمَّ قَالَ: قَدْ ذَكَرَتِ الأَطِبَّاءُ أَنَّهُ لاَ يُؤْكَلُ إِلاَّ بَعْدَ الْغَسْلِ وَالطَّهُورِ، فَاحْتَفِظْ بِهِ حَتَّى أَعُودَ فَآكُلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ، وَأَتْرُكَ مَا سِوَى ذٰلِكَ قُوتاً لَكَ.

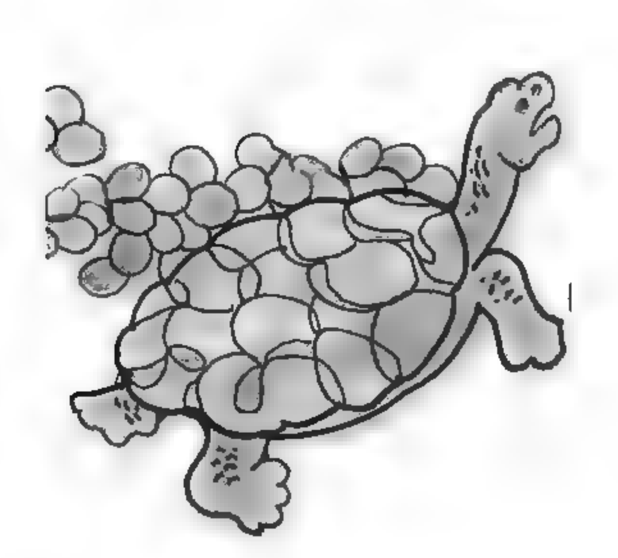
فَلَمَّا ذَهَبَ الأَسَدُ لِيَغْتَسِلَ، عَمَدَ ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمَارِ فَأَكَلَ قَلْبَهُ

(١) جاش جأش الأسد: حميت نفسه.

وَأُذُنَيْهِ، رَجَاءَ أَنْ يَتَطَيَّرَ[1] الأَسَدُ مِنْهُ، فَلاَ يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئاً. ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ، فَقَالَ لابْنِ آوَى: أَيْنَ قَلْبُ الْحِمَارِ وَأُذُنَاهُ؟ قَالَ ابْنُ آوَى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَفْقَهُ بِهِ، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَمَا أُفْلِتَ وَنَجَا مِنَ الْهَلَكَةِ؟

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنِّي لَسْتُ كَذٰلِكَ الْحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَأُذُنَانِ، وَلٰكِنَّكَ احْتَلْتَ عَلَيَّ، وَخَدَعْتَنِي، فَخَدَعْتُكَ بِمِثْلِ خَدِيعَتِكَ، وَاسْتَدْرَكْتُ فَارِطَ أَمْرِي. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الَّذِي يُفْسِدُهُ الْحِلْمُ لاَ يُصْلِحُهُ إِلاَّ الْعِلْمُ.

قَالَ الْغَيْلَمُ: صَدَقْتَ، إِلاَّ أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِهِ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً لَمْ يَسْتَحْيِ أَنْ يُؤَدَّبَ لِصِدْقِهِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَإِنْ وَقَعَ فِي وَرْطَةٍ أَمْكَنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا بِحِيلَتِهِ وَعَقْلِهِ. كَالرَّجُلِ الَّذِي يَعْثُرُ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ يَنْهَضُ عَلَيْهَا مُعْتَمِداً.



فَهٰذَا مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ، فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا، أَضَاعَهَا.

(١) يتطير: يتشاءم.



باب
النَّاسِكِ وَابْنِ عِرْسٍ



النَّاسِك وَابْن عِرْسٍ(*)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ. فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الْعَجْلاَنِ[1] فِي أَمْرِهِ، مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلاَ نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ.

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ مُتَثَبِّتاً، لَمْ يَزَلْ نَادِماً، وَيَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَار إِلَيْهِ النَّاسكُ مِنْ قَتْلِ ابْنِ عِرْسٍ. وَقَدْ كَانَ لَهُ وَدُوداً. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلكَ؟



قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً مِنَ النُّسَّاكِ كَانَ بِأَرْضِ جُرْجَانَ وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، فَمَكَثَا زَمَاناً لَمْ يُرْزَقَا وَلَداً، ثُمَّ حَمَلَتْ مِنْهُ بَعْدَ الإِيَاسِ. فَسُرَّتِ الْمَرْأَةُ وَسُرَّ النَّاسِكُ بِذلِكَ، فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْلُ ذَكَراً. وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ: أَبْشِرِي، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلاَماً، لَنَا فِيهِ مَنَافِعُ، وَقُرَّةُ عَيْنٍ، أَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الأَسْمَاءِ، وَأُحْضِرُ لَهُ سَائِرَ الأُدَبَاءِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: مَا يَحْمِلُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى أَنْ تَتَكَلَّمَ بِمَا لاَ تَدْرِي أَيَكُونُ أَمْ لاَ؟ وَمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ النَّاسِكَ الَّذِي أَرَاقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ.

قَالَ لَهَا: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

(*) تتضمن القصة تحذيراً لمن يتوهم وقوع أشياء غير مضمونة الوقوع والتنبؤ بما هو في الغيب

---

(١) العجلان: المسرع.

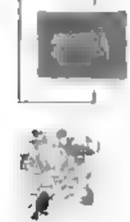


الناسك والعسل(*)

قَالَتْ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ رجُلٍ تاجِرٍ، فِي كُلِّ يَوْمٍ، رِزْقٌ مِن السَّمْنِ وَالْعَسَلِ، وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْهُ قُوتَهُ وحاجَتَهُ، وَيَرْفَعُ الْبَاقِيَ، وَيَجْعَلُهُ فِي جَرَّةٍ، فَيُعَلِّقُهَا فِي وَتِدٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، حَتَّى امْتلأَتْ.

فَبَيْنَما النَّاسِكُ ذاتَ يَوْمٍ مُسْتَلْقٍ عَلى ظَهْرِهِ، وَالْعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ، وَالْجَرَّةُ مُعَلَّقَةٌ فَوْق رَأْسِهِ، تَفكَّرَ فِي غَلاَءِ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ، فَقَالَ: سَأَبِيعُ مَا فِي هٰذِه الْجَرَّةِ بِدينَارٍ، وَأَشْتَرِي بِهِ عَشْرَةَ أَعْنُزٍ؛ فَيَحْبَلْنَ وَيَلِدْنَ فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ بَطْناً. وَلاَ تَلْبَثُ إِلاَّ قَلِيلاً حَتَّى تَصِيرَ غَنَماً كَثِيرَةً، إِذَا وَلَدَتْ أَوْلاَدُهَا؛ ثُمَّ حَرَّرَ[1] عَلَى هٰذَا النَّحْوِ بِسِنِينَ فَوَجَدَ ذٰلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمائَةِ عَنْزٍ؛ فَقَالَ: أَنَا أَشْتَرِي بِهَا مائَةً مِنَ الْبَقَرِ، بِكُلِّ أَرْبَعَةِ أَعْنُزٍ ثَوْراً أَوْ بَقَرَةً، وَأَشْتَرِي أَرْضاً وَبَذْراً، وَأَسْتَأْجِرُ أَكَرَةً[2] وَأَزْرَعُ عَلَى الثِّيرَانِ، وَأَنْتَفِعُ بِأَلْبَانِ الإِنَاثِ وَنِتَاجِهَا فَلاَ يَأْتِ عَلَيَّ خَمْسُ





(*) فحوى القصة يدعو الإنسان العاقل إلى امتلاك نفسه عند الغضب والتروي في الحكم على الأشياء قبل فحصها وعدم الإساءة لمن أحسن إليه.

---

(١) حرّر: عدّ وحسب

(٢) أكرة: حرّاثين.

باب

الناسك وابن عرس

سِنِينَ إِلاَّ وَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الزَّرْعِ مَالاً كَثِيراً. فَأَبْنِي بَيْتاً فَاخِراً؛ وَأَشْتَرِي إِمَاءً[1] وَعَبِيداً؛ وَأَتَزَوَّجُ ٱمْرَأَةً جَمِيلَةً ذَاتَ حُسْنٍ؛ ثُمَّ تَأْتِي بِغُلاَمٍ سَرِيٍّ[2] نَجِيب؛ فَأَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الأَسْمَاءِ؛ فَإِذَا تَرَعْرَعَ[3] أَدَّبْتُهُ، وَأَحْسَنْتُ تَأْدِيبَهُ، وَأُشَدِّدُ عَلَيْهِ فِي ذٰلِكَ، فَإِنْ يَقْبَلْ مِنِّي، **وَإِلاَّ ضَرَبْتُهُ بِهٰذِهِ الْعُكَّازَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجَرَّةِ فَكَسَرَهَا، فَسَالَ مَا كَانَ فِيهَا عَلَى وَجْهِهِ.**





وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هٰذَا الْمَثَلَ لِكَيْ لاَ تَعْجَلَ بِذِكْرِ مَا لاَ يَنْبَغِي ذِكْرُهُ، وَمَا لاَ تَدْرِي أَيَصِحُّ أَمْ لاَ يَصِحُّ. وَلَكِنْ ٱدْعُ رَبَّكَ وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ

---

(١) إماء: جواري.

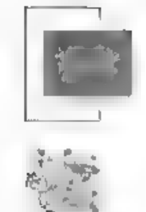
(٢) سريّ: صاحب مروءة في شرف.

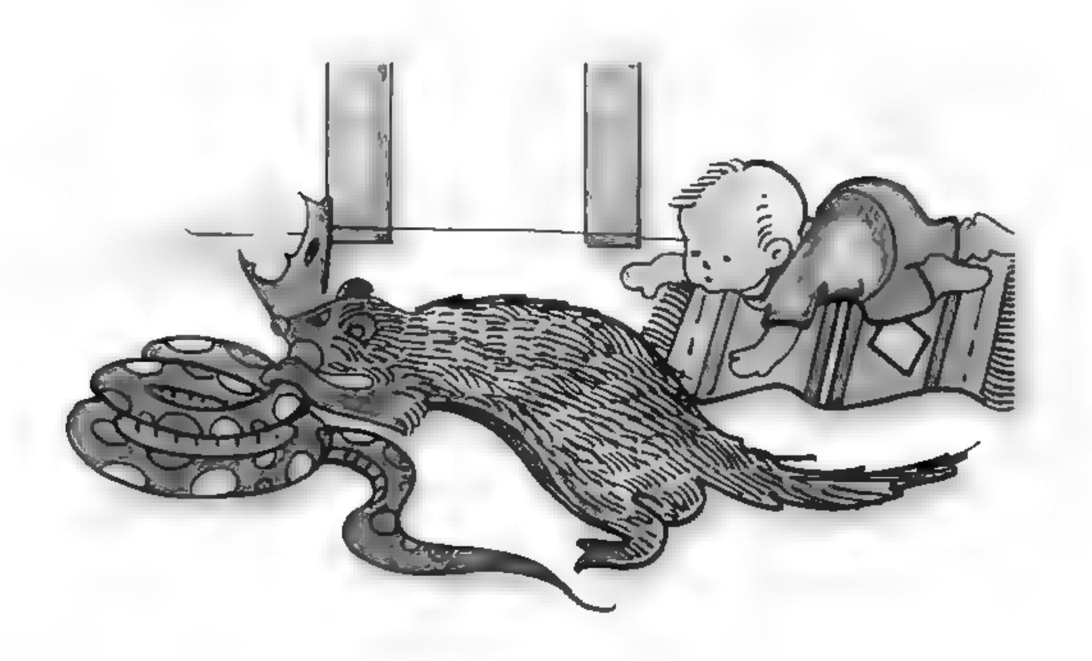
(٣) ترعرع: كَبُر وأصبح شاباً.



التَّصاوِيرَ في ٱلحَائِطِ إنَّمَا هِيَ مَا دَامَ بِناؤُهُ قائِماً، فإذا وَقَعَ وتَهدَّمَ لَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهَا.

فَاتَّعَظَ النَّاسِكُ بِمَا حَكَتْ زَوْجَتُهُ. ثُمَّ إنَّ الْمَرْأَةَ وَلَدَتْ غُلاماً جَمِيلاً فَفَرِحَ بِهِ أَبُوهُ. وَبَعْدَ أَيَّام حَانَ لَها أنْ تَتَطهَّرَ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلنَّاسِكِ: اقْعُدْ عِنْدَ ابْنِكَ حَتَّى أَذْهَبَ إِلى الْحَمَّامِ فأَغْتَسِلَ وَأَعُودَ. ثُمَّ إنَّهَا ٱنْطَلَقَتْ إلَى الْحَمَّامِ، وَخَلَّفَتْ زَوْجَها والْغُلامَ. فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جاءَ رَسُولُ الْمَلِكِ يَسْتَدْعِيهِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَخْلُفُهُ عِنْدَ ابْنِهِ، غَيْرَ ابْن عِرْسٍ دَاجِنٍ عِنْدَهُ، كَانَ قَدْ رَبَّاهُ صَغِيراً فَهُوَ عِنْدَهُ عَدِيلُ[1] وَلَدِهِ. فَتَرَكَهُ النَّاسِكُ عِنْدَ الصَّبِيِّ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمَا الْبَيْتَ، وَذَهَبَ مَعَ الرَّسُولِ. **فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ أَجْحَارِ الْبَيْتِ حَيَّةٌ سَوْدَاءُ، فَدَنَتْ مِنَ الْغُلامِ، فَضَرَبَهَا ابْنُ عِرْسٍ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا، ثُمَّ قَطَّعَهَا وَامْتَلأَ فَمُهُ مِنْ دَمِهَا**، ثُمَّ جَاءَ النَّاسِكُ، وَفَتَحَ الْبَابَ، فَالْتَقَاهُ





(١) عديل: مثل.

باب
الناسك وابن عرس

ابْنُ عِرْسٍ، كَالْمُبَشِّرِ لَهُ بِمَا صَنَعَ مِنْ قَتْلِ الْحَيَّةِ. فَلَمَّا رَآهُ مُلَوَّثاً بِالدَّمِ، وَهُوَ مَذْعُورٌ، طَارَ عَقْلُهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ خَنَقَ وَلَدَهُ. وَلَمْ يَتَثَبَّتْ[1] فِي أَمْرِهِ، وَلَمْ يَتَرَوَّ فِيهِ، حَتَّى يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الْحَالِ، وَيَعْمَلَ بِغَيْرِ مَا ظَنَّ مِنْ ذٰلِكَ. وَلٰكِنْ عَجَّلَ عَلَى ابْنِ عِرْسٍ، وَضَرَبَهُ بِعُكَّازَةٍ كَانَتْ فِي يَدِهِ، عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَمَاتَ.

وَدَخَلَ النَّاسِكُ فَرَأَى الْغُلَامَ سَلِيماً حَيًّا، وَعِنْدَهُ أَسْوَدُ مُقَطَّعٌ. فَلَمَّا عَرَفَ الْقِصَّةَ، وَتَبَيَّنَ لَهُ سُوءُ فِعْلِهِ فِي الْعَجَلَةِ، لَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ. وَقَالَ: لَيْتَنِي لَمْ أُرْزَقْ هٰذَا الْوَلَدَ، وَلَمْ أَغْدِرْ هٰذَا الْغَدْرَ! وَدَخَلَتِ امْرَأَتُهُ، فَوَجَدَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالْخَبَرِ مِنْ حُسْنِ فِعْلِ ابْنِ عِرْسٍ وَسُوءِ مُكَافَأَتِهِ لَهُ. فَقَالَتْ: هٰذِهِ ثَمَرَةُ الْعَجَلَةِ!



فَهٰذَا مَثَلُ مَنْ لاَ يَتَثَبَّتُ فِي أَمْرِهِ، بَلْ يَفْعَلُ أَغْرَاضَهُ بِالسُّرْعَةِ وَالْعَجَلَةِ.



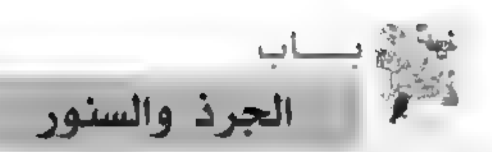
---

(١) يتثبت: يتأنى.



بـاب
الجُـرَذِ وَالسِّـنَّورِ





باب الجرذ والسنور

الجرذ والسنور(*)

قال دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبا الْفَيْلسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ رَجُلٍ كَثُرَ أَعْدَاؤُهُ، وَأَحْدَقُوا[1] بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فَأَشْرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الْهَلاَكِ، فَالْتَمسَ النَّجَاةَ وَالْمَخْرَجَ بِمُوَالاَةِ[2] بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَمُصَالَحَتِه، فَسَلِمَ مِنَ الْخَوْفِ وَأَمِنَ؛ ثُمَّ وَفَى لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْهُمْ.



قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنَّ الْمَوَدَّةَ وَالْعَدَاوَةَ لاَ تَثْبُتَانِ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ أَبَداً. وَرُبَّمَا حَالَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى الْعَدَاوَةِ، وَصَارَتِ الْعَدَاوَةُ وَلاَيَةً[3] وَصَدَاقَةً. وَلِهٰذَا حَوَادِثُ وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ، وَذُو الرَّأْيِ يُحْدِثُ لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذٰلِكَ رَأْياً جَدِيداً: أَمَّا مِنْ قِبَلِ الْعَدُوِّ فَبِالْبَأْسِ، وَأَمَّا مِنْ قِبَلِ الصَّدِيقِ فَبِالاِسْتِئْنَاسِ. وَلاَ تَمْنَعُ ذَا الْعَقْلِ عَدَاوَةٌ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ مِنْ مُقَارَبَتِهِ وَالاِسْتِنْجَادِ بِهِ عَلَى دَفْعِ مَخُوفٍ أَوْ جَرِّ مَرْغُوبٍ. وَمَنْ عَمِلَ فِي ذٰلِكَ بِالْحَزْمِ ظَفِرَ بِحَاجَتِهِ. وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْجُرَذِ وَالسِّنَّوْرِ حِينَ وَقَعَا فِي الْوَرْطَةِ، فَنَجَوَا بِاصْطِلاَحِهِمَا جَمِيعاً مِنَ الْوَرْطَةِ وَالشِّدَّةِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

(*) ترمي القصة إلى بيان أنواع الصداقات وأهدافها مشيرة إلى إمكانية نشوء صداقات اضطرارية مصلحية مؤقتة بين الأعداء الدائمين تفرضها الظروف الصعبة.

---

(١) أحدقوا: أحاطوا.

(٢) موالاة: مصادقة.

(٣) ولاية. نصرة ومحبة.

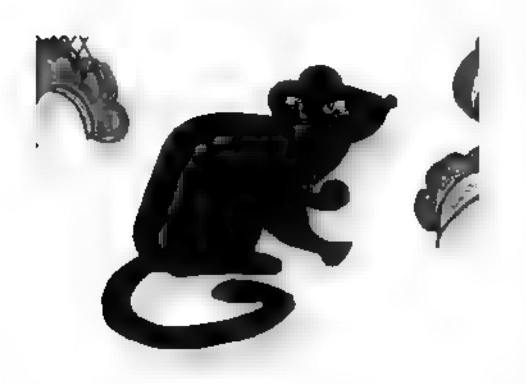


قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيمَةً كَانَ فِي أَصْلِهَا جُحْرُ سِنَّوْرٍ يُقَالُ لَهُ رُومِي، وَكَانَ قَرِيباً مِنْهُ جُحْرُ جُرَذٍ يُقَالُ لَهُ فَرِيدُونُ، وَكَانَ الصَّيَّادُونَ كَثِيراً يَتَدَاوَلُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ، يَصِيدُونَ فِيهِ الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ؛ فَنَزَلَ ذَاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ، فَنَصَبَ حِبَالَتَهُ قَرِيباً مِنْ مَوْضِعِ رُومِي، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَعَ فِيهَا. فَخَرَجَ الْجُرَذ يَدِبُّ، وَيَطْلُبُ مَا يَأْكُلُ، وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُومِي. فَبَيْنَمَا هُوَ يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بِهِ فِي الشَّرَكِ، فَسُرَّ وَاسْتَبْشَرَ.



ثُمَّ الْتَفَتَ فَرَأَى خَلْفَهُ ابْنَ عِرْسٍ، يُرِيدُ أَخْذَهُ، وَفِي الشَّجَرَةِ بُوماً، يُرِيدُ اخْتِطَافَهُ؛ فَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ، وَخَافَ إِنْ رَجَعَ وَرَاءَهُ أَخَذَهُ ابْنُ عِرْسٍ. وَإِنْ ذَهَبَ

يميناً أَوْ شِمَالاً اخْتَطَفَهُ الْبُومُ. وَإِنْ تَقَدَّمَ أَمَامَهُ افْتَرَسَهُ السِّنَّوْرُ. فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: هٰذَا بَلاءٌ قَدِ اكْتَنَفَنِي، وَشُرُورٌ تَظَاهَرَتْ[١] عَلَيَّ، وَمِحَنٌ قَدْ أَحَاطَتْ بِي. وَبَعْدَ ذٰلِكَ فَمَعِي عَقْلِي، فَلاَ يُفْزِعُنِي أَمْرِي، وَلاَ يَهُولُنِي شَأْنِي، وَلاَ يَلْحَقُنِي الدَّهَشُ، وَلاَ يَذْهَبُ قَلْبِي شَعَاعاً[٢]. فَالْعَاقِلُ لاَ يَفْرَقُ عِنْدَ سَدَادِ رَأْيِهِ، وَلاَ يَعْزُبُ[٣] عَنْهُ ذِهْنُهُ عَلَى حَالٍ. وَإِنَّمَا الْعَقْلُ شَبِيهٌ بِالْبَحْرِ الَّذِي لاَ يُدْرَكُ غَوْرُهُ[٤]. وَلاَ يَبْلُغُ الْبَلاَءُ مِنْ ذِي الرَّأْيِ مَجْهُودَهُ فَيُهْلِكَهُ، وَتَحَقُّقُ الرَّجَاءِ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ مَبْلَغاً يُبْطِرُهُ وَيُسْكِرُهُ، فَيَعْمَى[٥] عَلَيْهِ أَمْرُهُ. وَلَسْتُ أَرَى لِي مِنْ هٰذَا الْبَلاَءِ مَخْلَصاً إِلاَّ مُصَالَحَةَ السِّنَّوْرِ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلاَءِ مِثْلُ مَا قَدْ نَزَلَ بِي أَوْ بَعْضُهُ. وَلَعَلَّهُ إِنْ سَمِعَ كَلاَمِيَ الَّذِي أُكَلِّمُهُ بِهِ، وَوَعَى[٦] عَنِّي فَصِيحَ خِطَابِي، وَمَحْضَ صِدْقِي الَّذِي لاَ خِلاَفَ فِيهِ، وَلا خِدَاعَ مَعَهُ فَفَهِمَهُ، وَطَمِعَ فِي مَعُونَتِي إِيَّاهُ، نَتَخَلَّصْ جَمِيعاً.





ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ دَنَا مِنَ السِّنَّوْرِ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ؟ قَالَ لَهُ السِّنَّوْرُ: كَمَا تُحِبُّ، فِي ضَنْكٍ[٧] وَضِيقٍ. قَالَ: وَأَنَا الْيَوْمَ شَرِيكُكَ فِي الْبَلاَءِ، وَلَسْتُ أَرْجُو

---

(١) تظاهرت: تعاونت.
(٢) شعاعا: متبدداً من الخوف.
(٣) يعزب: أي لا يغيب.
(٤) غوره: عمقه.
(٥) يعمى عليه: يلتبس.
(٦) وعى: حفظ.
(٧) ضنك: ضعف.



لِنَفْسِي خلاَصاً إلاَّ بِالَّذي أَرْجُو لَكَ فِيهِ الْخَلاَصَ. وَكَلاَمِي هٰذَا لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ وَلاَ خَدِيعَةٌ. وَابْنُ عِرْسٍ هَا هُوَ كَامِنٌ لِي، وَالْبُومُ يَرْصُدُنِي، وَكِلاَهُمَا لِي وَلَكَ عَدُوٌّ. فَإِنْ جَعَلْتَ لِيَ الأَمَانَ، قَطَّعْتُ حَبَائِلَكَ، وَخَلَّصْتُكَ مِنْ هٰذِهِ الْوَرْطَةِ. فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ تَخَلَّصَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صَاحِبِهِ: كَالسَّفِينَةِ وَالرُّكَّابِ فِي الْبَحْرِ، فَبِالسَّفِينَةِ يَنْجُونَ، وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِينَةُ.

فَلَمَّا سَمِعَ السِّنَّوْرُ كَلاَمَ الْجُرَذِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ صَادِقٌ. قَالَ لَهُ: إِنَّ قَوْلَكَ هٰذَا لَشَبِيهٌ بِالْحَقِّ، وَأَنَا أَيْضاً رَاغِبٌ فِيمَا أَرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِي بِهِ الْخَلاَصَ. ثُمَّ إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ فَسَأَشْكُرُ لَكَ مَا بَقِيتُ.

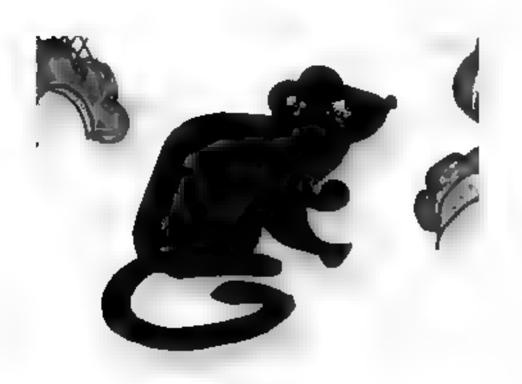
قَالَ الْجُرَذُ: فَإِنِّي سَأَدْنُو مِنْكَ، فَأُقَطِّعُ الْحَبَائِلَ كُلَّهَا إلاَّ حَبْلاً وَاحِداً أُبْقِيهِ لأَسْتَوْثِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ. **ثُمَّ أَخَذَ فِي قَرْضِ حَبَائِلِهِ** ثُمَّ إِنَّ الْبُومَ وَابْنَ عِرْسٍ لَمَّا رَأَيَا دُنُوَّ الْجُرَذِ مِنَ السِّنَّوْرِ أَيِسَا مِنْهُ وَانْصَرَفَا. ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَبْطَأَ عَلَى رُومِي فِي قَطْعِ



الْحَبَائِلِ فَقَالَ لَهُ: مَا لِي لاَ أَرَاكَ مُجِدًّا فِي قَطْعِ حَبَائِلِي؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ، فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ، وَتَوَانَيْتَ فِي حَاجَتِي، فَمَا ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لاَ يَتَوَانَى فِي حَقِّ صَاحِبِهِ.

وَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سَابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الْفَائِدَةِ وَالنَّفْعِ مَا قَدْ رَأَيْتَ. وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تُكَافِئَنِي بِذٰلِكَ، وَلاَ تَذْكُرَ الْعَدَاوةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ. فَالَّذِي حَدَثَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصُّلْحِ حَقِيقٌ أَنْ يُنْسِيَكَ ذٰلِكَ، مَعَ مَا فِي الْوَفَاءِ مِنَ الْفَضْلِ وَالأَجْرِ، وَمَا فِي الْغَدْرِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ: فَإِنَّ الْكَرِيمَ لاَ يَكُونُ إِلاَّ شَكُوراً غَيْرَ حَقُودٍ، تُنْسِيهِ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الإِحْسَانِ الْخِلاَلَ الْكَثِيرةَ مِنَ الإِسَاءَةِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ أَعْجَلَ الْعُقُوبَةِ عُقُوبَةُ الغَدْرِ. وَمَنْ إِذَا تُضُرِّعَ إِلَيْهِ، وَسُئِلَ الْعَفْوَ، فَلَمْ يَرْحَمْ، وَلَمْ يَعْفُ، فَقَدْ غَدَرَ.





قَالَ الْجُرذُ: إِنَّ الصَّدِيقَ صَدِيقَانِ: طَائِعٌ وَمُضْطَرٌّ. وَكِلاَهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْمَنْفَعَةَ، وَيَحْتَرِسَانِ مِنَ الْمَضَرَّةِ. فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيُسْتَرْسَلُ[1] إِلَيْهِ، وَيُؤْمَنُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ. وَأَمَّا الْمُضْطَرُّ فَفِي بَعْضِ الأَحْوَالِ يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ، وَفِي بَعْضِهَا يُتَحَذَّرُ مِنْهُ. وَلاَ يَزَالُ الْعَاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعْضَ حَاجَاتِهِ، لِبَعْضِ مَا يَتَّقِي وَيَخَافُ. وَلَيْسَ عَاقِبَةُ التَّوَاصُلِ مِنَ الْمُتَوَاصِلِ إِلاَّ طَلَبَ عَاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوغِ مَأْمُولِهِ. وَأَنَا وَافٍ لَكَ بِمَا جَعَلْتُ لَكَ.

---

(١) يسترسل إليه: يُطمأنُّ إليه.



وَمُحْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذٰلِكَ، مِنْ حَيْثُ أَخَافُكَ تَخَوُّفاً أَنْ يُصِيبَنِي مِنْكَ مَا أَلْجَأَنِي خَوْفُهُ إِلى مُصَالَحَتِكَ، وَأَلْجَأَكَ إِلى قَبُولِ ذٰلِكَ مِنِّي، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِيناً. فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ فِي حِينِهِ، فَلاَ حُسْنَ لِعَاقِبَتِهِ. وَأَنَا قَاطِعٌ حَبَائِلَكَ كُلَّهَا؛ غَيْرَ أَنِّي تَارِكٌ عُقْدَةً وَاحِدَةً أَرْتَهِنُكَ بِهَا، وَلاَ أَقْطَعُهَا إِلاَّ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيهَا عَنِّي مَشْغُولٌ، وَذٰلِكَ عِنْدَ مُعَايَنَتِي الصَّيَّادَ.



ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حَبَائِلِ السِّنَّوْرِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلِكَ إِذْ وَافَى الصَّيَّادُ، فَقَالَ لَهُ السِّنَّوْرُ: الآنَ جَاءَ الْجِدُّ فِي قَطْعِ حَبَائِلِي. فَأَجْهَدَ الْجُرَذُ نَفْسَهُ فِي الْقَرْضِ؛ حَتَّى إِذَا فَرَغَ وَثَبَ السِّنَّوْرُ إِلَى الشَّجَرَةِ عَلَى دَهَشٍ مِنَ الصَّيَّادِ، وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الأَجْحَارِ، **وَجَاءَ الصَّيَّادُ فَأَخَذَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ خَائِباً.**

ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ خَرَجَ بَعْدَ ذٰلِكَ، وَكَرِهَ أَنْ يَدْنُوَ مِنَ السِّنَّوْرِ. فَنَادَاهُ السِّنَّوْرُ: أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّاصِحُ، ذُو الْبَلاَءِ الْحَسَنِ عِنْدِي، مَا مَنَعَكَ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيَّ، لأُجَازِيَكَ بِأَحْسَنِ مَا أَسْدَيْتَ إِلَيَّ؟ هَلُمَّ إِلَيَّ وَلاَ تَقْطَعْ إِخَائِي: فَإِنَّهُ مَنِ اتَّخَذَ صَدِيقاً، وَقَطَعَ إِخَاءَهُ، وَأَضَاعَ صَدَاقَتَهُ، حُرِمَ ثَمَرَةَ إِخَائِهِ، وَأَيِسَ مِنْ نَفْعِهِ الإِخْوَانُ وَالأَصْدِقَاءُ. وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي لاَ تُنْسَى، وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ مُكَافَأَةَ ذٰلِكَ مِنِّي

وَمِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي. وَلاَ تَخَافَنَّ مِنِّي شَيْئاً. وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قِبَلِي لَكَ مَبْذُولٌ. ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا قَالَ.



فَنَادَاهُ الْجُرَذُ: رُبَّ صَدَاقَةٍ ظَاهِرَة بَاطِنُها عَدَاوَةٌ كَامِنَةٌ وَهِيَ أَشَدُّ مِنَ الْعَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ. وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِسْ مِنْهَا، وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نابَ الْفيل الْمُغْتَلِم، ثُمَّ يَغْلِبُهُ النُّعَاسُ، فَيَسْتَيْقِظُ تَحْتَ فَرَاسِنِ[1] الْفِيلِ، فَيَدُوسُهُ وَيَقْتُلُهُ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقاً لِمَا يُرْجَى مِنْ نَفْعِهِ، وَسُمِّيَ العَدُوُّ عَدُوًّا لِمَا يُخَافُ مِنْ ضَرَرِهِ. وَالْعَاقِلُ إِذا رَجَا نَفْعَ الْعَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّدَاقَةَ، وَإِذَا خَافَ ضُرَّ الصَّدِيقِ أَظْهَرَ لَهُ الْعَدَاوَة. أَلاَ تَرَى تَتَبُّعَ البَهائِم أُمَّهَاتِها رَجاءَ أَلْبَانِهَا، فَإِذَا انْقَطَعَ ذٰلِكَ انْصَرَفَتْ عَنْهَا؟ وربَّمَا قَطَعَ الصَّدِيقُ عَنْ صَدِيقِهِ بَعْض مَا كَانَ يَصِلُهُ، فلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ، لِأَنَّ أَصْلَ أَمْرِه لَمْ يَكُنْ عَدَاوَةً. فَأَمَّا مَنْ كانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَدَاوَةً جَوْهَرِيَّةً، ثُمَّ أَحْدَثَ صَدَاقَةً لِحَاجَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذٰلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا زَالَت الْحَاجَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذٰلِكَ، زَالَتْ صَدَاقَتُهُ، فَتَحَوَّلَتْ عَدَاوَةً، وَصَارَ إِلى أَصْلِ أَمْرِهِ، كَالْمَاءِ الَّذِي يُسَخَّنُ بِالنَّارِ، فَإِذَا رُفِعَ عَنْهَا عَادَ بَارِداً. وَلَيْس مِنْ أَعْدَائِي عَدُوٌّ أَضَرُّ لِي مِنْكَ. وَقَدِ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حَاجَةٌ إِلَى مَا أَحْدَثْنَا مِنَ الْمُصَالَحَةِ. وَقَدْ ذَهَبَ الأَمْرُ الَّذي احْتَجْت إِلَيَّ وَاحْتَجْتُ إِلَيْكَ فِيهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَهَابِهِ عَوْدُ الْعَدَاوَةِ. وَلاَ خَيْرَ لِلضَّعِيفِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ، وَلا لِلذَّلِيلِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْعزيزِ. وَلاَ أَعْلَمُ لَكَ قِبَلِي حَاجَةً؛ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تُرِيدُ أَكْلِي؛ وَلاَ أَعْلَمُ لِي قِبَلَكَ حَاجَةً، وَلَيْسَ عِنْدِي بِكَ ثِقَةٌ. فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ





(١) فراسن: جمع فرسن وهو للفيل كالقدم للإنسان.



الضَّعِيفَ الْمُحْتَرِسَ مِنَ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى السَّلاَمَةِ مِنَ الْقَوِيِّ إِذَا اغْتَرَّ بِالضَّعِيفِ واسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ. وَالْعَاقِلُ يُصَالِحُ عَدُوَّهُ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ، وَيُصَانِعُهُ(١)، وَيُظْهِرُ لَهُ وُدَّهُ؛ وَيُرِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الاسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ بُدًّا، ثُمَّ يُعَجِّلُ الانْصِرَافَ عَنْهُ، حِينَ يَجِدُ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلاً.

وَاعْلَمْ أَنَّ سَرِيعَ الاسْتِرْسَالِ لاَ تُقَالُ عَثْرَتُهُ. وَالْعَاقِلُ يَفِي لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلاَ يَثِقُ بِهِ كُلَّ الثِّقَةِ. وَلاَ يَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُ. وَيَنْبَغِي أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ مَا اسْتَطَاعَ. وَأَنَا أَوَدُّكَ مِنْ بَعِيدٍ، وَأُحِبُّ لَكَ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّلاَمَةِ، مَا لَمْ أَكُنْ أُحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ. وَلاَ عَلَيْكَ أَنْ تُجَازِيَنِي عَلَى صَنِيعِي إِلاَّ بِمِثْلِ ذٰلِكَ، إِذْ لاَ سَبِيلَ إِلَى اجْتِمَاعِنَا وَالسَّلاَمُ.



(١) يصانعه: يداريه ويداهنه.



بـاب

ابْـنِ المَـلِكِ وَالطَّائِـرِ فَنْزَة



ابن المَلِكِ وَالطَّائِرِ فَنْزَة[*]

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ التِّرَاتِ[1] الَّذِينَ لاَ بُدَّ لِبَعْضِهِمْ مِن اتِّقَاءِ بَعْضٍ.



قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ كَانَ يُقَالُ لَهُ بَرِيدُونُ، **وَكَانَ لَهُ طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ فَنْزَةُ، وَكَانَ لَهُ فَرْخٌ وَكَانَ هٰذَا الطَّائِرُ وَفَرْخُهُ يَنْطِقَانِ بِأَحْسَنِ مَنْطِقٍ، وَكَانَ الْمَلِكُ بِهِمَا مُعْجَباً. فَأَمَرَ بِهِمَا أَنْ يُجْعَلاَ عِنْدَ امْرَأَتِهِ، وَأَمَرَهَا بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا.** وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ الْمَلِكِ وَلَدَتْ غُلاَماً، فَأَلِفَ الْفَرْخُ الْغُلاَمَ. وَكِلاَهُمَا طِفْلاَنِ يَلْعَبَانِ جَمِيعاً. وَكَانَ فَنْزَةُ يَذْهَبُ إِلَى

(*) تشرح القصة المدى الذي يمكن أن تصل إليه الصداقة غير المتكافئة بين طرفين متناقضين في التكوين الخلقي والسيكولوجي، وأن الافتراق هو النتيجة الحتمية لمثل هكذا صداقة.

---

(١) التراث: جمع ترة وهي الثأر.



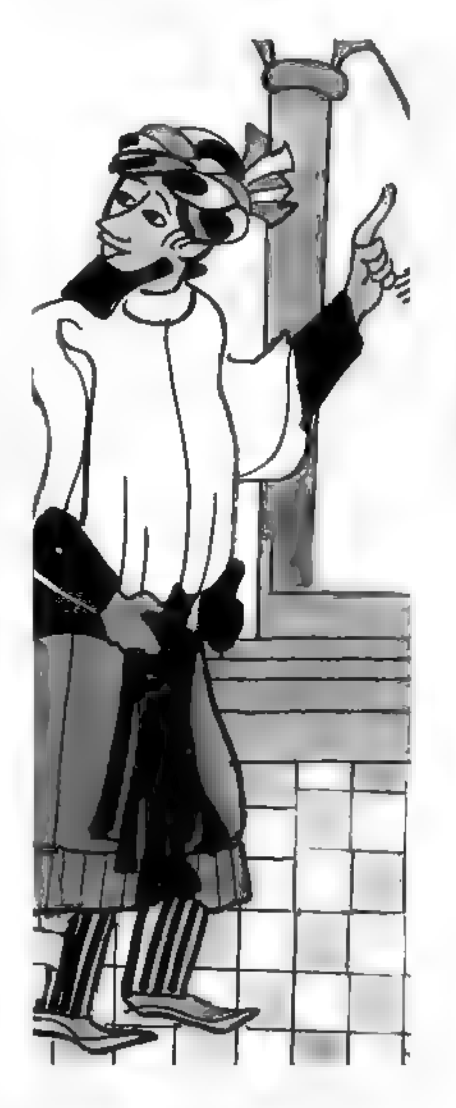
الْجَبَلِ كُلَّ يَوْمٍ. فَيَأْتِي بِفَاكِهَةٍ لاَ تُعْرَفُ، فَيُطْعِمُ ابْنَ الْمَلِكِ شَطْرَهَا، وَيُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَهَا. فَأَسْرَعَ ذٰلِكَ فِي نَشْأَتِهِمَا، وَزَادَ فِي شَبَابِهِمَا. وَبَانَ عَلَيْهِمَا أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ. فَازْدَادَ لِفَنْزَةَ إِكْرَاماً وَتَعْظِيماً وَمَحَبَّةً؛ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنَ الأَيَّامِ وَفَنْزَةُ غَائِبٌ فِي اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ، وَفَرْخُهُ فِي حِجْرِ[1] الْغُلاَمِ. ذَرَقَ فِي حِجْرِهِ؛ فَغَضِبَ الْغُلاَمُ، وَأَخَذَ الْفَرْخَ فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ فَمَاتَ.

ثُمَّ إِنَّ فَنْزَةَ أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرْخَهُ مَقْتُولاً، فَصَاحَ وَحَزِنَ، وَقَالَ: قُبْحاً لِلْمُلُوكِ الَّذِينَ لا عَهْدَ لَهُمْ وَلاَ وَفَاءَ! وَيْلٌ لِمَنِ ابْتُلِيَ بِصُحْبَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لاَ حَمِيَّةَ لَهُمْ وَلاَ حُرْمَةَ، وَلاَ يُحِبُّونَ أَحَداً وَلاَ يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ إِلاَّ إِذَا طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ غَنَاءٍ، وَاحْتَاجُوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ، فَيُكْرِمُونَهُ لِذٰلِكَ. فَإِذَا ظَفِرُوا بِحَاجَتِهِمْ مِنْهُ، فَلاَ وُدَّ، وَلاَ إِخَاءَ، وَلاَ إِحْسَانَ، وَلاَ غُفْرَانَ ذَنْبٍ، وَلاَ مَعْرِفَةَ حَقٍّ! هُمُ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى الرِّيَاءِ وَالْفُجُورِ، وَهُمْ يَسْتَصْغِرُونَ مَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ عَظِيمِ الذُّنُوبِ، وَيَسْتَعْظِمُونَ الْيَسِيرَ إِذَا خُولِفَتْ فِيهِ أَهْوَاؤُهُمْ. وَمِنْهُمْ هٰذَا الْكَفُورُ الَّذِي لاَ رَحْمَةَ لَهُ، الْغَادِرُ بِأَلِيفِهِ وَأَخِيهِ. ثُمَّ وَثَبَ فِي شِدَّةِ حَنَقِهِ عَلَى وَجْهِ الْغُلاَمِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، وَطَارَ فَوَقَعَ عَلَى شُرْفَةِ الْمَنْزِلِ.



(١) حجر: حصن.

ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَ الْمَلِكَ ذٰلِكَ، فَجَزِعَ أَشَدَّ الْجزعِ، ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ، فَوَقَفَ قَرِيباً مِنْهُ، وَنَادَاهُ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ آمِنٌ، فَٱنْزِلْ يَا فَنْزَةُ. فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْغَادِرَ مَأْخُوذٌ بِغَدْرِهِ، وَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأَهُ عَاجِلُ الْعُقُوبَةِ، لَمْ يُخْطِئْهُ الآجِلُ؛ حَتَّى إِنَّهُ يُدْرِكُ الأَعْقَابَ وَأَعْقَابَ الأَعْقَابِ. وَإِنَّ ابْنَكَ غَدَرَ بِابْنِي، فَعَجَّلْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ.



قَالَ الْمَلِكُ: لَعَمْرِي قَدْ غَدَرْنَا بِابْنِكَ، فَٱنْتَقَمْتَ مِنَّا: فَلَيْسَ لَكَ قِبَلَنَا، وَلاَ لَنَا قِبَلَكَ وِتْرٌ مَطْلُوبٌ. فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِناً. قَالَ فَنْزَةُ: لَسْتُ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبَداً: فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدْ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ الْمَوْتُورِ[1] فَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُكَ لُطْفُ الْحَقُودِ وَلِينُهُ وَتَكْرِمَتُهُ إِيَّاكَ إِلاَّ وَحْشَةً مِنْهُ، وَسُوءَ ظَنٍّ بِهِ: فَإِنَّكَ لاَ تَجِدُ لِلْحَقُودِ الْمَوْتُورِ أَمَاناً هُوَ أَوْثَقُ لَكَ مِنَ الذُّعْرِ مِنْهُ، وَلاَ أَجْوَدُ مِنَ الْبُعْدِ عَنْهُ، وَالاِحْتِرَاسُ مِنْهُ أَوْلَى. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِنَّ الْعَاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ أَصْدِقَاءَ، وَالإِخْوَةَ رُفَقَاءَ، وَالأَزْوَاجَ أُلَفَاءَ، وَالْبَنِينَ ذِكْراً، وَالْبَنَاتِ خُصَمَاءَ، وَالأَقَارِبَ غُرَمَاءَ وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فَرِيداً. وَأَنَا الْفَرِيدُ الْوَحِيدُ الْغَرِيبُ الطَّرِيدُ[2]، قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ مِنَ الْحُزْنِ عِبْئاً ثَقِيلاً، لاَ يَحْمِلُهُ مَعِي أَحَدٌ. وَأَنَا ذَاهِبٌ. فَعَلَيْكَ مِنِّي السَّلاَمُ.

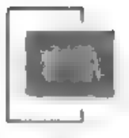
(١) الموتور: من قُتِل له قتيل فلم يدرك بدمه.
(٢) الطَّريد: المنفي الهارب.



قالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَكُن اجْتَزَيْتَ مِنَّا فِيمَا صَنَعْنَاهُ بِكَ، بَلْ كَانَ صَنِيعُكَ بِنَا مِنْ غَيْرِ ابْتِدَاءٍ مِنَّا بِالْغَدْرِ، كَانَ الأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ. وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ بَدَأْنَاكَ، فَمَا ذَنْبُكَ؟ وما الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثِّقَةِ بِنَا؟ هَلُمَّ فَارْجِعْ: فَإِنَّكَ آمِنٌ.



قَالَ فَنْزَةُ: اعْلَمْ أَنَّ الأَحْقَادَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ مَوَاقِعُ مُمَكَّنَةٌ مُوجِعَةٌ. فَالأَلْسُنُ لاَ تَصْدُقُ فِي خَبَرِهَا عَنِ الْقُلُوبِ، وَالْقَلْبُ أَعْدَلُ شَهَادَةً مِنَ اللِّسَانِ عَلَى الْقَلْبِ. وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ قَلْبِي لاَ يَشْهَدُ لِلِسَانِكَ، وَلاَ قَلْبُكَ لِلِسَانِي.



قَالَ الْمَلِكُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الضَّغَائِنَ وَالأَحْقَادَ تَكُونُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؟ فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ، كَانَ عَلَى إِمَاتَةِ الْحِقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ.

قَالَ فَنْزَةُ: إِنَّ ذٰلِكَ لَكَمَا ذَكَرْتَ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْبَغِي لذِي الرَّأْيِ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْمَوْتُورَ الْحَقُودَ نَاسٍ مَا وُتِرَ[1] بِهِ، مَصْرُوفٌ عَنْهُ فِكْرُهُ فِيهِ. وَذُو الرَّأْيِ يَتَخَوَّفُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ وَالْحِيَلَ. وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْعَدُوِّ لاَ يُسْتَطَاعُ بِالشِّدَّةِ وَالْمُكَابَرَةِ؛ حَتَّى يُصَادَ بِالرِّفْقِ وَالْمُلاَيَنَةِ: كَمَا يُصَادُ الْفِيلُ الْوَحْشِيُّ بِالْفِيلِ الدَّاجِنِ.

قَالَ الْمَلِكُ: إِنَّ الْعَاقِلَ الْكَرِيمَ لاَ يَتْرُكُ إِلْفَهُ، وَلاَ يَقْطَعُ إِخْوَانَهُ وَلاَ يُضَيِّعُ الْحِفَاظَ[2]، وَإِنْ هُوَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ؛ حَتَّى إِنَّ هٰذَا الْخُلُقَ يَكُونُ فِي أَوْضَعِ الدَّوَابِّ مَنْزِلَةً: فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّعَّابِينَ يَلْعَبُونَ بِالْكِلاَبِ، ثُمَّ يَذْبَحُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا. وَيَرَى الْكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلِفَهُمْ ذٰلِكَ، فَلاَ يَدْعُوهُ إِلَى مُفَارَقَتِهِمْ، وَلاَ يَمْنَعُهُ مِنْ أُلْفَتِهِ إِيَّاهُمْ.

---

(١) وتر: أصيب. (٢) الحفاظ: المراعاة.

باب

ابن الملك والطائر فنزة

قال فنزةُ: إنَّ الأَحْقادَ مَخُوفةٌ حَيْثُمَا كانتْ. فَأَخْوفُهَا وَأَشَدُّهَا ما كَانَ فِي أنْفُسِ الْمُلوك، فإنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بالانْتِقَام، وَيرَوْن الدَّرْكَ[1] وَالطَّلبَ بِالْوِتْرِ مكْرَمةً وفَخْراً. وإنَّ الْعَاقِلَ لاَ يَغْتَرُّ[2] بِسُكُونِ الْحِقْدِ إذَا سَكَنَ فإنَّمَا مَثَلُ الْحِقْدِ فِي الْقلْب، إذا لمْ يَجِدْ مُحرِّكاً، مَثَلُ الْجَمْرِ الْمَكْنُونِ، مَا لَمْ يَجِدْ حَطَباً، فَلَيْس يَنْفَكُّ الْحقْدُ مُتطلِّعاً إلى الْعِلَلِ، كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الْحَطَبَ، فإذَا وجدَ عِلَّةً اسْتَعَرَ[3] اسْتِعَارَ النَّارِ، فلاَ يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلام، وَلاَ لِينٌ وَلاَ رِفْقٌ، وَلاَ خُضُوعٌ وَلاَ تَضَرُّعٌ وَلاَ مُصانعةٌ، ولاَ شَيءٌ دُون تَلَفِ الأَنْفُسِ. مَعَ أَنَّهُ رُبَّ وَاتِرٍ يَطْمَعُ فِي مُرَاجَعَةِ الْمَوْتُورِ بِمَا يَرْجُو أنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ، وَالدَّفْعِ عَنْهُ. ولَكِنِّي أَنَا أَضْعَفُ عَنْ أنْ أقْدِرَ على شَيْءٍ يَذْهَبُ بِهِ مَا في نَفْسِكَ. وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ مُنْطَوِيَةً لِي عَلى مَا تَقُولُ مَا كَانَ ذَلِكَ عَنِّي مُغْنِياً. وَلاَ أزَالُ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَةٍ، وَسُوءِ ظَنّ، مَا اصْطَحَبْنَا[4]. فَلَيْسَ الرَّأْيُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إلاَّ الْفِرَاقَ. وَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ.



قَالَ الْمَلِكُ: لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لأَحَدٍ ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً؛ وَأَنَّهُ لاَ شَيْءَ مِنَ الأَشْيَاءِ صَغِيراً وَلاَ كَبِيراً، يُصِيبُ أَحَداً، إلاَّ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وَكَمَا أَنَّ خَلْقَ مَا يُخْلَقُ، وَوِلاَدَةَ مَا يُولَدُ، وَبَقَاءَ مَا يَبْقَى، لَيْسَ إلَى الْخَلاَئِقِ مِنْهُ شَيْءٌ؛ كَذَلِكَ فَنَاءُ مَا يَفْنَى، وَهَلاَكُ مَا يَهْلِكُ. وَلَيْسَ لَكَ فِي الَّذي صَنَعْتَ بِابْنِي ذَنْبٌ؛ وَلاَ لابْنِي فِيمَا صَنَعَ بِابْنِكَ ذَنْبٌ. إنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدَراً مَقْدُوراً، وَكِلاَنَا لَهُ عِلَّةٌ: فَلاَ نُؤَاخَذُ بِمَا أَتَانَا بِهِ الْقَدَرُ.

---

(١) الدرك: اللحاق.

(٢) لا يغتر: لا ينخدع.

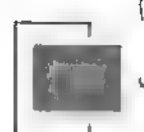
(٣) استعر: اتقد واشتعل.

(٤) ما اصطحبنا: أي مدة اصطحابنا.





قَالَ فَنْزَةُ: إِنَّ الْقَدَرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ، لٰكِنْ لاَ يَمْنَعُ ذٰلِكَ الْحَازِمَ مِنْ تَوَقِّي الْمَخَاوِفِ، وَالاحْتِرَاسِ مِنَ الْمَكَارِهِ. وَلٰكِنَّهُ يَجْمَعُ تَصْدِيقاً بِالْقَدَرِ وَأَخْذاً بِالْحَزْمِ وَالْقُوَّةِ. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ مَا فِي نَفْسِكَ، وَالأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيرٍ، لِأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ٱبْنِي، وَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ ابْنِكَ، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَشْتَفِيَ بِقَتْلِي، وَتَخْتِلَنِي(١) عَنْ نَفْسِي؛ وَالنَّفْسُ تَأْبَى الْمَوْتَ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: الْفَاقَةُ(٢) بَلاَءٌ، وَالْحُزْنُ بَلاَءٌ، وَقُرْبُ الْعَدُوِّ بَلاَءٌ، وَفِرَاقُ الأَحِبَّةِ بَلاَءٌ، وَالسَّقَمُ بَلاَءٌ، وَالْهَرَمُ بَلاَءٌ؛ وَرَأْسُ الْبَلاَيَا كُلِّهَا الْمَوْتُ. وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي نَفْسِ الْمُوجَعِ الْحَزِينِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ مَا بِهِ. فَأَنَا بِمَا فِي نَفْسِي عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ: لِلْمَثَلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ ذٰلِكَ. وَلاَ خَيْرَ لِي فِي صُحْبَتِكَ: فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيعِي بِابْنِكَ، وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيعَ ٱبْنِكَ بِٱبْنِي، إِلاَّ أَحْدَثَ ذٰلِكَ لِقُلُوبِنَا تَغْيِيراً.





قَالَ الْمَلِكُ: لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ الإِعْرَاضَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ، وَيَنْسَاهُ وَيُهْمِلُهُ حَتَّى لاَ يَذْكُرَ مِنْهُ شَيْئاً، وَلاَ يَكُونَ لَهُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعٌ.

قَالَ فَنْزَةُ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي بَاطِنِ قَدَمِهِ قُرْحَةٌ، إِنْ هُوَ حَرَصَ عَلَى الْمَشْيِ، فَلاَ بُدَّ أَنَّهُ لاَ يَزَالُ يَشْتَكِي قُرْحَتَهُ. وَالرَّجُلَ الأَرْمَدَ الْعَيْنِ إِذَا ٱسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيحَ، تَعَرَّضَ لِأَنْ تَزْدَادَ رَمَداً. وَكَذٰلِكَ الْوَاتِرُ إِذَا دَنَا مِنَ الْمَوْتُورِ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلاَكِ. وَلاَ يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا إِلاَّ تَوَقِّي الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ، وَتَقْدِيرُ

---

(١) تختلني: تخدعني. (٢) الفاقة: الفقر.



الأُمُورِ وَقِلَّةُ الاتِّكَالِ عَلى الْحَوْلِ وَالقُوَّةِ، وَقِلَّةُ الاغْتِرَارِ بِمَنْ لاَ يَأْمَنُ. فَإِنَّهُ مَنِ اتَّكَلَ عَلَى قُوَّتِهِ، فَحَمَلَهُ ذٰلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ، فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ نَفْسِهِ. وَمَنْ لاَ يُقَدِّرُ لِطَاقَتِهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، وَحَمَّلَ نَفْسَهُ مَا لاَ تُطِيقُ وَلاَ تَحْمِلُ، فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ. وَمَنْ لاَ يُقَدِّرُ لُقْمَتَهُ، وَعَظَّمَهَا فَوْقَ مَا يَسعُ فُوهُ، فَرُبَّمَا غَصَّ بِهَا فَمَاتَ. وَمَنِ اغْتَرَّ بِكَلاَمِ عَدُوِّهِ، وَانْخَدَعَ لَهُ، وَضَيَّعَ الْحَزْمَ، فَهُوَ أَعْدى لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ. وَلَيْسَ لأَحدٍ النَّظَرُ فِي الْقدرِ الَّذِي لاَ يَدْرِي مَا يَأْتِيهِ مِنْهُ وَلاَ مَا يُصْرَفُ عَنْهُ؛ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْحَزْمِ وَالأَخْذُ بِالْقُوَّةِ وَمُحَاسَبَةُ نَفْسِهِ فِي ذٰلِكَ. وَالْعَاقِلُ لاَ يَثِق بِأَحَدٍ مَا اسْتَطَاعَ، وَلاَ يُقِيمُ عَلَى خَوْفٍ وَهُوَ يَجِدُ عَنْهُ مَذْهَباً. وَأَنَا كَثِيرُ الْمَذَاهِبِ، وَأَرْجُو أَلاَّ أَذْهَبَ وَجْهاً إِلاَّ أَصَبْتُ فِيهِ مَا يُغْنِينِي. فَإِنَّ خِلاَلاً خَمْساً مَنْ تَزَوَّدَهُنَّ كَفَيْنَهُ فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَآنَسْنَهُ فِي كُلِّ غُرْبَةٍ، وَقَرَّبْنَ لَهُ الْبَعِيدَ، وَأَكْسَبْنَهُ الْمَعَاشَ وَالإِخْوَانَ: أَوَّلُهُنَّ كفُّ الأَذَى. وَالثَّانِيَةُ حُسْنُ الأَدَبِ. وَالثَّالِثَةُ مُجَانَبَةُ الرِّيَبِ، وَالرَّابِعَةُ كَرَمُ الْخُلُقِ، وَالْخَامِسَةُ النُّبْلُ فِي الْعَمَلِ. وَإِذَا خَافَ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئاً طَابَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْمَالِ وَالأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْوَطَنِ، فَإِنَّهُ يَرْجُو الْخَلَفَ مِن ذٰلِكَ كُلِّهِ وَلاَ يَرْجُو عَنِ النَّفْسِ خلفاً. وَشَرُّ الْمَالِ مَا لاَ إِنْفَاقَ مِنْهُ، وَشَرُّ الأَزْوَاجِ الَّتِي لاَ تُوَاتِي بَعْلَهَا، وَشَرُّ الْوَلَدِ الْعَاصِي الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَشَرُّ الإِخْوَانِ الْخَاذِلُ لأَخِيهِ عِنْدَ النَّكَبَاتِ وَالشَّدَائِدِ، وَشَرُّ الْمُلُوكِ الَّذِي يخَافُهُ الْبَرِيءُ، ولاَ يُوَاظِبُ عَلَى حِفْظِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَشَرُّ الْبِلاَدِ بِلاَدٌ لاَ خِصْبَ فِيهَا وَلاَ أَمْنَ، وَإِنَّهُ لاَ أَمْنَ لِي عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَلاَ طُمَأْنِينَةَ لِي فِي جِوَارِكَ. ثُمَّ وَدَّعَ الْمَلِكَ وَطَارَ.

فَهٰذَا مَثَلُ ذَوِي الأَوْتَارِ الَّذِينَ لاَ يَنْبَغِي لِبَعْضِهِمْ أَنْ يَثِقَ بِبَعْضٍ.

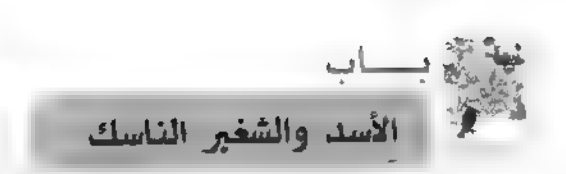






بـاب
الأَسَـدِ وَالشَّغْبَرِ النَّاسِـك





الأَسَد وَالشَّغْبَر النَّاسِك
(وَهُوَ ابْنُ آوَى)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَد سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الْمَلِكِ الَّذِي يُرَاجِعُ مَنْ أَصَابَتْهُ مِنْهُ عُقُوبَةٌ من غَيْرِ جُرْمٍ. أَوْ جَفْوَةٌ مِنْ غيْرِ ذَنْبٍ.

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنَّ الْمَلِكَ لَوْ لَمْ يُرَاجِعْ مَنْ أَصابَتْهُ مِنْهُ جَفْوَةٌ عَنْ ذَنْبٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ ذَنْبٍ، ظُلِمَ أَوْ لَمْ يُظْلَمْ، لأَضَرَّ ذٰلِكَ بِالأُمُورِ، وَلٰكِنَّ الْمَلِكَ حَقيقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالِ مَنِ ابْتُلِيَ بِذٰلِكَ، وَيَخْبُرَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَنافِعِ، فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُوثَقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمَانَتِهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ بِالْحِرْصِ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ. فَإِنَّ الْمُلْكَ لاَ يُسْتَطاعُ ضَبْطُهُ إِلاَّ مَعَ ذَوِي الرَّأْيِ وَهُمُ الْوُزَرَاءُ وَالأَعْوَانُ. وَلاَ يُنْتَفَعُ بِالْوُزَرَاءِ وَالأَعْوَانِ إِلاَّ بِالْمَوَدَّةِ وَالنَّصِيحَةِ؛ وَلاَ مَوَدَّةَ وَلاَ نَصِيحَةَ إِلاَّ لِذَوِي الرَّأْيِ وَالْعَفَافِ. وَأَعْمَالُ السُّلْطَانِ كَثِيرَةٌ؛ وَالَّذِين يُحْتَاجُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعُمَّالِ وَالأَعْوَانِ كَثِيرُونَ. وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ مَا ذَكَرْتُ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْعَفَافِ قَلِيلٌ.



وَالْمَثَلُ فِي ذٰلِكَ مَثَلُ الأَسَدِ وَابْنِ آوَى. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: **زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ آوَى كَانَ يَسْكُنُ فِي بَعْض الدِّحَالِ**[1]**، وَكَانَ مُتَزَهِّداً مُتَعَفِّفاً، مَعَ بَنَاتِ آوَى وَذِئَابٍ وَثَعَالِبَ.** وَلَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ مَا يَصْنَعْنَ، وَلاَ يُغِيرُ كَمَا يُغِرْنَ، وَلاَ يُهرِيقُ[2] دَماً، وَلاَ يَأْكُلُ لَحْماً. فَخَاصَمَتْهُ تِلْكَ السِّبَاعُ.

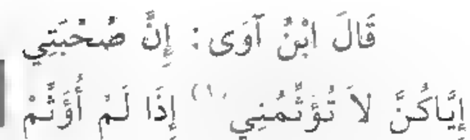
---

(١) الدّحال: جمع دحل وهو ثقب فمه ضيق وأسفله متسع.
(٢) يهريق: يسيل، يسكب.





وَقُلْنَ: لاَ نَرْضَى بِسِيرَتِكَ وَلاَ رَأْيِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزَهُّدِكَ: مَعَ أَنَّ تَزَهُّدَكَ لاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. وَأَنْتَ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ إِلاَّ كَأَحَدِنَا: تَسْعَى مَعَنَا، وَتَفْعَلُ فِعْلَنَا. فَمَا الَّذِي كَفَّكَ عَنِ الدِّمَاءِ وَعَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ؟







قَالَ ابْنُ آوَى: إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكُنَّ لاَ تُؤَثِّمُنِي[1] إِذَا لَمْ أُؤَثِّمْ نَفْسِي: لأَنَّ الآثَامَ لَيْسَتْ مِنْ قِبَلِ الأَمَاكِنِ وَالأَصْحَابِ؛ وَلٰكِنَّها مِنْ قِبَلِ الْقُلُوبِ وَالأَعْمَالِ. وَلَوْ كانَ صَاحِبُ الْمَكَانِ الصَّالِحِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ صَالِحاً، وَصَاحِبُ الْمَكانِ السَّيِّءِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ سَيِّئاً، كَانَ حِينَئِذٍ مَنْ قَتَلَ النَّاسِكَ فِي مِحْرَابِهِ[2] لَمْ يَأْثَمْ، وَمَنِ اسْتَحْيَاهُ[3] فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ أَثِمَ. وَإِنِّي إِنَّمَا صَحِبْتُكُنَّ بِنَفْسِي، وَلَمْ أَصْحَبْكُنَّ بِقَلْبِي وَأَعْمَالِي: لِأَنِّي أَعْرِفُ ثَمَرَةَ الأَعْمَالِ، فَلَزِمْتُ حَالِي.

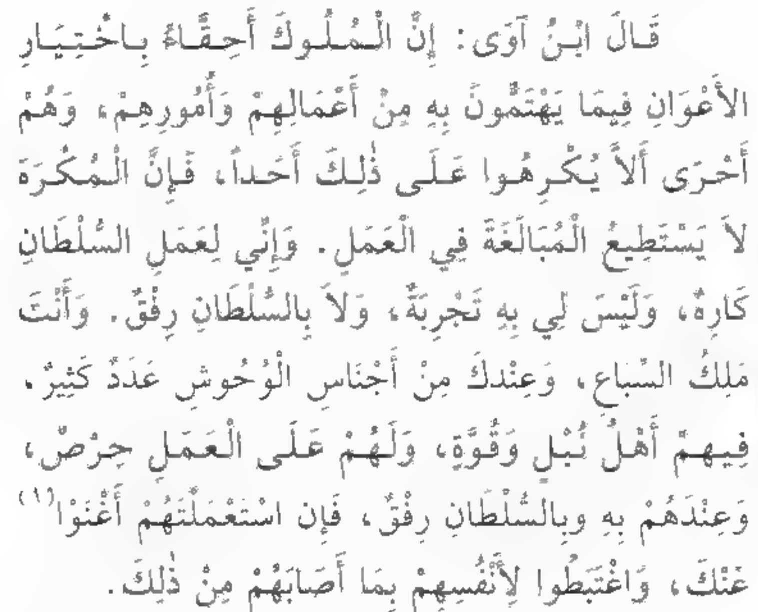
وَثَبَتَ ابْنُ آوَى عَلَى حَالِهِ تِلْكَ، وَاشْتَهَرَ بِالنُّسُكِ وَالتَّزَهُّدِ؛ حَتَّى بَلَغَ ذٰلِكَ أَسداً كانَ مَلِكَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، فَرَغِبَ فِيهِ، لِمَا بَلَغَهُ عَنْهُ مِنَ الْعَفَافِ وَالنَّزَاهَةِ وَالزُّهْدِ وَالأَمَانَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَسْتَدْعِيهِ. فَلَمَّا حَضَرَ كَلَّمَهُ وَآنَسَهُ فَوَجَدَهُ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ

(١) تؤثّمني: تُلحق بي الذنب، توبخني وتلومني.

(٢) محرابه: غرفته. (٣) استحياه: استبقاه حياً.

وَفْقَ غَرَضِهِ. ثُمَّ دَعَاهُ بَعْدَ أَيَّامٍ إِلَى صُحْبَتِهِ وَقَالَ لَهُ: تَعْلَمُ أَنَّ عُمَّالِي كَثِيرٌ، وَأَعْوَانِي جَمٌّ غَفِيرٌ، وَأَنَا مَعَ ذٰلِكَ إِلَى الأَعْوَانِ مُحْتَاجٌ. وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ عَفَافٌ وَأَدَبٌ وَعَقْلٌ وَدِينٌ، فَازْدَدْتُ فِيكَ رَغْبَةً. وَأَنَا مُوَلِّيكَ مِنْ عَمَلِي جَسِيماً وَرَافِعُكَ إِلَى مَنْزِلَةٍ شَرِيفَةٍ، وَجَاعِلُكَ مِنْ خَاصَّتِي.





قَالَ ابْنُ آوَى: إِنَّ الْمُلُوكَ أَحِقَّاءُ بِاخْتِيَارِ الأَعْوَانِ فِيمَا يَهْتَمُّونَ بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأُمُورِهِمْ، وَهُمْ أَحْرَى أَلاَّ يُكْرِهُوا عَلَى ذٰلِكَ أَحَداً، فَإِنَّ الْمُكْرَهَ لاَ يَسْتَطِيعُ الْمُبَالَغَةَ فِي الْعَمَلِ. وَإِنِّي لِعَمَلِ السُّلْطَانِ كَارِهٌ، وَلَيْسَ لِي بِهِ تَجْرِبَةٌ، وَلاَ بِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ. وَأَنْتَ مَلِكُ السِّبَاعِ، وَعِنْدَكَ مِنْ أَجْنَاسِ الْوُحُوشِ عَدَدٌ كَثِيرٌ، فِيهِمْ أَهْلُ نُبْلٍ وَقُوَّةٍ، وَلَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ حِرْصٌ، وَعِنْدَهُمْ بِهِ وَبِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ، فَإِنِ اسْتَعْمَلْتَهُمْ أَغْنَوْا[1] عَنْكَ، وَاغْتَبَطُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ.



قَالَ الأَسَدُ: دَعْ عَنْكَ هٰذَا، فَإِنِّي غَيْرُ مُعْفِيكَ مِنَ الْعَمَلِ.

قَالَ ابْنُ آوَى: إِنَّمَا يَسْتَطِيعُ خِدْمَةَ السُّلْطَانِ رَجُلاَنِ لَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا: إِمَّا فَاجِرٌ مُصَانِعٌ، يَنَالُ حَاجَتَهُ بِفُجُورِهِ، وَيَسْلَمُ بِمُصَانَعَتِهِ؛ وَإِمَّا مُغَفَّلٌ لاَ يَحْسُدُهُ أَحَدٌ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَلاَ يَخْلِطُ ذٰلِكَ بِمُصَانَعَتِهِ؛ وَحِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذٰلِكَ، لأَنَّهُ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ وَصَدِيقُهُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ. أَمَّا الصَّدِيقُ فَيُنَافِسُهُ فِي مَنْزِلَتِهِ، وَيَبْغِي عَلَيْهِ فِيهَا، وَيُعَادِيهِ لِأَجْلِهَا؛ وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطَانِ فَيَضْطَغِنُ[2] عَلَيْهِ، لِنَصِيحَتِهِ لِسُلْطَانِهِ، وَإِغْنَائِهِ عَنْهُ. فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ

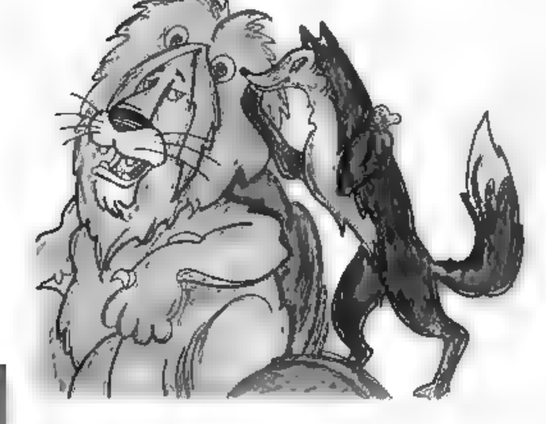
---

(١) أغنوا عنك: نفعوك.　　(٢) يضطغن: يحقد.



هٰذَانِ الصِّنْفَانِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلاَكِ.

قَالَ الأَسَدُ: لاَ يَكُونَنَّ بَغْيُ أَصْحَابِي عَلَيْك، وحَسَدُهُمْ إِيَّاكَ مِمَّا يَعْرِضُ فِي نَفْسِك: فَأَنْتَ مَعِي، وَأَنا أَكْفِيكَ ذٰلِك، وَأَبْلُغُ بِكَ مِنْ دَرَجَاتِ الْكَرَامَةِ وَالإِحْسَانِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِك.







قَالَ ابْنُ آوَى: إِنْ كَانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ الإِحْسَانَ إِلَيَّ، فَلْيَدَعْنِي في هٰذِهِ الْبَرِّيَّةِ أَعِيشُ آمِناً، قَلِيلَ الْهَمِّ، رَاضِياً بِعَيْشِي مِنَ الْمَاءِ وَالْعُشْبِ، فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَ السُّلْطَانِ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الأَذَى وَالْخَوْفِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لاَ يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طُولِ عُمُرِهِ؛ وَإِنَّ قَلِيلاً مِنَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَطُمَأْنِينَةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَيْشِ فِي خَوْفٍ وَنَصَبٍ.

قَالَ الأَسَدُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ، فَلاَ تَخَفْ شَيْئاً مِمَّا أَرَاكَ تَخَافُ مِنْهُ. وَلَسْتُ أَجِدُ بُدًّا مِنَ الاسْتِعَانَةِ بِكَ فِي أَمْرِي.

قال ابْنُ آوى: أَمَّا إِذَا أَبَى الْمَلِكُ إِلاَّ ذٰلِكَ فَلْيَجْعَلْ لِي عَهْداً، إِنْ بَغى عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ، مِمَّنْ هُوَ فَوْقِي، مَخَافَةً عَلى مَنْزِلَتِهِ. أَوْ مِمَّنْ هُوَ دُونِي، لِيُنَازِعَنِي فِي مَنْزِلَتِي، فَذَكَرَ عِنْدَ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ذَاكِرٌ بِلِسَانِهِ، أَوْ عَلى لِسَانِ غَيْرِهِ مَا يُرِيدُ بِهِ تَحْمِيلَ الْمَلِكِ عَلَيَّ، أَلاَّ يَعْجَلَ فِي أَمْرِي، وَأَن يَتَثَبَّتَ فِيمَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُ عِنْدَهُ مِنْ ذٰلِكَ. وَيَفْحَص عَنْهُ، ثُمَّ لِيَصْنَعْ مَا بَدَا لَهُ. فَإِذَا وَثِقْتُ مِنْهُ بِذٰلِكَ. أَعَنْتُهُ بِنَفْسِي فِيمَا يُحِبُّ، وعَمِلْتُ لَهُ فِيمَا أَوْلاَنِي بِنَصِيحَةٍ واجْتِهادٍ، وحَرَصْتُ عَلى أَلاَّ أَجْعَلَ لَهُ عَلَى نَفْسِي سَبِيلاً.

قَالَ الأَسَدُ: لَكَ ذٰلِك عَلَيَّ وَزِيَادَةٌ. ثُمَّ وَلاَّهُ خَزَائِنَهُ، وَاخْتَصَّ بِهِ دُونَ أَصْحَابه، وَزَادَ في كَرَامَتِه.

فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابُ الأَسَدِ ذٰلكَ، غَاظَهُمْ وَسَاءَهُمْ. فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِ الأَسَدَ. وَكَانَ الأَسَدُ قَدِ اسْتَطَابَ لَحْماً فَعَزَلَ مِنْهُ مِقْدَاراً، وَأَمَرَهُ بالاحْتِفَاظِ بِهِ، وَأَنْ يَرْفَعَهُ فِي أَحْصَنِ مَوْضِعِ طَعَامِهِ وَأَحْرَزِهِ[1]، لِيُعَادَ عَلَيْهِ؛ **فَأَخَذُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ، وَحَمَلُوهُ إِلَى بيتِ ابْنِ آوَى، فَخَبَؤُوهُ فِيهِ،** وَلاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ؛ ثُمَّ حَضَرُوا يُكَذِّبُونَهُ إِنْ جَرَتْ فِي ذٰلِكَ حَالٌ.





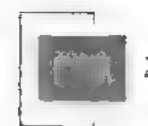
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، وَدَعَا الأَسَدُ بِغَدَائِهِ، فَقَدَ ذٰلِكَ اللَّحْمَ، فَالْتَمَسَهُ وَلَمْ يَجِدْهُ؛ وَابْنُ آوَى لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صُنِعَ فِي حَقِّهِ مِنَ الْمَكِيدَةِ. فَحَضَرَ الَّذِينَ عَمِلُوا الْمَكِيدَةَ. وَقَعَدُوا فِي الْمَجْلِسِ.

(١) أحرزه: أمنعه.



ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ، وَشَدَّدَ فِيهِ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ الْمُخْبِرِ النَّاصِحِ: إِنَّهُ لاَ بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُخْبِرَ الْمَلِكَ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ، وَإِنْ شَقَّ ذٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ. وَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ آوَى هُوَ الَّذِي ذَهَبَ بِاللَّحْمِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَأْكُلَهُ دُونَ الْمَلِكِ.

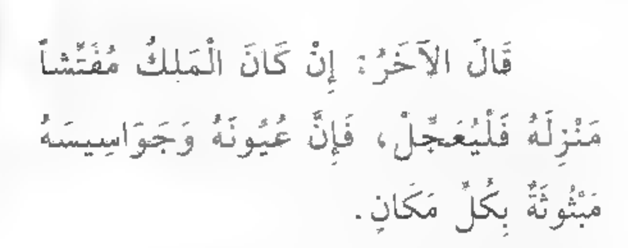
قَالَ الآخَرُ: لاَ أَرَاهُ يَفْعَلُ هٰذَا، وَلٰكِنِ انْظُرُوا وَافْحَصُوا: فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْخَلاَئِقِ شَدِيدَةٌ. فَقَالَ الآخَرُ: لَعَمْرِي مَا تَكَادُ السَّرَائِرُ[1] تُعْرَفُ، وَأَظُنُّكُمْ إِنْ فَحَصْتُمْ عَنْ هٰذَا وَجَدْتُمُ اللَّحْمَ بِبَيْتِ ابْنِ آوَى؛ وَكُلُّ شَيْءٍ يُذْكَرُ مِنْ عُيُوبِهِ وَخِيَانَتِهِ نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ.



قَالَ الآخَرُ: لَئِنْ وَجَدْنَا هٰذَا حَقًّا فَلَيْسَتْ بِالْخِيَانَةِ فَقَطْ، وَلٰكِنْ مَعَ الْخِيَانَةِ كُفْرُ النِّعْمَةِ، وَالْجَرَاءَةُ عَلَى الْمَلِكِ.



قَالَ الآخَرُ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُكَذِّبَكُمْ، وَلٰكِنْ سَيَبِينُ هٰذَا لَوْ أَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ يُفَتِّشُهُ.



قَالَ الآخَرُ: إِنْ كَانَ الْمَلِكُ مُفَتِّشاً مَنْزِلَهُ فَلْيُعَجِّلْ، فَإِنَّ عُيُونَهُ وَجَوَاسِيسَهُ مَبْثُوثَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ.

---

(١) السّرائر: الخفايا.

ولَمْ يَزالُوا فِي هٰذا الْكَلاَمِ وأَشْبَاهِهِ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِ الأَسَدِ ذٰلك؛ فأمر بِابْنِ آوَى فَحَضر، فَقال لَهُ: أَيْنَ اللَّحْمُ الَّذِي أَمَرْتُك بالاحْتِفاظ بِهِ، قال: دَفَعْتُهُ إِلَى صاحبِ الطَّعَامِ لِيُقَرِّبَهُ إِلَى الْمَلِكِ. فَدَعا الأَسَدُ بِصاحِبِ الطَّعام؛ وكَان مِمَّنْ شايَعَ وبَايَعَ مَعَ الْقَوْمِ على ابْنِ آوَى. فَقَال: ما دَفَعَ إِلَيَّ شَيْئاً. فَأَرْسَلَ الأَسَدُ أَمِيناً إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى لِيُفَتِّشَهُ، فَوَجد فِيهِ ذَلِكَ اللَّحْمَ؛ فأَتى بِهِ الأَسَد. فَدنا مِنَ الأَسَد ذِئْبٌ لَمْ يَكُنْ تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ. وَكَانَ يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ الْعُدُولِ الَّذِينَ لاَ يَتَكَلَّمُونَ فِيمَا لاَ يَعْلَمُونَ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ. فَقَالَ: بعْد أَنِ اطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى خِيَانَة ابْنِ آوَى فَلاَ يَعْفُوَنَّ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْهُ لَمْ يَطَّلِعِ الْمَلِكُ بَعْدَهَا عَلى خِيَانَةِ خائِنٍ، وَلاَ ذَنْبِ مُذْنِبٍ. فَأَمَرَ الأَسَدُ بِابْنِ آوَى أَنْ يُخْرَجَ، وَيُحْتَفَظ بِهِ.



فَقَالَ بَعْضُ جُلسَاءِ الْمَلِكِ: إِنِّي لأَعْجَبُ مِن رَأْيِ الْمَلِكِ ومعْرِفَتِهِ بالأُمُورِ كَيْف يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُ هٰذا، وَلَمْ يَعْرِفْ خِبَّهُ وَمُخَادَعَتهُ؟ وَأَعْجَبُ مِنْ هٰذا أَنِّي أَرَاهُ سَيَصْفَحُ عَنْهُ. بعْدَ الَّذِي ظَهرَ مِنْهُ. فأَرْسل الأسدْ بَعْضهُمْ رَسُولاً إِلَى ابْنِ آوَى يَلْتمِسُ مِنْهُ الْعُذْر، فَرَجعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ بِرِسالَةٍ كاذِبَةٍ اخْترعَهَا؛ فَغَضِبَ الأَسَدُ مِنْ ذٰلِكَ، وَأَمَرَ بِابْنِ آوَى أَنْ يُقْتَلَ.





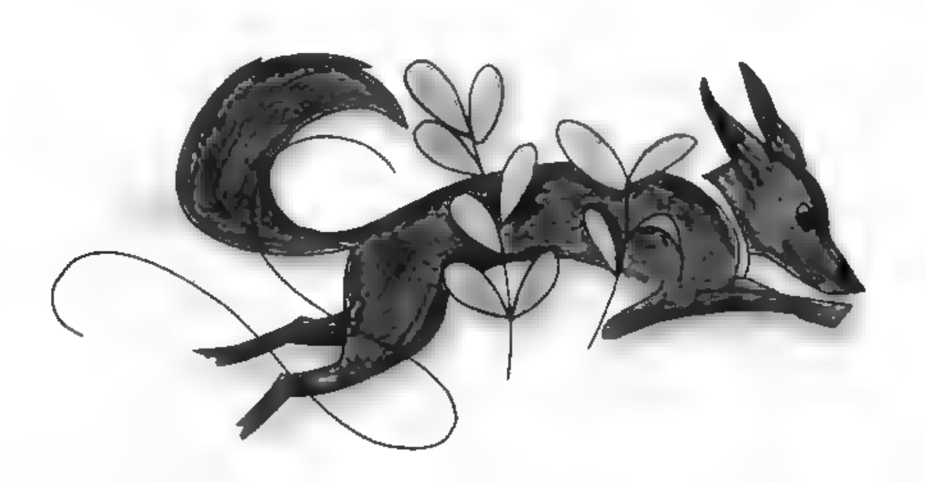
فَعَلِمَتْ أُمُّ الأَسَدِ أَنَّهُ قَدْ عَجَّلَ في أَمْرِهِ؛ فَأَرْسَلَتْ إِلَى الَّذِينَ أُمِرُوا بِقَتْلِهِ أَنْ يُؤَخِّرُوهُ، وَدَخَلَتْ عَلَى ابْنِهَا، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ بِأَيِّ ذَنْبٍ أَمَرْتَ بِقَتْلِ ابْنِ آوَى؟ فَأَخْبَرَها بِالأَمْرِ. فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ عَجَّلْتَ. وَإِنَّمَا يَسْلَمُ الْعَاقِلُ مِنَ النَّدَامَةِ بِتَرْكِ الْعَجلَة وَبِالتَّثَبُّت. وَالْعَجَلَةُ لاَ يَزَالُ صَاحِبُهَا يَجْتَنِي ثَمَرَةَ النَّدَامَة، بِسَبَبِ ضَعْفِ الرَّأْيِ.

وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحْوَجَ إِلَى التُّؤَدَةِ وَالتَّثَبُّتِ منَ الْمُلُوكِ. فَإِنَّ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِهَا. وَالْوَلَدَ بِوَالِدَيْهِ، وَالْمُتَعَلِّمَ بِالْمُعَلِّم، وَالْجُنْدَ بِالْقَائِدِ، وَالنَّاسِكَ بِالدِّينِ، وَالْعَامَّةَ بِالْمُلُوكِ، وَالْمُلُوكَ بِالتَّقْوَى، وَالتَّقْوَى بِالْعَقْلِ، وَالْعَقْلَ بِالتَّثَبُّتِ وَالأَنَاةِ[1]؛ وَرَأْسُ الْكُلِّ الْحَزْمُ، وَرَأْسُ الْحَزْمِ لِلْمِلِكِ مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهِ، وَإِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ[2]، وَاتِّهَامُهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. فَإِنَّهُ لَو وَجَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى هَلاَكِ بَعْضٍ سَبِيلاً لَفَعَلَ. وَقَدْ جَرَّبْتَ ابْنَ آوَى، وَبَلَوْتَ رَأْيَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمُرُوءَتَهُ، ثُمّ لَمْ تَزَلْ مَادِحاً لَهُ رَاضِياً عَنْهُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلكِ أَنْ يُخَوِّنَهُ بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِيَّاهُ وَائْتِمَانِهِ لَهُ؛ وَمُنْذُ مَجيئِهِ إِلَى الآنَ لَمْ يُطَّلَعْ لَهُ عَلَى خِيَانَةٍ إِلاَّ عَلَى الْعِفَّةِ

(١) الأناة: الحلم والرفق.　　(٢) طبقاتهم: مراتبهم.

وَالنَّصِيحَةِ. وَمَا كَانَ رَأْيُ الْمَلِك أَنْ يُعَجِّلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ طَابَقِ لَحْمٍ. وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ تَنْظُرَ فِي حَالِ ابْنِ آوَى، لِتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَعَرَّضَ لِلَحْمٍ اسْتَوْدَعْتَهُ إِيَّاهُ. وَلَعَلَّ الْمَلِكَ إِنْ فَحَصَ عَنْ ذٰلِكَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ ابْنَ آوَى لَهُ خُصَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ أْتَمَرُوا بِهٰذَا الأَمْرِ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ فَوَضَعُوهُ فِيهِ، فَإِنَّ الْحِدَأَةَ إِذَا كَانَ فِي رِجْلِهَا قِطْعَةُ لَحْمٍ ٱجْتَمَعَ عَلَيْهَا سَائِرُ الطَّيْرِ، وَالْكَلْبَ إِذَا كَانَ مَعَهُ عَظْمٌ ٱجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْكِلاَبُ. وَابْنُ آوَى مُنْذُ كَانَ إِلَى الْيَوْم نَافِعٌ، وَكَانَ مُحْتَمِلاً لِكُلِّ ضَرَرٍ فِي جَنْبِ مَنْفَعَةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ، وَلِكُلِّ عَنَاءٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ رَاحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْوِي دُونَكَ سِرًّا.

فَبَيْنَمَا أُمُّ الأَسَدِ تَقُصُّ عَلَيْهِ هٰذِهِ الْمَقَالَةَ، إِذْ دَخَلَ عَلَى الأَسَدِ بَعْضُ ثِقَاتِهِ، ٣٣٢ **فَأَخْبَرَهُ بِبَرَاءَةِ ابْنِ آوَى.** فَقَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ، بَعْدَ أَنِ ٱطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى بَرَاءَةِ ابْنِ

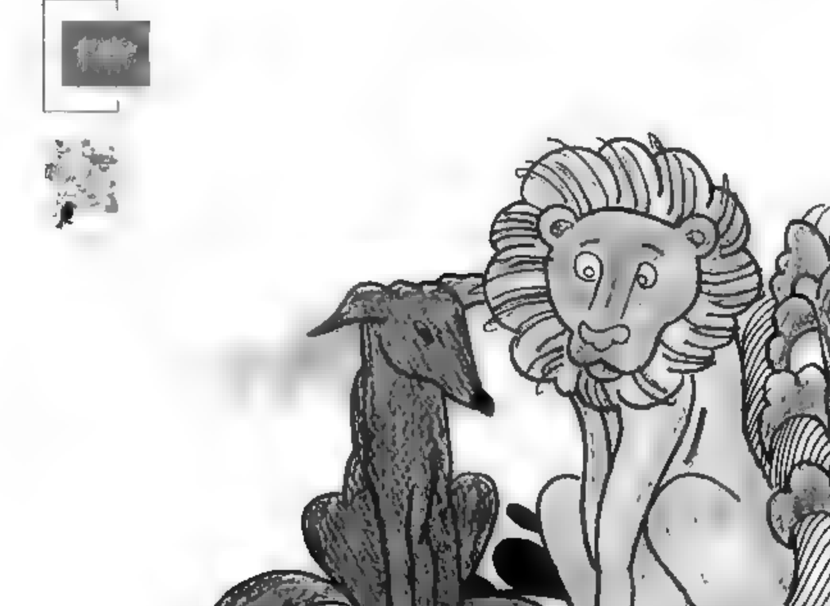


آوَى: إِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ أَلاَّ يُرَخِّصَ لِمَنْ سَعَى بِهِ لِئَلاَّ يَتَجَرَّؤُوا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ؛ بَلْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لِكَيْ لاَ يَعُودُوا إِلَى مِثْلِهِ. فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُرَاجِعَ فِي أَمْرِ الْكَفُورِ لِلْحُسْنَى، الْجَرِيءِ عَلَى الْغَدْرِ، الزَّاهِدِ فِي الْخَيْرِ، الَّذِي لاَ



يُوقِنُ بِالآخِرَة، وَيَنْبَغِي أَنْ يُجْزَى بعَمَلِهِ، وَقَدْ عَرَفْتَ سُرْعَةَ الْغَضَب وَفَرْط الْهَفْوَةِ؛ وَمَنْ سَخِطَ بالْيَسير لَمْ يَبْلُغْ رضَاهُ بِالْكَثِيرِ. وَالأَوْلَى لَكَ أَنْ تُرَاجِعَ ابْنَ آوَى، وَتَعْطِفَ عَلَيْهِ؛ وَلاَ يُوئِسَنَّكَ[1] مِنْ مُنَاصَحَتِهِ مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ الإِسَاءَةِ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لاَ يَنْبَغِي تَرْكُهُ عَلَى حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ، وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلاَحِ وَالْكَرَم وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَالشُّكْر وَالْوَفَاءِ وَالْمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ وَالسَّلاَمَةِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبُعْدِ مِنَ الأَذَى وَالاحْتِمَالِ لِلإِخْوَانِ وَالأَصْحَابِ وَإِنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمُ الْمَؤُونَةُ. وَأَمَّا مَنْ يَنْبَغِي تَرْكُهُ فَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالشَّرَاسَةِ وَلُؤْم الْعَهْدِ وَقِلَّةِ الشُّكْر وَالْوَفَاءِ وَالْبُعْدِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْوَرَعِ، وَاتَّصَفَ بِالْجُحُودِ لِثَوَابِ الآخرَةِ وَعِقَابِهَا. وَقَدْ عَرَفْتَ ابْنَ آوَى وَجَرَّبْتَهُ وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمُوَاصَلَتِهِ.

فَدَعَا الأَسَدُ بِابْنِ آوَى وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُ وَوَعَدَهُ خَيْراً، وَقَالَ: إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ وَرَادُّكَ إِلَى مَنْزِلَتِكَ.



فَقَالَ ابْنُ آوَى: إِنَّ شَرَّ الأَخِلاَّءِ مَنِ الْتمَسَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضُرِّ أَخِيهِ، وَمَنْ كَانَ غَيْرَ



(١) يوئسنك: يقطع أملك.

ناظِرٍ لَهُ كَنظَرِهِ لِنَفْسِهِ، أوْ كَانَ يُرِيدُ أنْ يُرْضِيَهُ بِغَيْرِ الْحَقّ لأَجْلِ اتّبَاعِ هَوَاهُ. وَكَثِيراً ما يَقَعُ ذٰلِكَ بَيْنَ الأَخلاَّءِ. وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَلِكِ إِلَيَّ مَا عَلِمَ؛ فَلاَ يَغْلُظَنَّ[1] عَلَى نَفْسِهِ مَا أُخْبِرُهُ بِهِ أَنّي بِهِ غَيْرُ وَاثِقٍ، وَأَنَّهُ لا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَصْحَبَهُ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَصْحَبُوا مَنْ عَاقَبُوهُ أَشَدَّ الْعِقَابِ؛ وَلا يَنْبَغي لَهُمْ أَنْ يَرْفُضُوهُ أصْلاً، فَإِنَّ ذا السُّلْطَانِ إِذَا عُزِلَ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْكَرَامَةِ فِي حَالَةِ إِبْعَادِهِ والإِقْصَاءِ لَهُ.

فَلَمْ يَلْتفِتِ الأَسَدُ إلى كَلاَمِهِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنّي قَدْ بَلَوْتُ طِبَاعَكَ وَأَخْلاَقَكَ، وَجرَّبْتُ أَمَانَتَكَ وَوَفَاءَكَ وَصِدْقَكَ؛ وَعَرَفْتُ كَذِبَ مَنْ تَمحَّلَ الْحِيَلَ لِتَحَمُّلِي عَلَيْكَ. وَإِنّي مُنْزِلُكَ مِنْ نَفْسِي مَنْزِلَةَ الأَخْيَارِ الْكُرَماءِ، وَالْكَرِيمُ تُنْسِيهِ الْخلَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الإِحْسَانِ، الْخِلالَ الْكَثِيرَةَ مِنَ الإِسَاءَةِ. وَقدْ عُدْنَا إِلَى الثِّقَةِ بِكَ، فَعُدْ إِلى الثِّقةِ بِنَا: فإِنَّ لَنا وَلَكَ بِذٰلِكَ غِبْطَةً وَسُرُوراً. فَعَادَ ابْنُ آوى إِلَى وِلاَيَةِ مَا كَانَ يَلِي، وَضاعَفَ لَهُ الْمَلِكُ الْكَرَامَةَ، وَلَمْ تَزِدْهُ الأَيَّامُ إلاَّ تَقَرُّباً مِنَ السُّلْطَانِ.



(١) لا يغلظنّ: لا يصعبنّ.



باب

اللبؤة والإسوار والشعهر



بـــاب
اللبؤة والإسوار والشعهر

اللبؤة والإسوار والشعهر(*)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثلاً فِي شأنِ مَن يَدَعُ ضَرَّ غيرِهِ إذا قَدَرَ عليه لما يُصيبُهُ مِنَ الضَّرَرِ، ويكونُ له ممَّا يَنزِلُ به واعِظٌ وزواجِرٌ عنِ ارتِكابِ الظُّلمِ والعَداوةِ لغيرِهِ.



قالَ الفَيلَسوفُ: إنَّه لا يُقدِمُ على طَلَبِ ما يَضُرُّ بالناسِ وما يَسوءُهُمْ إلاَّ أهلُ الجَهالَةِ والسَّفَهِ وسوءِ النَّظَرِ في العواقِبِ من أُمورِ الدنيا والآخِرَةِ وقِلَّةِ العِلم بما يَدخُلُ عليهم في ذلك من حُلولِ النِّقمَةِ وبما يَلزَمُهُمْ من تَبِعَةِ ما اكتَسبوا ممَّا لا تُحيطُ به العقولُ. وإن سَلِمَ بعضُهُم من ضَرَرِ بعضٍ باتِّفاقٍ عَرَض له قَبلَ أن يَنزِلَ به وبَالُ ما صَنَعَ لم يَسلَمْ في كلِّ مرَّةٍ. فإنَّ مَن لم يُفَكِّرْ في العواقِبِ لم يأمَنِ المَصائِبَ وكانَ حَقيقاً أن لا يَسلَمَ مِنَ المَعَاطِبِ. وربما اتَّعظَ الجاهِلُ واعتَبَرَ بما يُصيبُهُ مِنَ المَضَرَّةِ مِنَ الغَيرِ فارتَدَعَ عن أن يَغشى[1] أحداً بمثلِ ذلك مِنَ الظُّلمِ والعُدوانِ وحَصَلَ له نَفعُ ما كَفَّ عنه من ضَرَرِهِ لغيرِهِ في العاقِبَةِ. ومَثَلُ ذلك حديثُ اللَّبؤةِ والإسوارِ والشَّعهَرِ. قالَ الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

(*) يفيد معنى القصة أن الجزاء يكون حسب نوع العمل وبقدره، وكما يزرع الإنسان يحصد، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

---

(١) يغشى: يأتي.



قالَ الفَيلَسوفُ: **زَعَموا أنَّ لبؤةً كانت في غَيضَةٍ ولها شِبلانِ** وإنَّها خَرَجَتْ



فـي طَلَـبِ الـصَّـيـدِ وخَلَّفَتهُما في كَهفِهِما، **فمَرَّ بهما إسوارٌ فحَمَلَ عليهما ورَماهُما فقَتَلَهُمَا وسَلَـخَ جِـلـدَيـهِـمَا** فاحتَقَبهُما[1] وانصَرَفَ بهما إلى منزِلِهِ. ثم إنَّها رَجَعَتْ فلمَّا رأت ما حلَّ بهما مِنَ الأمرِ الفَظيعِ اضطَرَبَت ظَهراً لبطنٍ وصاحَت وضَجَّت.



(١) احتقبهما: أي شدهما في مؤخر رحل ركوبته.

وكانَ إلى جَنبِهَا شَعهَرٌ، فلمَّا سَمِعَ ذلك من صِياحِها قالَ لها: ما هذا الذي تَصنَعينَ ومَا نَزَلَ بكِ أخبرِيني به! قالتِ اللبؤةُ: شِبلايَ مَرَّ بهما إسوارٌ





فقتَلَهُما وسَلَخَ جلديهمَا فاحتَقَبَهُما ونَبَذَهُمَا[1] في العَراءِ. قالَ لها الشَّعهَرُ: لا تَضِجِّي وأنصفِي من نَفسِكِ، واعلَمي أنَّ الدنيا دارُ مُكافَأةٍ، ففاعِلُ الخيرِ يَحمدُهُ وفاعِلُ الشَّرِّ يجني ثَمَرَهُ. وإنَّ هذا الإسوارَ لم يأتِ إليكِ شيئاً إلاَّ وقد كنتِ تَفعَلينَ بغيرِكِ مثلَهُ وتأتينَ مثلَ ذلكَ إلى غيرِ واحدٍ ممن كانَ يَجِدُ[2] بحَميمِهِ ومَن يَعِزُّ عليه مثلَ ما تَجِدينَ بشِبْلَيْكِ. فاصبِرِي من غيرِكِ على ما صَبَرَ غيرُكِ عليه منكِ. فإنَّهُ قد قيلَ: كَمَا تَدينُ تدان. وبكل عَمَلٍ ثَمَرَةٌ مِنَ الثَّوَابِ أوِ العِقابِ، وهما على قَدَرِهِ في الكَثْرةِ والقِلَّةِ، كالزَّرعِ إذا حَضَرَ الحَصادُ أعطى على حَسَبِ بَذرِهِ.

(١) نبذهما: طرحهما.　　(٢) يجد: يحزن.



قالتِ اللبؤةُ: بَيِّنْ لي ما تَقولُ وأفْصِحْ لي عن إشارَتِهِ! قالَ الشَّعهَرُ: كم لكِ مِنَ العُمرِ؟ قالتِ اللبؤةُ: كذا وكذا سَنَةً. قالَ الشَّعهَرُ: ما كانَ قُوتُكِ فيه؟ قالتِ اللبؤةُ: لحمَ الوَحشِ. قالَ الشَّعهَرُ: ومَن كانَ يُطعِمُكِ إيَّاهُ؟ قالتِ اللبؤةُ: كنتُ أصيدُ الوَحشَ وآكُلُهُ. قالَ الشَّعهَرُ: أرأيتِ الوحوشَ التي كنتِ تأكُلينَ، أما كانَ لها آباءٌ وأُمَّاتٌ؟ قالت: بلى. قالَ الشَّعهَرُ: فما بالي لا أرى ولا أسمَعُ لأولئكَ الآباء والأُمَّاتِ مِنَ الجزَعِ[1] ما أرى وأسمَعُ لكِ؟ أما إنَّهُ لم يَنزِلْ بكِ ما نَزَلَ إلاَّ لسوءِ نَظَرِكِ في العواقِبِ وقِلَّةِ تَفَكُّرِكِ وجَهالَتِكِ بما يَرجِعُ عليكِ من ضَرِّها.





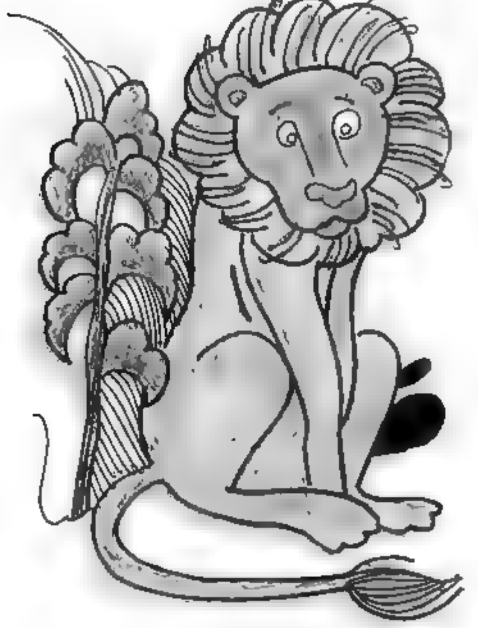
فلمَّا سَمِعَتِ اللبؤةُ ذلك من كلامِ الشَّعهَرِ عَرَفَت أنَّ ذلك ممَّا جَنَت على نفسِها وأنَّ عَمَلَها كان جَوراً وظُلماً. فَتَرَكَتِ الصَّيد وانصَرَفَت عن أكلِ اللَّحم إلى أكلِ الثِّمَارِ والنُّسكِ والعبادَةِ. فلمَّا رأى ذلك ورَشَانٌ[2] وكانَ صاحِبَ تلكَ الغَيضَةِ، وكانَ عَيشُهُ مِنَ الثِّمَارِ قالَ لها: قد كنتُ أظُنُّ أنَّ الشَّجَرَ عامَنا هذا لم تَحمِلْ لقِلَّةِ الماءِ. فلمَّا أبصَرتُكِ تأكُلينَها وأنت آكِلَةُ اللَّحمِ فَتَرَكْتِ رزقَكِ وطَعَامَكِ وما قَسَمَ اللَّهُ لكِ وتَحَوَّلتِ إلى رزقِ غيرِكِ فانتقَصتِهِ ودَخَلتِ عليهِ فيه، عَلِمْتُ أنَّ الشَّجَرَ العامَ أثمَرتْ كما كانت تُثمِرُ قَبلَ اليومِ وإنَّما

---

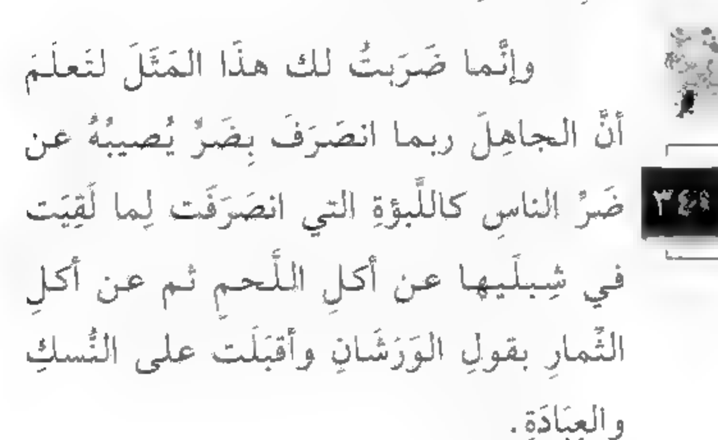
(١) الجزع: عدم الصبر.

(٢) ورشان: طائر يقال له ساق حرّ وهو ذكر القماري لأن حكاية صوته ساق حر أو الساق الحمام والحر فرخه يعني أنه فرخ الحمام.

أتَتْ قِلّةُ الثَّمَرَ مِن جهتِكِ. فويلٌ للشَّجَرِ وويلٌ للثِّمَارِ ووَيلٌ لِمن عَيشُهُمْ منها ما أسرَعَ هلاكُهُمْ إذا دَخَلَ عليهم في أرزاقِهِمْ وغَلَبَهُمْ عليها مَن ليسَ له فيها حَظٌّ ولم يكن مُعتاداً لأكلِها!



فلمّا سَمِعَتِ اللبؤةُ ذلك من كلامِ الوَرَشَانِ تَرَكَتْ أكلَ الثِّمارِ وأقبَلَتْ على أكلِ العُشبِ والعِبادَةِ.



وإنَّما ضَرَبتُ لك هذَا المَثَلَ لتَعلَمَ أنَّ الجاهِلَ ربما انصَرَفَ بِضَرٍّ يُصيبُهُ عن ضَرِّ الناسِ كاللَّبؤةِ التي انصَرَفَت لِما لَقِيَت في شِبلَيها عن أكلِ اللَّحمِ ثم عن أكلِ الثِّمارِ بقولِ الوَرَشَانِ وأقبَلَت على النُّسكِ والعِبَادَةِ.

والناسُ أحَقُّ بحُسنِ النَّظَرِ في ذلك. فإنَّه قد قيلَ: ما لا تَرضاهُ لنفسِكَ لا تَصنَعهُ لغيرِكَ، فإنَّ في ذلك العَدلَ، وفي العدلِ رِضى اللَّهِ تَعالى ورِضى الناسِ.



بَاب
إيلاذَ وَبِلاذَ وَإيرَاخْتَ



إيلاذ وبلاذ وإيراخت(*)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلاً فِي الأَشْيَاءِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يُلْزِمَ بِهَا نَفْسَهُ، وَيَحْفَظَ مُلْكَهُ وَيُثَبِّت سُلْطَانَهُ، وَيَكُونَ ذٰلِكَ رَأْسَ أَمْرِهِ وَمِلاَكَهُ(١): أَبِالْحِلْمِ أَمْ بِالْمُرُوءَةِ أَمْ بِالشَّجَاعَةِ أَمْ بِالْجُودِ؟

قَالَ بَيْدَبَا: إِنَّ أَحَقَّ مَا يَحْفَظُ بِهِ الْمَلِكُ مُلْكَهُ الْحِلْمُ، وَبِهِ تَثْبُتُ السَّلْطَنَةُ؛ وَالْحِلْمُ رَأْسُ الأُمُورِ وَمِلاَكُهَا، وَأَجْوَدُ مَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ؛ كَالَّذِي زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ كَانَ مَلِكٌ يُدْعَى بِلاَذَ، وَكَانَ لَهُ وَزِيرٌ يُدْعَى إِيلاَذَ. وَكَانَ مُتَعَبِّداً نَاسِكاً. فَنَامَ الْمَلِكُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ ثَمَانِيَةَ أَحْلاَمٍ أَفْزَعَتْهُ، **فَاسْتَيْقَظَ مَرْعُوباً. فَدَعَا الْبَرَاهِمَةَ، وَهُمُ النُّسَّاكُ، لِيَعْبُرُوا(٢) رُؤْيَاهُ. فَلَمَّا حَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى.** فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: لَقَدْ رَأَى الْمَلِكُ عَجَباً فَإِنْ أَمْهَلَنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ جِئْنَاهُ بِتَأْوِيلِهِ.



(*) تدور القصة حول كيفية اختيار الأعوان والأصدقاء والمساعدين وإعطائهم الثقة، وحول ضرورة التدقيق في ما يقوله الأعداء، وعدم الانجرار وراء ما تسوقه الأوهام والأحلام من أضغاث.

(١) ملاكه: قوامه.
(٢) يعبّروا: يفسروا، يؤوّلوا.





قَالَ الْمَلِكُ: قَدْ أَمْهَلْتُكُمْ. فَخَرَجُوا مِنْ عِنْده ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ أَحدِهِمْ وَائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ. وَقَالُوا: قَدْ وَجَدْتُمْ عِلْماً وَاسِعاً تُدْرِكُونَ بِهِ ثَأْرَكُمْ وَتَنْتَقِمُونَ بِهِ مِنْ عَدُوِّكُمْ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَتَلَ مِنَّا بِالأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً. وَهَا هُوَ قَدْ أَطْلَعَنَا عَلَى سِرِّهِ وَسَأَلَنَا تَفْسِيرَ رُؤْيَاهُ، فَهَلُمُّوا نُغْلِظْ لَهُ الْقَوْلَ وَنُخَوِّفْهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ الْفَرَقُ وَالْجَزَعُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي نُرِيدُ وَنَأْمُرُ.





فَنَقُولُ: ادْفَعْ إِلَيْنَا أَحِبَّاءَكَ وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْكَ حَتَّى نُقَتِّلَهُمْ؛ فَإِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فَلَمْ نَرَ أَنْ يُدْفَعَ عَنْكَ مَا رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ وَمَا وَقَعْتَ فِيهِ مِنْ هَذَا الشَّرِّ إِلاَّ بِقَتْلِ مَنْ نُسَمِّي لَكَ. فَإِنْ قالَ الْمَلِكُ: وَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَقْتُلُوا؟ سَمُّوهُمْ لِي. قُلْنَا: نُرِيدُ الْمَلِكَةَ إِيرَاخْتَ أُمَّ جُوِيرَ الْمَحْمُودَةَ أَكْرَمَ نِسَائِكَ عَلَيْكَ. وَنُرِيدُ جُوِيرَ أَحَبَّ بَنِيكَ إِلَيْكَ وَأَفْضَلَهُمْ عِنْدَكَ. وَنُرِيدُ ابْنَ أَخِيكَ الْكَرِيمَ، وَإِيلاَذَ خَلِيلَكَ وَصَاحِبَ أَمْرِكَ. وَنُرِيدُ كَالاَ الْكَاتِبَ صَاحِبَ سِرِّكَ وَسَيْفَكَ الَّذِي لاَ يُوجَدُ مِثْلُهُ، وَالْفِيلَ الأَبْيَضَ الَّذِي لاَ تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ، وَالْفَرَسَ الَّذِي هُوَ مَرْكَبُكَ فِي الْقِتَالِ. وَنُرِيدُ الْفِيلَيْنِ الآخَرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونَانِ مَعَ الْفِيلِ الذَّكَرِ. وَنُرِيدُ الْبُخْتِيَّ[1] السَّرِيعَ الْقَوِيَّ. وَنُرِيدُ كَبَارِيُونَ الْحَكِيمَ الْفَاضِلَ الْعَالِمَ بِالأُمُورِ لِنَنْتَقِمَ مِنْهُ بِمَا فَعَلَ بِنَا.

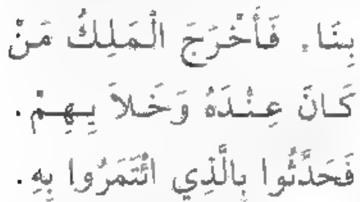
ثُمَّ نَقُولُ: إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلاَءِ الَّذِين سَمَّيْنَاهُمْ لَكَ، ثُمَّ

---

(١) البختي: واحد البخت وهي الإبل الخراسانية.



تَجْعَلَ دِمَاءَهُمْ فِي حَوْضٍ تَمْلَؤُهُ، ثُمَّ تَقْعُدَ فِيهِ. فَإِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْحَوْضِ اجْتَمَعْنَا نَحْنُ مَعَاشِرَ الْبَرَاهِمَةِ مِنَ الآفَاقِ الأَرْبَعَةِ نَجُولُ حَوْلَكَ فَنَرْقِيكَ وَنَتْفُلُ عَلَيْكَ وَنَمْسَحُ عَنْكَ الدَّمَ وَنَغْسِلُكَ بِالْمَاءِ وَالدُّهْنِ الطَّيِّبِ. ثُمَّ تَقُومُ إِلَى مَنْزِلِكَ الْبَهِيِّ فَيَدْفَعُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْبَلاَءَ الَّذِي نَتَخَوَّفُهُ عَلَيْكَ. فَإِنْ صَبَرْتَ، أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَطَابَتْ نَفْسُكَ عَنْ أَحِبَّائِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا لَكَ، وَجَعَلْتَهُمْ فِدَاءَكَ، تَخَلَّصْتَ مِنَ الْبَلاَءِ، وَاسْتَقَامَ لَكَ مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ، وَاسْتَخْلَفْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ أَحْبَبْتَ. وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ تَخَوَّفْنَا عَلَيْكَ أَنْ يُغْصَبَ مُلْكُكَ أَوْ تَهْلِكَ. فَإِنْ هُوَ أَطَاعَنَا فِيمَا نَأْمُرُهُ قَتَلْنَاهُ أَيَّ قِتْلَةٍ شِئْنَا.



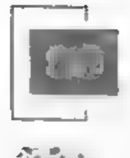
فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى مَا ائْتَمَرُوا بِهِ رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. وَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّا نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فِي تَفْسِيرِ مَا رَأَيْتَ، وَفَحَصْنَا عَنِ الرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا. فَلْتَكُنْ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الطَّاهِرُ الصَّالِحُ الْكَرَامَةُ. وَلَسْنَا نَقْدِرُ أَنْ نُعْلِمَكَ بِمَا رَأَيْنَا إِلاَّ أَنْ تَخْلُوَ بِنَا. فَأَخْرَجَ الْمَلِكُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَخَلاَ بِهِمْ. فَحَدَّثُوا بِالَّذِي ائْتَمَرُوا بِهِ.



فَقَالَ لَهُمْ: الْمَوْتُ خَيْرٌ لِي مِنَ الْحَيَاةِ إِنْ أَنَا قَتَلْتُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ هُمْ عَدِيلُ نَفْسِي. وَأَنَا مَيِّتٌ لاَ مَحَالَةَ، وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ، وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكاً، وَإِنَّ الْمَوْتَ عِنْدِي وَفِرَاقَ الأَحِبَّاءِ سَوَاءٌ.



قَالَ لَهُ الْبَرَاهِمَةُ: إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ أَخْبَرْنَاكَ. فَأَذِنَ لَهُمْ. فَقَالُوا: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ صَوَاباً حِينَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ. فَاحْتَفِظْ بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ، وَاعْمَلْ هٰذَا الَّذِي لَكَ فِيهِ الرَّجَاءُ الْعَظِيمُ عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ. وَقَرَّ عَيْناً بِمُلْكِكَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ الَّذِينَ شَرُفْتَ وَكَرُمْتَ بِهِمْ. وَلاَ تَدَعِ الأَمْرَ الْعَظِيمَ وَتَأْخُذْ بِالضَّعِيفِ فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ إِيثَاراً[١] لِمَنْ تُحِبُّ. وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّ الإِنْسَانَ إِنَّمَا يُحِبُّ الْحَيَاةَ مَحَبَّةً لِنَفْسِهِ. وَأَنَّهُ لاَ يُحِبُّ مَنْ أَحَبَّ مِنَ الأَحْبَابِ إِلاَّ لِيَتَمَتَّعَ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِ. وَإِنَّمَا قِوَامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللّٰهِ تَعَالَى بِمُلْكِكَ. وَإِنَّكَ لَمْ تَنَلْ مُلْكَكَ إِلاَّ بِالْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ الْكَثِيرِ فِي الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ وَيَهُونَ عَلَيْكَ. فَاسْتَمِعْ كَلاَمَنَا. فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ مُنَاهَا، وَدَعْ مَا سِوَاهَا، فَإِنَّهُ لاَ خَطَرَ لَهُ[٢].





فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ قَدْ أَغْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ وَاجْتَرَؤُوا عَلَيْهِ فِي الْكَلاَمِ اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ. وَقَامَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَيْهِمْ وَدَخَلَ إِلَى حُجْرَتِهِ فَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي وَيَتَقَلَّبُ كَمَا تَتَقَلَّبُ السَّمَكَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْمَاءِ، وَجَعَلَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: مَا أَدْرِي أَيُّ الأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي، الْمَمْلَكَةُ أَمْ قَتْلُ أَحِبَّائِي؟ وَلَنْ أَنَالَ الْفَرَحَ مَا عِشْتُ. وَلَيْسَ مُلْكِي بِبَاقٍ عَلَيَّ إِلَى الأَبَدِ. وَلَسْتُ بِالْمُصِيبِ سُؤْلِي فِي مُلْكِي. وَإِنِّي لَزَاهِدٌ فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ أَرَ إِيرَاخْتَ. وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِمُلْكِي إِذَا هَلَكَ وَزِيرِي إِيلاَذُ؟ وَكَيْفَ أَضْبِطُ

---

(١) إيثاراً: تفضيلاً.

(٢) لا خطر له: لا شرف له ولا علو منزلة.

أَمْرِي إِذَا هَلكَ فِيلِي الأَبْيَضُ وَفَرَسِي الْجَوَادُ؟ وَكَيْفَ أُدْعَى مَلِكاً وَقَدْ قَتَلْتُ مَنْ أَشَارَ الْبَرَاهِمَةُ بِقَتْلِهِ؟ وَمَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَهُمْ؟



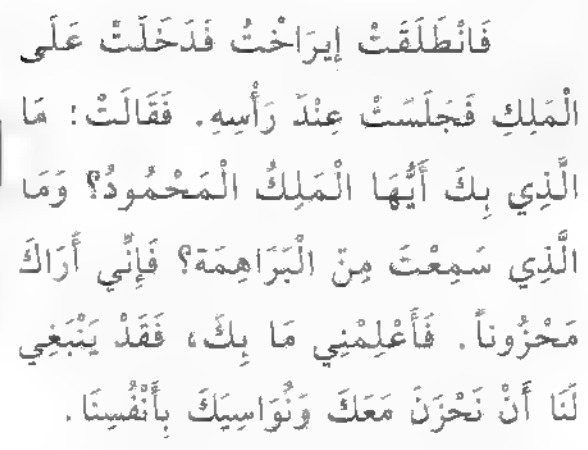
ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثَ فَشَا فِي الأَرْضِ بِحُزْنِ الْمَلِك وَهَمِّه. فَلَمَّا رَأَى إِيلاَذُ مَا نَالَ الْمَلِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ فَكَّرَ بِحِكْمَتِهِ وَنَظَرَ وَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَقْبِلَ الْمَلِكَ فَأَسْأَلَهُ عَنْ هٰذَا الأَمْرِ الَّذِي قَدْ نَالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُوَنِي. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِيرَاخْتَ فَقَالَ: إِنِّي مُنْذُ خَدَمْتُ الْمَلِكَ إِلَى الآنَ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلاً إِلاَّ بِمَشُورَتِي وَرَأْيِي. وَأَرَاهُ يَكْتُمُ عَنِّي أَمْراً لاَ أَعْلَمُ مَا هُوَ. وَلاَ أَرَاهُ يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئاً. وَإِنِّي رَأَيْتُهُ خَالِياً مَعَ جَمَاعَةِ الْبَرَهْمِيِّينَ مُنْذُ لَيَالٍ. وَقَدِ احْتَجَبَ عَنَّا فِيهَا. وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ. فَلَسْتُ آمَنُهُمْ أَنْ يُشِيرُوا عَلَيْهِ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهُ السُّوءُ. فَقُومِي وَادْخُلِي عَلَيْهِ فَاسْأَلِيهِ عَنْ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ. وَأَخْبِرِينِي بِمَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَعْلِمِينِي. فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ عَلى الدُّخُولِ عَلَيْهِ. فَلَعَلّ الْبَرَهْمِيِّين قَدْ زَيَّنُوا لَهُ أَمْراً أَوْ حَمَلُوهُ عَلَى خُطَّةٍ قَبِيحَةٍ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ خُلُقِ الْمَلِكِ أَنَّهُ إِذَا غَضِبَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً. وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ صَغِيرُ الأُمُورِ وَكَبِيرُهَا.

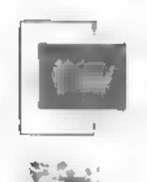




فَقالَتْ إيراخْتُ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلِكِ بَعْضُ الْعِتَاب فَلَسْتُ بِداخِلَةٍ عَلَيْهِ فِي هٰذِهِ الْحَالِ.

فَقَالَ لَهَا إِيلاَذُ: لاَ تَحْمِلِي [1] عَلَيْهِ الْحِقْد في مثْلِ هٰذَا. وَلاَ يَخْطُرَنَّ ذٰلِك عَلَى بَالِكِ فَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُول عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاكِ. وَقَدْ سَمِعْتُهُ كَثِيراً يَقُولُ: مَا اشْتَدَّ غَمِّي وَدَخَلَتْ عَلَيَّ إِيراخْتُ إِلاَّ سُرِّيَ عَنِّي، فَقُومِي إِلَيْهِ وَاصْفَحِي عَنْهُ. وَكَلِّمِيهِ بِمَا تَعْلَمِينَ أَنَّهُ تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَذْهَبُ الَّذِي يَجِدُهُ. وَأَعْلمنني بِمَا يَكُونُ جَوَابُهُ، فَإِنَّهُ لَنَا وَلِأَهْلِ الْمَمْلَكَةِ أَعْظَمُ الرَّاحَةِ.





فَانْطَلَقَتْ إِيرَاخْتُ فَدَخَلَتْ عَلَى الْمَلِكِ فَجَلَسَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ. فَقَالَتْ: مَا الَّذِي بِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ؟ وَمَا الَّذِي سَمِعْتَ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ؟ فَإِنِّي أَرَاكَ مَحْزُوناً. فَأَعْلِمْنِي مَا بِكَ، فَقَدْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحْزَنَ مَعَكَ وَنُوَاسِيَكَ بِأَنْفُسِنَا.

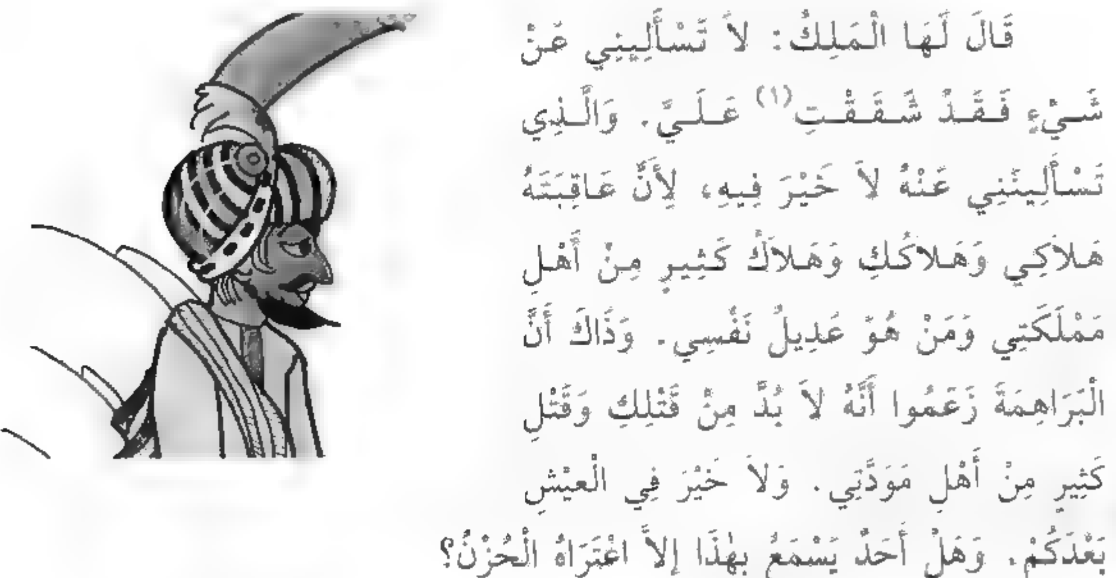
فَقَالَ الْمَلِكُ: أَيَّتُهَا السَّيِّدَةُ لاَ تَسْأَلِينِي عَنْ أَمْرِي فَتَزِيدِينِي غَمًّا وَحُزْناً. فَإِنَّهُ أَمْرٌ لاَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلِينِي عَنْهُ.

قَالَتْ: أَوَ قَدْ نَزَلْتُ عِنْدَكَ مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْتَحِقُّ هٰذَا؟ إِنَّمَا أَحْمَدُ النَّاسِ عَقْلاً مَنْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ النَّازِلَةُ كَانَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ ضَبْطاً، وَأَكْثَرَهُمْ اسْتِمَاعاً مِنْ أَهْلِ النُّصْحِ حَتَّى يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّازِلَةِ بِالْحِيلَةِ وَالْعَقْلِ وَالْبَحْثِ وَالْمُشَاوَرَةِ. فَعَظِيمُ الذَّنْبِ لاَ يَقْنَطُ

---

(١) لا تحملي: لا تحقظي.

مِنَ الرَّحْمَةِ. وَلاَ تُدْخِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْئاً مِنَ الْهَمِّ وَالْحزن. فَإِنَّهُمَا لاَ يَرُدَّانِ شَيْئاً مَقْضِيًّا. إِلاَّ أَنَّهُمَا يُنْحِلاَنِ الْجِسْمَ وَيَشْفِيَانِ الْعَدُوَّ.



قَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لاَ تَسْأَلِينِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ شَقَقْتِ[1] عَلَيَّ. وَالَّذِي تَسْأَلِينَنِي عَنْهُ لاَ خَيْرَ فِيهِ، لِأَنَّ عَاقِبَتَهُ هَلاكِي وَهَلاكُكِ وَهَلاَكُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي وَمَنْ هُوَ عَدِيلُ نَفْسِي. وَذَاكَ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ زَعَمُوا أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ قَتْلِكِ وَقَتْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِي. وَلاَ خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَكُمْ. وَهَلْ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهٰذَا إِلاَّ اعْتَرَاهُ الْحُزْنُ؟



فَلَمَّا سَمِعَتْ ذٰلِكَ إِيْرَاخْتُ جَزِعَتْ. وَمَنَعَهَا عَقْلُهَا أَنْ تُظْهِرَ لِلْمَلِكِ جَزعاً. فَقَالَتْ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لاَ تَجْزَعْ فَنَحْنُ لَكَ الْفِدَاءُ. وَلَكَ فِي سِوَايَ وَمِثْلِي مِنَ الْجَوَارِي مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ. وَلٰكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ، أَيُّهَا الْمَلِكُ، حَاجَةً يَحْمِلُنِي عَلَى طَلَبِهَا حُبِّي لَكَ وَإِيثَارِي إِيَّاكَ. وَهِيَ نَصِيحَتِي لَكَ. قَالَ الْمَلِكُ: وَمَا هِيَ؟

قَالَتْ: أَطْلُبُ مِنْكَ أَلاَّ تَثِقَ بَعْدَهَا بِأَحَدٍ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ. وَلاَ تُشَاوِرَهُمْ فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَثَبَّتَ فِي أَمْرِكَ. ثُمَّ تُشَاوِرَ فِيهِ ثِقَاتِكَ مِرَاراً؛ فَإِنَّ الْقَتْلَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَلَسْتَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تُحْيِيَ مَنْ قَتَلْتَ.

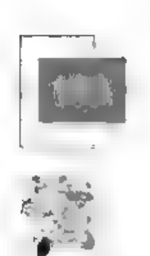
---

(١) شققت عليَّ: أي أوقعتني في المشقة.



وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ: إِذَا لَقِيتَ جَوْهَراً لاَ خَيْرَ فِيهِ فَلاَ تُلْقِهِ مِن يَدِكَ حَتَّى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ. وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ لاَ تَعْرِفُ أَعْدَاءَكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ لاَ يُحِبُّونَكَ. وَقَدْ قَتَلْتَ مِنْهُمْ بِالأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً. وَلاَ تَظُنَّ أَنَّ هٰؤُلاَءِ لَيْسُوا مِنْ أُولٰئِكَ. وَلعَمْرِي مَا كُنْتَ جَدِيراً أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْيَاكَ، وَلاَ أَنْ تُطْلِعَهُمْ عَلَيْهَا.

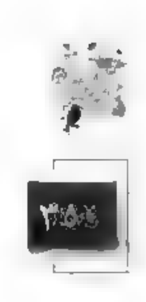
وَإِنَّمَا قَالُوا لَكَ مَا قَالُوا لأَجْلِ الْحِقْدِ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ: لَعَلَّهُمْ يُهْلِكُونَكَ وَيُهْلِكُونَ أَحِبَّاءَكَ وَوَزِيرَكَ، فَيَبْلُغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ. فَأَظُنُّكَ لَوْ قَبِلْتَ مِنْهُمْ فَقَتَلْتَ مَنْ أَشَارُوا بِقَتْلِهِ ظَفِرُوا بِكَ وَغَلَبُوكَ عَلَى مُلْكِكَ، فَيَعُودُ الْمُلْكُ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ. فَانْطَلِقْ إِلى كَبارِيُونَ الْحَكِيمِ، فَهُوَ عَالِمٌ فطِنٌ، فَأَخْبِرْهُ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْيَاكَ وَاسْأَلْهُ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيلِهَا.





فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ سُرِّيَ عَنْهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنَ الْغَمِّ. **فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ فَرَكِبَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى كَبَارِيُونَ الْحَكِيمِ.** فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ وَسَجَدَ لَهُ، وَقَامَ مُطَأْطِئاً الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ.





فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ: **مَا بَالُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ؟ وَمَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ؟**

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ ثَمَانِيَةَ أَحْلاَمٍ فَقَصَصْتُهَا عَلَى الْبَرَاهِمَةِ. وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ ذٰلِكَ عَظِيمُ أَمْرٍ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَعْبِيرِهِمْ لِرُؤْيَايَ. وَأَخْشَى أَنْ يُغْصَبَ مِنِّي مُلْكِيَ أَوْ أَنْ أُغْلَبَ عَلَيْهِ.

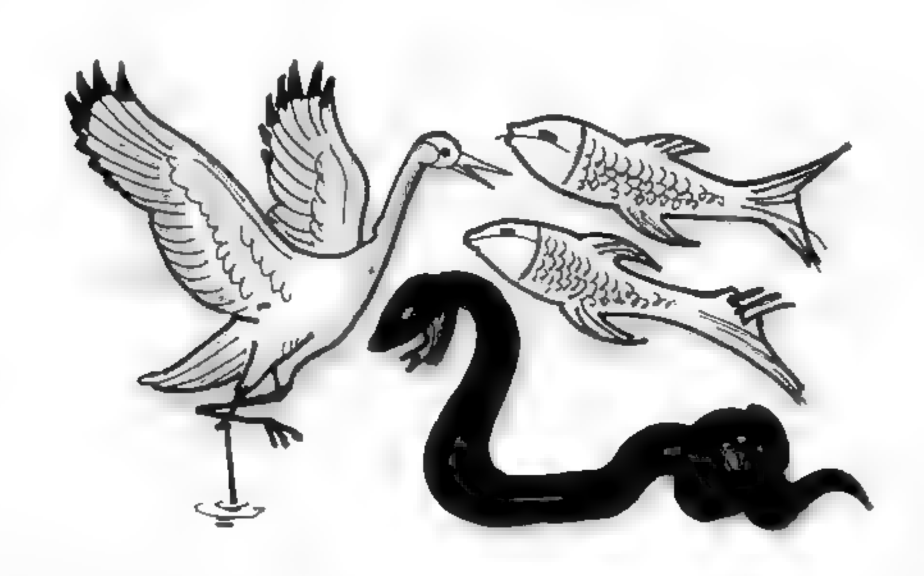
فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ: إِنْ شِئْتَ فَاقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ.

فَلَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ الْمَلِكُ رُؤْيَاهُ، قَالَ: لاَ يَحْزُنْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ هٰذَا الأَمْرُ وَلاَ تَخَفْ مِنْهُ.



أَمَّا السَّمَكَتَانِ الْحَمْرَاوَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا قَائِمَتَيْنِ عَلَى أَذْنَابِهِمَا فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكِ نَهَاوَنْدَ بِعُلْبَةٍ فِيهَا عِقْدَانِ مِنَ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ الأَحْمَرِ، قِيمَتُهُمَا أَرْبَعَةُ آلاَفِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ. **وَأَمَّا الْوَزَّتَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا طَارَتَا مِن وَرَاءِ ظَهْرِكَ فَوَقَعَتَا بَيْنَ يَدَيْكَ**، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ بَلْخٍ فَرَسَانِ لَيْسَ عَلَى الأَرْضِ مِثْلُهُمَا فَيَقُومَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ. **وَامَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا تَدِبُّ على رِجْلِكَ الْيُسْرَى**، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ صِنْجِينَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خَالِصِ الْحَدِيدِ





لاَ يُوجَدُ مِثْلُهُ. وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتَ كَأَنَّهُ خُضِبَ بِهِ جَسَدُكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ كَازَرُونَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِلِبَاسٍ مُعْجِبٍ يُسَمَّى حُلَّةَ أُرْجُوَانٍ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ. وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ غَسْلِكَ جِسْمَكَ بِالْمَاءِ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ رِهْزِينَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِثِيَابِ كَتَّانٍ مِنْ لِبَاسِ الْمُلُوكِ. وَأَمَّا مَا رَأَيْت مِنْ أَنَّكَ عَلَى جَبَلٍ أَبْيَضَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِك كَيْدُورَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِفِيلٍ أَبْيَضَ لاَ تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ. وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ شَبِيهاً بِالنَّارِ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ أَرْزَنَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِإِكْلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ. وَأَمَّا الطَّيْرُ الَّذِي رَأَيْتَهُ

ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنْقَارِهِ، فَلَسْتُ مُفَسِّراً ذٰلِكَ الْيَوْمَ. وَلَيْسَ بِضَارِّكَ، فَلاَ تَوْجَلَنَّ[1] مِنْهُ. وَلٰكِنْ فِيهِ بَعْضُ السُّخْطِ وَالإِعْرَاضِ عَمَّنْ تُحِبُّهُ، فَهٰذَا تَفْسِيرُ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَأَمَّا هٰذِهِ الرُّسُلُ وَالْبُرُدُ[2] فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيعاً فَيَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ سَجَدَ لِكَبَارِيُونَ وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ.



فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَاءَتِ الْبَشَائِرُ بِقُدُومِ الرُّسُلِ فَخَرَجَ الْمَلِكُ فَجَلَسَ عَلَى التَّخْتِ، وَأَذِنَ لِلأَشْرَافِ، وَجَاءَتْهُ الْهَدَايَا كَمَا أَخْبَرَهُ كَبَارِيُونُ الْحَكِيمُ. فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ ذٰلِكَ اشْتَدَّ عَجَبُهُ وَفَرَحُهُ مِنْ عِلْمِ كَبَارِيُونَ. وَقَالَ: مَا وُفِّقْتُ حِينَ قَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَى الْبَرَاهِمَةِ فَأَمَرُونِي بِمَا أَمَرُونِي بِهِ. وَلَوْلاَ أَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى تَدَارَكَنِي بِرَحْمَتِهِ لَكُنْتُ قَدْ هَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ؛ وَكَذٰلِكَ لاَ يَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلاَّ مِنَ الأَخِلاَّءِ ذَوِي الْعُقُولِ. وَإِنَّ إِيرَاخْتَ أَشَارَتْ بِالْخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ. وَرَأَيْتُ بِهِ النَّجَاحَ. فَضَعُوا الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا لِتَأْخُذَ مِنْهَا مَا اخْتَارَتْ.

ثُمَّ قَالَ لإِيلاَذَ: خُذِ الإِكْلِيلَ وَالثِّيَابَ وَاحْمِلْهَا وَاتْبَعْنِي بِهَا إِلَى مَجْلِسِ النِّسَاءِ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَعَا إِيرَاخْتَ وَحُورَقْنَاه أَكْرَمَ نِسَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ لإِيلاَذَ: ضَعِ الْكُسْوَةَ وَالإِكْلِيلَ بَيْنَ يَدَيْ إِيرَاخْتَ لِتَأْخُذَ أَيَّهَا شَاءَتْ. فَوُضِعَتِ الْهَدَايَا بَيْنَ يَدَيْ إِيرَاخْتَ. فَأَخَذَتْ مِنْهَا الإِكْلِيلَ، وَأَخَذَتْ حُورَقْنَاه كُسْوَةً مِنْ أَفْخَرِ الثِّيَابِ وَأَحْسَنِهَا.

---

(١) فلا توجلنّ: أي فلا تخافنّ.

(٢) البرد: جمع بريد وهي الخيل التي تأتي عليها الرسل.



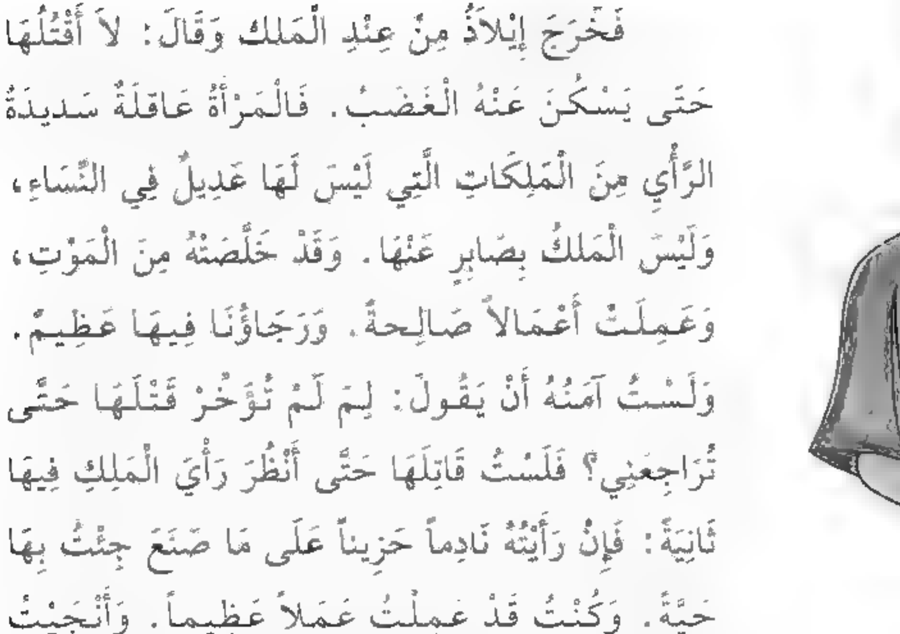
وَكانَ مِنْ عَادَةِ الْمَلِك أَنْ يَكُونَ لَيْلَةً عنْدَ إيرَاخْت وَلَيْلَةً عِنْدَ حُورقْناه. وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ الْمَلِكِ أَنْ تُهَيِّيءَ لَهُ الْمَرْأَةُ الَّتِي يَكُونُ عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا أُرزاً بِحلاَوَةٍ فَتُطْعمُهُ إِيَّاهُ. فَأَتَى الْمَلِكُ إِيرَاخْتَ فِي نَوْبَتِهَا. وَقَدْ صَنعَتْ لَهُ أُرزاً. فَدخَلَتْ عَلَيْهِ بِالصَّحْفَةِ وَالإِكْلِيلُ عَلَى رَأْسِهَا. فَعَلِمَتْ حُورقْناه بِذٰلِكَ فَغارَتْ مِنْ إِيرَاخْتَ. فَلَبِسَتْ تِلْكَ الْكُسْوَةَ. وَمَرّتْ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ وَتِلْكَ الثِّيَابُ تُضِيءُ عَلَيْهَا مَعَ نُورِ وَجْهِهَا كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ. فَلَمَّا رَآهَا الْمَلِكُ أَعْجَبَتْهُ. ثُمَّ الْتفَتَ إِلَى إِيرَاخْتَ فَقَالَ: إِنَّكِ جَاهِلَةٌ حِينَ أَخَذْتِ الإِكْلِيلَ وَتَرَكْتِ الْكُسْوَةَ الَّتِي لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِثْلُهَا. فَلَمَّا سَمعَتْ إِيرَاخْتُ مَدْحَ الْمَلِكِ لِحُورقْناه وَثَنَاءَهُ عَلَيْهَا وَتَجْهِيلَهَا هِيَ وَذَمَّ رَأْيِهَا أَخَذَهَا مِنْ ذٰلِكَ الْغَيْرَةُ وَالْغَيْظُ. **فَضَرَبَتْ بِالصَّحْفَةِ رَأْسَ الْمَلك. فَسَالَ الأُرْزُ عَلَى وَجْهِهِ.** فَقَامَ الْمَلِكُ مِنْ مَكَانِهِ وَدَعَا بِإِيلاَذَ. فَقَالَ لَهُ: أَلاَ تَرَى، وَأَنَا مَلِكُ الْعَالَمِ، كَيْفَ حَقَرَتْنِي هٰذِهِ الْجَاهِلَةُ، وَفَعَلَتْ بِي مَا تَرَى؟ فَانْطَلِقْ بِهَا فَاقْتُلْهَا وَلاَ تَرْحَمْهَا.











فَخَرَجَ إِيلاَذُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِك وَقَالَ: لاَ أَقْتُلُهَا حَتَّى يَسْكُنَ عَنْهُ الْغَضَبُ. فَالْمَرْأَةُ عَاقِلَةٌ سَدِيدَةُ الرَّأْيِ مِنَ الْمَلِكَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا عَدِيلٌ فِي النِّسَاءِ، وَلَيْسَ الْمَلِكُ بِصَابِرٍ عَنْهَا. وَقَدْ خَلَّصَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ، وَعَمِلَتْ أَعْمَالاً صَالِحَةً. وَرَجَاؤُنَا فِيهَا عَظِيمٌ. وَلَسْتُ آمَنُهُ أَنْ يَقُولَ: لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَهَا حَتَّى تُرَاجِعَنِي؟ فَلَسْتُ قَاتِلَهَا حَتَّى أَنْظُرَ رَأْيَ الْمَلِكِ فِيهَا ثَانِيَةً: فَإِنْ رَأَيْتُهُ نَادِماً حَزِيناً عَلَى مَا صَنَعَ جِئْتُ بِهَا حَيَّةً. وَكُنْتُ قَدْ عَمِلْتُ عَمَلاً عَظِيماً. وَأَنْجَيْتُ إِيرَاخْتَ مِنَ الْقَتْلِ. وَحَفِظْتُ قَلْبَ الْمَلِكِ. وَاتَّخَذْتُ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ بِذٰلِكَ يَداً. وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحاً مُسْتَرِيحاً مُصَوِّباً رَأْيَهُ فِي الَّذِي فَعَلَهُ وَأَمَرَ بِهِ فَقَتْلُهَا لاَ يَفُوتُ.

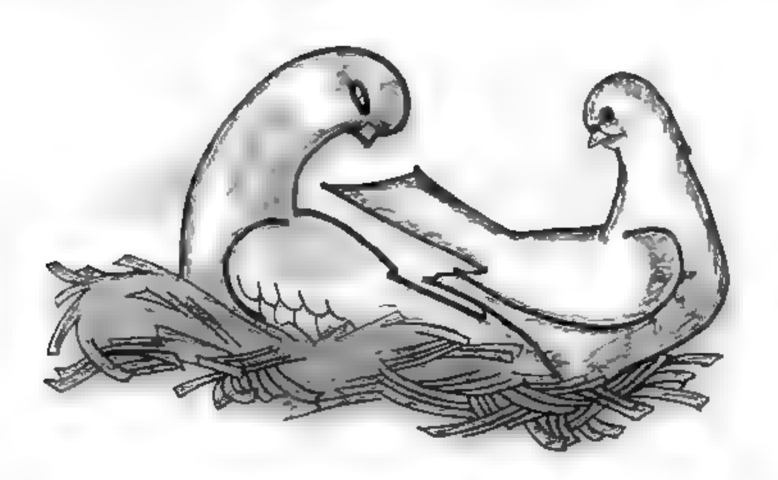


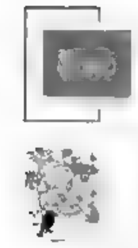
ثُمَّ انْطَلَقَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ، وَوَكَّلَ بِهَا خَادِماً مِنْ أُمَنَائِهِ؛ وَأَمَرَهُ بِخِدْمَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا، حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهَا وَأَمْرِ الْمَلِكِ. ثُمَّ خَضَبَ سَيْفَهُ بِالدَّمِ وَدَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ كَالْكَئِيبِ الْحَزِينِ. فَقَالَ أَيُّهَا الْمَلِكُ: إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيرَاخْتَ. فَلَمْ يَلْبَثِ الْمَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَذَكَرَ جَمَالَ إِيرَاخْتَ وَحُسْنَهَا. وَاشْتَدَّ أَسَفُهُ عَلَيْهَا. وَجَعَلَ يُعَزِّي نَفْسَهُ عَنْهَا. وَيَتَجَلَّدُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ إِيلاَذَ: أَحَقًّا أَمْضَى أَمْرَهُ فِيهَا أَمْ لاَ؟ وَرَجَا لِمَا عَرَفَ مِنْ عَقْلِ إِيلاَذَ أَلاَّ يَكُونَ قَدْ فَعَلَ ذٰلِكَ. وَنَظَرَ إِلَيْهِ إِيلاَذُ بِفَضْلِ عَقْلِهِ فَعَلِمَ الَّذِي بِهِ، فَقَالَ لَهُ: لاَ تَهْتَمَّ وَلاَ تَحْزَنْ أَيُّهَا الْمَلِكُ: فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْهَمِّ وَالْحُزْنِ مَنْفَعَةٌ. وَلٰكِنَّهُمَا يُنْحِلاَنِ الْجِسْمَ وَيُفْسِدَانِهِ. فَاصْبِرْ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَلَى مَا لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ أَبَداً. وَإِنْ أَحَبَّ الْمَلِكُ حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ يُسْلِيهِ. قَالَ: حَدِّثْنِي.



الحمامتان والحنطة(*)

قَالَ إيلاذُ: **زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَتَيْنِ ذَكَراً وَأُنْثَى مَلاَ عُشَّهُمَا مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ.**





فَقَالَ الذَّكَرُ لِلأُنْثَى: إِنَّا إِذَا وَجَدْنَا فِي الصَّحَارَى مَا نَعِيشُ بِهِ فَلَسْنَا نَأْكُلُ مِمَّا هَا هُنَا شَيْئاً. فَإِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَارَى شَيْءٌ رَجَعْنَا إِلَى مَا فِي عُشِّنَا فَأَكَلْنَاهُ. فَرَضِيَتِ الأُنْثَى بِذلِكَ. وَقَالَتْ لَهُ: نِعْمَ مَا رأَيْتَ. وَكَانَ ذٰلكَ الْحَبُّ نَدِيًّا حِينَ وَضَعَاهُ فِي عُشِّهِمَا. فَانْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغَابَ. فَلَمَّا جَاءَ الصَّيْفُ يَبِسَ الْحَبُّ وَانْضَمَرَ. فَلَمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رَأى الْحَبَّ نَاقصاً. فَقَالَ لَهَا: أَلَيْسَ كُنَّا أَجْمَعْنَا رَأْيَنا عَلَى أَلاَّ نَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئاً؟ فَلِمَ أَكَلْتِهِ؟ فَجَعَلَتْ تَحْلِفُ أَنَّهَا مَا أَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئاً. وَجَعَلَتْ تَعْتَذِرُ إِلَيْهِ. فَلَمْ يُصَدِّقْهَا. وَجَعَلَ يَنْقُرُهَا حَتى مَاتَتْ.

فَلَمَّا جَاءتِ الأَمْطَارُ وَدَخَلَ الشِّتَاءُ تَنَدَّى الْحَبُّ وَٱمْتَلأَ الْعُشُّ كَمَا كَانَ. فَلَمَّا رَأَى الذَّكَرُ ذٰلِكَ نَدِمَ. ثُمَّ ٱضْطَجَعَ إِلَى جَانِبِ حَمَامتِهِ وَقَالَ: مَا يَنْفَعُنِي الْحَبُّ

(*) تنصح القصة بالمحافظة على الخل الوفي وعدم التفريط به كما أن الأخطاء الفادحة تقود إلى الهلاك من حيث لا ينفع الندم.

وَالْعَيْشُ بَعْدَكِ إِذَا طَلَبْتُك فَلَمْ أَجِدْكِ، وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْك. وَإِذْ فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكِ عَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُكِ، وَلاَ أَقْدِرُ عَلَى تَدارُكِ مَا فَاتَ. ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى حُزْنِهِ فَلَمْ يَطْعَمْ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً حتَّى مَاتَ إِلَى جَانِبِهَا. وَالْعَاقِلُ لاَ يَعْجَلُ فِي الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ، وَلاَ سِيَّمَا مَن يَخَافُ النَّدَامَةَ؛ كَمَا نَدِمَ الْحَمَامُ الذَّكَرُ.

القرد والعدس(*)

وَقدْ سَمِعْتُ أَيْضاً أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ الْجَبَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ طَبَقٌ مِنَ الْعَدَسِ فَوَضَعَ الطَّبَقَ عَلى الأَرْضِ لِيَسْتَرِيحَ.

فَنَزَلَ قِرْدٌ مِنْ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ مِلْءَ كَفِّهِ مِنَ الْعَدَسِ وَصَعِدَ إِلَى الشَّجَرَةِ. فَسَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ حَبَّةٌ فَنَزَلَ في طَلَبِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا. وَانْتَثَرَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْعَدَسِ أَجمَعُ.



(*) معزى القصة هو عدم التضحية بالكثير النافع من أجل القليل الضائع على سبيل الطمع والجشع.



وَأَنْتَ أَيْضاً أَيُّهَا الْمَلِكُ عِنْدَكَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ ٱمْرَأَةٍ تَدَعُ أَنْ تَلْهُوَ بِهِنَّ وَتَطْلُبُ الَّتِي لاَ تَجِدُ !

فَلما سَمِعَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ خَشِيَ أَنْ تَكُونَ إِيرَاخْتُ قَدْ هَلَكَتْ. فَقَالَ لإِيلاَذَ: لِمَ لاَ تَأَنَّيْتَ وَتَثَبَّتَّ؟ بَلْ أَسْرَعْتَ عِنْدَ سَمَاعِ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَتَعَلَّقْتَ بِهَا، وَفَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ سَاعَتِكَ؟

قَالَ إِيلاَذُ: إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ واحِدٌ لاَ يَخْتَلِفُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِماتِهِ وَلاَ ٱخْتِلاَفَ لِقَوْلِهِ.

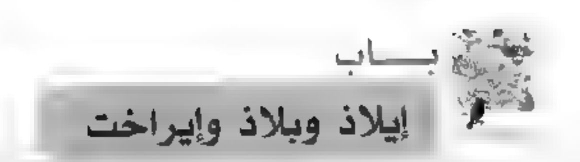


قَالَ الْمَلِكُ: لَقَدْ أَفْسَدتَ أَمْرِي وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِيرَاخْتَ.

قَالَ إِيلاَذُ: اثْنَانِ يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا: الَّذِي يَعْمَلُ الإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْم، وَالَّذِي لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ، لأَنَّ فَرَحَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا قَلِيلٌ. وَنَدَامَتَهُمَا إِذْ يُعَايِنَانِ الْجَزَاءَ طَوِيلَةٌ لاَ يُسْتَطَاعُ إِحْصَاؤُهَا.

قَالَ الْمَلِكُ: لَئِنْ رَأَيْتُ إِيرَاخْتَ حَيَّةً لاَ أَحْزَنُ عَلَى شَيْءٍ أَبَداً.

قَالَ إِيلاَذُ: اثْنَانِ لاَ يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا: ٱلْمُجْتَهِدُ فِي البِرِّ كُلَّ يَوْمٍ، وَالَّذِي لَمْ يَأْثَمْ قَطُّ.



باب

إيلاذ وبلاذ وإيراخت

قَالَ الْمَلِكُ: ما أَنَا بِنَاظِرٍ إِلَى إِيرَاخْتَ أَكْثَرَ مِمَّا نَظَرْتُ.

قَالَ إِيلاَذُ: اثْنَانِ لاَ يَنْظُرَانِ: الأَعْمَى وَالَّذِي لاَ عَقْلَ لَهُ، وَكَما أَنَّ الأَعْمَى لاَ يَنْظُرُ السَّماءَ وَنُجُومَهَا وَأَرْضَهَا وَلاَ يَنْظُرُ الْقُرْبَ وَالْبُعْدَ، كَذَلِكَ الَّذِي لاَ عَقْلَ لَهُ لاَ يَعْرِفُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ وَلاَ الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ.

قَالَ الْملكُ: لَوْ رَأَيْتُ إِيرَاخْتَ لاشْتَدَّ فَرَحِي.



قَالَ إِيلاَذُ: اثْنَان هُمَا الْفَرِحَان: الْبَصِيرُ وَالْعَالِمُ. فَكَمَا أَنَّ الْبَصِيرَ يُبْصِرُ أُمُورَ الْعَالَم وَمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، فَكَذَلِكَ الْعَالِمُ يُبْصِرُ الْبِرَّ وَالإِثْمَ، وَيَعْرِفُ عَمَلَ الآخِرَةِ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجَاتُهُ، وَيَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ[1] مُسْتَقِيم.

قالَ الملِكُ: إني لم أشتَفِ[2] مِنَ النَّظَرِ إلى إيراختَ بعدُ.

قالَ إيلاذُ: اثنانِ لا يَشتَفِيانِ أبداً: مَن يكونُ هَمُّهُ جَمعَ المالِ وادّخارَه، ومَن يأمَلُ ما لا يَقدِرُ عليه ويَسألُ ما لا يَجِدُ.

قَالَ الْمَلِكُ: يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَبَاعَدَ مِنْكَ يَا إِيلاذُ وَنَأْخُذَ الْحَذَرَ وَنَلْزَمَ الاتِّقَاءَ[3].

قَالَ إِيلاَذُ: اثْنَانِ يَنْبَغِي أَنْ يُتَبَاعَدَ مِنْهُمَا: الَّذِي يَقُولُ لاَ بِرَّ وَلاَ إِثْمَ وَلاَ عِقَابَ وَلاَ ثَوَابَ وَلاَ شَيْءَ عَلَيَّ مِمَّا أَنَا فِيهِ، وَالَّذِي لاَ يَكَادُ يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ

(١) صراط: طريق. (٢) أشتف: أكتف.

(٣) الاتّقاء: التحفظ.



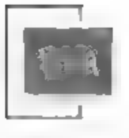
بِمَحْرَمٍ، وَلاَ أُذُنَهُ عَنِ اسْتِمَاعِ السُّوءِ، وَلاَ قَلْبَهُ عَمَّا تَهُمُّ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الإِثْمِ وَالْحِرْصِ.

قَالَ الْمَلِكُ: صَارَتْ يَدِي مِنْ إِيرَاخْتَ صِفْراً.

قَالَ إِيلاَذُ: أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ أَصْفَارٌ: النَّهْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، وَالأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَلِكٌ؛ وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَعْلٌ؛ وَالجَاهِلُ الَّذِي لاَ يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ.

قَالَ الْمَلِكُ: إِنَّكَ يَا إِيلاَذُ لَتُلَقَّى[1] الْجَوَابَ.

قَالَ إِيلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يُلَقَّوْنَ بِالْجَوَابِ: الْمَلِكُ الَّذِي يُعْطِي وَيَقْسِمُ مِنْ خَزَائِنِهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُهْدَاةُ إِلَى مَنْ تَهْوَى مِنْ ذَوِي الْحَسَبِ، وَالرَّجُلُ الْعَالِمُ الْمُوَفَّقُ لِلْخَيْرِ.





قَالَ الْمَلِكُ: أَهْلَكْتَ إِيرَاخْتَ، يَا إِيلاَذُ، بِغَيْرِ حَقٍّ. قَالَ إِيلاَذُ: ثَلاَثَةٌ هُمُ الزَّائِغُونَ[2] عَنِ الْحَقِّ: الرَّجُلُ الَّذِي يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْبِيضَ ثُمَّ يَنْفُخُ بِالكِيرِ[3] فَيُسَوِّدُهَا بِالدُّخَانِ، والقَصَّارُ الَّذِي يَلْبَسُ الْجَوْرَبَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ وَرِجْلاَهُ أَبَداً فِي الْمَاءِ، وَالَّذِي يَقْتَنِي الْفَرَسَ الْكَرِيمَ لِلرُّكُوبِ، ثُمَّ يَلْتَهِي عَنْهُ فَلاَ يَرْكَبُهُ، فَيَبْطَرُ.

قَالَ الْمَلِكُ: لَيْتَنِي أَنْظُرُ إِلَى إِيرَاخْتَ، قَبْلَ فِرَاقِ الدُّنْيا.

---

(١) تلقى: تلهمه وتوفق إليه.

(٢) الزائغون: المائلون.

(٣) الكير: الزق الذي ينفخ فيه الحداد.

بـــاب

إيلاذ وبلاذ وإيراخت

قَالَ إِيَلاذُ: الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مَا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ثَلاثَةٌ: مَنْ لاَ وَرَعَ لَهُ وَهُوَ يَرْتَجِي ثَوَابَ الأَبْرَارِ، والْبَخِيلُ الَّذِي يَلْتَمِسُ بِبُخْلِهِ أَنْ يَنالَ مَنْزِلَةَ السَّخِيِّ، وَالْفَاجِرُ الَّذِي يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَأْمُلُ أَنَّ رُوحَهُ مِنْ أَرْوَاحِ الشُّهَدَاءِ.

قَالَ الْمَلِكُ: أَنَا الَّذِي جَنَيْتُ عَلى نَفْسِي وَجَرَرْتُ الْبَلاءَ إِلَيْهَا.

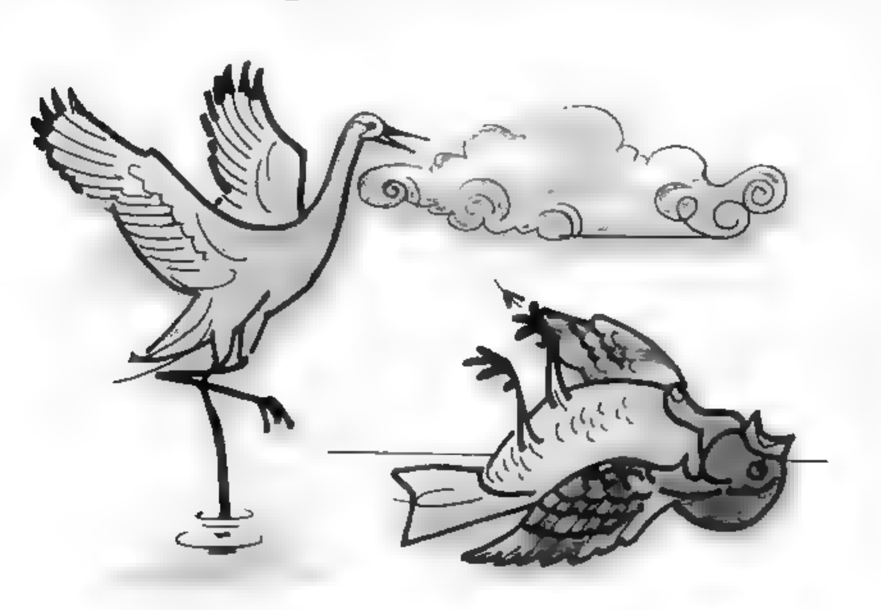
قَالَ إِيلاذُ: أُولٰئِكَ فِي النَّاسِ خَمْسَةٌ: الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلْقِتالِ وَهُوَ أَعْزَلُ، والْبَخِيلُ يَجْمَعُ مَالَهُ فِي مَنْزِلِهِ، وَلاَ أَحَدَ مَعَهُ، فَيَقْصِدُهُ اللُّصُوصُ، فَيَقْتُلُونَهُ، وَيَأْخُذُونَ مَالَهُ؛ وَالْكَبِيرُ يَخْطُبُ الصَّغِيرَةَ، والْقَبِيحُ يَخْطُبُ الْجَمِيلَةَ. والْمَرْأَةُ الَّتي تُحِبُّ وَلَدَهَا وَهُوَ شاطِرٌ عَارِمٌ[1] فَهِيَ تَسْتُرُ أُمُورَهُ، وَتُخْفِيها، ثُمَّ هُوَ يَكُونُ تَعَباً لَهَا وَوَبالاً عَلَيْهَا.



قَالَ الْمَلِكُ: قَدْ وَضَعْتُ الأَمْرَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ في قَتْلي إِيرَاخْتَ.



قَالَ إِيلاذُ: مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ ثَلاثَةٌ وَهُمْ: **الطَّائِرُ الَّذِي يَرْفَعُ رِجْلَيْهِ نَحْوَ السَّماءِ خَوْفاً مِنْ سُقُوطِهَا عَلَيْهِ؛ وَالْكُرْكِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى رِجْلٍ وَاحِدَةٍ وَلاَ يَضَعُ الثَّانِيَةَ عَلى الأَرْضِ خَوْفَ أَنْ يَخْسِفَهَا**، وَالْغَنِيُّ الْبَخِيلُ إِذَا أَكَلَ لاَ يَشْبَعُ، يَخَافُ عَلى



---

(١) عارم: شرس مؤذ.



مَالِهِ مِنَ النَّفادِ؛ كَالخَراطِينِ(١) الَّتي طَعامُها التُّرَابُ، تَقْصِدُ الإِقْلاَلَ مِنَ الأَكْلِ مِنْهُ لِئَلاَّ يَنْفَدَ وَيفْنى، وَكالْكَلْبِ الَّذِي يَلَغُ مِنَ النَّهْرِ بِلِسانِهِ، وَلاَ يَعُبُّ مِنْهُ حِذارَ أَنْ يَجِفَّ؛ وَالْخُفَّاش الَّذِي يَطِيْرُ بِاللَّيْلِ لاَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِالنَّهارِ، مَخافَةَ أَنْ يَصْطَادَهُ النَّاسُ لِحُسْنِهِ، وَهُوَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ.

قَالَ الْمَلِكُ: لَمْ أَحْزَنْ قَطُّ حُزْنِي عَلى إِيرَاخْتَ.

قَالَ إِيلاذُ: خَمْسةُ أَشْيَاءَ، إِذَا كُنَّ فِي الْمَرْأَةِ، كَانَتْ أَهْلاً أَنْ يُحْزَنَ عَلَيْهَا: إِذَا كانَتْ عَفِيفَةً، كَرِيمَةَ الحَسَبِ والنَّسَبِ، عاقِلَةً، جَمِيلَةً، مُوَافِقَةً لِزَوْجِها، مُحِبَّةً لَهُ.

قَالَ الْمَلِكُ: لَيْسَ تَأْخُذُني سِنَةٌ(٢) وَلاَ نَوْمٌ مِنْ حُزني عَلى إِيرَاخْتَ.

قَالَ إِيلاذُ: اثْنَانِ لاَ يَهْجَعانِ وَلاَ يَسْتَرِيحانِ: الْكَثِيْرُ الْمَالِ وَلَيْسَ لَهُ خَازِنٌ وَلاَ أَمِينٌ؛ وَالشَّدِيدُ الْمَرَضِ وَلاَ طَبِيبَ لَهُ.



ثم إنَّ إيلاذَ لمَّا رأى الملِكَ قدِ اشتَدَّ به الأمرُ سَكَتَ. فقالَ له الملِكُ: ما بالُكَ يا إيلاذُ سَكَتَّ؟

قالَ: أيُّها الملِكُ، إني قد تَجاسَرتُ عليكَ فيما امتَحَنتُكَ به إرادَةَ أن أعلَمَ ما آلَ إليه أمرُكَ في إيراختَ. وأراني قد تَجاوَزتُ طَوري(٣) في ذلك وبانَ لي من حِلمِكَ وعَقلِكَ ما أذهَلَني إذ لم يَبدُ منك معَ ما اجتَرَأتُ به عليكَ شيءٌ مِنَ الغَضَبِ ولا تَغَيَّرتَ عن حالِكَ. وها أنا شاكِرٌ لعَفوِكَ وصَفحِكَ وتَجاوُزِكَ عنّي وإن لم يكن ذلك منّي إلاَّ

---

(١) الخراطين: هي ديدان حمر طوال توجد في الأرض الندية، لا مفرد لها.

(٢) سنة: نعاس. (٣) طوري: قدري.

نُصحاً للملِكِ واستِطلاعاً لأمرِهِ، فاعفُ عنّي إن شِئتَ أو فعاقِبني بما تَراهُ، فإنَّ إيراختَ بالحياةِ.

فلمَّا سَمِعَ الملِكُ ذلك اشتَدَّ فَرَحُهُ وقالَ: يا إيلاذُ إنَّما مَنَعَني مِنَ الغَضَبِ ما أعرِفُ من نَصيحَتِكَ وصِدقِ حَديثِكَ. وكنتُ أرجو لمعرفَتي بعِلمِكَ أن لا تكونَ قد قَتَلتَ إيراختَ. فإنَّها وإن تكن أتَت عَظيماً وأغلَظَتْ[1] في القَولِ لم تأتِهِ عَداوَةً ولا طَلَبَ مَضَرَّةٍ ولكنَّها فَعَلَت ذلك لغَيرَةٍ. وقد كانَ يَنبَغي لي أن أُعرِضَ عن ذلك وأحتَمِلَهُ. ولكنَّكَ يا إيلاذُ أرَدتَ أن تَختَبِرَني وتترُكَني في شَكٍّ من أمرِها. وقدِ اتَّخَذتَ عندي أفضَلَ الأيادي[2]، وأنا لك شاكِرٌ، فانطَلِقْ فَائتِني بها.







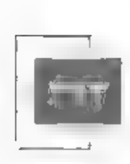
فخَرَجَ من عندِ الملِكِ فأتى إيراختَ وأمَرَها أن تَتَزَيَّنَ، ففَعَلَتْ ذلك وانطَلَقَ بها. فلمَّا دَخَلَتْ سَجَدَتْ للملِكِ ثم قامَتْ بينَ يَدَيهِ وقالت: أحمَدُ اللّهَ تَعالى ثم أحمَدُ الملِكَ الذي أحسَنَ إلَيَّ. قد أذنَبتُ الذَّنبَ العَظيمَ

(١) أغلظت: خشنت وعنفت. (٢) الأيادي: النعم.



الذي لم أكن للبَقاءِ أهلاً بعدَهُ، فوَسِعَهُ[1] حِلمُهُ وكَرَمُ طَبعِهِ ورأفتُهُ. ثم أحمَدُ إيلاذَ الذي أخَّرَ أمري وأنجاني مِنَ الهَلَكَةِ لعِلمِهِ برأفَةِ المَلِكِ وسَعَةِ حِلمِهِ وجُودِهِ وكَرَمِ جَوهَرِهِ ووفاءِ عَهدِهِ.







وقالَ المَلِكُ لإيلاذَ: ما أعظَمَ يَدَكَ[2] عندي وعند إيراختَ وعند العامَّةِ إذ قد أحيَيتَها بعدَما أمَرتُ بقتلِها. فأنتَ الذي وَهَبَها لي اليومَ فإني لم أزَلْ واثِقاً بنصيحَتِكَ وتَدبيرِكَ، وقد ازدَدتَ اليومَ عندي كرامَةً وتَعظيماً. وأنتَ مُحَكَّمٌ في مُلكي تَعمَلُ فيه بما تَرى وتَحكُمُ عليه بما تُريدُ، فقد جَعَلتُ ذلك إليكَ ووَثِقتُ بك.

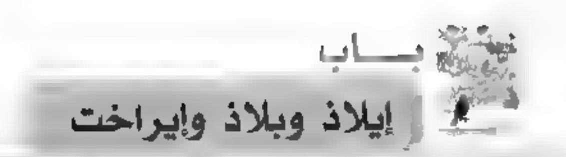
قالَ إيلاذُ: أدامَ اللّهُ لكَ أيُّها المَلِكُ المُلكَ والسُّرورَ. فلستُ بمَحمودٍ على ذلك، فإنَّما أنا عَبدُكَ. لكنَّ حاجَتي أن لا يَعجَلَ المَلِكُ في الأمرِ الجَسيمِ الذي يَندَمُ على فِعلِهِ وتكونُ عاقِبَتُهُ الغَمَّ والحُزنَ ولا سيَّمَا في مِثلِ هذه المرأةِ النَّاصِحَةِ المُشفِقَةِ[3] التي لا

---

(١) وسعه: أحاط به.

(٢) يدك: نعمتك وإحسانك.

(٣) المشفقة: الحريصة.



يوجَدُ في الأرضِ مثلُها.

فقالَ الملِكُ: بحَقٍّ قُلتَ يا إيلاذُ، وقد قَبِلتُ قَولَكَ ولستُ عامِلاً بَعدَها عَمَلاً كبيراً ولا صَغيراً فَضلاً عن مثلِ هذا الأمرِ العظيمِ الذي ما سَلِمتُ منه إلاّ بعد المُؤامَرَةِ والنَّظَرِ والتَّرَدُّدِ ومُشاوَرَةِ أهلِ المَوَدَّةِ والرأيِ.

ثم أحسَنَ الملِكُ جائِزَةَ إيلاذَ ومَكَّنَهُ من أولئك البَراهِمَةِ الذينَ أشاروا بقَتلِ أحبابِهِ فأطلَقَ فيهمُ السَّيفَ. وقَرَّت عَينُ الملِكِ وعُيونُ عُظَماءِ أهلِ مملَكَتِهِ وحَمِدوا اللّهَ وأثنَوا على كَبارِيونَ لسَعَةِ عِلمِهِ وفَضلِ حِكمَتِهِ لأنَّه بعِلمِهِ خَلَّصَ الملِكَ ووَزيرَهُ الصَّالِحَ وامرأتَهُ الصَّالِحَةَ.



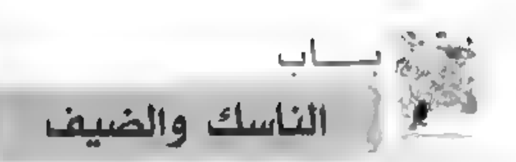






باب

الناسك والضيف



الناسك والضيف

قالَ دَبشَليمُ الملِكُ لبيْدَبا الفَيلَسوفِ: قد سَمِعتُ هذا المَثَلَ، فاضرِبْ لي مَثَلَ الذي يَدَعُ صُنعَهُ الذي يَليقُ به ويُشاكِلُهُ[1] ويَطلُبُ غيرَهُ فلا يُدرِكُهُ ويَرجعُ إلى الذي كانَ عليه فلا يَقدِرُ عليه فيَبقى حَيرانَ مُتَرَدِّداً.

قالَ الفَيلَسوفُ: زَعَموا أنَّه كانَ بأرضِ الكَرخِ ناسِكٌ عابِدٌ مُجتَهِدٌ. فنَزَلَ به ضيفٌ ذاتَ يوم، فدَعا النَّاسِكُ لضَيفِهِ بتَمرٍ ليُطرِفَهُ[2] به، فأكَلا منه جميعاً. ثم قالَ الضّيفُ: ما أحلى هذا التّمرَ وأطيَبَهُ! فليسَ هو في بلادي التي أسكُنُها، وليتَهُ كانَ فيها. ثم قالَ: أرى أن تُساعِدَني على أن آخُذَ منه ما أغرِسُهُ في أرضِنا، فإني لستُ عارِفاً بثِمارِ أرضِكُم هذه ولا بمواضِعِها.

قالَ له النَّاسِكُ: ليسَ لكَ في ذلك راحَةٌ فإنَّه يُثَقِّلُ عليك. ولعلَّ ذلك لا يُوافِقُ أرضَكُم، معَ أنَّ بلادَكُم كثيرَةُ الأثمارِ فما حاجَةٌ معَ كثرَةِ ثِمارِها إلى التَّمرِ معَ وَخامَتِهِ وقِلَّةِ مُناسَبَتِهِ للجَسَدِ؟



ثم قالَ له النَّاسِكُ: إنَّه لا يُعَدُّ سَعيداً مَن طَلَبَ ما لا يَجِدُ، وإنَّكَ سَعيدُ الجَدِّ إذا قَنِعتَ بالذي تَجِدُ وزَهِدتَ فيما لا تَجِدُ.

(١) يشاكله: يوافقه ويماثله.

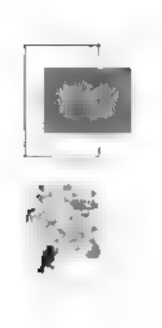
(٢) ليطرفه: ليقدمه له.



وكانَ هذا النَّاسِكُ يُحْسِنُ العِبرانِيَّةَ، فسَمِعَهُ الضَّيفُ يَتَكَلَّمُ بها مرَّةً فاستحسَنَ كلامَهُ وأعجَبَهُ فتَكَلَّفَ أن يَتَعَلَّمَهُ وعالَجَ في ذلك نفسَهُ أياماً. فقالَ النَّاسِكُ له: ما أخلَقَكَ أن تَقَعَ ممَّا تَركتَ من كلامِكَ وتَكَلَّفتَ من كلامِ العِبرانِيَّةِ في مثلِ ما وَقَعَ فيه الغُرابُ. قالَ الضَّيفُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

مثل الغراب الذي اراد ان يدرج كالحجلة (*)

قالَ النَّاسِكُ: زَعَموا أنَّ غُراباً رأى حَجَلَةً تَدرُجُ وتَمشي، فأعجَبَتهُ مِشيَتُها





(*) مضمون القصة يوجه تحذيراً للإنسان الذي يقحم نفسه في الأمور التي فوق طاقته ولا يقدر عليها حيث تكون النتيجة فقدان هيبته وصورته الحقيقية.



وطَمِعَ أن يَتَعَلَّمَها. فراضَ[1] على ذلك نفسَهُ فلم يَقدِرْ على إحكامِها وأيِسَ منها وأرادَ أن يَعودَ إلى مِشيَتِهِ التي كانَ عليها، **فإذا هو قدِ اختلَطَ مَشيُهُ وتَخَلَّعَ**[2] **فيه وصارَ أقبَحَ الطَّيرِ مَشياً.**

وإنَّما ضَرَبتُ لكَ هذا المَثَلَ لِما رأيتُ من أنَّكَ تَرَكتَ لسانكَ الذي طُبِعتَ عليه وأقبَلتَ على لسانِ العِبرانيَّةِ وهو لا يُشاكِلُكَ، وأخافُ أن تُدرِكَهُ وتَنسى لسانَكَ وترجعَ إلى أهلِكَ وأنتَ شَرُّهُم لساناً. فإنَّه قد قيلَ إنَّه يُعَدُّ جاهِلاً مَن تَكَلَّفَ مِنَ الأمورِ ما لا يُشاكِلُهُ وليسَ من عملِهِ ولم يُؤدِّبهُ عليه آباؤُهُ وأجدادُهُ من قَبلُ ولم يُعرَفْ به أحدٌ من أهلِهِ وذوي قرابتِهِ. فإنَّ العاقِلَ لا يَتَعَدّى طَورَهُ.

والوُلاةُ أيُّها الملِكُ وأربابُ الأمرِ أولى بالانتِباهِ إلى هذا الشَّأنِ ومَنعِ حُدوثِهِ بينَ الناسِ لأنَّ فيه مَضَرَّةً لهم بما يُجَرّئُ الأنفُسَ على مُنازَعتِهِمْ في منازِلِهِم ويُغريها بمُقاوَمَتِهم في أحكامِهِم لِما فيه من إطماعِ السَّفلةِ في مَراتِبِ أهلِ الطَّبَقَةِ العالِيَةِ. ومُزاحمةِ اللَّئيمِ للكريمِ، والجاهلِ للعالِمِ، والخامِلِ للنَّسيبِ، والدَّنيءِ للشَّريفِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا يُفضي إلى تَشَوُّشِ العالمِ وفسادِ الأمورِ واختِلاطِ الطَّبَقاتِ وضَياعِ المَراتِبِ والأقدارِ. والأمورُ في ذلك كلِّهِ تَجري على مِثالٍ واحدٍ يَنتَهي إلى الأمرِ الخَطيرِ الجَسيمِ من مُزاحَمَةِ المَلِكِ على مُلكِهِ ومُضادَّتِهِ فيه.

---

(١) راض: درّب وعوّد.

(٢) تخلع: تفكّك.







باب

السائح والصائغ



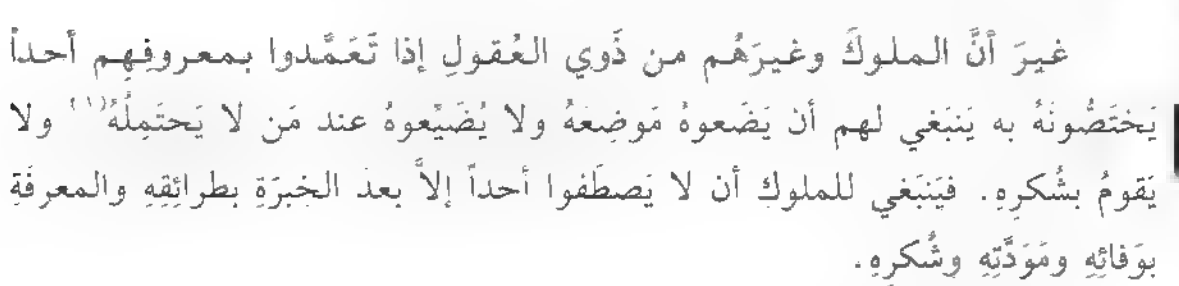
باب

السائح والصائغ

قالَ دَبشَليمُ الملِكُ لبَيْدَبا الفَيلَسوفِ: قد سَمِعتُ هذا المَثَلَ، فاضربْ لي مَثَلَ الذي يَضَعُ المَعروفَ في غيرِ مَوضِعِهِ ويَرجو الشُّكرَ عليه.

قالَ الفيلَسوفُ: أيُّها الملِكُ ليسَ أضيَعُ من جميلٍ يُصنَعُ معَ غيرِ شاكِرٍ ولا أخسَرُ من صانِعِهِ. كما أنَّه لا بَذر أنمى من بَذرِ الجميلِ في قُلوبِ الشّاكِرينَ ولا تِجارَة أربحُ من تِجارَتِهِ. ومعَ ذلك فإنَّ المَرءَ جَديرٌ أن يَصنَعَ المَعروفَ إلى كلِّ أحدٍ، فإنَّه إن ضاعَ المَعروفُ عند الناسِ لا يضيعُ عندَ اللّهِ، ولا سيَّما إلى ذوي الشُّكرِ والوفاءِ كيفَ كانت منزلتُهُم، فلعلَّهُ احتاجَ إليهم يوماً مِنَ الدّهرِ فيُكافِئوهُ عليه.





غيرَ أنَّ الملوكَ وغيرَهُم من ذَوي العُقولِ إذا تَعَمَّدوا بمعروفِهِم أحداً يَختَصُّونَهُ به يَنبَغي لهم أن يَضَعوهُ مَوضِعَهُ ولا يُضَيِّعوهُ عند مَن لا يَحتَمِلُهُ[1] ولا يَقومُ بشُكرِهِ. فيَنبَغي للملوكِ أن لا يَصطَفوا أحداً إلاَّ بعدَ الخِبرَةِ بطرائِقِهِ والمعرفَةِ بوَفائِهِ ومَوَدَّتِهِ وشُكرِهِ.





فإنَّ مَن أقدَمَ على المَشهورِ بالاستِقامَةِ والعِفَّةِ واستَرسَلَ إليه من غيرِ اختِبارٍ ولا تَجرِبَةٍ كانَ مُخاطِراً في ذلك مُشرِفاً منه على هلاكٍ وفَسادٍ. ألا تَرَى أنَّ الطَّبيبَ الرَّفيقَ العاقِلَ لا يَكتَفي في مُداواةِ المريضِ بالمُعايَنَةِ فقط؟ لكنَّه لا يُقدِمُ على عِلاجِهِ إلاَّ بعد تَعَرُّفِ أحوالِهِ والجَسِّ لعُروقِهِ ومعرفَةِ طَبيعَتِهِ وسببِ عِلَّتِهِ، فإذا عَرَفَ ذلك كلَّه أقدَمَ على مُعالَجتِهِ. ولا يَنبَغي أن

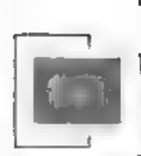
---

(١) يحتمله: يتقلده ويشكره.



يَختصَّ بذلك قريباً لقرابتِه ولا أحداً من خاصَّتِهِم لشرَفِهِ إذا كانَ غيرَ مُحتَمِلٍ للصَّنيعَةِ فإنَّه إنَّما شرُفَ بتشريفِهم إيَّاهُ. ولا أن يمنَعوا مَعروفَهُم وجميلَهُم عن بعيدٍ لبُعدِهِ أو خاملٍ لخُمولِهِ إذا كانَ عارِفاً بحَقِّ ما يُصطنَعُ إليه مُؤدِّياً لشُكرِ ما أُنعِمَ عليه.

وقد قيلَ: لا يَنبَغي لذي العَقلِ أن يَحتَقِرَ أحداً مِنَ الناسِ حتى البَهائِمَ، ولكنَّه خَليقٌ أن يَبلُوَهُم ويختَبِرَهُم ويكونَ ما يَصنَعُ إليهم على قَدْرِ ما يرى منهم، فقد يكونُ الخيرُ عند مَن يُظَنُّ به الشَّرُّ، والشَّرُّ عند مَن يُظَنُّ به الخيرُ.





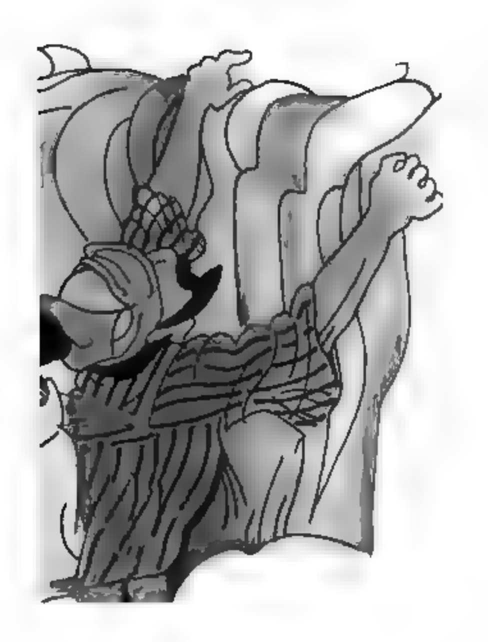


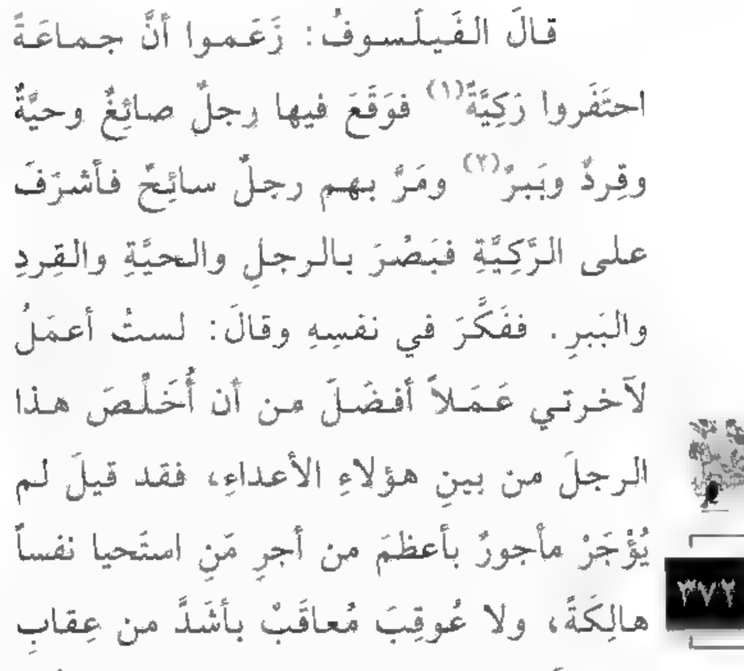
وإنَّ طَبائِعَ الخَلقِ أيُّها الملِكُ مُختَلِفَةٌ وليسَ ممَّا خَلَقَهُ اللّهُ ممَّا يُمشي على أربَعٍ أو على رِجلَينِ أو يَطيرُ بجَناحَينِ أو يَسبَحُ في الماءِ شيءٌ هو أفضَلُ مِنَ الإنسانِ. ومعَ ذلكَ فربما تَحَذَّرَ العاقِلُ مِنَ الناسِ فلم يأمَن أحداً منهم وأخَذَ ابنَ عِرسٍ فأدخَلَهُ في كُمِّهِ وأخرجَهُ مِنَ الآخَرِ، وأخَذَ الطَّيرَ الجارِحَ فوضَعَهُ على يَدِهِ فإذا صادَ شيئاً أبقى له منه نَصيباً. ومِن الناسِ البَرُّ والفاجِرُ ومن هؤلاءِ كلُّ كَفورٍ كَنودٍ[1] حتى لقد يكونُ في بَعضِ البَهائِمِ والسِّباعِ والطَّيرِ ما هو أوفى منه ذِمَّةً وأشدُّ مُحاماةً عن حُرمَةٍ وأشكَرُ للمَعروفِ وأقوَمُ به. وقد مَضى في ذلك مَثَلٌ ضَرَبَهُ بعضُ الحُكَماءِ. قالَ الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

---

(١) كنود: الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى المواهب.

مثل الحية والقرد والببر(*)





قالَ الفَيلَسوفُ: زَعَموا أنَّ جماعَةً احتَفَروا رَكِيَّةً(١) فوَقَعَ فيها رجلٌ صائغٌ وحيَّةٌ وقِردٌ وبَبرٌ(٢) ومَرَّ بهم رجلٌ سائحٌ فأشرَفَ على الرَّكِيَّةِ فبَصُرَ بالرجلِ والحيَّةِ والقِردِ والبَبرِ. ففَكَّرَ في نفسِهِ وقالَ: لستُ أعمَلُ لآخرتي عَمَلاً أفضَلَ من أن أُخَلِّصَ هذا الرجلَ من بينِ هؤلاءِ الأعداءِ، فقد قيلَ لم يُؤْجَرْ مأجورٌ بأعظَمَ من أجرِ مَنِ استَحيا نفساً هالِكَةً، ولا عُوقِبَ مُعاقَبٌ بأشَدَّ من عِقابِ مَن كَفَّ عن ذلك وهو قادِرٌ عليه ولو بمَشَقَّةٍ ممَّا خَلا ذَهابَ نفسِهِ.



فأخَذَ حَبلاً وأدلاهُ إلى البئرِ فتَعَلَّقَ به القِردُ لخِفَّتِهِ فخَرَجَ، ثم أدلاهُ ثانيةً فالتَفَّتْ به الحيَّةُ فخَرَجَت، ثم أدلاهُ ثالثةً فتَعَلَّقَ به البَبرُ فأخرَجَهُ. فشَكَرنَ له صَنيعَهُ وقلنَ له: لا تُخرِجْ هذا الرجلَ مِنَ الرَّكِيَّةِ فإنَّه ليسَ شيءٌ أقَلَّ من شُكرِ الإنسانِ. ثم قالَ له القِردُ: إنَّ منزلي في جَبَلٍ قريبٍ من مدينَةٍ يُقالُ لها نُوادَرَختُ. فقالَ له البَبرُ: أنا أيضاً في أجَمَةٍ إلى جانِبِ تلك المدينَةِ. قالتِ الحيَّةُ: وأنا في سورِ تلك

(*) يؤشر مغزى القصة إلى أن الإنسان ربما يكون أشد عداوة لأخيه الإنسان من بقية المخلوقات وأن على العاقل أن لا يصنع المعروف مع غير أهله.

(١) ركيّة: بئراً ذات ماء. (٢) ببر: أسد هندي.



المدينَةِ. فإن أنتَ مَرَرتَ بنا يَوماً مِن الدَّهرِ واحتَجتَ إلينا فصَوِّت علينا حتى نأتيكَ فنَجزِيَكَ بما أسدَيتَ إلينا مِنَ المَعروفِ.

فلم يَلتَفِتِ السَّائِحُ إلى ما ذَكَروا له من قِلَّةِ شُكرِ الإنسانِ وأدلى الحَبلَ فأخرَجَ الصَّائِغَ فسَجَدَ له وقالَ: لقد أولَيتَني[1] معروفاً، فإن مَرَرتَ يوماً مِنَ الدَّهرِ بمدينَةِ نُوادَرَختَ فاسأل عن منزلي، وأنا رجلٌ صائِغٌ واسمي فلانٌ، لعلِّي أُكافِئُكَ بما صَنَعتَ إلَيَّ مِن المعروفِ.

---

(١) أوليتني: صنعتَ إليّ.

فانطَلَقَ الصَّائغُ إلى مدينَتِهِ وانطَلَقَ السَّائحُ إلى وجهَتِهِ.



فعَرَضَ بعد ذلك أن السَّائحَ اتَّفَقت له حاجَةٌ إلى تلك المدينةِ فانطَلَقَ، فاستَقبَلَهُ القِردُ فسَجَدَ له وقَبَّلَ رِجلَيهِ واعتَذَرَ إليه وقالَ: إنَّ القُرودَ لا يَملِكونَ شيئاً، ولكن اقعُدْ حتى آتِيَكَ. وانطَلَقَ القِردُ وأتاهُ بفاكِهَةٍ طَيِّبَةٍ فوَضَعَها بين يَدَيهِ فأكَلَ منها حاجَتَهُ.





ثم إنَّ السَّائحَ انطَلَقَ حتى دَنا من بابِ المدينةِ، فاستَقبَلَهُ البَبرُ فخَرَّ له ساجِداً وقالَ له: إنَّك قد أولَيتَني مَعروفاً فاطمئِنَّ ساعةً حتى آتِيَكَ. فانطَلَقَ البَبرُ فدخَلَ في بعضِ الحيطانِ إلى بنتِ الملِكِ فقتَلَها وأخَذَ حَليَها فأتاهُ به من غيرِ أن يَعلَم السَّائحُ من أينَ هو، فقالَ في نفسِهِ: هذه البَهائِمُ قد أولَتني هذا الجَزاءَ فكيفَ لو أتَيتُ إلى الصَّائغِ فإنَّه وإن كانَ مُعسِراً[1] لا يَملِكُ شيئاً فسَيَبيعُ هذا الحَليَ فيستَوفي ثمَنَهُ فيُعطيني بعضَهُ ويأخُذُ بعضَهُ وهو أعرَفُ بثمنِهِ.

فانطَلَقَ السَّائحُ فأتى إلى الصَّائغِ، فلمَّا رآهُ رَحَّبَ به وأدخَلَهُ إلى بيتِهِ. فلمَّا بَصُرَ بالحَلي معه عرَفَهُ وكانَ هو الذي صاغَهُ لابنةِ الملِكِ. فقالَ الصَّائغُ: اطمَئِنَّ حتى آتِيَكَ بطعامٍ فلستُ أرضى لك ما في البيتِ.

ثم خَرَجَ وهو يَقولُ: قد أصَبتُ فرصَتي. أُريدُ أن أنطَلِقَ إلى الملِكِ وأدُلَّهُ

---

(١) معسراً: ضيق الحال فقيراً.



على ذلك فتَحسُنُ منزلَتي عندَهُ.

فانطَلَقَ إلى بابِ الملِكِ فأرسَلَ إليه أن الذي قَتَلَ ابنَتَكَ وأخَذَ حَليَها عندي. فأرسَلَ الملِكُ وأتى بالسَّائحِ. فلمّا نَظَرَ الحَليَ معه لم يُمهِلهُ وأمَرَ به أن يُعَذَّبَ ويُطاف به في المدينةِ ويُصلَبَ. فلمَّا فعَلوا به ذلك جَعَلَ السَّائحُ يَبكي ويَقولُ بأعلى صَوتِهِ: لو أني أطَعتُ القِردَ والحيَّةَ والبَبرَ فيما أمَرتَني به وأخبَرتني من قِلَّةِ شُكرِ الإنسانِ لم يَصِرْ أمري إلى هذا البَلاءِ. وجَعَلَ يُكَرِّرُ هذا القَولَ. فسَمِعَت مقالَتَهُ تلك الحيَّةُ فخَرَجَت من جُحرِها فعَرَفَتهُ فاشتَدَّ عليها أمرُهُ فجَعَلَتْ تَحتالُ في خلاصِهِ. **فانطَلَقَتْ حتى لَدَغَتْ ابنَ الملِكِ**، فدَعا المَلِكُ أهلَ العِلمِ فرَقَوهُ[1] ليَشفوهُ فلم يُغنوا عنه شيئاً.



ثم مَضَتِ الحيَّةُ إلى أختٍ لها مِنَ الجِنِّ فأخبَرَتها بما صَنَعَ السَّائحُ إليها مِنَ المعروفِ وما وَقَعَ فيه، فرَقَّتْ له وانطَلَقتْ إلى ابنِ الملِكِ وتَراءَت له وقالت: إنَّكَ لا تبرأُ حتى يَرقِيَكَ هذا الرجلُ الذي قد عاقَبتُموهُ ظُلماً.

---

(١) رقوه: عالجوه بعلاج الملسوع.



وانطلَقَتِ الحيَّةُ إلى السَّائِحِ فدَخلَت إليه السِّجنَ وقالت له: هذا الذي كنتُ نَهيْتُكَ عنه مِن اصطِناعِ المَعروفِ إلى هذا الإنسانِ ولم تُطِعني. وأتَتهُ بوَرَقٍ يَنفَعُ من سُمِّها وقالت له: إذا جاءُوا بك لتَرقِيَ ابنَ الملِكِ فاسقِهِ من ماءِ هذا الوَرَقِ فإنَّه يَبرأُ، وإذا سأَلَكَ الملِكُ عن حالِكَ فاصدُقهُ فإنَّك تَنجو إن شاءَ اللّهُ تَعالى. وإنَّ ابن الملِكِ أخبَرَ أباهُ أنَّه سَمِعَ قائلاً يَقولُ: إنَّك لن تبرأَ حتى يَرقِيَكَ السَّائِحُ الذي حُبِسَ ظُلماً.





فدَعا الملِكُ بالسَّائِحِ وأمَرَهُ أن يَرقيَ وَلَدَهُ فقالَ: لا أُحسِنُ الرَّقيَ ولكن أسقيهِ من ماءِ هذه الشَّجَرَةِ فيبرأ بإذنِ اللّهِ تَعالى. فسَقاهُ فَبرِىءَ الغلامُ.

ففَرِحَ الملِكُ بذلك وسَألَهُ عن قِصَّتِهِ فأخبَرَهُ، فشَكَرَهُ الملِكُ وأعطاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً وأمَرَ بالصَّائِغِ أن يُصلَبَ، فصَلَبوهُ لكَذِبِهِ وانحِرافِهِ عنِ الشُّكرِ ومُجازاتِهِ الفِعلَ الجميلَ بالقَبيحِ.

ثُمَّ قَالَ الْفَيْلَسُوفُ لِلْمَلِك: فَفِي صَنِيعِ الصَّائِغِ بِالسَّائِحِ، وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَاذِهِ إِيَّاهُ، وَشُكْرِ الْبَهَائِم لَهُ، وَتَخْلِيصِ بَعْضِهَا إِيَّاهُ، عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ، وَفِكْرَةٌ لِمَنْ تَفَكَّرَ، وَأَدَبٌ فِي وَضْعِ الْمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَالْكَرَم، قَرُبُوا أَوْ بَعُدُوا، لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ وَجَلْبِ الْخَيْرِ وَصَرْفِ الْمَكْرُوهِ.



بـاب
ابْـنِ الْمَلِـكِ وَأَصْحَابِـهِ



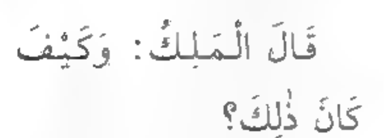
ابـن الْمَلِكِ وَأَصْحَابـه(*)

قَال دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ. فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لاَ يُصِيبُ الْخَيْرَ إِلاَّ بِعَقْلِه وَرأْيِهِ وَتَثَبُّتِهِ فِي الأُمُورِ كَمَا يَزْعُمُون، فَمَا بَالُ الرَّجُلِ الْجَاهِلِ يُصِيبُ الرِّفْعَةَ وَالْخَيْرَ، وَالرَّجُلِ الْحَكِيمِ العَاقِلِ قَدْ يُصِيبُ الْبَلاَءَ وَالضُّرَّ؟

قَالَ بَيْدَبَا: كَمَا أَنّ الإِنْسَانَ لاَ يُبْصِرُ إِلاَّ بِعَيْنَيْه وَلاَ يَسْمَعُ إِلاَّ بِأُذُنَيْهِ، كَذٰلِكَ الْعَمَلُ، إِنَّمَا هُوَ بِالْحِلْم وَالْعَقْلِ وَالتَّثَبُّتِ؛ غَيْرَ أَنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ يَغْلِبَانِ عَلَى ذٰلِكَ. وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ.



قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟



قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: **زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ اصْطَحَبُوا** فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ، أَحَدُهُمُ ابْنُ

(*) تدعو القصة إلى استخدام العلم والمعرفة التي يكتسبها الإنسان للانتفاع منها في حياته وتوجيهها في النواحي الإيجابية التي تعود بالنفع على أصدقائه وأقاربه.



مَلِكٍ وَالثَّانِي ابْنُ تَاجِرٍ وَالثَّالِثُ ابْنُ شَرِيفٍ ذُو جَمَالٍ وَالرَّابِعُ ابْنُ أَكَّارٍ[١]. وَكَانُوا جَمِيعاً مُحْتَاجِينَ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ ضَرَرٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ فِي مَوْضِعِ غُرْبَةٍ لاَ يَمْلِكُونَ إِلاَّ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ. فَبَيْنَمَا هُمْ يَمْشُونَ إِذْ فَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ وَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ رَاجِعاً إِلَى طِبَاعِهِ وَمَا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْهُ الْخَيْرُ. قَالَ ابْنُ الْمَلِكِ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا كُلَّهُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَى الإِنْسَانِ يَأْتِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ وَالصَّبْرُ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَانْتِظَارُهُمَا أَفْضَلُ الأُمُورِ. وَقَالَ ابْنُ التَّاجِرِ: الْعَقْلُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ ابْنُ الشَّرِيفِ: الْجَمَالُ أَفْضَلُ مِمَّا ذَكَرْتُمْ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ الأَكَّارِ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الاِجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ.





فَلَمَّا قَرُبُوا مِن مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا مَطْرُونُ، جَلَسُوا فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا يَتَشَاوَرُونَ، فَقَالُوا لاِبْنِ الأَكَّارِ: انْطَلِقْ فَاكْتَسِبْ لَنَا بِاجْتِهَادِكَ طَعَاماً لِيَوْمِنَا هٰذَا. فَانْطَلَقَ ابْنُ الأَكَّارِ، وَسَأَلَ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ الإِنْسَانُ يَكْتَسِبُ فِيهِ طَعَامَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ فَعَرَّفُوهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ شَيْءٌ أَعَزَّ مِنَ الْحَطَبِ؛ وَكَانَ الْحَطَبُ مِنْهَا عَلَى فَرْسَخٍ. فَانْطَلَقَ ابْنُ الأَكَّارِ فَاحْتَطَبَ طُنًّا مِنَ الْحَطَبِ، وَأَتَى بِهِ الْمَدِينَةَ فَبَاعَهُ

---

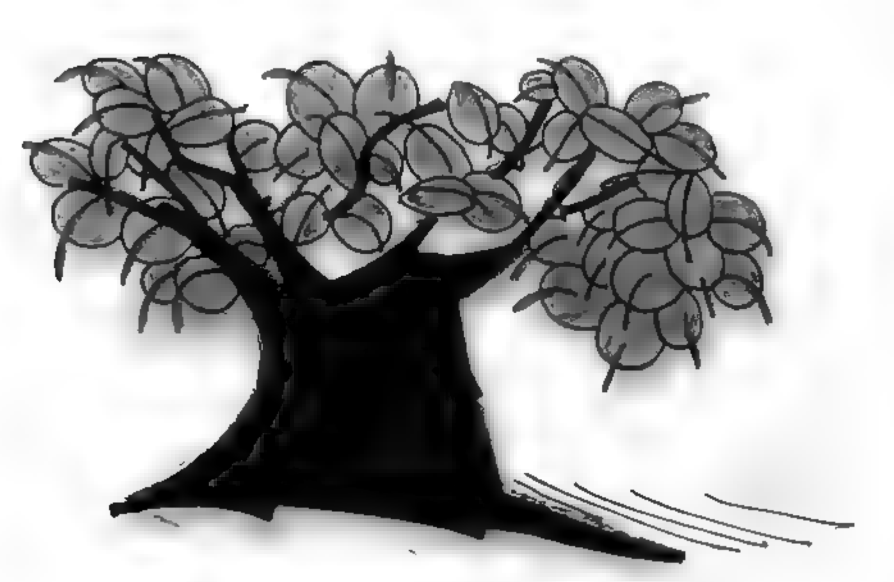
(١) أكّار: حرّاث أي زرّاع.

بِدِرْهَمٍ وَاشْتَرَى بِهِ طَعَاماً وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ: عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ إِذَا أَجْهَدَ فِيهِ الرَّجُلُ بَدَنَهُ قِيمَتُهُ دِرْهَمٌ. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِالطَّعَامِ فَأَكَلُوا.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلَّذِي قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَعزّ مِنَ الْجَمَالِ أَنْ تَكُونَ نَوْبَتُهُ. فَانْطَلَقَ ابْنُ الشَّرِيفِ لِيَأْتِيَ الْمَدِينَةَ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ: أَنَا لَسْتُ أُحْسِنُ عَمَلاً فَمَا يُدْخِلُنِي الْمَدِينَةَ؟ ثُمَّ اسْتَحْيَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ طَعَامٍ، وَهَمَّ بِمُفَارَقَتِهِمْ.



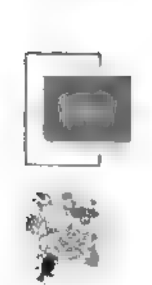
فَانْطَلَقَ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ فَنَامَ. فَمَرَّ به رجلٌ مُصَوِّرٌ وبَصُرَ به فأعجَبَهُ حُسنُهُ أن يُصَوِّرَهُ ويَكتَسِبَ من صورَتِهِ إذا عَمِلَ منها صُوَراً وباعَها. فأيقَظَهُ



وذَهَبَ به إلى منزلِهِ ليُصَوِّرَهُ. فلمَّا كانَ المساءُ أجازَهُ بمئةِ درهَمٍ. فخَرَجَ وكَتَبَ على بابِ المدينةِ: جمالُ يومٍ واحدٍ يُساوي مئةَ درهَمٍ. وأتى بالدَّراهِمِ إلى أصحابِهِ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، قَالُوا لابْنِ التَّاجِرِ: انْطَلِقْ أَنْتَ فَاطْلُبْ لَنَا بِعَقْلِكَ وَتِجَارَتِكَ لِيَوْمِنَا هٰذَا شَيْئاً. فَانْطَلَقَ ابْنُ التَّاجر **فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بَصُرَ بِسَفِينَةٍ مِنْ سُفُنِ الْبَحْرِ كَثِيرَةِ الْمَتَاعِ** قَدْ قَدِمَتْ إِلَى السَّاحِلِ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ التُّجَّارِ



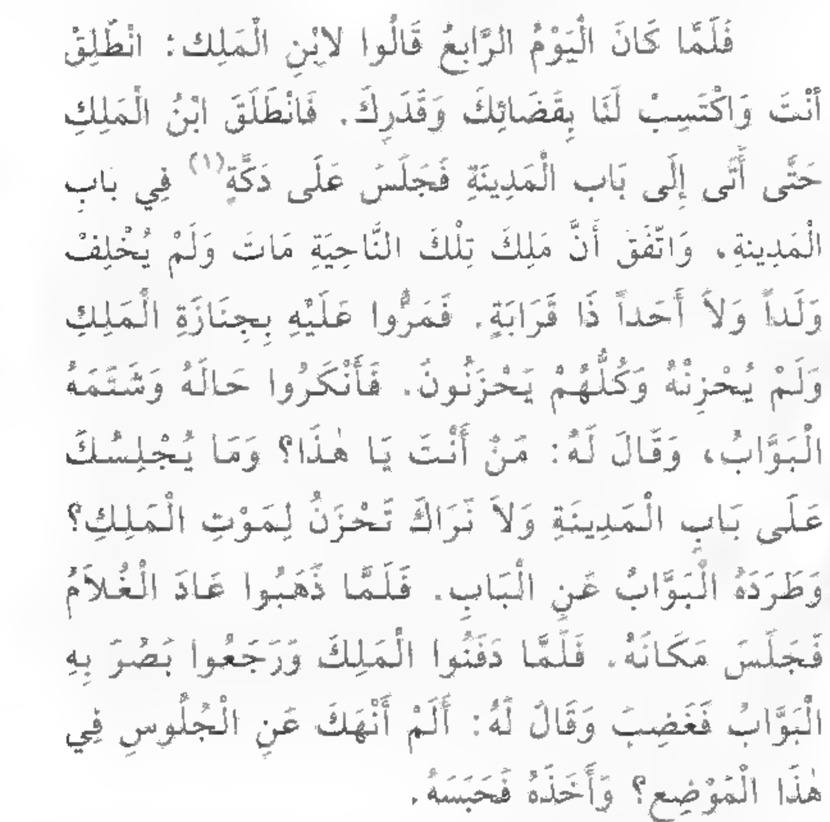


يُرِيدُونَ أَنْ يَبْتَاعُوا مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ. فَجَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَرْكَبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبعض: ٱرْجِعُوا يَوْمَنَا هٰذَا لاَ نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئاً حَتَّى يَكْسُدَ الْمَتَاعُ عَلَيْهِمْ فَيُرْخِصُوهُ عَلَيْنَا، مَعَ أَنَّنَا مُحْتَاجُونَ إِلَيْه، وَسَيَرْخُصُ. فَخَالَفَ الطَّرِيقَ وَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَرْكَبِ، فَابْتَاعَ مِنْهُمْ مَا فِيهِ بِمائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ نَسِيئَةً[1] وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى. فَلَمَّا سَمِعَ التُّجَّارُ ذٰلِكَ خَافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذٰلِكَ الْمَتَاعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَأَرْبَحُوهُ عَلَى مَا اشْتَرَاهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَأَحَالَ

(١) نسيئة: تأخيراً أي إلى وقت آخر.

عَلَيْهِمْ أَصْحَابَ الْمَرْكَبِ بِالْبَاقِي. وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ وكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ: عَقْلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَمَنُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ.





فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ قَالُوا لابْنِ الْمَلِكِ: انْطَلِقْ أَنْتَ وَاكْتَسِبْ لَنَا بِقَضَائِكَ وَقَدَرِكَ. فَانْطَلَقَ ابْنُ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ فَجَلَسَ عَلَى دَكَّةٍ[1] فِي بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاتَّفَقَ أَنَّ مَلِكَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ مَاتَ وَلَمْ يُخْلِفْ وَلَداً وَلاَ أَحَداً ذَا قَرَابَةٍ. فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجِنَازَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُحْزِنْهُ وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُونَ. فَأَنْكَرُوا حَالَهُ وَشَتَمَهُ الْبَوَّابُ، وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ يَا هٰذَا؟ وَمَا يُجْلِسُكَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ وَلاَ نَرَاكَ تَحْزَنُ لِمَوْتِ الْمَلِكِ؟ وَطَرَدَهُ الْبَوَّابُ عَنِ الْبَابِ. فَلَمَّا ذَهَبُوا عَادَ الْغُلاَمُ فَجَلَسَ مَكَانَهُ. فَلَمَّا دَفَنُوا الْمَلِكَ وَرَجَعُوا بَصُرَ بِهِ الْبَوَّابُ فَغَضِبَ وَقَالَ لَهُ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنِ الْجُلُوسِ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ؟ وَأَخَذَهُ فَحَبَسَهُ.



فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَنْ يُمَلِّكُونَهُ عَلَيْهِمْ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَطَاوَلُ يَنْظُرُ صَاحِبَهُ، وَيَخْتَلِفُونَ بَيْنَهُمْ. فَقَالَ لَهُمُ الْبَوَّابُ: إِنِّي رَأَيْتُ أَمْسِ غُلاَماً جَالِساً عَلَى الْبَابِ، وَلَمْ أَرَهُ يَحْزَنُ لِحُزْنِنَا، فَكَلَّمْتُهُ فَلَمْ يُجِبْنِي، فَطَرَدْتُهُ عَنِ الْبَابِ. فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جَالِساً، فَأَدْخَلْتُهُ السِّجْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ عَيْناً. فَبَعَثَتْ أَشْرَافُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِلَى الْغُلاَمِ فَجَاؤُوا بِهِ، وَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ، وَمَا أَقْدَمَهُ إِلَى مَدِينَتِهِمْ. فَقَالَ: أَنَا ابْنُ مَلِكِ فُوِيرَانَ، وَإِنَّهُ لَمَّا مَاتَ وَالِدِي غَلَبَنِي أَخِي عَلَى

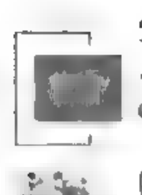
(١) دكّة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.



الْمُلْكِ، فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذَراً عَلَى نَفْسِي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هٰذِهِ الْغَايَةِ.

فَلَمَّا ذَكَرَ الْغُلاَمُ مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ عَرَفَهُ مَنْ كَانَ يَغْشَى أَرْض أَبِيهِ مِنْهُمْ، وَأَثْنَوْا عَلَى أَبِيهِ خَيْراً. ثُمَّ إِنَّ الأَشْرَافَ اخْتَارُوا الْغُلاَمَ أَنْ يُمَلِّكُوهُ عَلَيْهِمْ وَرَضُوا بِهِ. وَكَانَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ سُنَّةٌ إِذَا مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكاً حَمَلُوهُ عَلَى فِيلٍ أَبْيَضَ، وَطَافُوا بِهِ حَوالَي الْمَدِينَةِ. فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذٰلِكَ مَرَّ بِبَابِ الْمَدِينَةِ فَرَأَى الْكِتَابَةَ عَلَى الْبَابِ فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ: إِنَّ الاجْتِهَادَ وَالْجَمَالَ وَالْعَقْلَ وَمَا أَصَابَ الرَّجُلُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَر إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مِنَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَدِ ازْدَدْتُ فِي ذٰلِكَ اعْتِبَاراً بِمَا سَاقَ اللّٰهُ إِلَيَّ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ.





ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ **فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ وَأَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ مَعَهُمْ فَأَحْضَرَهُمْ**، فَأَشْرَكَ صَاحِبَ الْعَقْلِ مَعَ الْوُزَرَاءِ، وَضَمَّ صَاحِبَ الاجْتِهَادِ إِلَى أَصْحَابِ الزَّرْعِ. وَأَمَرَ لِصَاحِبِ الْجَمَالِ بِمَالٍ كَثِيرٍ ثُمَّ نَفَاهُ كَيْ لاَ يُفْتَتَنَ بِهِ. ثُمَّ جَمَعَ عُلَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: أَمَّا أَصْحَابِي فَقَدْ تَيَقَّنُوا أَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ؛ وَإِنَّمَا أُحِبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذٰلِكَ وَتَسْتَيْقِنُوهُ؛ فَإِنَّ الَّذِي مَنَحَنِي اللَّهُ وَهَيَّأَهُ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بِجَمَالٍ وَلاَ عَقْلٍ وَلاَ اجْتِهَادٍ. وَمَا كُنْتُ أَرْجُو إِذْ طَرَدَنِي أَخِي أَنْ يُصِيبَنِي مَا يُعَيِّشُنِي مِنَ الْقُوتِ فَضْلاً عَنْ أَنْ أُصِيبَ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةَ؛ وَمَا كُنْتُ أُؤَمِّلُ أَنْ أَكُونَ بِهَا، لأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي هٰذِهِ الأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي حُسْناً وَجَمَالاً، وَأَشَدُّ اجْتِهَاداً وَأَسَدُّ رَأْياً، فَسَاقَنِي الْقَضَاءُ إِلَى أَنِ اعْتَزَزْتُ بِقَدَرٍ مِنَ الله.



وَكَانَ فِي ذٰلِكَ الْجَمْعِ شَيْخٌ فَنَهَضَ حَتَّى اسْتَوَى قَائِماً، وَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلاَمٍ كَامِلٍ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ، وَإِنَّ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذٰلِكَ وُفُورُ عَقْلِكَ وَحُسْنُ ظَنِّكَ؛ وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنَا فِيكَ وَرَجَاءَنَا لَكَ. وَقَدْ عَرَفْنَا مَا ذَكَرْتَ، وَصَدَّقْنَاكَ فِيمَا وَصَفْتَ. وَالَّذِي سَاقَ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالْكَرَامَةِ كُنْتَ أَهْلاً لَهُ، لِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ. وَإِنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رَأْياً وَعَقْلاً. وَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا إِذْ وَفَّقَكَ لَنَا عِنْدَ مَوْتِ مَلِكِنَا وَكَرَّمَنا بِكَ.



السائح[*]



ثُمَّ قَامَ شَيْخٌ آخَرُ سَائِحٌ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ وَأَنَا غُلامٌ، قَبْلَ أَنْ أَكُونَ سَائِحاً، رَجُلاً مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ. فَلَمَّا بَدَا لِي رَفْضُ الدُّنْيَا فَارَقْتُ ذَٰلِكَ الرَّجُلَ، وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي مِنْ أُجْرَتِي دِينَارَيْنِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَأَسْتَبْقِيَ الآخَرَ؛ فَأَتَيْتُ السُّوقَ، فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِينَ زَوْجَ هُدْهُدٍ[1]، فَسَاوَمْتُهُ فِيهِمَا فَأَبَى الصَّيَّادُ أَنْ يَبِيعَهُمَا إِلاَّ بِدِينَارَيْنِ، فَاجْتَهَدْتُ أَنْ يَبِيعَنِيهِمَا بِدِينَارٍ وَاحِدٍ فَأَبَى. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَشْتَرِي أَحَدَهُمَا وَأَتْرُكُ الآخَرَ. ثُمَّ فَكَّرْتُ وَقُلْتُ لَعَلَّهُمَا يَكونَانِ زَوْجَيْنِ ذَكَراً وَأُنْثَى فَأُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، فَأَدْرَكَتْنِي لَهُمَا رَحْمَةٌ فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَابْتَعْتُهُمَا بِدِينَارَيْنِ وَأَشْفَقْتُ إِنْ أَرْسَلْتُهُمَا فِي أَرْضٍ عَامِرَةٍ أَنْ يُصَادَا، وَلاَ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَطِيرَا مِمَّا لَقِيَا مِنَ الْجُوعِ وَالْهُزَالِ، وَلَمْ آمَنْ عَلَيْهِمَا الآفَاتِ.





فَانْطَلَقْتُ بِهِمَا إِلَى مَكَانٍ كَثِيرِ الْمَرْعَى وَالأَشْجَارِ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ وَالْعُمْرَانِ،

(*) تؤكد القصة في مضمونها على أن جزاء الإحسان وعمل الخير سيكون بمثله حتماً.

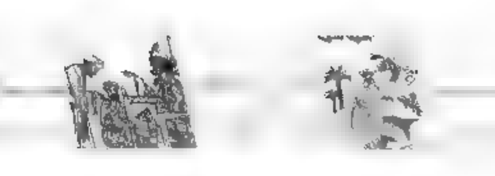
(١) هدهد: طائر ذو خطوط وألوان كثيرة.

فَأَرْسَلْتُهُمَا؛ **فَطَارَا وَوَقَعَا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ.** فَلَمَّا صَارَا فِي أَعْلاَهَا شَكَرَا لِي. وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُولُ لِلآخَرِ: لَقَدْ خَلَّصَنَا هٰذَا السَّائِحُ مِنَ الْبَلاَءِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، وَاسْتَنْقَذَنَا وَنَجَّانَا مِنَ الْهَلَكَةِ. وَإِنَّا لَخَلِيقَانِ أَنْ نُكَافِئَهُ بِفِعْلِهِ. وَإِنَّ فِي أَصْلِ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ جَرَّةً مَمْلُوءَةً دَنَانِيرَ. أَفَلاَ نَدُلُّهُ عَلَيْهَا فَيَأْخُذَهَا؟ فَقُلْتُ لَهُمَا: كَيْفَ تَدُلاَّنِنِي عَلَى كَنْزٍ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ وَأَنْتُمَا لَمْ تُبْصِرَا الشَّبَكَةَ؟ فَقَالاَ: إِنَّ الْقَضَاءَ إِذَا نَزَلَ صَرَفَ الْعُيُونَ عَنْ مَوْضِعِ الشَّيْءِ وَغَشَّى الْبَصَرَ. وَإِنَّمَا صَرَفَ الْقَضَاءُ أَعْيُنَنَا عَنِ الشَّرَكِ وَلَمْ يَصْرِفْهَا عَنْ هٰذَا الْكَنْزِ. فَاحْتَفَرْتُ وَاسْتَخْرَجْتُ الْبَرْنِيَّةَ[1] وَهِيَ مَمْلُوءَةٌ دَنَانِيرَ، فَدَعَوْتُ لَهُمَا بِالْعَافِيَةِ، وَقُلْتُ لَهُمَا: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي عَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَعْلَمَا، وَأَنْتُمَا تَطِيرَانِ فِي السَّمَاءِ، وَأُخْبِرْتُمَا بِمَا تَحْتَ الأَرْضِ. فَقَالاَ لِي: أَيُّهَا الْعَاقِلُ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ؟ وَأَنَا أُخْبِرُ الْمَلِكَ بِذٰلِكَ الَّذِي رَأَيْتُهُ، فَإِنْ أَمَرَ الْمَلِكُ أَتَيْتُهُ بِالْمَالِ فَأَوْدَعْتُهُ فِي خَزَائِنِهِ. فَقَالَ الْمَلِكُ: ذٰلِكَ لَكَ، وَمُوَفَّرٌ عَلَيْكَ.





(١) البرنيّة: الجرّة.



باب

الحَمَامَةِ وَالثَّعْلَبِ وَمَالِكِ الحَزِينِ



باب

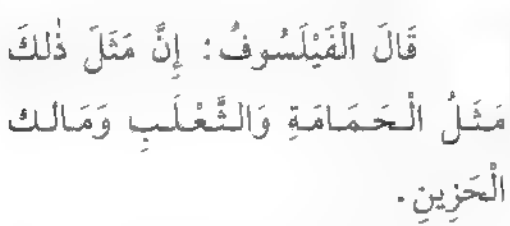
الحمامة والثعلب ومالك الحزين

الحَمَامَة وَالثَّعْلَب وَمَالِك الحَزِين(*)



وَهُوَ بَابُ مَنْ يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلاَ يَرَاهُ لِنَفْسِهِ. قَالَ الْمَلِكُ لِلْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلاً فِي شَأْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلاَ يَرَاهُ لِنَفْسِه.



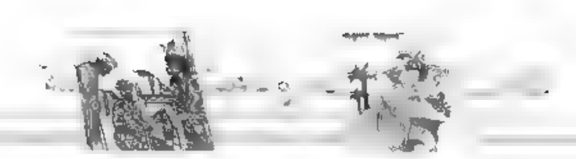


قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنَّ مَثَلَ ذٰلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ وَالثَّعْلَبِ وَمَالِك الْحَزِينِ.

قَالَ الْمَلِكُ: وَمَا مَثَلُهُنَّ؟

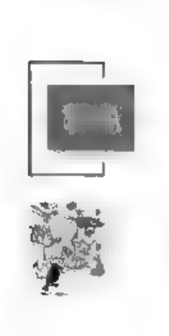
قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: **زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَةً كَانَتْ تُفْرِخُ فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ طَوِيلَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي السَّمَاءِ**، فَكَانَتِ الْحَمَامَةُ تَشْرَعُ فِي نَقْلِ الْعُشِّ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلَةِ، فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ

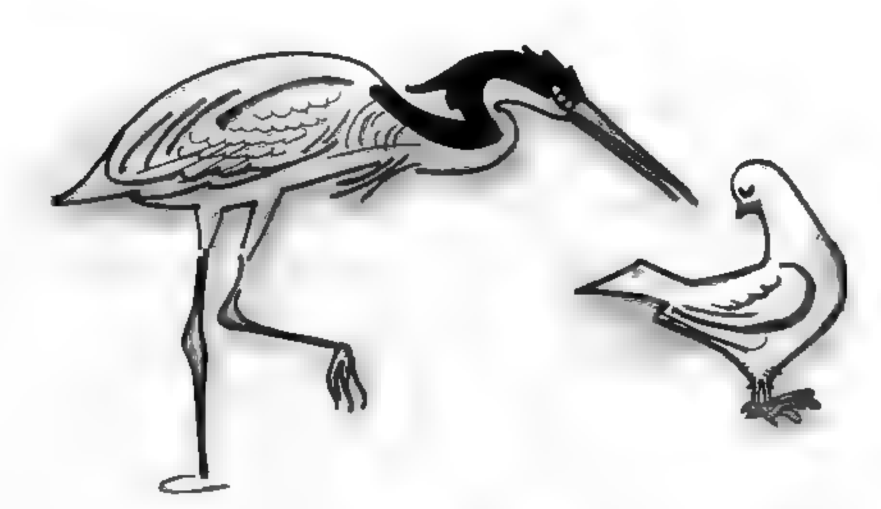
(*) يوضح معنى القصة مدى تعاسة وشقاء الطبيب الذي يداوي الناس وهو عليل إذ أن المصير المحتوم الذي كان ينتظر غيره سيتحول إليه في النهاية.



تَنْقُلَ مَا تَنْقُلُ مِنَ الْعُشِّ وَتَجْعَلَهُ تَحْتَ الْبَيْضِ إِلاَّ بَعْدَ شِدَّةٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ، لِطُولِ النَّخْلَةِ وَسُحْقِهَا؛ فَإِذَا فَرَغَتْ مِنَ النَّقْلِ بَاضَتْ ثُمَّ حَضَنَتْ بَيْضَها، فَإِذَا فَقَسَتْ وَأَدْرَكَ فِرَاخُهَا جَاءَهَا ثَعْلَبٌ قَدْ تَعَاهَدَ ذٰلِكَ مِنْهَا لِوَقْتٍ قَدْ عَلِمَهُ بِقَدْرِ مَا يَنْهَضُ فِرَاخُهَا، فَيَقِفُ بِأَصْلِ النَّخْلَةِ فَيَصِيحُ بِهَا وَيَتَوَعَّدُهَا أَنْ يَرْقَى إِلَيْهَا فَتُلْقِي إِلَيْهِ فِرَاخَهَا.

فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ أَدْرَكَ لَهَا فَرْخَانِ إِذْ أَقْبَلَ مَالِكٌ الْحَزِينُ فَوَقَعَ عَلَى النَّخْلَةِ. **فَلَمَّا رَأَى الْحَمَامَةَ كَئِيبَةً حَزِينَةً شَدِيدَةَ الْهَمِّ قَالَ لَهَا مَالِكٌ الْحَزِينُ:**





يَا حَمَامَةُ، مَا لِي أَرَاكِ كَاسِفَةَ اللَّوْنِ سَيِّئَةَ الْحَالِ؟ فَقَالَتْ لَهُ: يَا مَالِكُ الْحَزِينَ، إِنَّ ثَعْلَباً دُهِيتُ بِهِ كُلَّمَا كَانَ لِي فَرْخَانِ جَاءَنِي يُهَدِّدُنِي وَيَصِيحُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ، فَأَفْرَقُ مِنْهُ فَأَطْرَحُ إِلَيْهِ فَرْخَيَّ. قَالَ لَهَا مَالِكٌ الْحَزِينُ: إِذَا أَتَاكِ لِيَفْعَلَ مَا تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ: لاَ أُلْقِي إِلَيْكَ فَرْخَيَّ، فَارْقَ[1] إِلَيَّ وَغَرِّرْ بِنَفْسِكَ. فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ

---

(١) فارْقَ: فاصعَد.



وَأَكَلْتَ فَرْخَيَّ، طِرْتُ عَنْكَ وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي. فَلَمَّا عَلَّمَهَا مَالِكٌ الْحَزِينُ هٰذِهِ الْحِيلَةَ طَارَ فَوَقَعَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ. فَأَقْبَلَ الثَّعْلَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ، فَوَقَفَ تَحْتَهَا، ثُمَّ صَاحَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ. فَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ بِمَا عَلَّمَهَا مَالِكٌ الْحَزِينُ. فَقَالَ لَهَا الثَّعْلَبُ: أَخْبِرِينِي مَنْ عَلَّمَكِ هٰذَا؟ قَالَتْ: عَلَّمَنِي مَالِكٌ الْحَزِينُ.



فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ حَتَّى أَتَى مَالِكاً الْحَزِينَ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، فَوَجَدَهُ وَاقِفاً. فَقَالَ لَهُ الثَّعْلَبُ: يَا مَالِكُ الْحَزِينُ: إِذَا أَتَتْكَ الرِّيحُ عَنْ شِمَالِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ؟ قَالَ: أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِينِي أَوْ خَلْفِي. قَالَ: فَإِذَا أَتَتْكَ الرِّيحُ عَنْ يَمِينِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ؟ قَالَ: عَنْ شِمَالِي. قَالَ: فَإِذَا أَتَتْكَ الرِّيحُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ فَأَيْنَ تَجْعَلُهُ؟ قَالَ: أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحِي. قَالَ: وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَنَاحِكَ؟ مَا أَرَاهُ يَتَهَيَّأُ لَكَ. قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ! فَلَعَمْرِي يَا مَعْشَرَ الطَّيْرِ لَقَدْ فَضَّلَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا. إِنَّكُنَّ تَدْرِينَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ مَا نَدْرِي فِي سَنَةٍ، وَتَبْلُغْنَ مَا لَا نَبْلُغُ، وَتُدْخِلْنَ رُؤُوسَكُنَّ تَحْتَ أَجْنِحَتِكُنَّ مِنَ الْبَرْدِ وَالرِّيحِ. فَهَنِيئاً لَكُنَّ فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ. فَأَدْخَلَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِهِ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ مَكَانَهُ فَأَخَذَهُ فَهَمَزَهُ هَمْزَةً دَقَّتْ عُنُقَهُ. ثُمَّ قَالَ: يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ، تَرَى الرَّأْيَ لِلْحَمَامَةِ، وَتُعَلِّمُهَا الْحِيلَةَ لِنَفْسِهَا، وَتَعْجِزُ عَنْ ذٰلِكَ لِنَفْسِكَ، حَتَّى يَسْتَمْكِنَ مِنْكَ عَدُوُّكَ؟ ثُمَّ أَجْهَزَ عَلَيْهِ وَأَكَلَهُ.





الخاتمة

فَلَمَّا انْتَهى الْمَنْطِقُ لِلْمَلِكِ وَالْفَيْلَسُوفِ إِلى هٰذَا الْمَكَانِ سَكَتَ الْمَلِكُ. فَقَالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، عِشْتَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَلَكْتَ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ، وَأُعْطِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً، مَعَ وُفُورِ سُرُورِكَ وَقُرَّةِ عَيْنِ رَعِيَّتِكَ بِكَ، وَمُسَاعَدَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَكَ، فَإِنَّهُ قَدْ كَمُلَ فِيكَ الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ، وَزَكَا مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْقَوْلُ وَالنِّيَّةُ؛ فَلاَ يُوجَدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ، وَلاَ فِي قَوْلِكَ سَقَطٌ وَلاَ عَيْبٌ. وَقَدْ جَمَعْتَ النَّجْدَةَ[1] وَاللِّينَ، فَلاَ تُوجَدُ جَبَاناً عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلاَ ضَيِّقَ الصَّدْرِ عِنْدَمَا يَنُوبُكَ مِنَ الأَشْيَاءِ.

وَقَدْ جَمَعْتُ لَكَ فِي هٰذَا الْكِتَابِ شَمْلَ بَيَانِ الأُمُورِ، وَشَرَحْتُ لَكَ جَوَابَ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْهَا، فَأَبْلَغْتُكَ فِي ذٰلِكَ غَايَةَ نُصْحِي، وَاجْتَهَدْتُ فِيهِ بِرَأْيِي وَنَظَرِي وَمَبْلَغِ فِطْنَتِي، الْتِمَاساً لِقَضَاءِ حَقِّكَ وَحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْكَ، بِإِعْمَالِ الْفِكْرَةِ وَالْعَقْلِ. فَجَاءَ كَمَا وَصَفْتُ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الآمِرُ بِالْخَيْرِ بِأَسْعَدَ مِنَ الْمُطِيعِ لَهُ فِيهِ، وَلاَ النَّاصِحُ بِأَوْلَى بِالنَّصِيحَةِ مِنَ الْمَنْصُوحِ، وَلاَ الْمُعَلِّمُ لِلْخَيْرِ بِأَسْعَدَ مِنْ مُتَعَلِّمِهِ مِنْهُ. فَافْهَمْ ذٰلِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

---

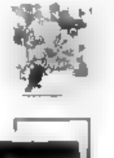
(١) النجدة: الشجاعة والشدة.



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات




كتاب كليلة ودمنة







فهرس المحتويات



